الاتجاه الإسلامى فى أدب طه حسين

تأليف الدكتور

رمضان محمد رمضان الجارية

تقديم الأستاذ الدكتور

إبراهيم عبدالرحمن محمد

أستاذ الأدب والنقد -- كلية الآداب

جامعة عين شمس



الاتجاه الإسلامى فى أدب طه حسين

تأليف الدكتور
رمضان محمد رمضان الجارية

تقديم الأستاذ الدكتور
إبراهيم عبدالرحمن محمد

الطبعة الأولى ١٩٩٥/١٩٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين﴾

صدق الله العظيم

إهـــداء

إلى روح والـدى فى جنة الخلد

عـــزاء لقلب مازالت توجعـه آلام الفــراق

تقديم
للدكتور / إبراهيم عبد الرحمن محمد

يلاحظ من يراجع الحركة النقدية الحديثة التى قامت حول أعمال طه حسين على المستويين الأكاديمى والعام ، أن نقادها يتجهون اتجاهين متباينين فى تفسير آرائه وتقويمها :

الأول : اتجاه تقليدى يستمد مناهجه ويؤسس أحكامه على أفكار نقدية تقليدية تؤمن بقداسة تراث العربية القديم من الشعر واللغة ، إيماناً يحول دون تحليله وتقويمه فى ذاته، أولاً ، وتفسيره تفسيراً جديداً فى ضوء النظريات اللغوية والنقدية الحديثة ، ثانياً !

والآخر: اتجاه انطباعى لاحظّ لأصحابه من معرفة القديم والجديد معرفة وثيقة ولكنهم يؤسسون أحكامهم على السماع دون الرجوع إلى الأصول لاستمداد هذه الأحكام منها، قانعين بترديد الشعارات والأحكام التى أثمرها الاتجاه الأول فى إسراف وتجن واضحين.

وقد كثرت هذه الكتابات بنوعيها كثرة لافتة ، وأخذت منذ أكثر من خمسين عاماً تغزو عقول القراء ونفوسهم سواء ، عن طريق الكتب المؤلفة ، أو البحوث الجامعية أو المقالات الصحفية ، أو الأحاديث الإذاعية ، حتى تحقق لها بفضل هذا الإلحاح المستمر ، أن تنزل منزلة الحقائق الثابتة فى عقول الناس وقلوبهم .

ويلاحظ قارئ هذا التراث بالإضافة إلى ذلك : أن هؤلاء النقاد يدخلون إلى موضوعهم بآراء مسبقة عن طه حسين ومواقفه الأدبية ،خلاصتها : أنه يدين لفكر أجنبى، وأنه بشكه فى صحة الشعر الجاهلى ، قد خرج على المواضعات الدينية ، وأن أفكاره النقدية التى جعلت له شهرة مسروقه من كتابات المستشرقين .

وكان لابد أن تورطهم هذه الأفكار المسبقة فى مواقف متناقضة وظالمة لا لطه حسين وحده وإنما لمصر ولدورها الحضارى وتراثها الثقافى .

وعلى الرغم من أن هذه الآراء لا قيمة لها من الناحية العلمية ، فإن لها خطراً يتمثل فى خداع القارئ العادى ، وهو ما يدعونا إلى مناقشتها وبيان دور طه حسين ومنهجه فى تطوير الحركة الأدبية فى أيامه ، والنهوض بالدراسات النقدية .

ونتساءل ، ما هو هذا المنهج الذى اختطه طه حسين لدراسة الأدب ؟

يتألف هذا المنهج من عنصرين أساسيين : أحدهما حديث وهو منهج النقد الطبيعي الذى يعد كل من سانت بيف وهيبوليت تين من رواده فى فرنسا ، ويتلخص فى اختصار شديد فى أن الأديب ثمرة البيئة بأشكالها المختلفة ، وأن الأدب ثمرة الأديب ، فسانت بيف يرى أن غاية النقد موضوعية ، وهى استيعاب ودراسة كل ما يتصل بالعمل الأدبى ذلك أن ما يثبت عنه من خلال كتاب أو مؤلف إنما هو الإنسان نفسه : حياته وفكره وروحه ونفسه ، ولذلك ، فلكى ندرس أديباً يجب أن نسعى إلى التعرف مباشرة على موهبته من خلال تربيته وثقافته وحياته وأصله .

وانطلاقاً من هذا المفهوم راح سانت بيف يصنف الأدباء وفقاً لشخصياتهم كما يكشف عنها نتاجهم ، فى أجناس بشرية كما يصنف علماء التاريخ الطبيعى الحيوانات فى فصائل متمايزة ! وفى اختصار إن سانت بيف ابتدع ما يعرف بالسير الأدبية ، أو التاريخ الطبيعى للنفوس .

أما هيبوليت تين فقد كان معنياً بالبحث عن قوانين تتحكم فى عملية الخلق الأدبى التى كانت فى رأيه تخضع لثلاثة عوامل رئيسة هى : الجنس و البيئة والعصر ، مع وجود ملكة بارزة تتحكم فى الكاتب وتوجه إنتاجه الأدبى ، ويعنى بالجنس تقسيم البشرية إلى أجناس " فصائل بشرية " لها خصائص فسيولوجية ونفسية مختلفة ، والبيئة التى يقصدها هى البيئة السياسية والاجتماعية والطبيعية ، والعصر اصطلاح يعنى التطور الذى تحقق فى الماضى ، أى تلك القوة التى توجه الأدب والمجتمعات .

والعنصر الثانى الذى يتألف منه هذا المنهج قديم ، ونقصد به آراء النقاد القدامى ، كما تتجلى خاصةً فى دراساتهم للشعراء القدامى وأحكامهم الفنية على أشعارهم ، هى آراء يكثر ورودها فى كتب النقد والأدب ، وبخاصة كتاب الأغانى الذى اعتمد عليه طه حسين اعتماداً كبيراً فى دراساته عن الشعراء القدامى .

وكان طه حسين أول من وضع هذا المنهج فى صورته المركبة من آراء سانت بيف وهيبوليت تين والنقد العربى القديم ، موضع التطبيق الصارم على الأدب القديم خاصةً والحديث عامةً ، ولا تتسع المناسبة هنا لمتابعة هذه التطبيقات المتنوعة فى كتبه المختلفة ، مكتفين ببيان أثرها فى دراسة أحدثت ضجة واسعة حول طه حسين لا يزال صداها يتردد فى كتابات الدارسين المحدثين إلى اليوم ، هى دراسته عن الشعر الجاهلى.

ولم يجرّ كتاب من الشر على صاحبه مثلما جرّ كتاب " فى الشعر الجاهلى " على طه حسين فقد التوى التقليديون بآراء المؤلف التواءً شديداً ، وفسروا أفكاره على غير وجهها الصحيح ، كما تابعهم في ذلك هذه الطائفة من الذين لا يقرأون ولا يبحثون، وانما يقنعون بما يسمعون ، ونكتفى هنا بهذين النصين القصيرين اللذين نحتزئهما احتزاءً من هذا السيل من الدراسات والتعليقات :

- يقول الدكتور محمد محمد حسين فى كتابه . الاتجاهات الوطنية فى الأدب المصرى المعاصر :

[وواضح من كلام طه حسين عن الشعر الجاهلى الذى قدمنا أمثلة منه جرأته على الدين ، وخطره على الناشئين واستخفافه بما قرره القرآن من صلة إبراهيم عليه السلام بالعرب وبناء الكعبة مما لا يرقى عنده إلى أكبر من مدينة الآساطيرالتى خلّفها اليونان والرومان ، وهو يبدأ تفكيره فى أغلب الأحيان بفرض هو محض تخيل مبنى على الحدس والظن ، ولكنه لا يلبث أن ينسى أنه لم يثبت هذا الفرض ، فيضعه موضع القضية المفروغ من صحتها والمسلّم بها ، ويمضى فى الاستنتاج] .

وقد أخذت هذه العدوانية النقدية فى كتابات " أهل السماع " صورة لا تقل عنفاً وتجهماً عن صورتها عند أصحاب التقليد ، ونختار من هذه الكتابات نصاً منشوراً فى إحدى الصحف العربية ، يقول فيه من كان يطلق على نفسه " أبو حيان " :

[بودنا أن نطوف بشئ من أدب طه حسين ، لا أراكم الله شراً ! ذلك الأدب الذى يبعث على الغثيان والقرف ، إن تمنياتنا فى هذا المقال أن نحطم أسطورة ، ونصحح خطأً شائعاً ، أصبح كالعادة لا يسهل التخلص منه ، وبصراحة نريد أن نثبت أن طه حسين ليس عميداً للأدب العربى بل هو ليس أديباً ، أما كونه غير أديب فإن الدارس له يلاحظ أنه قد درس الآداب الغربية بينما فاتته الفصاحة العربية ، وأسلوبه ضعيف ركيك ، وخياله سقيم وفكره عقيم]

إلى آخر ما قاله من كلام يتهم فيه هذا الرائد العظيم فى دينه وعقله وعلمه وهو كلام لا قيمة له من الناحية العلمية .

ونتساءل ما سبب هذه الضجة التى قامت حول كتاب طه حسين " فى الشعر الجاهلى " التى تجاوزت منهج الكتاب وموضوعه إلى شخص طه حسين وخلقه وسلوكه

ودينه ، والإجابة عن ذلك يسيرة تتلخص فى أن طه حسين قد أخلص فى تطبيق منهجه النقدى ، منهج النقد العلمى أو " الطبيعى " على الشعر الجاهلى تطبيقاً صارماً ، كانت له نتائجه الخصبة المتمثلة فى كسر حاجز القداسة للتراث الأدبى القديم عامة والجاهلى خاصة ، وإفساح الطريق أمام الدارسين المحدثين لتحليل نصوصه بمناهج جديدة ، تحليلاً ليست له من غاية سوى تفسير هذا التراث وتقويمه فى حرية عملية منتجة ، تجدد هذا التراث وتبعث الحياة فيه وتقدمه للقراء المحدثين .

ودراسة طه حسين للشعر الجاهلى نموذج لهذا النوع من البحوث الجديدة التى يتحرر أصحابها من الأحكام المسبقة ، وفى اختصار إن آراء طه حسين فى الشعر الجاهلى قد أفقدت هذا الشعر قداسته اللغوية والفنية التى ظل القدامى والمحدثون يتغنون بها منذ ظهور الإسلام ، وخلاصة ذلك أن اللغويين والمفسرين كانوا قد أحسوا بعد الفتوحات الإسلامية واختلاط العرب بغيرهم من الشعوب الأجنبية ، بأنهم فى حاجة إلى نص أجنبى برئ من العجمة التى أخذت تتسرب إلى لغة الإسلاميين ، وذلك لتفسير القرآن ، وتقعيد القواعد ، تثبيتاً للغة وحفاظاً عليها من الضياع .

وقد كان الشعر الجاهلى فى رأى هؤلاء وأولئك نصاً عربياً مضيئاً بريئاً من كل ما يشوب صفاءه اللغوى من دخيل ، ومن هذا نشأت للشعر الجاهلى قداسة غريبة فى نفوس المسلمين على الرغم من أنه تراث بيئة وثنية حرص الإسلام على إدانتها ، ورفض كل ما يؤثر عنها من أفكار وتقاليد .

كان طه حسين ضحية هذا المنهج الذى صاغه صياغة نقدية جديدة ، وجدد عن طريقة درس الآداب العربية القديمة ، أو فلننقل أنه كان ضحية شكه فى الشعر الجاهلى ، شعر البيئة الوثنية التى يرفضها الإسلام !

ومن المؤسف أن الضجة التى قامت حول آراء طه حسين فى الشعر الجاهلى قد تجاوزت مناقشة هذه الآراء مناقشة موضوعية إلى اتهامه بأخذها من دراسة المستشرق الإنجليزى المعروف " مرجوليوث " عن أصول الشعر العربى القديم ، والشك فى عقيدته !

ونحتاج للفصل فى هذه القضية على نحو يرضى ويريح إلى تسجيل بعض الملاحظات العامة عن بحث مرجوليوث وكتاب طه حسين :

الملاحظة الأولى : أن الشك فى صحة الشعر الجاهلى خاصة ، والقديم عامة قضية قديمة أكثر اللغويون ورواة الأخبار من الحديث عنها ، فى كلام لم يقف عند حد التنبيه على زيف كثير من نصوص الشعر القديم واختلاط رواياته ، وانما اتسع ليشكك فى أمانة كثير من الرواد المشهورين من أمثال : حماد وخلف وغيرهما من القدماء ولولا خشية الإطالة لنقلنا أمثلة من هذه الأقوال التى تمس أمانة رواة البصرة والكوفة على حد سواء .

ومعنى ذلك أن مرجوليوث وطه حسين وغيرهما من المحدثين لم يبتدعوا هذه القضية ، وإنما تابعوا فيها القدماء ، وتوسعوا فى دراستها على أصول منهجية حديثة .

الملاحظة الثانية : أن مرجوليوث وطه حسين ، قد صدرا عن منهج بعينة فى دراسة الشعر الجاهلى دراسة توثيقية وتقويمية ، هو منهج النقد العلمى الذى أشرنا إليه فيما مضى ، وهو منهج كان سائداً ومسيطراً فى أوائل القرن العشرين ، وهو منهج كما رأينا يفرض على الناقد أن يرى فى الأديب وما ينشئه من شعر ونثر مرآة تنعكس عليها ظروف حياته وظواهر بيئته ، وقد أخلص طه حسين كما أخلص مرجوليوث فى تطبيق هذا المنهج على الشعر الجاهلى ، ومن هنا تشابهت آراؤهما وإن لم تتطابق تماماً .

والملاحظة الأخيرة : أن مرجوليوث نشر بحثه فى مجلة الجمعية الأسيوية والإفريقية فى يولية ١٩٢٥ ، ونشر طه حسين كتابه " فى الشعر الجاهلى " بعد ذلك بشهور ، فى أوائل ١٩٢٦ ، وليس هناك من شك من أن تأليف طه حسين لهذا الكتاب ، قد مرّ ، مثل أى كتاب يؤلفه أى كاتب ، بمراحل معينة لها أهميتها فى الكشف عن طبيعة الصلة بين كتابه وبحث مرجوليوث ، فقد بدأ بتدريسه فى شكل محاضرات ظل يرددها على مسامعهم عاماً بعد عام ، حتى إذا ثبت له صحة ما انتهى إليه فى رواية هذا الشعر أذاعه على الناس فى شكل كتاب .

ولدينا فى هذا المجال شهادة قيمة أهملها سائر الدارسين الحدثين ، من الذين هاجموا طه حسين أو انتصروا له ، هى شهادة مرجوليوث نفسه ، فى عرض نقدى لكتاب طه حسين " فى الأدب الجاهلى " فى طبعته الثانية ، منشورة فى نفس المجلة التى نشر فيها بحثه ، يولية ١٩٢٦ : ٩٠٢ - ٩٠٥ ، يقول فيها :

[هذه طبعة موسعة من كتاب طه حسين فى الشعر الجاهلى الذى نشر فى العام الماضى، وكان موضوعاً لكثير من المقالات والدراسات فى الصحافة القاهرية ومن المؤكد أن طبعة الكتاب الأولى كانت قد سحبت من التداول لاحتوائها على بعض الفقرات التى يظن أن فيها مساساً بالقرآن " الكريم " ، وفكرة الكتاب مماثلة إلى حد كبير ، للفكرة التى أدرت حولها بحثى عن " أصول الشعر الجاهلى " الذى نشرته فى هذه المجلة فى الوقت نفسه تقريباً الذى ظهرت فيه طبعة الكتاب الأولى ، وبذلك توصل كل منا مستقلاً عن الآخر تماماً إلى نتائج متشابهة ،وتتلخص هذه الفكرة فى أن النصوص الشعرية التى يفترض أنها من عمل شعراء جاهلين ، مشكوك فى صحتها ، وهو ما يجعل منها نصوصاً لا يصح إتخاذها وثائق تاريخية أو لغوية .

ولقد أثبت الأستاذ القاهرى بحق أن الشكل اللغوى الذى صيغت فيه هذه الأشعار يؤكد أن لغة القرآن كانت تعم سائر أجزاء الجزيرة العربية فى الوقت الذى كانت تؤكد فيه شواهد أخرى عديدة من النقوش ، أنه كانت هناك لهجات " أو بالأحرى لغات " أخرى مستخدمة فى الجزيرة العربية .

وإذا كان طه حسين قد استطاع بمهارة فائقة أن يرصد الدوافع المختلفة لتحريف الشعر فى العصور الإسلامية ، ونسبته إلى شعراء جاهليين ، يعتبرهم هو ، بحق شعراء من صنع الخيال ، فإنه لم يكن مستعداً أن يؤكد أو ينفى الوجود الحقيقى لامرئ القيس الذى يتصدر اسمه قائمة الشعراء الجاهليين .

والقسم الأخير من هذا الكتاب قسم بناء ، فقد خصصه طه حسين للتدليل على وجود مدارس شعرية ، قرب ظهور الإسلام ، ذكر منها واحدة تبتدئ بأوس بن حجر ، فزهير ، فالحطيئة ، فكعب ، فجميل ، وتنتهى بكثير عزة ، ولكن قيمة هذه النظرية قد اهتزت إلى حد ما ، بتأكيد المؤلف أن كثيراً من الشعر المنسوب إلى هؤلاء الشعراء شعر موضوع ، وملاحظة أن القصة الوحيدة الباقية عن أوس بن حجر من صنع خيال سقيم ، وأن الرواة الذين وصل إلينا عن طريقهم خبر هذه الصلة الفنية بين شعراء هذه المدرسة ، يفصل بين أولهم وآخرهم زمن طويل ، ولذلك فإن الجزء الخاص بالشك فى الشعر الجاهلى من نظرية طه حسين لا يزال أقوى أجزاء الكتاب ، وأكثرها تأثيراً فى الدراسات الأدبية فى العالم العربى ، تلك التى اختطت بفضله طرقاً جديدة ،

ومن الحقائق الثابتة أن النقوش المقابر فى المجتمعات الجاهلية التى كانت تستخدم الخط الحميرى تؤكد لنا عدم وجود أى أثر للشعر حتى فى تلك النقوش التى يجب أن يتوقع المرء أن يجد فيها شيئاً منه ، أعنى نقوش الجنائز، كما أن المجتمعات الجاهلية التى ينسب إليها طوفان من الشعر يؤكد معرفة فنية بالكتابة ، يصفها القـرآن الكريـم بالأمية.

إن صعوبات خطيرة إذن تواجه الزعم القائل بأن هذه المجموعات الشعرية أو جزءًا منها على الأقل قد تم حفظه عن طريق الكتابة أو الرواية الشفوية ، كما أن هناك شكوكاً عميقةً تهدم النظرية القائلة بأن الصناعة الشعرية نفسها من عمل شعراء جاهليين! نحن فى ظلام دامس ، ويجب قبل أن نقرر أية حقيقة ذات أهمية أن نبدأ بتبديد تلك الشكوك المدمرة ، وهو ما أنجز منه طه حسين كثيراً ذا قيمة]

فإذا ما تركنا طه حسين ومنهجه فى دراسة الشعر القديم خاصة والحديث عامة إلى الدراسة القيمة التى حصل بها مؤلفهـا **الدكتـور رمضان محمد الجاريـة** علـى الدكتوراه : " **الاتجاه الإسلامى فى أدب طـه حسـين** " ألفيناهـا تجـرى علـى نفـس الدرب ، بمعنى أن الباحث قد حدد لهـا منـذ البدايـة غايـة بعينهـا ، هـى رصـد العنـاصر الإسلامية فى كتابات طه حسين ، رداً على هذه المقولات التى أخذت منذ أن أصدر طه حسين كتابه " فى الشعر الجاهلى " تنبث فى كتابات " أهل السماع ، وأنصار التقليـد " وتسيطر على عقولهم سيطرة أنزلتها منزلة الحقائق الثابتة !

وقد دخل الباحث إلى دراسة موضوعه من خلال تصنيف تراث طه حسـين فـى ثلاث مجموعـات لكـل مجموعـة منهـا طابعهـا التأليفى الخـاص : **الأولـى** ، مجموعـة الأعمال الابداعية، ويحددها فى ثلاثة أنواع من الكتابات : القصص الاجتماعية التى أخذ طه حسين موضوعاتها من الحياة العامة والخاصـة علـى أيامـه ، مثـل : دعـاء الكـروان ، أديب ، أحلام شهرزاد ، شجرة البؤس ....إلخ ، والقصص الدينية التـى استخلصها من السيرة النبوية وأخيراً سيرته الذاتية المعروفة باسم " الأيام "

والمجموعة الثانية : دراسات طه حسين التاريخية ، ويراها تنحصر فى ثلاثة أنمـاط مـن التآليف : كتاباته التاريخية عن عصر الخلفاء الراشدين وفلسفة ابن خلدون الاجتماعيـة ،

وأزمة الثقافة المصرية الحديثة والبحث عن مستقبل جديد لها ، وتأكيده لدور التعليم في بناء القومية الإسلامية والوطنية .

وقد أطال الوقوف أمام المجموعة الثالثة من مؤلفات طه حسين ، ونعني بها دراساته الأدبية ، على نحو ما تتمثل في مشكلة الشعر الجاهلي ، ودراساته حول شعراء العصور الإسلامية من الجاهلية إلى العصر الحديث ، كما تتمثل فيما يسميه الباحث " الحوار الأدبي " ويريد بها الكتابات المتبادلة بين طه حسين والنقاد الآخرين خاصة عباس العقاد وعبد الرحمن شكري ، ومصطفى صادق الرافعي ....!

وقد أتبع الباحث في دراسته منهجاً يتألف من وصف الأعمال الأدبية وتلخيص عناصرها الأساسية ، ثم رصد الظواهر الإسلامية التي تتخلل هذه المعاني والأفكار وردها إلى أصولها الدينية ، في حيدة صارمة كانت تؤدّي في بعض الأحيان إلى خفاء آرائه الخاصة ، وهو يرى أن العناصر الإسلامية في قصص طه حسين " تكمن أساساً في الدعوة إلى الخلق الكريم ، ونبذ كل رذيلة تسئ للإنسان ومجتمعه " على نحو ما تتجلى في قصة " دعاء الكروان " كما تتجلى قصة " أديب " : " في إدانة النفاق الاجتماعي وبيان آثاره في حياة الإنسان والمجتمع إذ تورث الذل والاستكانة وعدم الإحساس بالمسئولية "

ويراها في قصة " شهرزاد " تتمثل في المقابلة بين الاستبداد والتعطش للدماء وإشباع الغرائز ، وبين الحكمة التي تنتصر على غريزة الشر وتقوم بترويضها ! ويراها في " شجرة البؤس " دعوة إلى " مواجهة البدع والشعوذة ، وكشف النقاب عن تلك المعتقدات الخاطئة التي رسخت في أذهان بعض الناس " .

وعلى هذا النحو نستطيع أن نمضي مع الباحث في دراسته لنجده هنا وهناك في فصول الرسالة المختلفة ، معنياً بتأكيد تلك الحقيقة ، حقيقة صدور طه حسين في قصصه ودراساته التاريخية والأدبية عن منهج إسلامي دقيق ، ومعتقدات دينية صحيحة .

ولعل في دراسته لمنهج طه حسين في كتاب " الشعر الجاهلي " وتفسيره لآرائه وتقويمه لها ، ما يؤكد هذه الحقيقة ، فطه حسين يؤثر أن نتخذ من القرآن الكريم وثيقة سياسية واجتماعية ودينية ولغوية تعرض علينا صورة للعصر الجاهلي صحيحة ودقيقة ، كما يرفض بطريقة علمية ما يذهب إليه المستشرقون عامةً ، من شك في

القرآن والسيرة النبوية ، متخذاً من " كلام " المستشرق " كليمان هوار " شاهداً على هذا التعصب الأعمى ضد الإسلام فيقول من كلام طويل (فى الشعر الجاهلى : ٧٩ وما بعدها) :

[الغريب من أمر المستشرقين فى هذا الموضوع وأمثاله أنهم يشكون فى صحة السيرة نفسها ، ويتجاوز بعضهم الشك إلى الجحود ، فلا يرون فى السيرة مصدراً تاريخياً صحيحاً ، وإنما هى عندهم طائفة من الأخبار والأحاديث تحتاج إلى التحقيق والبحث العلمى الدقيق ، ليمتاز صحيحها من منتحلها ، هم يقفون هذا الموقف العلمى من السيرة ويغلون فى هذا الموقف ، ولكنهم يقفون من أمية بن أبى الصَّلت وشعره موقف المستيقن المطمئن ، مع أن أخبار أمية ليست أدنى من الصدق ولا أبلغ فى الصحة من أخبار السيرة ، وما كان شعر أمية بن أبى الصلت إلا شعراً كغيره من الشعر لا يستطيع أن ينهض للقرآن ، وما كان علم أمية بن أبى الصلت بأمور الدين إلا كعلم أحبار اليهود ورهبان النصارى ، وقد ثبت النبى لأولئك وهؤلاء واستطاع أن يغلبهم على عقول العرب بالحجة مرة وبالسيف أخرى ، وأمر النبى مع أمية بن الصلت كأمره مع هؤلاء الشعراء الكثيرين الذين هجوه وناهضوه وألبوا عليه ، ونحن نعتقد أن هذا الشعر الذى يضاف إلى أمية بن أبى الصلت وإلى غيره من المتحنفين الذين عاصروا النبى أو جاءوا قبله إنما انتحل انتحالاً ليثبتوا ما قدمنا أن للإسلام قدمة وسابقة فى الجزيرة العربية]

وبعد ، فلا يسعنى فى ختام هذه التقدمة القصيرة إلا أن أعبر عن سعادتى بالإشراف على هذه الرسالة وقناعتى بما توصل إليه الباحث من نتائج تجلو هذا الاتجاه الإسلامى فى تراث طه حسين القصصى والتاريخى والأدبى ، وترد عن عقيدته غوائل المتقوّلين والمتشككين ، وتسهم فى إحياء ذكراه وتفسير أفكاره .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

كان طه حسين ومايزال علامة مضيئة فى تاريخ الأدب العربى الحديث ، وربما لم يحظ كاتب أو أديب آخر بمثل ماحظى به طه حسين من اهتمام المتخصصين فى الأدب العربى ودراستهم لنتاجه فى الأدب والنقد.

وعلى الرغم من تعدد إسهاماته فى مجالات مختلفة مثل التاريخ والتربية ، فإن إضافاته وإسهاماته المتميزة فى مجال الدراسات الأدبية هى التى جعلته يستحق لقب عميد الأدب العربى.

وكان التراث العربى الإسلامى من أهم العوامل التى عملت فى تكوين فكر طه حسين ، ولم يكن فى استطاعته التباعد عن صلته الوطيدة بالإسلام ، فظهر كتابه "على هامش السيرة " الذى عرض فيه لفترتى ماقبل الرسالة وبعدها ، وكتاب "الشيخان" الذى تناول فيه حياة أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وكتاب "الفتنة الكبرى" بجزأيها "عثمان" "على وبنوه" الذى يفسر فيه أحداث الفتنة الدامية فى تاريخ الأمة الإسلامية.

ويبرز طه حسين من بين رواد النهضة العربية بخصوبته ، وتنوع إسهاماته وعمق تأثيره ، وكذلك باختلاف الرأى حوله مابين الإعجاب المفرط به ، أو شدة الخصومة له ، وكلا الموقفين يتناقض مع المنهج العلمى الذى يجب أن يحكم رؤيتنا لتراثنا ، وواقعنا ، ومستقبلنا.

ولقد كان اختيارى لدراسة الاتجاه الإسلامى عند طه حسين لإلقاء المزيد من الأضواء حول هذا الجانب الذى أشعر أنه مايزال فى حاجة إلى العديد من الأبحاث والدراسات.

وقد جاء هذا البحث فى مقدمة وثلاثة أبواب ، تناولت فى المقدمة حياته وثقافته واتجاهاته الفكرية وأعماله ، والأنشطة التى شارك فيها والتى أثرت فى وجدانه ، ودفعته لتناول العديد من القضايا الاجتماعية.

والباب الأول ينقسم إلى ثلاثة فصول ، لإبراز العناصر الإسلامية فى أعماله القصصية والسيرة النبوية الشريفة وسيرته الذاتية.

أما الباب الثانى فيختص بالاتجاه الإسلامى فى أعماله التاريخية وينقسم إلى ثلاثة فصول ، ويتم خلاله الكشف عن الرؤية الإسلامية فى مؤلفاته التاريخية عن الخلفاء الراشدين ، ثم تقويمه لفلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، يعقبها التفسير الإسلامى لأزمة الثقافة المصرية.

وفى الباب الثالث يتم معالجة الاتجاه الإسلامى فى أعماله الأدبية وينقسم إلى ثلاثة فصول ، يتم دراسة مشكلة الشعر الجاهلى ، ثم رؤيته للعناصر الإسلامية فى الشعر الإسلامى ، يتبعها عرض للحوار الأدبى الذى شارك فيه طه حسين وفى نهاية البحث الخاتمة التى تضمنت ما انتهى إليه البحث مشفوعة ببيان المصادر والمراجع التى استند إليها الباحث.

المؤلف

د . رمضان محمد الجاربة

طنطا فى ١٩٩٥/٧/١٦ .

تمهيد

١ - طه حسين حياته و شعره
٢ - مصادر ثقافته و اتجاهاته الشعرية
٣ - أعماله

١- طه حسين... حياته وثقافته

عاش طه حسين حياة حافلة بالعطاء الذى تمثل فى كتبه ومقالاته ومحاضراته ومعاركه الفكرية والأدبية التى كان يثيرها لتجدد الحياة الأدبية والفكرية كلما أوشك ان يلم بها الركود أو يصيبها الخمود والجمود.

والتمعن فى حياته وطبيعة فكره وثقافته مدخل ضرورى لتفسير التطور والأحداث التى ساهمت فى ذلك النتاج الفكرى وتكوين هذه الشخصية.

ولد طه حسين فى ١٤ نوفمبر ١٨٨٩م فى عزبة الكيلو التى تقع على بعد كيلو متر واحد من مركز مغاغه التابع لمحافظة المنيا ، فى أسرة ريفية بسيطة متدينة إذ كان أبوه الشيخ حسين على سلامة يعمل موظفا بشركة السكر وله ثلاثة عشر ولدا من زوجته "وكان طه السابع فى الترتيب بين هؤلاء الأخوة"[١]

وكانت نشأته فى بيئة تغلب عليها مظاهر الفقر والجهل والسذاجة سببا فى إهمال علاجه عندما أصيب بمرض الرمد ، إذ لم يجد الرعاية والعلاج الصحيح من الأسرة فى بادئ الأمر ، ثم عولج علاجا بدائيا ذهب بعينه " إذ كان ذلك العلاج بمعرفة الحلاق ، فأدى ذلك لإصابته بالعمى[٢]

وحمل معه علته منذ عام ١٨٩٥م ، تلك التى ساهمت مع عوامل أخرى متعددة فى رسم منهاج حياته وشخصيته ، حيث يحدثنا فى الجزء الأول من الأيام حديثا يؤكد ما لهذه الحادثة من تأثير حيث يقول: "كان جالسا إلى العشاء بين أخواته وأبيه وكانت أمه كعادتها تشرف على حفلة الطعام ترشد الخادم وترشد أخواته اللائى كن يشاركن الخادم فى القيام بما يحتاج إليه الطاعمون وكان يأكل كما يأكل الناس ولكن لأمر ما خطر له خاطر غريب ، ما الذى يقع لو أنه أخذ اللقمة بكلتا يديه ، بدل أن يأخذها كعادته بيد واحدة ؟ وما الذى يمنعه من هذه التجربة ؟

لاشئ وإذن فقد أخذ اللقمة بكلتا يديه وغمسها فى الطبق المشترك ثم رفعها إلى فمه ، فأما أخوته فأغرقوا فى الضحك ، وأما أمه فأجهشت بالبكاء ، وأما أبوه فقال فى صوت

---

(١) عبد الرحمن بدوى ، إلى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين ص ٩

(٢) طه حسين ، الأيام ح ١ ط ١٩٤٩ القاهرة دار المعارف ١٩٧٢ ص ١٢٠

هادئ حزين ، ماهكذا تؤخذ اللقمة يابنى ، وأما هو فلم يعرف كيف قضى ليلته [٣]

كما أثرت هذه الحادثة على نفسيته ، إذ جعلته يقلل من تناول الطعام أو الشراب حتى انتهى به الأمر أن يصاب بداء فى المعدة كان سببه تكلفه فى أخذ نفسه بالشدة كما تحفظ فى ألوان اللعب مع أترابه فى القرية ، حتى لايتعرض لضحك الآخرين أو إشفاقهم عليه ، فكان يشاركهم اللعب بعقله لا بيده.

"ولعل انصرافه عن اللعب والعبث حبب إلى نفسه أمورا أخرى هى الاستماع إلى القصص والأحاديث ، فكان يهرب من ألوان اللعب التى كانت تحرجه إلى سماع إنشاد الشاعر أو أحاديث الرجال إلى أبيه أو النساء إلى أمه ، وتلك أمور أغلب الظن كانت لها كبير الأثر فى تحويل مجرى حياته من شيخ معمم ربما كان مصيره قراءة القرآن على القبور إلى عميد للأدب العربي [٤]

ومع هذه العاهه المبكرة ، يظهر نبوغ الصبى ، فيلحقه والده بكتاب القرية ليحفظ القرآن الكريم وهو فى التاسعة من عمره ويكون ذلك فى عام ١٨٩٨م.

وانعكست مظاهر القرية المصرية على نفسية طه ، خاصة عندما يسمع شاعر الربابة الذى يقص على أهل القرية القصص الشعبى مثل سيرة عنترة وسيرة سيف بن ذى يزن وأخبار الزناتيين والهلاليين وغيرهم.

كما لمس فىالقرية احترام الصغير للكبير ، وإجلال الجميع للعلماء والمشايخ ، فالعلماء "يغدون ويروحون فى جلال ومهابة ، ويقولون فيستمع لهم الناس مع شئ من الإكبار مؤثر جذاب [٥] وتجلت عند طه روح النقد منذ صغره ، إذ أخذ ينقد كتاب القرية والعريف ، ووجد لذته فى مجالس العلماء ، تلك التى كانت تضم كاتب المحكمة الشرعية ، وإمام المسجد وبعض المهتمين بالعلم ، وقد أفاد من هذه المجالس وما كان يدور فيها من قضايا اجتماعيـــــة ودينية ، وكان طه "يختلف بين هؤلاء العلماء جميعا ، ويأخذ عنهم جميعا ، حتى اجتمع له من ذلك مقدار ضخم مختلف مضطرب متناقض" [٦]

---

(٣) طه حسين ، الأيام جزء ١ ص ١٠ (٤) سامح كريم ، طه حسين حياته وأعماله ملحق مجلة الإذعة والتليفزيون ص ٦

(٥) طه حسين ، الأيام جزء ١ ص ٨٦ (٦) نفسه ص ٨٦ ، ٨٧

كما حفظت ذاكرته الكثير من الأوراد والأدعية والأغاني وأناشيد الصوفية التي كان أهل القرية يرددونها في الأذكار.

وفي عام ١٩٠٢ يغادر طه قريته إلى القاهرة برفقة أخيه الأكبر "أحمد" ليتلقى العلم في الأزهر الشريف ، وكان لهذه المرحلة تأثيرها البالغ في شخصيته حيث أكسبته القدرة على التحمل وعلمته العناد ونمت لديه حب الاستطلاع وعودته الجرأة والانطلاق في إبداء الرأي بلا تحفظ.

وكان متشوقا إلى الأزهر ، متلهفا على مايسمعه من أخيه أحمد وزملائه عن العلوم الأزهرية ، علاوة على شغفه بالتمعن في العلوم ، وطمعه في أن يحقق لنفسه مكانة اجتماعية تكسبه احترام الأسرة وأهل القرية ، وتعوضه عن آفته التي مني بها.

وانتسب طه إلى قسم المبتدئين الذي استمر ثلاث سنوات "وسمع آخر درسين ألقاهما الشيخ محمد عبده في الأزهر في غضون شتاء ١٩٠٥" (٧).

ومع بداية عهده بالأزهر تثور في نفسه خواطر لاذعة حزينة ، فأحد الممتحنين يدعوه بهذه الجملة التي وقعت من أذنه ومن قلبه أسوأ وقع "أقبل يا أعمى" ، ولم يكن يتعود على سماع مثل هذه الألفاظ من قبل ، فمعاملة أهله تتميز بالرفق وحسن المعاملة ، وعلى الرغم من نجاحه خرج ساخطا محتقرا لامتحانهم

ويحضر دروس المتوسطين في الفقه والنحو في الفترة مابين ١٩٠٥، ١٩٠٧م ، ثم مع المتقدمين من ١٩٠٧م إلى نهاية المدة التي قضاها بالأزهر ، حيث تعلم على مجموعة من كبار مشاهير علماء الأزهر في تلك الحقبة في مختلف العلوم التي كانت تدرس.

وكان أبرز أساتذته في الأزهر وأشدهم تأثيرا فيه هو الشيخ سيد المرصفي ، الذي غرس في نفس طه حب الأدب من خلال شرح كتاب "الكامل" للمبرد وكتاب

---

(٧) عبد الرحمن بدوى ، إلى طه حسين في عيد ميلاده اسبعين ص ٩

"الحماسة " لأبى تمام ، ، وكتاب "المفصل" للزمخشرى ولم تكن دروس هذا الشيخ من المقررات الرسمية للأزهر ، وإنما كان الأدب أحد الموضوعات الجديدة التى قدمها محمد عبده فيما قدم إلى الأزهريين (٨)

وفى الأزهر تعرض طه حسين لبعض المضايقات مما جعله يتبرم من الأزهر وشيوخه ، وتسبب ذلك فى طرده لمدة قصيرة ، انتهت بعد أن توسط أحمد لطفى السيد لدى شيخ الأزهر ، ومع ذلك فقد اتسعت الخلافات والمشادات بينه وبين الكثير من شيوخ الأزهر وفى عام ١٩١٢م تقدم طه حسين لامتحان العالمية فى الأزهر ، ومع أنه على مايقول هو كان مستعدا للامتحان ، فقد تعمدت اللجنة إسقاطه بناء على توجيه من شيخ الأزهر. (٩)

وكان طه حسين يستاء من جملة "أقبل يا أعمى" ويضيق صدره حنقا كلما تذكرها ، كما أنه ، ضاق بالفراغ الملئ بالسأم ، ولم يشعر بالندم على انقطاع صلته بالأزهر ، أو عن بعض الكتابات التى أساء فيها إلى رجال الأزهر ، ومنها قوله :(١٠)

رعى الله المشايخ إذ توافوا ... إلى سا فواى فى يوم الخميس

وإذ شهدوا كؤوس الخمر صرفا ... تدور بها السقاة علي الجلوس

رئيس المسلمين عداك ذم ... ألا لله درك من رئيس

وقد شجعه على الإقدام فى الهجاء والسخرية من رجال الأزهر أستاذه سيد المرصفى الذى تميز بالقسوة فى نقدهم ، والشيخ عبد العزيز جاويش الذى "كان يحبب العنف إلى الفتى ويرغبه فيه ويزين فى قلبه الجهر بخصومة الشيوخ والنعى عليهم فى غير تحفظ ولا احتياط ، فهو كان يرى أنهم آفة هذا الوطن يحولون بينه وبين التقدم بما كانوا

---

(٨) د. حمدى السكوت ، د . مارسدن جونز ، أعلام الأدب المعاصر فى مصر ج١ ص ٥

(٩) نفسه ص ٨ (١٠) طه حسين ، مذكرات طه حسين دار الأدب بيروت ص٢٢

يلجون فيه من المحافظة ويعينون عليه الظالمين بممالأتهم للخديوى ومصانعتهم للانجليز " (١١).

وازداد تبرم طه بالأزهر خاصة بعد أن عرف طريقه إلى دور الصحف فى ذلك الوقت وتوثقت صلته باثنين من كبار الموجهين للرأى العام فى تلك الفترة ، الأول أحمد لطفى السيد رئيس تحرير الجريدة والذى توسط بينه وبين شيخ الأزهر ، والثانى هو عبد العزيز جاويش رئيس تحرير جريدة العلم ، وكان لكل منهما شأن فى حياته بعد ذلك.

ولعل كتاباته فى صحيفة العلم كانت السبب فى توجيه الهجوم المستمر على المشايخ شعرا ونثرا وعودته الجرأة على مشايخه والنيل منهم مما أدى به إلى عدم حصوله على العالمية وأدت إلى خروجه من الأزهر بصفة نهائية.

كما أن إيمانه بمبدأ النقد منذ صغره ، والذى ازداد بعد متابعته لكل ما كان يدور بين أخيه "أحمد" وزملائه ، قد ساهم فى المضى فى النقد وتوجيه اللوم دون اكتراث بما سوف يترتب على ذلك "وطبيعى أنه لم يكن ليستطيع أن يتابع هذا الحوار الذى يجرى بين هؤلاء الرفاق فى مسائل الأصول والفقه والبلاغة وما إليها ، ولكنه استطاع - بلا سبب - يدرك أن الطابع العام له ، على النحو الذى أراه - فى الأيام وأدرك منه أن ليست هناك مسألة تمتنع عن المناقشة ولا رأى يكبر على النقد ، مهما يكن لصاحبه جلالة قدر وعظيم منزلة (١٢) .

وبدأ طه حسين مرحلة جديدة من مراحل حياته ، ليريح نفسه من هذا السأم الذى ملأ عليه حياته كلها وأخذ عليه نفسه من جميع جوانبها ، حياة مطردة متشابهة لايجد فيها جديد منذ أن يبدأ العام الدراسى إلى أن ينقضى. (١٣)

وقد بدأت هذه المرحلة مع إنشاء الجامعة المصرية القديمة فى سنة ١٩٠٨م حيث أسرع طه بالالتحاق بها ، وراقت له الدراسة فى الجامعة ، فالأساتذه أكثر اتصالا بالكلية ، وهناك التقى بمشاهير الرجال فى ميادين مختلفة من العلم والأدب والفن

---

(١١) نفسه ص ٣٦ (١٢) محمد طه الحاجرى ، المرحلة الزهرية فى حياة طه حسين ، مجلة الثقافة القاهرية سنة ١٩٧٥ ص ١٦

(١٣) طه حسين ، مذكرات طه حسين دار الآداب بيروت ص ٨٧

والفلسفة ، حيث تلقى دروس الحضارة الإسلامية على يد شيخ العروبة أحمد زكى باشا ، ودروس الحضارة المصرية القديمة على أحمد كمال باشا وأدبيات الجغرافيا والتاريخ على يد العالم "أجناتسيو جويدي" ، ودروس فى اللغات السامية والسريانية وأصول العبرية والحبشية على "ليثمان" ، وجاء "تلينو" وظل فى الفترة من ١٩١٠ حتى ١٩١٣م ، فدرس على يديه تاريخ الفلك عند العرب ثم تاريخ الأدب العربى ، كذلك درس لـه "سانتلانا" الفلسفة الإسلامية ، والشيخ محمد الخضرى التاريخ الإسلامى ، وحفنى ناصف الأدب والشعر ، واسماعيل رأفت مادة الجغرافيا.

وعندما أعلنت الجامعة عن بعثتين إلى فرنسا ، أعد طه حسين رسالة الدكتوراه وعنوانها: "ذكرى أبى العلاء" وتمت مناقشته فى ١٥ مايو ١٩١٤م وكانت أول رسالة جامعية تمنحها الجامعة المصرية ، وسافر فى نوفمبر ١٩١٤م إلى فرنسا للحصول على الدكتوراه فى التاريخ ، وفى مونبيليه اهتم بدراسة اللغة الفرنسية والاستماع لدروس فى علم النفس على الأستاذ "فوكو" ، ودروس فى الأدب الفرنسى وفى التاريخ الحديث على أساتذة آخرين وقد تعرضت الجامعة المصرية للإفلاس وأمرت باستدعاء المبعوثين ، وعاد طه حسين إلى مصر بعد عام ليمكث بها ثلاثة أشهر ، تعرض خلالها لمقارنة بين دروس الآداب الفرنسية ودرس الأدب للشيخ المهدى ، مما دفع الشيخ المهدى إلى المطالبة بإلغاء بعثة هذا الطالب المتمرد ويتم تسوية هذه المشكلة فى ديسمبر ١٩١٥م ليعود إلى باريس فى ديسمبر ١٩١٥.

- وفى باريس تردد على أربعة معاهد ، السربون والكوليج دى فرانس ومكتبة القديسة "جنيفياف" والمعهد الرابع هو البيت.

وفى المكتبة تعرف على "سوزان" ووافقت الجامعة على زواجه منها الذى تم فى ٩ أغسطس ١٩١٧ ويتناول طه حسين حياة ابن خلدون الفيلسوف العربى السياسية والفلسفية والاجتماعية ويحصل على الدكتوراه فى يناير ١٩١٨م من السربون ، ويحصل على دبلوم فى الدراسات العليا فى يونيو ١٩١٩ بدرجة ممتاز.

ويتم اختيار طه حسين للتدريس فى الجامعة كأستاذ للتاريخ القديم والرومانى ، ويسهم فى مجال الإشراف على الصفحة الأدبية بجريدة السياسة عام ١٩٢٢ ويثير العديد من القضايا الأدبية التى أثارت المعارك الأدبية ، وتثار قضية

كتاب "الإسلام وأصول الحكم" للشيخ على عبد الرازق فيقف طه حسين مؤيدا له ، ومع تحول الجامعة المصرية إلى الدولة فى عام ١٩٢٥ يعين الدكتور طه حسين أستاذا لتاريخ الأدب العربى في كلية الآداب ، ثم تثار قضية كتابه "فى الشعر الجاهلي" داخل البرلمان المصرى والنيابة التى تأمر بسحب الكتاب من الأسواق.

وفى عام ١٩٢٨ تم تعيين طه حسين عميدا لكلية الآداب ليوم واحد ، حيث كان وزير المعارف وفديا وطه حسين على صلة وثيقة بالأحرار الدستوريين ، ثم يعاد تعيينه مرة أخرى ويطلب منه أن يستقيل من الجامعة لتولى رئاسة جريدة الشعب فرفض.

وفى عام ١٩٣٢ طلبت الحكومة منه منح الدكتوراه الفخرية من كلية الآداب لبعض السياسيين فرفض حفاظا على مكانة الجامعة وقدسيتها فيأمر صدقى باشا رئيس الوزراء بنقله إلى وزارة المعارف ليحال إلى التقاعد فى نهاية مارس ١٩٣٢ حيث لزم منزله واقتصر نشاطه على الكتابه بجريدة السياسة وجريدة كوكب الشرق ثم يعود إلى هيئة التدريس الجامعى فى نهاية عام ١٩٣٤.

وفى عام ١٩٣٦ أعيد تعيينه عميدا لكلية الآداب واستمر فى منصبه حتى مايو ١٩٣٩ وانتدب مراقبا للثقافة فى وزارة المعارف حتى فبراير ١٩٤٢.

ومع تولى الوفد الحكم عين طه حسين مستشارا فنيا لوزارة المعارف ثم انتدب مديرا لجامعة الاسكندرية وأحيل إلى التقاعد فى ١٦ أكتوبر ١٩٤٤ وظل بعيدا عن الحكومة حتى عام ١٩٥٠م حين اختير وزيرا للمعارف فى آخر وزارة للوفد ثم تركها في يناير ١٩٥٢ ، لينصرف بعد ذلك إلى الإنتاج الفكرى والأدبى بعد أن أرسى سياسة مجانية التعليم التى كفلت لكل مواطن حقه فى التعليم كحقه فى الماء والهواء.

وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م شارك فى عدة مؤتمرات لليونسكو ، وفى عام ١٩٥٣ شارك فى مؤتمر السلام ، ثم انتدبته الجامعة العربية ١٩٥٥م ليرأس اللجنة الثقافية التى عقدت فى جدة ، حيث أتيح له زيارة المسجد الحرام.

وساهم بجهوده فى مجمع اللغة العربية منذ عام ١٩٤٠ وتولى عام ١٩٦٠ رئاسة تحرير جريدة الجمهورية وأصبح نائبا لرئيس مجمع اللغة العربية أحمد لطفى السيد ثم انتخب رئيسا له ١٩٦٣م.

وقد منح جائزة الدولة ١٩٤٥م عن كتابه على هامش السيرة وجائزة الآداب عام ١٩٤٩م ، ثم كان أول من منح جائزة الدولة التقديرية فى الآداب ١٩٥٨م ، وقلادة النيل من الدرجة الأولى فى عام ١٩٦٥ م.

وخارج مصر منح وسام "ليجون دونير" من فرنسا ، والدكتوراه الفخرية من جامعات كثيرة من بينها اكسفورد ومدريد وليون ومونبيليه وروما ، وأهدته هيئة الأمم المتحدة جائزة حقوق الإنسان حيث تلقاها قبل وفاته بيوم واحد فى ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣م.

وقد حول منزله إلى متحف وأطلق اسمه على الشارع الذى كان يعيش فيه ، وعلى شارع آخر فى الزمالك ، اعترافا بفضله وما بذله من جهد فى سبيل العلم والفكر والثقافة.

٢- مصادر ثقافته واتجاهاته الفكرية

من المهم أن نعرف منابع ثقافة الأديب والروافد التى غذتها ، وذلك حتى نعرف لون هذه الثقافة ومكوناتها لنتمثل أثرها فى آدابه وتراثه الفكرى ، وعملية الإبداع الأدبى ترتبط عند الأديب ببعض المؤثرات التى تنشأ مصاحبة له فى مراحل حياته المختلفة ، وتظل عنصرا أساسيا فى تكوينه تمنحه قوة الدفع ، وتوجه مسار حياته وأعماله متفاعلة مع غيرها من عوامل الثقافة والمؤثرات الاجتماعية ، وقد تداخلت عناصر متعددة في تكوينه الثقافي واتجاهاته الفكرية منها:

- النشأة الريفية الهادئة والتربية المستقيمة والرعاية الشاملة فى وسط هذه الأسرة الكبيرة المتدينة التى لم تبخل عليه بالرعاية بالقدر الذى أتيح لها من الإمكانات ، ويعد الدين الإسلامى من أهم العناصر الثقافية فى مقومات الشخصية المصرية وتراثها الاجتماعي ، يسجم ذلك مع سلوكيات الأفراد وتعاملهم ، والمصريون كما يذكر هيرودت "يخافون الخالق أكثر من أى شعب آخر ، فالخير والشر والفضيلة والرذيلة ، وصلة الفرد بالمجتمع وصلته بالأسرة. تخضع جميعا لناموس الدين وجميع مظاهر الحضارة المصرية متأثرة بالدين . [١٤]

(١٤) د. حسين فوزى النجار ، لطفى السيد، الشخصية المصرية القاهرة ١٩٦٣ ص٣٤، ٣٥

ونشأة طه حسين فى القرية المصرية أثرت فى وجدانه ، خاصة بما تتميز به من حفاظ على الطابع الدينى فى تربية الأبناء والعادات والتقاليد وهكذا "بقى الدين من مقومات الوطنية المصرية ، ضروريا ضرورة العلم ، لتستقيم الحياة الإنسانية (١٥) .

- دور كتاب القرية والعريف وحفظه للقرآن الكريم وهو لايتجاوز التاسعة من عمره ، فقد ظهر أثر هذه العوامل فى أسلوبه وتعبيره ومحاوراته وجدله وربما نقده لبعض التصرفات التى يراها غير مستقيمة وحضوره مجالس العلم التى كان يشهدها إمام المسجد وكاتب المحكمة الشرعية ومفتش الزراعة ، وبعض المشايخ من أبناء القرية والقرى المجاورة ، وكانت "لأهل الريف شيوخهم وشبابهم وصبيانهم ونساؤهم عقلية خاصة فيها سذاجة وتصوف وغفلة ، وكان أكبر الأثر فى تكوين هذه العقلية لأهل الطريق" (١٦)

وفى هذه البيئة الأولى ، كان للشخصيات التى اتصل بها طه حسين تأثيرها بحسب مدى صلته بها وأثر كل شخصية عليه ، وهذه البيئة تحدد لنا المكونات الثقافية الأولى التى استمع إليها إلى جانب الأدب الشعبى والأوراد والقرآن الكريم منها القدوة الصالحة المتمثلة فى والديه ، حيث استلهم منهما الحزم والطموح والصمود فى مواجهة الهموم والمحن ، "والمعروف أن طبيعة الحياة فى مثل هذه الأسر الكبيرة العدد المتداخلة العلاقات الاجتماعية ، أن ينشأ أطفال الأسرة على نوع من القدرة على الدفاع عن النفس وعمل ماترضى عنه الأم ، مما قد لايتوفر لأبناء الأسر الصغيرة بسيطة العلاقات ، ولعل فى هذه النشأة مايفسر اتجاه طه حسين من بعد فى صحافته ومقالاته إلى النزال ، والعنف فيه فى كثير من الأحيان ، على النحو الذى يبين من مقالة النزالى على الصعيدين الأدبى والسياسي" (١٧)

---

(١٥) محمد سيد كيلانى ، طه حسين الشاعر الكاتب ، دار القوميه للطباعة ص ١٦٣ ، ١٦٤

(١٦) طه حسين ، الأيام ج ١ ص ٩٣ ، ٩٤ .

(١٧) د. عبد العزيز شرف ، طه حسين وزوال المجتمع التقليدى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ ص١٨

تميزه بقوة الإرادة والتصميم إزاء المعاناة نتيجة العاهة التى أثرت فى نفسه والعديد من ألوان الشدة التى تحملها فى حياته الأولى ، الأمر الذى ييسر بوضوح فهمه الواعى لدوره فى الصحافة المصرية والفكر المصرى الحديث إذ كان "من أول أمره طلعة لايحفل بما يلقى من الأمر فى سبيل أن يستكشف مالا يعلم ، وكان ذلك يكلفه كثيرا من الألم والعناء" [18].

ولقد صحبه منذ الصبا حبه الشديد إلى المعرفة ، الذى لايطفئه اكتساب العلم وإنما يزيده قوة وشدة والتهابا ، وفى ذلك يقول طه حسين: "فأنا لا أحصل نصيبا من المعرفة إلا أغرانى بأن أحصل شيئا آخر أبعد منه مدى وأشد عمقا وأكبر الظن أن هذه الآفة التى ألمت بى فى أول الصبا هى التى أذكت فى نفسى هذه الجذوة ، فهى قد صرفتنى عن كثير مما يشغل المبصرين وحرمت على ألوانا من جدهم ولعبهم ، ويسرتنى فيما خلقت له من الدرس والتحصيل أنفق فيها من القوة والجهد والنشاط والفراغ ما ينفقه غيرى فيما يضطربون فيه ، وما يختلف عليهم من ألوان الحياة وخطوبها.[19]

كما ظهرت سمة الصبر واحتمال المكروه بسبب طريقة الدرس والتحصيل المحدودة فى تلك الأيام ، والتى تبدأ فى الأزهر وتنتهى إليه ، مما دفعه إلى أن يتردد على دار الكتب لقراءة العلم الذى لم يكن يسيغه الأزهر ، وقد صرفه علم القدماء من العرب وأدبهم عن علوم الأزهر ، مما دفعه إلى الثورة على الأزهر ودروسه ، ثورة لم يحسب لعواقبها حسابا ، ثم لم يلبث أن كلف بدروس الجامعة حين اتصل بها ، وبدا لديه التصميم على اقتحام العقبات التى تعترض سبيله إلى العلم مهما تكن ، الأمر الذى دفعه للاهتمام بالتعليم كعامل أساسى من عوامل التغيير الاجتماعىولهذا كان الإنسان المصرى بكل واقعه دائما فىعقل طه حسين، وكان الإنسان المصرى أو المجتمع الفقير أى غالبية الشعب ، المجتمع الذى يقاسي الفقر المدقع والحاجة الشديدة والجهل المطبق ، هو دائما بطل روايات طه حسين" [20]

---

(١٨) طه حسين ، الأيام ج١ ص١٨

(١٩) مجلة الهلال العدد ٤٨ مارس ٥٨ مقال بعنوان " هذا مذهبى " لطه حسين

(٢٠) د. رشيدة مهران " طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتيه " ط١ ١٩٧٩ ص ٧١ .

تأثير المرحلة الأزهرية التي ساهمت في إبراز سماته الشخصية ، فجداله مع الشيوخ أكسبه الجرأة فى الجهر برأيه مهما تكن النتيجة ، ونمى ما كان مركبا فيه من استعداد للعناد والتحدى ، "وعلى الرغم من تبرم طه حسين بأسلوب الأزهريين وسخطه عليهم فقد كانت السنوات الأربع التى قضاها فى الأزهر من أهم مراحل تكوينه العقلى ، التى أصبحت قواما أساسيا لثقافته اللغوية والنقدية[٢١]

✲ ولعل دراسته فى الأزهر كانت الزاد فى تعمقه فى الثقافة العربية الإسلامية خاصة عند دراسته لكتب التراث وسيرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه والعديد من كتب الأدب العربى " أقرأ هذه الكتب التي لا أعدل بها كتبا أخرى مهما تكون ، والتى لا أمل قراءتها والأنس إليها والتى لا ينقضى حبى لها وإعجابى بها وحرصى على أن يقرأها الناس[٢٢]

وفى معايشته للتيارات المتناقضة بين التجديد والجمود ، فقد كان الشيخ محمد عبده والشيخ المرصفى يدرسان فى الأزهر لكنهما حملا لواء التجديد وعارضا طريقة الأزهر السائدة فى العلم وانتقدا بعض المناهج الدراسية ودعوا إلى إدخال العلوم الحديثة وفي الوقت نفسه كان قاسم أمين ينادى بتحرير المرأة فى بيئة فرضت الحجاب عليها ، واختلط موقف الناس ورد فعلهم إزاء هذه الدعوة بين مستحسن ومستنكر "وكان من أهم أساتذته فى هذه الفترة كذلك لطفى السيد وسيد المرصفى وأحمد زكى ، لقد دله لطفى السيد على قيمة الأشياء وفتح له باب التفكير الأوربى الحديث ، وفتح له المرصفى الباب إلى تذوق الأدب العربى القديم ، وهيأ له أحمد زكى التدريب على البحث العلمى وتحقيق النصوص" [٢٣]

لذلك نراه يحاول رسم المثل الأعلى للإصلاح الثقافى والتعليمى ، والعمل على تطوير التعليم الدينى ، كان يريد إصلاحا يتمشى مع روح المجتمع المصرى المتدين.

---

(٢١)د. عبد العزيز شرف ، طه حسين وزوال المجتمع التقليدى ص ٣٥ .

(٢٢) طه حسين ، ألوان دار المعارف ص ١٣ .

(٢٣) د. رشيدة مهران ، طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية ص ٦١ .

تأثير البيئة المصرية عليه ومعايشته للكادحين دفعه إلى العدل الاجتماعى ، ولذلك تعددت كتاباته عن طبقات الكادحين المعذبين ، وكان يرى أن الدولة وحدها هى التى تستطيع حماية هؤلاء ومساعدتهم على استمرارهم فى الحياة ، داعيا إلى توفير مناخ الحرية وإشاعة العدل والعمل على تحرير الناس من الثالوث الخطير الجهل والفقر والمرض ، وبهذا نجد أن الإنسان المصرى كان دائما متمثلا فى ذهنه يحس بمشاكله وآلامه وآماله وصراعاته والحديث عن العدل الاجتماعى عند طه حسين لايمكن أن ينفصل عن الحديث عن فكر الرجل بداية وتأثير ذلك الفكر على تناوله لهذه القضية (٢٤) .

وأبدى طه حسين اعجابه بتراثنا العربى فى أكثر من موضع " أدبنا العربى كائن حى ، أشبه بالشجرة العظيمة التى ثبتت جذورها وامتدت فى أعماق الأرض ، والتى ارتفعت غصونها وانتشرت فى أجواز السماء ، والتى مضت عليها القرون والقرون ، ومازال ماء الحياة فيها غزيرا يجرى فى أصلها الثابت فى الأرض ، وفى فروعها الشاهقة فى السماء" (٢٥) .

وفهم طه حسين للتراث والتاريخ واضح ، ولعل هذا الفهم يتعارض مع أولئك الذين يريدون أن يسبغوا على التاريخ الإسلامى صفة الجلال والتقديس الدينى ، مما يحول بين العقل والنظر فيه نظرا يعتمد على النقد والبحث العلمى الصحيح ، فهم يضيقون بكل نقد أما طه حسين فقد آمن بأن حياة القدماء كلها ملك للتاريخ ، وأن درس هذه الحياة كلها نافع للمؤرخ والأديب بل واجب عليهما ، ومضى محللا لمختلف الظواهر الأدبية والاجتماعية والسياسية مع امتداد الزمن " وإن المرحلة التى كان يعيشها الجيل الماضى ، وهى الواقعة بين أواخر القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين ، كانت مرحلة ذات طابع إحيائى حتمى إن صح هذا الوصف فقد اتجهت

---

(٢٤) أحمد عبد الرازق أبو العلا ، طه حسين والبحث عن العدل افجتماعى الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٧

(٢٥) طه حسين ، ألوان ، دار المعارف ط ٥ ص ١٣

أنظار المصلحين من الأدباء والشعراء ورجال الدين فيه لأسباب عدة إلى التراث الإسلامي والأدب القديم في عصور العربية الزاهية ، يأخذون منه وينسجون على منواله [٢٦]

وقد أقبل طه حسين على كتب التراث بروح وثابة ، من ذلك "ديوان الحماسة" لأبي تمام و "الكامل" للمبردو "الأمالي" لأبي علي القالي ، و"البيان والتبيين" ، و"الحيوان" للجاحظ ، وكان لهذه الاطلاعات كبير الأثر في ثقافته وفكره ، إذ "جعلته يتعمق في فهم النصوص ، ويتجنب السطحية والعلم المحفوظ [٢٧] .

وقد أفاد الكثير من التراث. مما أعانه فيما بعد على فهم الكثير من الأحداث التاريخية المتعلقة بالإسلام ورجاله ، والاتجاه نحو هذا التراث الإسلامي بالدراسة والنقد والتمحيص.

كما أدي ذلك إلى تعدد مواهب طه حسين وقدراته ، وبهذا تنوعت اهتماماته بفنون الأدب العربي ، وساهم ذلك في إقباله على نظم الشعر في الأغراض المختلفة "كان صبيا لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره يوم أن تفجر الشعر في أعماقه ، فجره حزنه على موت أخيه" [٢٨] .

ـ تأثير الثقافة الأوربية القديمة والحديثة: إذ تمثل هذه الثقافة الأوربية مكونا من المكونات الأساسية لفكر طه حسين وثقافته ، يتضح ذلك من خلال أغلب كتاباته وترجمته للآثار الأدبية : وكانت الثقافة الفرنسية الدافع له في اتخاذ مناهجه النقدية والفكرية ، منذ تعمق في متابعتها عام ١٩١٥م ، وكان لطفي السيد يوجهه إلى آراء فولتير و روسو ومنتسكيو ، ويوجهه إلى تعلم الفرنسية والالتحاق بالجامعة المصرية التي تعرف فيها على الثقافة الفرنسية عن طريق أساتذته من الفرنسيين ، ولعل ماسينيون من أول هؤلاء الذين استمع إليهم وكانت رسالته للدكتوراه عن فلسفة

---

(٢٦) مجلة فصول المجلد الأول ، العدد الأول أكتوبر ١٩٨٠ د. إبراهيم عبد الحمن ص ٦٠ .

(٢٧) فؤاد دوارة ، عشرة أدباء يتحدثون - كتاب الهلال ص ١٧ .

(٢٨) عبد العليم القباني ، طه حسين في الضحى من شبابه ١٩٨٠ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٩.

ابن خلدون ثمرة تمثله للثقافتين الفرنسية والعربية ودليل تمكنه من الفرنسية واستيعابه للفكر والأدب الفرنسيين (٢٩) .

وكان من مظاهر اهتمامه بالأدب الفرنسى ترجمته سنة ١٩٢٢م كتاب جوستاف ليبون عن علم النفس التربوى ، ثم ترجمة بعض المسرحيات الفرنسية ونشرها سنة ١٩٢٤م بعنوان "قصص تمثيلية" وقد أهداها إلى زوجه قائلا: إلى زوجى التى جعل الله لى منها نورا بعد ظلمة وأنسا بعد وحشة ، ونعمة بعد بؤس ، وفى مقدمته يوضح هدفين من ذلك: "الأول أن أظهر قراء هذه اللغة العربية على نحو من أنحاء الأدب الغربى ، الثانى أن يكون لهذه القصص وما فيها من الآراء الفلسفية والمذاهب الفنية المختلفة أثر فى نفوس الأدباء (٣٠) .

كما ترجم مسرحية راسين المعروفة "أندروماك" ثم "زاديج" لفولتير ، ثم نجده يتمعن فى دراسة تطور العقلية الغربية خاصة فى كتابه "قادة الفكر" ، وهو بذلك يكون "قد رسم الطريق أمام المترجمين وبين لهم المنهج العلمى الصحيح السليم فى الترجمة لنقل نص من لغة إلى أخرى بحيث يحدث على قارئ العربية مثلا نفس التأثير الذى يمارسه النص الأصلى على قارئه ، وقد ظل طه حسين يوالى رعايته لحركة الترجمة فى مصر إلىآخر
نبضة من حياته ، وبفضله تمت ترجمة الكثير من أمهات الكتب الفرنسية والأوربية إلى العربية" (٣١) .

ولم يتوقف حبه للفرنسية عند الترجمة والنقد ، بل تجاوز ذلك لتكوين صداقات تربطه بالمفكرين الفرنسيين ، علاوة على أنه أنشأ سنة ١٩٤٠م قسما للغة الفرنسية بكلية الآداب وأكثر من البعثات إلى فرنسا ، وطه حسين "لم يكن مجرد متلق للفلسفة والثقافة الفرنسية بل كان معطيا أيضا ، أى إنه تأثر وأثر وفتح عيون الفرنسيين على الثقافة العربية والإسلامية ، وأوضح لهم أن الدين الإسلامى يدعو إلى إعمال

---

(٢٩) د. عبد العزيز شرف ، طه حسين وزوال المجتمع التقليدى ص ٣٩

(٣٠) طه حسين قصص تمثيلية لجماعة من أشهر الكتاب الفرنسيين ، المطبعة التجارية بعابدين المقدمة.

(٣١) طه حسين ، قادة الفكر ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٤ ص ١٧٥ .

العقل والفكر وإلى الجهاد والحرية لا إلى الاتكالية والاستسلام [٣٢] .

ولقد كان من نتائج تأثره بالفلاسفة والمفكرين الفرنسيين من أمثال فولتير ورينان وتين وأوجست كونت وبول فاليرى ودور كايم تكوين ذلك المنهج النقدى والدراسات الأدبية والاجتماعية وفى ثورته العارمة لتحرير الأدب من ارتباطه بالدين " وأغلب الظن أن طه حسين كان يتفق مع فولتير فى وجوب أن تخلص الدولة من نير السلطان الدينى ، وأن تحرر من ربقة الكهنوت ، لتصبح دولة علمانية ، فقد أعلن أنه غير راض على مانص عليه الدستور بأن الإسلام دين الدولة [٣٣]

ونظرا لتشابه الظروف التى واجهها طه حسين وفولتير فقد أتاح ذلك للبعض بأن يطلق على طه حسين فولتير العرب ، فى مواجهته الصارمة للجمود والتخلف والرجعية ، لقد آمن طه حسين بالجبرية التاريخية التى قال بها مونتسكيو ورينان وتيم، وأمن تبعاً لهذا أن الشخصية الإنسانية نتاج الظروف الإنسانية والبيئة والمناخ الفكرى قد حدث إنطلاقة فكر طه حسين وحاصرت منهجه النقدى والفكرى[٣٤]

ويرجع مكمن الأصالة فى فكر طه حسين فى ربطه حرية العقل بأصولها فى القرآن والدين الإسلامى ، والعمل الدءوب بغية الحفاظ على جوهر هذه الحرية وصيانتها.

كما اتجه طه حسين إلى الاغتراف من الثقافة اليونانية ، ليقدمها فى محاضراته بالجامعة المصرية بوصفه أستاذا للتاريخ اليونانى والرومانى القديم من سنة ١٩١٩ حتى ١٩٢٥ وفى هذا الاتجاه إلى الثقافة اليونانية نجد طه حسين يعبر بذلك عن عوامل حضارية عامة تشير إلى روح العصر في مصر ، والذى يتميز بعناصر من الثورة الرومانسية ومن عصر التنوير [٣٥]

وكان طه حسين أول من قدم الأدب اليونانى مدروسا ومشروحا للقاعدة العريضة من جمهور المثقفين ، من خلال الصحف والمجلات ، واستأثرت الثقافة اليونانية بالجانب الأكبر من إنتاجه فى هذه الفترة ، حيث قدم صحف مختارة من الشعر التمثيلى

---

(٣٢) نسيم مجلى ، قضايا الإبداع والنقد المكتبة الثقافية العدد ٤١٣ ص١٦

(٣٣) نفسه ص ٢٣ (٣٤) نفسه ص ٢٤

(٣٥) مجلة الفكر فبراير ١٩٦٦ مقال للدكتور شكرى عياد .

عند اليونان ١٩٢٠ ، نظام الأثنيين ١٩٢١ مفهوم واضح للديمقراطية التى أصبحت هدفا من أهداف الحياة السياسية ثم "قادة الفكر" ١٩٢٥ ليبرز دور القائد الذى يمثل عصره وبيئته ، ويوضح دوره فى التفسير الاجتماعى للثقافة اليونانية ، ولهذا كتب عن سقراط وأفلاطون وأرسطو العديد من الدراسات بمنهج جديد ، فهو فى كتابته تلك "شديد الاقتصاد فى ذكر الحوادث والأخبار والتواريخ التى تتصل بحياة الأشخاص لا اهمالا ولكن لأن آدابهم وآراءهم على اختلافها وتباين فنونها ومنازعها ظواهر اجتماعية أكثر منها ظواهر فردية: أى إنها أثر من آثار الجماعة والبيئة أكثر منها أثرا من آثار الفرد الذى رآها وأذاعها (٣٦) .

وكان التقاء طه حسين بالثقافة اليونانية حلقة حاسمة فى تطوره الفكرى والثقافى ، وظهر تأثير الثقافة اليونانية فى أسلوب طه حسين حيث تماسك أجزائه وجمال عباراته "أسلوب لايمكن أن يكون إلا ثمرة التقاء الثقافة اليونانية بالثقافة العربية فى ذهن خلاق (٣٧) .

ولقد أسرف طه حسين فى سبيل تبرير مذهبه فى التفسير الحضارى القائم على سيادة العقل اليونانى عندما قال "إن فهم التاريخ المصرى خاصة ، والتاريخ الإسلامى عامة ، موقوف على فهم التاريخ اليونانى ، فما ينبغى لأحد أن ينسى ماكان للحضارة اليونانية من التأثير الظاهر فى حضارة العالم كله ، ومنه البلاد الإسلامية ، ولم يكن هذا التأثير مقصورا على الحياة العقلية والأدبية بل تناول الحياة السياسية ، فإن اليونان قد ملكوا الشرق أكثر من قرنين ، فوضعوا فيه نظما لم يكن له بها عهد ، وجاء الرومان فلم يمحوا هذه النظم ، ثم جاء العرب فأخذوا ما وجدوا ، ولم يزيدوا على أن عربوه(٣٨) .

---

(٣٦) طه حسين ، قادة الفكر ، دار المعارف ١٩٦٤ ص ٦

(٣٧) إبراهيم الإبيارى وآخرون ، طه حسين كما يعرفه كتاب عصره ، مقال د. شكرى عياد ص ١١١

(٣٨)سامى الكيالى ، مع طه حسين ، إقرالعدد ٣٧٥ دار المعارف بمصر ص ٤٤ .

وليس فى وسعنا أن نسلم بهذا القول تسليما ، فقد نكون جاهلين بالعلوم والفنون التى أتقنها المصريون والبابليون القدماء وبآثارهم الأدبية والفكرية والتى تدل على رقى الفكر فى الشرق ، وانتشار الإسلام فى هذه البيئات كان يمثل تطورا حضاريا ، أفصح عنه الإسلام الذى زاوجت نظريته فى المعرفة بين الواقع المادى والقيم الروحية (٣٩) .

وهكذا انعكست آثار الفلسفة والثقافة اليونانية على فكر ونتاج طه حسين الأدبى والاجتماعى.

ويتشعب فكر طه حسين المبدع فى اتجاهات كثيرة ، لأنه عاش عمرا مديدا مليئا بالنشاط وترك بصماته على جوانب عدة من حياتنا الثقافية حيث "تتبلور فيه أزكى نفحات النهضة العربية الحديثة ، من دعوات وهتفات فى الوطنية والسياسة ، وفى العلم والدين ، وفى الثقافة والأدب ، فهو خلاصة مركزة لأعلام تلك النهضة: مصطفى كامل ، ومحمد عبده ، وقاسم أمين ، وسعد زغلول ، ولطفى السيد ،وأشباهم القليلين ، أولئك الذين أوقدوا نار الثورة ، وأضاءوا منار الحرية ، وحملوا لواء التقدم والتطور ، وهو بذلك أعرف المعارف بين الشخصيات البارزة فى عصرنا الحاضر"(٤٠) .

فقد استطاع بفكره المستقل أن يبث فى حياتنا العقلية والأدبية معنى الحرية ، ويبعث فينا نزعة التجديد ، ومعايشة الواقع من خلال العقل والمنطق ، ورسم بروحه الخيرة لنفسه سلوكا يتميز بالصدق ، عبر من خلاله عن طبيعة الحياة والأحياء ، عن الوجدان الاجتماعى وما يواجهه من هموم ومصائب ، بشجاعة لاتعرف الوهن أو الجبن.

وسمة الموسوعية الفكرية تنطبق عليه ، يتجلى ذلك فى هذا الكم الوافر مما قدمه للمكتبة العربية والإسلامية مع تنوع موضوعاته وتعدد مجالاته ، ولم ينحصر

---

(٣٩) د. يوسف عوض ، الرؤيا الحضارية والنقدية فى أدب طه حسين دار القلم بيروت ص ٣٧

(٤٠) إبراهيم الإبيارى وآخرون ، طه حسين كما يعرفه كتاب عصره ، مقال محمود تيمور ص ٥ .

فكره فى الحياة العربية الثرية بل تخطاها إلى العالم أجمع يتابع ويحلل ويناقش بهدف الإفادة.

ولقد كان طه حسين حريصا على تأكيد صفة التكامل فى الثقافة الإنسانية ، التى تضم فى جنباتها الثقافة العربية وثقافات العالم القديم والحديث ، وأعماله التى قدمها خير شاهد علي تلك الاهتمامات ، فهو يتحدث فى مقدمة كتابه "قادة الفكر" عن سقراط وأفلاطون وديكارت وجان جاك روسو وكانط وأوجست كونت وسبنسر ، مبينا أثر كل منهم فى بيئته وانعكاس ذلك على الأمم الأخرى كما نجد لديه إيمانا بانتماء مصر إلى ثقافات البحر المتوسط وأوربا فى كتابه "مستقبل الثقافة فى مصر" ، ودعوة صريحة إلى الاتصال بثقافات الأمم الأوربية النابهة والاهتمام بلغاتها ، فلا يجوز الاقتصار على الفرنسية والانجليزية ، بل ينبغى توسيع الدائرة لتشمل الألمانية والإيطالية وغيرها ، ولقد حقق تصوره هذا عندما أعاد فى عام ١٩٥١م مدرسة الألسن إلى الحياة وفيها قسم للغة الألمانية ، ثم تناوله بالدراسة والتحليل أديبين ألمانيين ، وهما جوته وكافكا ، وقد عرض طه حسين لأديب ألمانيا الكبير جوته وخاصة عمله الذى تم ترجمته آلام فرتر ،حيث بين أهميته فى الحياة الإنسانية ولنشر قيم الإيثار والتضحية بين الشباب ، ولوجود تطابق بين طبيعة العصر الذى قدم فيه هذا العمل فى سبعينيات وثمانينيات القرن الثامن عشر ، والعقدين الثانى والثالث من القرن العشرين ، عصر التجديد الاجتماعى والسياسى "وهكذا لم يكن اهتمام طه حسين " "بآلام فرتر" دعوة إلى الاغتراف من معين الثقافة الانسانيـــة
والاتصال بها اتصالا وثيقا فحسب ، بل هو فى الوقت نفسه دعوة إلى النظر فى النفس ، والتعليم ، دعوة إلى التنوير الذى كان طه حسين إماما له ولهذا يقف طه حسين طويلا عند القيمة التجديدية الشاملة لترجمة هذه الدرة الألمانية " [٤١] .

وتتبع طه حسين طريق جوته على الشرق العربى الإسلامى بصفة خاصة بدراسة "الديوان الشرقى للمؤلف الغربي" والذى أصدر ترجمته عام ١٩٤٤

---

(٤١) مجلة فصول ، المجلد التاسع ، العددان ١، ٢ أكتوبر ١٩٩٠ ، طه حسين والأدب الألمانى ، مصطفى ماهر ص ٦١ .

عبد الرحمن بدوى ، ويرى طه حسين ان جوته هو أول شاعر أوربى كتب شعرا على الطريقة الشرقية الخالصة ، ويرى أن ديوانه يعد حدثا جليلا فى تاريخ الآداب الأوربية (٤٢) .

ويبرز طه حسين رؤية جوته للإيمان ثم الإسلام ، حيث يصور عصور الايمان بأنها زاهرة ، عظيمة ،خصبة ، تضئ بثمارها على المعاصرين وعلى الأجيال التالية ، وعلى النقيض يصور عصور الكفر بأنها عصور زائفة تصير إلى زوال ، ومن هنا كان جوته فى نظره مؤمنا يدعو للإيمان ، وكما فتح الباب على مصراعيه أمام الأدب الألمانى الكلاسيكى المتمثل فى جوته ، فقد فتحه أمام الأدب الألمانى الحديث المتمثل فى كافكا ، واهتم بدراسة الظروف التى أدت إلى مافعلته ألمانيا الهتلرية بأعمال كافكا ، حيث حرقتها جهرة فى الميادين نظرا لتمرده على التسلط الذى عانى منه من جهة أبيه أو من جهة أمه اليهودية ، ويعقد مقارنة بين ذلك وبين أبى العلاء المعرى ، من حيث إن الأديبين اعتبرا الحياة نقمة وأن الموت هو النعمة الكبرى ، فإذا كانت هذه الأفكار قد راودت كافكا حديثا ، فقد ظهرت فى شعر أبى العلاء قبل كافكا بعشرة قرون "والقارئ العربى يعرف حق المعرفة أن آثار أبى العلاء تعرضت لمثل هذا الشر الذى تعرضت له آثار فرانز كافكا ، ولكن الشرق قد يكون أعظم تجربة من الغرب فى بعض الظروف ، وقد رأى الشرق العربى أن آثار أبى العلاء على غلوها فى التشاؤم والحلوكة لم تثبط الهمم ، ولم تفل العزائم ولم تصرف عن العمل ، ولم ترد عن الأمل ، وإنما منحت النفوس خصبا وفطنة وذكاء ،وحالت بين العقل الإنسانى وبين الغرور الذى يطغيه ويدفعه إلى كبرياء عقيمة مهلكة"(٤٣) .

ويصل طه حسين إلى أن أدب أبى العلاء المعرى كان نذيرا بكارثة الصليبيين التى انصبت على العالم الإسلامى ، كذلك كان أدب كافكا الذى كتبه أثناء الحرب العالمية الأولى نذيرا بالحرب العالمية الثانية .

---

(٤٢) نفسه ص ٦٤ (٤٣) طه حسين ، ألوان ط ٤ دار المعارف بمصر ص ٢٦٩ .

ولعل اهتمام طه حسين بالأدب الألمـانى الحديث وتقديمه بما يتضمنه من قضايا تتعلق بضرورة مواجهة التسلط والطغيان ، يعبر عن مدى التزامه بدوره التنويرى ، من حيث دعوته إلى حرية الفكر ، والتسلح بالعلم ، وإزالة الفوارق الطبقية ونشر المساواة والقضاء على الاستبداد بشتى ألوانه ، حتى تنهض الأمة وتتخذ مكانها اللائق بين الأمم المتطورة ، ولقد كان بذلك على وعى كامل بالعناصر الذاتية والموضوعية ، وبالعوامل التراثية والاجتماعية والسياسية ، التى تحكم التفاعل الثقافى[٤٤] .

وهكذا تعددت إنجازات طه حسين المفكر ، حيث ترك بصمات واضحة ومؤثرة على العديد من الأنشطة الفكرية والأمانة العلمية تقتضى أن نتقصى كل ما أسهم به فى وجدان أمته ، كما أنها توجب عدم الإغراق فى التفاصيل دون تحديد للأساسي منها والفرعى ، أو تفرقه بين المتن والهامش ، إذ لو فعلنا فسوف تضل البؤرة التى تتجمع فيها كل إشعاعاته.

وأكثر من أى إنسان آخر ، فإن طه حسين كمفكر ، يفرض علينا أن نعى هذه الحقيقة قبل أن نلج عالمه الرحيب الواسع الآفاق ، فإسهاماته متعددة ومتشعبة ، والأنشطة التى مارسها متنوعة تحتاج إلى التحليل والفهم والاستيعاب ، وعلى امتداد أكثر من نصف قرن من النشاط المثمر المتواصل ، كتب الشعر والرواية والقصة القصيرة والخاطرة ، وكتب أيضا فى النقد والسيرة الذاتية وفى تاريخ الأدب وتاريخ الفكر والفلسفة ، وكتب فى التاريخ و السياسة ومارسها ، وهكذا كان بهذا النتاج الفكرى ظاهرة فكرية شديدة الثراء والعمق وجاءت كل هذه الأعمال لتعالج قضايا الإنسان من خلال معاناة طه حسين الذى عاش فى طفولته حياة من الأساطير والخرافات والوهم ، ثم اكتشف أن الحياة مملوءة بالظلم والكذب ، وأن تفشى الجهل والاعتماد على الرقى والتعاويذ وحلاقى الصحة من أسباب التخلف فى مسيرةالإنسان ، كل ذلك أدى إلى بروز شخصية طه حسين المفكر والمواجه لكل هذه التحديات.

---

(٤٤) مجلة فصول ، المجلد التاسع ، ص ٦٧ .

٣- أعماله

زخرت المكتبة العربية الإسلامية بالعديد من أعمال طه حسين ، التى تعالج قضايا متعددة فى المجالات المختلفة ، والتى كانت دليلا على تطور فكره وثقافته ،

وإذا كان عنوان هذا البحث الاتجاه الإسلامى فى أدب طه حسين ، فإننى سوف أستعرض كل ما قدمه هذا المفكر للترابط الفكرى بين هذه الأعمال جميعها.

ولعل طه حسين لم يكن معنيا بتقديم الإسلام على أنه مجرد أخبار ووثائق ومدونات بقدر ما كان معنيا بإبراز القيم والمبادئ والمثل التى يتسم بها هذا الدين ، من خلال وسائله الفنية التى يستعين بها فى بلورة أفكاره وعرض قضاياه ، موائما بين حاجة المؤرخ إلى الحقيقة لايعدوها ، وبين حاجة الأديب إلى التعبير الجميل وفق مايتراءى له من الأشكال الأدبية وقدرتها على النهوض بعبء الوظيفة المنوطة بها ، لمسايرة التطور والنهضة العربية الشاملة ، ولإحياء الموروث العربى الإسلامى القديم وتجديده والاتصال بالموروث الإنسانى الفكرى فى شتى عصوره ، ومن أهم ماقدمه ما يأتى:

١-" ذكرى أبى العلاء" فى علم ١٩١٥م وهو عبارة عن عرض شامل لحياة الفيلسوف العربى أبى العلاء المعرى وشعره ونثره وظروف عصره ، ونال بهذا العمل درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية وكان عمره حينئذ خمسة وعشرين عاما وكانت أول رسالة دكتوراه من هذه الجامعة

٢- "فلسفةابن خلدون الاجتماعية" كتبها بالفرنسية عام ١٩١٨م ونال بها الدكتوراه من جامعة مونبيليه بفرنسا وترجمها إلى العربية الأستاذ محمد عبد الله عنان عام ١٩٢٥م ، وفيها بعرض آراء ابن خلدون وفلسفته ونظرته إلى الحياة والمجتمع ، ورأيه فى الظواهر الاجتماعية لحياة البدو والحضر وغيرها.

٣- "آلهة اليونان" عام ١٩١٩م يتحدث خلاله عن تعدد آلهة اليونان وتطورها وأثرها فى المدنية.

٤- "قادة الفكر" عام ١٩٢٥م ويقدم خلاله فكرة متكاملة فى تاريخ الحضارة للقادة هوميروس وسقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس والاسكندر المقدونى ويوليوس قيصر ، وعنده المجتمع هو المؤثر الأول فى ظهور الرجال والآراء.

٥- "حديث الأربعاء" وهو مكون من ثلاثة أجزاء بدأ بنشر الجزء الأول في عام ١٩٢٥ والجزء الثاني عام ١٩٢٦م والجزء الثالث عام ١٩٤٥م ، وفي الجزءين الأول والثاني يقدم دراسة للحياة الأدبية عند طائفة شعراء المجون والدعابة واللهو في الدولتين الأموية والعباسية وأثر ذلك على الحياة الاجتماعية والسياسية ، وفي الجزء الثالث يتناول الأدب المعاصر.

٦- "في الشعر الجاهلي" ١٩٢٦م وهو خلاصة ما كان يلقى من محاضرات على طلاب السنتين الأولى والثانية في كلية الآداب وقد سحب من السوق لما أثاره من ضجة بعض أسبابها دينية علمية وبعضها الآخر سياسية ، وقد أعيد طبع هذا الكتاب عام ١٩٢٧ بعنوان في الأدب الجاهلي محذوفا منه فصل ، ومضافا إليه عدة فصول.

٧- "الأيام" وهو يتكون من ثلاثة أجزاء نشر الجزء الأول عام ١٩٢٩م ، والجزء الثاني عام ١٩٤٠ والجزء الثالث عام ١٩٧٢م ، ويسرد خلاله لحياته وما واجهه من صعاب ، وقد تمت ترجمته لعدة لغات أجنبية.

٨- "في الصيف" ١٩٣٣م وهو عبارة عن قصة كتبها وهو غاضب ، حيث جاءت في أعقاب أزمته في الجامعة وأزمته بعد كتابه "في الشعر الجاهلي" كما أن له "رحلة الربيع كتبها عام ١٩٤٨ وقد جمعهما في كتاب: "رحلة الربيع والصيف".

٩- "حافظ و شوقي" ١٩٣٣م حيث أبدى رأيه فيهما ، فحافظ عنده مقلد صريح التقليد ، وشوقي مجدد ملتوي التجديد.

١٠- "على هامش السيرة" وهو ثلاثة أجزاء نشر الجزء الأول فيعام ١٩٣٣ والجزء الثاني ١٩٣٧م والجزء الثالث ١٩٣٨ ويتعرض لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بالتصوير الرائع وإبرازها في صور قلمية جذابة.

١١- "دعاء الكروان" ١٩٣٤م وهي قصة تصور حياة فتاة ريفية بدوية أغواها شاب من أهل المدينة وسلبها شرفها.

١٢- "من بعيد" ١٩٣٥م وهو عبارة عن مجموعة رسائل ومقالات كتبها عن حياة باريس ولهوها.

١٣- "أديب" ١٩٣٥م قصة شاب أزهرى نقلته الأقدار إلى باريس مدينة النور والعلم.

١٤- "ألوان": ١٩٣٥م وهو يتعرض للحياة الأدبية فى جزيرة العرب وموازنات بين الأحداث فى تاريخ الرومان والمسلمين وماكان لها من أثر فى حياة العقل والفن.

١٥- "مع أبى العلاء فى سجنه" ١٩٣٥م وهو عبارة عن تأملات فى تلك الحياة الضيقة التى عاشها أبو العلاء وفلسفته التشاؤمية وتحليل طه حسين لذلك.

١٦- "من حديث الشعر والنثر" ١٩٣٦م وهو محاضرات ألقاها طه حسين فى ظروف ومناسبات متعددة تحمل رأيه فى قيمة أدبنا العربى القديم.

١٧- "القصر المسحور" ١٩٣٧م للأديبين طه حسين وتوفيق الحكيم استلهما شهرزاد وتبادلا رسائل أدبية يعبران فيها عن الكثير من آرائهما فى الأدب والحياة.

١٨- "مع المتنبى" ١٩٣٧م وهو دراسة لحياة الشاعر وتحليل لمواقفه وقصائده فى المناسبات.

١٩- "الحب الضائع" ١٩٣٨م وهى قصة لفتاة فرنسية واجهت الكثير من المشاكل والهموم.

٢٠- "مستقبل الثقافة فى مصر" ١٩٣٨م وفيه تصوير دقيق للكثير من مشاكل الثقافة فى الشرق العربى ، ولأطوار التفكير والتعليم فى اتجاهاتها المختلفة.

٢١- "لحظات " ١٩٤٢م مجموعة قصص لخصها من عيون الأدب الغربى تصور الحياة الفرنسية.

٢٢- "صوت باريس" ١٩٤٣م وهو تلخيص لبعض القصص الأجنبية.

٢٣- "أحلام شهرزاد" ١٩٤٣م وهى قصة تروى حكمة عن أثرة الملوك وإثارة الحروب.

٢٤- "شجرة البؤس" ١٩٤٤م تصور الحياة المصرية فى الماضى ، ومايتخللها من صبر وإيمان

٢٥- "جنة الشوك" ١٩٤٥م يصور فيه فترات عصر الانتقال ومانتميز به من اضطرابات.

٢٦- "فصول فى الأدب والنقد" ١٩٤٥م تناول أعمال شيوخ الأدب أمثال العقاد وأحمد أمين وتوفيق الحكيم وإبراهيم المصرى وكبار الأدباء بالغرب من أمثال أندريه جيد وجول رومان وغيرهم.

٢٧- "صوت أبى العلاء" ١٩٤٥م نثر لقصائد أبى العلاء ليتم التواصل بينها وبين القراء.

٢٨- "ما وراء النهر" ١٩٤٦ قصة ضد الظلم الاجتماعى ، نشر فصولها فى مجلة الكاتب المصرى من ١٩٤٦/١١ إلى ١٩٤٧/٢.

٢٩- "الفتنة الكبرى" ١٩٤٧ حيث تم نشر الجزء الأول الخاص بالخليفة عثمان بن عفان ، وهو دراسة لنظام الحكم الإسلامى وعناصره ، وتصوير لمبدأ المعارضة فى الإسلام. ونشر الجزء الثانى عام ١٩٥٣م "على وبنوه" وهو يصور عصر الخليفة على بن أبى طالب وتصوير للأحداث المريرة وكيف يمكن استخلاص العبرة منها.

٣٠- "المعذبون فى الأرض" ١٩٤٩م وهو تصوير للمعاناة التى يتحملها الكثيرون ، وقد تسبب هذا الكتاب فى متاعب كثيرة له من السراى التى اتهمته بالشيوعية.

٣١- "مرآة الضمير الحديث" ١٩٤٩م وفيه يلائم طه حسين بين الحياة العقلية والحياة العملية

٣٢- "الوعد الحق" ١٩٥٠م يصور فيه عطاء الإسلام العظيم للحرية والكرامة الإنسانية وأثره فى نفوس الشخصيات الإسلامية البارزة مثل عمار بن ياسر وبلال وصهيب.

٣٣- "جنة الحيوان" ١٩٥٠م وهى نقد اجتماعى لجوانب من حياتنا بأسلوب الرمز.

٣٤- "بين بين" ١٩٥٢م وهى سياحة فكرية تحمل وجهات نظر طه حسين فى الموضوعات المختلفة.

٣٥- "خصام ونقد" ١٩٥٥م وفيه تعبير عن ركود الحياة الأدبية وعدم وجود التطور الأدبى.

٣٦- "نقد وإصلاح" ١٩٥٦م وفيه تنبيه بالتزام النقاد الموضوعية لمتابعة مايقدم إليهم من أعمال

الباب الأول

الاتجاه الإسلامى فى أعماله الإبداعية

الفصل الأول : العناصر الإسلامية فى قصص طه حسين

الفصل الثانى : الرؤية الإسلامية فى أعماله عن السيرة النبوية

الفصل الثالث : العناصر الإسلامية فى السيرة الذاتية (الأيام)

الفصل الأول

العناصر الإسلامية فى قصص طه حسين

١- دعاء الكروان.

٢- أديب .

٣- أحلام شهرزاد.

٤- شجرة البؤس.

٥- ما وراءالنهر.

٦- المعذبون فى الأرض.

يعد الفن لونا من ألوان النشاط الإنساني ، يصور الواقع ، ويبرز معالمه وملامحه ومن خلال التصوير الصادق تبدو علاقة الفنان بالمجتمع.

ولقد تضمنت قصص طه حسين أفكاره وآراءه ، تلك التي نبعت من المجتمع المصري الذي عايشه وألم بأفراحه وأتراحه ، فجاءت مضامينها تعبيرا صادقا لمعالجة أديب فنان يعد واحدا من الرواد الذين استوت على أيديهم معالم النهضة المصرية الحاضرة ، والمتابع لمراحل حياته المختلفة يجدها شعلة نشاط مستمر ، كانت وستظل في خدمة ازدهار مصر وتعزيزا لارتباطها بالفكر الإنساني ، وتوثيقا لعرى التواصل بينها وبين تراثها التاريخي وقيمها العقلية والفكرية ومقوماتها الحضارية.

وطه حسين أحد رواد الجيل الأول من كتاب القصة ، الذين ظهرت على أيديهم ملامح القصة المصرية بصورتها الزاهرة ، فهم "جيل العمالقة لأنهم كانوا ثوارا حرروا الأشكال الأدبية وتعبوا ليعثروا على نماذجهم الفنية"[1]

ونظرا لتميز نتاج طه حسين القصصي فقد قال عنه الأديب محمود تيمور:
"أوجز تعريفه في بعض عناصر ، فكر مستقل ، روح خيرة ، صبغة فنان" [2]

ويظهر الانسجام والترابط في أصدق معانيه بين حياته وجوانب فكره، بين آرائه الإصلاحية وأدبه الروائي العامر بالكثير من القضايا.

وإن واقع مسئولية الأديب يحتم عليه أن يعالج قضايا مجتمعه ، حيث يبرزها ويحللها ويستقصي أبعادها "وتتمثل مسئولية الأديب أمام مجتمعه في مقدار تفاعله مع الأحداث التي يعيشها هذا المجتمع ، وفي وعيه الكامل بطبيعة المرحلة التي يجتازها ، والأزمات التي يعانيها ، وذلك حتى يمكن أن تأخذ أعماله مكانها بين القوى الموجهة الرائدة بوصفه إنسانا يملك بين يديه القدرة التي بإمكانها أن تخلق الاتزان في مجال الوجود البشري ، ومن أجل هذه الإمكانية الخطيرة الكائنة وراء الكلمة ، نرى أن المفكر الفرنسي جان بول سارتر صاحب نظرية الالتزام الاجتماعي يعلق أهمية كبرى على دور الأدب في

---

(١) د. شكري عياد، تجارب في والنقد ،دار الكتاب العربي ،القاهرة١٩٧٦ ص١٠

(٢) مجلة الهلال فبراير ١٩٦٦ ، من محمود تيمور إلى طه حسين ص ٣١

قيادة الحياة الاجتماعية والإنسانية بشكل عام"[٣]

والأديب كائن اجتماعى لايستطيع أن ينفرد أو يستقل بحياته الأدبية عن مجتمعه ولهذا نجد أن أفكار طه حسين لم تكن مجرد نظريات تطرح لكى تضاف إلى مئات النظريات الأخرى دونما ترجمة أو تطبيق عملى ، بل على العكس تماما ، إذ ترجم الفكر النظرى إلى واقع عملى.

والعناصر الإسلامية فى هذا النتاج القصصى لطه حسين بارزة ، ومعبرة عن إعجابه بالتراث الإسلامى والأدب العربى الذى قال عنه "أدبنا العربى كائن حى ، أشبه بالشجرة العظيمة التى ثبتت جذورها وامتدت فى أعماق الأرض ، والتى ارتفعت غصونها وانتشرت فى أجواز السماء ، والتى مضت عليها القرون والقرون ، وما زال ماء الحياة فيها غزيرا يجرى فى أصلها الثابت فى الأرض ، وفى فروعها الشاهقة فى السماء" [٤]

وتجدر الإشارة إلى أن المضامين التى احتوتها أعماله القصصية تهدف إلى إبراز صورة الإسلام وقيمه الفاضلة ، كدين للحرية والعدالة الاجتماعية والمساواة.

وقد أتاح عمله بصحيفة "الجريدة" الاطلاع على الكثير من الأعمال القصصية التى كانت تنشر سواء منها المحلية أو المترجمة ، علاوة على اتصاله بكبار كتاب الرواية الفرنسية من أمثال: اندريه جيد ، وبول فاليرى ، وجان بول سارتر ، وكانت دراساته للقصص التمثيلى الفرنسى فى "لحظات" ، "وصوت باريس" ثم ترجماته عن "أندريه جيد" ، و"فولتير" خير شاهد على إعجابه بالأدب الفرنسى الذى اتخذ من الكتابة القصصية طريقة للإصلاح الاجتماعى حيث يذكر أن القصص عند فولتير "وسيلة يبتغيها الكاتب ليصل إلى غرض من الأغراض الفلسفية"[٥]

ومعظم إنتاجه القصصى يصور البيئة المصرية ، التى تفاعل معها وأحس مثالبها ويضع لها العلاج ، ويرسم لها طريق الإصلاح بدرجة تضعه على قدم المساواة مع أى من المصلحين الاجتماعيين "وطه حسين" فى أدبه كله يدير الأحداث والشخصيات والأفكار مرتبطة كلها بأبعادها الاجتماعية أشد الارتباط ، لأنها تستمد وجودها الحى وتطورها وتقلبها وخطرها من تلك الأبعاد الاجتماعية

---

(٤) طه حسين ، ألوان ، دار المعارف ط ٥ ص١٣ (٥) نفسه ص ٧٧

وكان أديبا ملتزما يشعر بمسئوليته تجاه بلاده ووطنه ، وهكذا تركت البيئة بصماتها على تفكيره ، وشغلت مساحة واسعة منه ، فأخذ منها وأعطاها ، يقول د. شوقي ضيف

"الذى لاشك فيه أن الأديب لايكتب أدبه لنفسه ، وإنما يكتبه لمجتمعه ، وكل مايقال عن فرديته المطلقة غير صحيح ، فإنه بمجرد أن يمسك بالقلم يفكر فيمن سيقرءونه ، ويحاول جاهدا أن يتطابق معهم ، ويعى مجتمعهم وعيا كاملا بكل قضاياه وأحداثه ومشاكله لسبب بسيط ، وهو أنه اجتماعى بطبعه ومن ثم كانت مطالبته أن يكون اجتماعيا فى أدبه مطالبة طبيعية ، أما أن يتخلى عن مجتمعه فإن ذلك يعد شذوذا وانحرافا وانسياقا نحو ضرب من الاعتزال من شأنه أن يفت فى عضد المجتمع ."[٧]

ومع استعراض كتاباته القصصية سوف تتضح تلك العناصر الإسلامية التى تكمن فى الدعوة إلى الخلق الكريم ونبذ كل رذيلة تسئ للإنسان ومجتمعه.

١- العناصر الإسلامية فى قصة "دعاء الكروان"

صدرت هذه القصة بالقاهرة عام ١٩٣٤ ، واعيد طبعها مرات عديدة ، وقد تم إهداء هذه القصة للأستاذ / عباس محمود العقاد ، يقول طه حسين: "أنت أقمت للكروان ديوانا فخما فى الشعر العربى الحديث ، فهل تأذن فى أن أتخذ له عشا متواضعا فى الشعر العربى الحديث ، وأن أهدى إليك هذه القصة تحية خالصة من صديق مخلص"[٨]

وتمشيا مع نشأة المؤلف فى القرية ، وارتباطه الوثيق بمشاكلها ، فقد ظل وفيا لطبقة الكادحين ، طبقة الفقراء المرهقين بالأعباء ، "وربما جاء هذا الوفاء من إحساس طه حسين بأنه كان ضحية للفقر والجهل ، وأنه لو كان فى تلك القرية البعيدة . من قرى مصر علما ، أو مع تلك الأسرة الفقيرة مالا ، لقدر له الشفاء"[٩]

ويستعرض الكاتب فى هذه القصة صورة حية للحياة الإنسانية البائسة ، حيث دفعت أسرة بأكملها ثمن حياة رخيصة لأب ماجن مستهتر ، إذ لم يكن صاحب حشمة

---

(٧) د. شوقى ضيف فى النقض الأدبى ط٢٠ ١٩٦٦ دار المعارف ص١٩١

(٨) طه حسين ، دعاء الكروان ط٢٠ دار المعارف ص٣

(٩) محمود شريف ، أثر التطور الاجتماعى فى الرواية المصريه ص ٣٣٦

ووقار وسيرة حسنة ، إنما كان زير نساء يميل إلى الدعابة والمجون ، ومع إلحاحه المستمر فى الفجور واستجابة لنفسه الأمارة بالسوء ، كانت نهايته من جنس عمله ، إذ صرع نتيجة شهوة آثمة من شهواته العديدة.

تدور أحداث هذه القصة فى قرية من قرى صعيد مصر ، حيث كانت الأسرة تعيش عيشة متواضعة هادئة ، وبمقتل رب الأسرة الماجن ، أجبرت هذه الاسرة على ترك القرية لتعايش مصيرا مفعما بالأسى مليئا بالنكبات ، لأن ما ارتكبه رب الأسرة جريمة تتعارض وتقاليد القرية المصرية التى تحافظ على الشرف والقيم الإسلامية الأصيلة ، وتقف فى مواجهة المنحرفين الخارجين على مبادئ المروءة والرجولة.

وسارت هذه الأسرة بائسة شقية ، ليس لها سند يعتمدن عليه ، امرأة كبيرة "زهرة" وصبيتان "هنادى وآمنه" تقول آمنة: "كانت أمنا تدور بنفسها وبنا على البيوت ، تعرض نفسها وتعرضنا للخدمة ، كما تعرض الإماء على السادة" (١٠)

والتحقت هنادى بخدمة مهندس الرى الشاب الأنيق ، ذى الوجه الوسيم ، ذلك الشاب الذى كان وحيدا فى داره ، يبدل بين وقت وآخر خادماته عن طريق "زنوبة" التى بدأت حياتها راقصة وهى عين من عيون الشرطة ومرابية ، وهى تيسر لهذا الشاب الماجن الحصول على الفتيات الفقيرات اللاتى يحضرن للعمل بالمدينة.

وأتيح لآمنة العمل فى بيت مأمور المركز ، ونشأت بينها وبين ابنته خديجة علاقة محبة توطدت بمرور الأيام.

واختلى المهندس الشاب بخادمته هنادى ، وكانت قليلة الخبرة والتجربة ، بعيدة عن رعاية الأهل خدعها ذلك الشاب عندما مد لها الحب ذراعين فيهما النعيم والبؤس ، وفيهما الرحمة والعذاب ، فأسرعت إلى ما كان يتراءى لها من ذلك جاهلة له ، مفتونة به متهالكة عليه ، ثم انصرفت كارهة عما بلت"(١١)

وأبرز الكاتب مدى الحيرة والقلق تجاه المصير المجهول ، لأسرة ليس لها من يحميها ويرعاها ، ومن خلال الحوار بين آمنة وأمها زهرة حول ضرورة إيجاد وسيلة للحماية.

---

(١٠) طه حسين دعاء الكروان ص١٧

(١١) نفسه ص٩٠

قالت الأم المسكينة "بل لنا من يحمينا ، وقريتنا التى نفينا عنها أحق بنا ونحن أجدر أن نعود إليها ، ولئن بلغناها ليعلمن الذين جفونا ونفونا أن من العار أن تنفى الأسر نساءها وكرائمها ، فالمرأة عورة يجب أن تستر ، وحرمة يجب أن ترعى ، وعرض يجب أن يصان"[١٢]

ولهذا رأينا المؤلف يركز على ضرورة الالتزام بالقيم الاسلامية المتمثلة فى الشرف والمحافظة على العادات والتقاليد التى تتمشى مع تعاليم ديننا الحنيف ، ويعيب على أهل القرية إخراج هذه الأسرة المشردة لمجرد أن الزوج قد ارتكب جريمة من الجرائم أو كبيرة من الكبائر ، دفع حياته ثمنا لها.

وترسل زهرة لأهلها عائدة إليهم بعد أن علمت سقوط هنادى بعد أن غرر بها ذلك الشاب ودفعها إلى الغواية التى ستكون سببا فى قتلها ، عقوبة لها عما اقترفته ويبين طه حسين أثر هذه الكارثة فى نفسية هذه الأسرة ، هذه أمك صامتة لا تقول ، وهذه أختك واجمة لا أمل فى أن تفهم ولا فى أن تجيب .[١٣]

وفى القرية يقدم لنا طه حسين نماذج بشرية من الواقع تلعب دورا خطيرا فى حياة الدهماء منهم ، فهذه "نفيسة" كانت عرافة تقص ما كان وتصف ما هو كائن وتتبئ بما سيكون ، وكانت لها صلة قوية بالجن والشياطين ، تسعى بالرسائل بينهم وبين النساء وتستخدمهم فى كثير مما يشغل حياة المرأة الجاهلة الساذجة التى لا تزال تؤمن بأن سلطان الجن على الناس لا حد له.[١٤]

ومع انتشار الخرافات نجد ظاهرة الالتجاء إلى الأضرحة "والرأى لك يا ابنتى أن تستشيرى سادتنا من الجن أو سادتنا من الأولياء ، ففى هذه القرية القريبة منا مقام سيدنا فلان وإنه ليأتى بالأعاجيب .[١٥]

ويلبى "ناصر" نداء أخته زهرة ، فيسرع إليهن ، ويصوره الكاتب عندما أتى إلى هذه القرية التى فتحت أبوابها لهذه الأسرة المشردة ، كأنه شيطان يتميز بالعنف أعرابى فيه شدة لاتقبل المراجعة ولا تسمح بجدال ، تقول آمنه: "عرفت خالى ناصرا ،

(١٢) نفسه ص٣٣ — (١٣) نفسه ص٣٧

(١٤) نفسه ص٤٣ — (١٥) نفسه ٤٥

وذكرت أني كنت سيئة الظن به شديدة النفور منه ، وكنت ألوم نفسي أحيانا على سوء ظني وشدة نفوري ، حتى إذا صرع أبونا ورأيت كيف استقبل أمي بأنباء هذا الصرع وكيف قسا عليها وعلينا ولم يفكر في أنها أيم وفي أننا يتيمتان ، وإنما فكر في الأسرة وحديث الناس عنها ، وما يجر عليها هذا الخطب من عار[١٦]

ولقد كان من واجب هذا الخال أن يكون راعيا لهذه الأسرة لا مضيعا لها ، خاصة وأن من الأمور المتعارف عليها عند الأعراب الالتزام بستر المرأة وحمايتها.

وبرغم هذه القسوة والغلظة أمام أسرة بريئة ضعيفة "كانت أمي وأختي تتبعانه ببصريهما محزونتين لفراقه أشد الحزن ، وكأنه كان يمثل في نفسيهما صورة الوطن الذي نفينا عنه [١٧]

وإبراز الأديب لأهمية الوطن ومكانته في نفوس ذويه جانب من الجوانب الهامة التي لفت نظرنا إليها ، فإحساس نفي الأسرة عنه بذكرياتها الطويلة قد ترك في النفس آلاما نفسية شديدة ، تقول آمنة "والذي كنت لا أمضي فيه قليلا حين نفينا من قريتنا إلا أحسست كأني أترك فيه قطعا من نفسي أنثرها في أرضه الخضراء نثرا [١٨]

كما يشير طه حسين إلى نجدة الغريب وإكرام الضيف كسمة مميزة لأهل الريف نلمس ذلك في عدة مواقف داخل إطار هذا العمل الفني ، من ذلك قول الأعرابي للعمدة: "امرأة أقبلت منذ أيام ومعها فتاتان ، سألتك الضيافة فآويتها ، وآويت ابنتيها وأحسنت لقاءهن وأكرمت مثواهن ، ونحن أعرف الناس بحق الكرام ، قال العمدة: وما أنت وهذه المرأة وابنتاها ؟ قال الأعرابي: هي أختي قال العمدة: فقد نزلن على الرحب والسعة ، وما فعلت إلا ما كان يجب علي ، وما نفع هذه الدور إذا لم تفتح لإيواء الغرباء[١٩]

وفي الطريق إلى القرية التي منها بدأت المأساة والتشرد ، ومع سكون الليل وظلمته الداجية يقرر ناصر نهاية "هنادي" وهانحن أولاء ننزل مضطربات ، ونسعى متعثرات ، وهذه أمنا تريد أن تسأل فيم إناخة الجملين ، وفيم النزول في غير منزل وها أنا هذه أريد أن أقول شيئا ولكني لا أكاد أدير لساني في فمي ، ولا أكاد أستوعب ما كانت أمنا تقول ، إنما هي صيحة منكرة مروعة تنبعث في الجو وجسم ثقيل متهالك

---

(١٦) نفسه ص٥٠ (١٧) نفسه ص ٥٠،٥١ (١٨) نفسه ص٥١ (١٩) نفسه ص٥٢

يسقط على الأرض وإذا أختى قد صرعت ، وإذا خالنا هو الذى صرعها لأنه أغمد خنجره فى صدرها" [٢٠]

ويستطرد المؤلف أحداث هذه القصة بقرار آمنة بترك القرية والابتعاد نهائيا عن خالها المشئوم والعودة إلى بيت المأمور ، الذى تعيش فيه حياة جديدة ، تقول آمنة "ماذا أصنع فى تلك القرية ، وأى حياة تهيأ لى فيها ، كلها شظف وخشونة ، وكلها جهل وغفلة ، وكلها رجوع إلى ذلك الطور الأبله الذى جعلت أخرج منه قليلا قليلا ، حتى امتزت من أمى وأختى ، وأخذت أشعر أنى أحسن منهما فهما للحياة ، وأصدق منهما حكما عى الأشياء ، وأشد منهما صبرا على الخطوب ، وأمهر منهما فى التخلص من الشدائد والكارثات"[٢١]

واستأنفت آمنة الحياة مع السادة والخدم ، وبرغم ما كانت تلقاه من رفق ومحبة من هذه الأسرة إلا أنها قررت الانتقام من المهندس الذى تسبب فى مصرع شقيقتها ، ولهذا تسعى إلى خدمته متوسلة بزوبة خاصة وأن المأمور قد نقل من المركز ، وفى بيت المهندس بدأت حياة أخرى ، حيث أقبل هذا الشاب عليها مبتسما راضيا ، يحدق النظر فى وجهها ويتأمل جسدها ، ويستفسر منها عن اسمها وأهلها وعن أمرها كله "ثم هو يأمرنى أن أقبل وأن أدبر ، وأن أدنو وأن أبعد ، وأن أنحرف إلى يمين وأن أنحرف إلى شمال ، وأنا أستجيب لكل ما يدعونى إليه ، وقد هدأ اضطرابى وسكنت نفسي ، وعاودنى صوابى ، وأنا أتحدث إلى نفسى بأن هذا الفتى يعرف حقا كيف يكون شراء الرقيق" [٢٢]

وعندما يبتغى عندها المهندس الشاب من اللهو والمجون " ما يبتغيه أمثاله من الشباب المترفين عند أمثالها من البائسات الغافلات[٢٣]، إذا بها لم تضعف أمامه تعامله فى حياء واحتشام ، وبأدب ملحوظ ، ترعى شئونه بهمة ونشاط ، وفى نفس الوقت لاتعطيه الفرصة التى يمكن من خلالها أن تخسر معركتها كل ليلة معه ، وشعرت فى نفسها بالانتصار أو لست أخرج من هذه الدار وقد جرعته مرارة الهزيمة ، وعلمته أن من فتيات الريف الساذجات الغافلات من يستطعن الثبات لأمثاله والامتناع على أصحاب الذكاء والجمال والترف والجاه والثراء؟"[٢٤]

---

(٢٠) نفسه ص٦٤،٦٥ (٢١) نفسه ص٥٤ (٢٢) نفسه ص١٣٩

(٢٣) نفسه ص١٤٦ (٢٤) نفسه ١٤٦

وعندما استحالت الحياة بينهما إلى كثير من المغاضبة ، بل فشل كل محاولاته للإيقاع بها ، أعلنت الفتاة عن رغبتها فى الحياة النقية "فإنى لا أبتغى إلا أن أعيش حيث آمن على شرفى هذا الذى لم يذهب ، وعلى عفافى هذا الذى لم يضع وإن ظن سيدى بى الظنون" (٢٥)

لقد فشل أمام تحديها له ، وثباتها أمامه ، فالمرأة لاتغلب إلا إذا أحبت ، ولاتقهر إلا إذا أرادت ، ولا تذعن إلا إذا رغبت فى الإذعان ، كل هذا أدى إلى زيادة تعلقه بها ، وعندما صدر قرار نقله إلى القاهرة فإذا بها تبكى بحرقة ، لأنها خلال الهجوم والمدافعة أحبته ، وترافقه إلى القاهرة ، وتمضى بهما الأيام إلى أن يقول لها ضاحكا إنه سيتزوجها ، وعندما تذكره بالفارق الاجتماعى بينهما يقول: "إنك تظنين أنى أعبث ، وتقدرين مابينى وبينك من الفارق الاجتماعى ، متى تزوج السيد المترف من خادمته الشقية الفقيرة البائسة ، أليس هذا هو ما تقدرين فأريحى نفسك إذن من كل تلك الخواطر ، لست سيدا كغيرى من السادة ، وقد رأيت أنا منذ عرفتك ، أنك لست خادما كغيرك من الخدم" (٢٦) .

واستمرت الحياة بالقاهرة شهورا ، حتى أعلن الشاب لها صراحة عن رغبته فى الزواج منها ، وهنا تجلس الفتاة آمنة لتروى له قصتها كاملة ، وأفرغت همومها وما كانت قد أعدت خطتها له انتقاما لمصرع أختها "هنادي" ، ويعلن الشاب رأيه قائلا: "لقد كان من الممكن أن نفترق قبل أن يغمرنا هذا الضوء ، فأما الآن فقد أصبح افتراقنا شيئا لاسبيل إليه ، أليس من العجب أن يكون هذا الضوء الذى أخذ يغمرنا شرا من الظلمة التى خرجنا منها ؟ إن أحدنا لن يستطيع أن يهتدى فى هذا الضوء إلا إذا قاده صاحبه ، إن العبء لأثقل من أن تحمليه وحدك ، وإن العبء لأثقل من أن أحمله وحدى ، فلنتحمل شقاءنا معا حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا(٢٧)

ورغم أن المؤلف أعد "آمنه" لكى تصبح زوجة للمهندس بأن ذكر أنها امتهنت الخدمة ، لأن والدها أضاع نفسه فى شهواته ، ولوبقى لعاشت بعيدة عنها ، وبأن حرص كما رأينا على أن تتلقى شيئا من التعليم مع خديجة فى بيت مأمور المركز ، ثم جعل هذا الشاب الذى غرر بالكثيرات من الفتيات قد اختلف عن غيره من الســــــادة

---

(٢٣) نفسه ص١٤٦ (٢٤) نفسه ص١٤٦ (٢٥) نفسه ص ١٤٩

(٢٦) نفسه ص ١٥٨ (٢٧) نفسه ص ١٦٠

"فقد أخطأ طه حسين فى نهاية الرواية السعيدة ، فإن الوقوف إلى جانب الطبقة الكادحة ، والتعاطف معها ، ومحاولة رفعها وتصعيدها السلم الاجتماعى ، عن طريق زواج سيد بخادمة ، تصرف رومانسى خيالى ، فهناك فوارق أخرى كثيرة ، تنشأ من الفارق الاجتماعى بين طبقة السيد وطبقة الخادم ، وستهدد هذه الفوارق هذا الزواج ، وربما تقوده إلى كارثة تسحق الطرفين[٢٨]

وإذا كان طه حسين قد بدأ هذه القصة بأخطر أحداثها والذى يتمثل فى قيام آمنة بالانتقام من ذلك الشاب الذى سلب أختها هنادى أعز ما تملك ، فإذا بها تلتقى بالطائر العزيز الذى ظل يتردد عليها محدثا خلال القصة ، فتقول له "أفتدعنى أقص أطرافا منه علي الناس لعلهم أن يجدوا فيه عظة تعصم النفوس الزكية من أن ترهق ، والدماء البريئة من أن تراق؟" [٢٩]

والمؤلف يفصح منذ البداية عن الهدف التعليمى لروايته حين يجعل آمن تستأذن الكروان فى سرد قصتها على الناس ، لعلهم يتعظون بما جاء فيها ، ويكفون عن سفك الدماء ، ويتجنبون شر القتل بدعوى الدفاع عن العرض ، وهو يبين عن نفس هذا الهدف حين يشجب تصرفات بعض شخصياته شجبا صريحا ، فيصف حياة زنوبة مع زوجها بأنها "عيشة يقرها القانون وتنكرها الأخلاق والدين ، ويمقتها أهل المدينة أشد المقت" [٣٠]

وهو يفعل نفس الشئ عند حديثه عن نفيسة العرافة التى كانت تسعى بالرسائل بين النساء وبين الجان ، فليست "دعاء الكروان" إذن رواية تسعى لمجرد التعبير الفنى عن حياة الناس ، دون النظر إلى ماينفعهم أو يضرهم من هذا التعبير ، بل هى عمل فنى يريد – إلى جوار المتعة – أن يفيد ، وهو لهذا يأخذ نفسه بكثير من القيود ، ويتحلل أيضا من كثير غيرها[٣١]

ولقد قصد طه حسين أن يقف إلى جانب هؤلاء الفقراء الكادحين ، وحاول أن يسمو

---

(٢٨) د. محمود شريف ، أثر التطور الإجتماعى فى الروايه المصريه ص٣٢٤

(٢٩) طه حسين ،دعاء الكروان ص١١ (٣٠) نفسه ص٤

(٣١)د.على الراعى دراسات فى الرواية المصريةص١٤٣ .

بآمنة كرمز لهؤلاء ، ولكن الصفات التى أضافها إليها منها ما كان طبيعيا ويتمشى مع طبيعة الشخصية كالشرف والحفاظ على الطهارة ، ومن هذه الصفات ما جعلها تبتعد عن الطبقات الكادحة ، حيث تصف آمنة سلوك أسرتها بين الفلاحات فى أثناء مأدبة العشاء قائلة: "ونحن وجلات خجلات ، يدفعنا الجوع والأدب ويمسكنا الحياء والاحتشام ، حتى إذا استدارات الجماعة حولَ الجفان قل الكلام وقربت الأجسام ، وأضطربت الأيدى ، وعملت الأفواه ، وأنا أرى هذا كله فيؤذينى منظره ، ويقع من نفسى موقعا أليما ، ما أبعد ما بين هذه الأيدى الغليظة الخشنة وقد تقلص جلدها وتقبض ، وهى تغوص بما فيها من الخبز ، غوصافى القصاع فتصيب منها ما تستطيع ، وما بين تلك الأيدى الرقيقة الرفيعة الناعمة المترفة ، التى لم تكن تمتد إلى الأطباق إلا هينة ، والتى لم تكن تمس ما فى الأطباق إلا بهذه الأدوات التى يعرفها أهل المدن خاصة"(٣٢)

وأراد المؤلف أن يجعل من آمنة الخادمة الساذجة الأمية إنسانه متعلمة ليس للقراءة والكتابة فحسب ، بل متعلمة للغة الفرنسية ، وتتشوق لها حيث تقول: "أين القراءة مع خديجة ، وأين القراءة منفردة ؟ أين الكتب العربية ، والكتب الفرنسية التى كنت أنفق معها ، أكثر النهار وشطرا من الليل ، قارئة أو متحدثة عما قرأت ، أو متمنية لاستئناف القراءة ، لقد تركت كل هذا فى بيت المأمور"(٣٣)

ولعل هذا الانتقال لآمنة من طبقة الكادحين ، دفعها لأن تنسى مصرع أختها وفكرة الانتقام من المهندس الشاب.

وإذا كانت القضية المحورية لهذه القصة هى الحب والزلل والانتقام ، فإن المؤلف قد وفق فى معالجتها فنيا ، فأروع مواقف القصة وأشدها فعالية جاء فى تصويره لمقتل هنادى وقد احتاط طه حسين حتى لايتسرب إلينا شئ من حب العنف أو تمجيد البطولة الزائفة ، لهذا جاء إبراز الخال "ناصر" فى صورة نكرهها ، حيث يؤكد المرة تلو الأخرى أنه شيطان ، لنكره القتل ونتمنى عدم حدوثه.

وطه حسين فنان قدير ، إلى جوار أنه فنان تعليمى ، وهو لهذا لايقف عند مرحلة اختيار الموضوع ، وتجسيد أفكاره عن طريق الشخصيات المثبتة ، يرمز كل

(٣٢) طه حسين دعاء الكروان ص ٣٥ (٣٣) نفسه ص١٢٢

منها إلى فكرة أو صفة ، بل هو يتعدى هذا إلى رسم شخصيات بعضها متعدد الجوانب ، وشخصية آمنة من أبرزها حيث اهتم بإبراز كل ما يدور فى نفسها كما أن مقتل شيخ الخفراء عبد الجليل قد مهد تمهيدا فنيا واضحا لمقتل هنادى ، فمقتل الأول ممثل السلطة يدل على أن هذه الأرض تعتبر أرضا للجريمة ، فإذا كان ممثل الحكومة قد قتل ، فما الذى يمنع أن تقتل هنادى بعد أن حدث لها مالم تكن تتوقعه ؟

كما أن المؤلف قد نجح فى إبراز بعض الشخصيات الثانوية من أمثال زنوبة التاجرة المرابية الفائقة الحيوية ، وخضرة الدلالة ، التى كان مقدمها للمدينة والقرية عيدا لا يلبث أن ينقلب إلى غم أو العرافة نفيسة.

أما شخصية الكروان ، فقد أسند له طه حسين أدوارا هامة ، فهو تارة مع آمنة راوية الحوادث أو معلق على ما تم من أحداث وتارة أخرى نذير بما قد يقع من أحداث.

ودعاء الكروان تعد من "الأعمال الأدبية الناضجة التى تضع صاحبها فى مصاف رواد مدرسة التحليل النفسى فى الأدب وتجعله رائد هذه المدرسة فى الأدب العربى الحديث ليس بالدعوة النظرية وحسب كما قلنا ، ولكن بتقديم النموذج العملى غير المفتعل ، النموذج النابع من التقاء الثقافة والموهبة فى شخصية أديبنا العظيم [٣٤]

٢- العناصر الإسلامية فى قصة طه حسين "أديب"

قدم طه حسين هذا الكتاب سنة ١٩٣٥ ، وفيه تعبير عن أواصر المحبة التى ربطت بينه وبين صديقه الذى آثر أن يهديه هذا العمل ، ويعلل سبب الإهداء لأنه "أول المعزين إلى حين أخرجنى الجور من الجامعة ، وأول المهنئين لى حين ردنى العدل إليها ، وكنت بين ذلك أصدق الناس لى ودا فى السر والجهر ، وأحسنهم عندى بلاء فى الشدة واللين" [٣٥]

وقد صرح طه حسين باسم هذه الشخصية عندما سئل "إن هذه الشخصية هى شخصية الأستاذ جلال شعيب وكان مبعوثا فى باريس غير أنه أصيب بمرض عقلى

---

(٣٤) د. السيد تقى الدين ، طه حسين آثاره وأفكاره جـ٢ ص٣٠٣

(٣٥) طه حسين ، أديب ، دار المعارف ط٦ ص٥ .

فكان يسئ التصرف مما حملنى على الاتصال بسعد زغلول وكان مراقبا للجامعة الأهلية وشرحت له حالته ورجوته فى استدعائه ، وتم نقله إلى مصر " (٣٦)

ورسم طه حسين صورة لشكل صاحبه وجسمه وهو لم يتجاوز الثلاثين ، ونظرا لسمو وشائج المحبة فقد آثره فى جلسات تريح النفس والعقل ، وقد أشار إلى أن هذه اللقاءات بدأت فى الجامعة المصرية القديمة.

ومن خلال حواره مع طه حسين نلمس استخفافه بالأزهر ، يأتى هذا عندما يتعجب من حرص طه حسين على الاستماع إلي كل كلمة في المحاضرة "وماذا تريدون أن تسمعوا ؟ ولكنكم معذورون ، جئتم من الأزهر ، فكل شئ عندكم قيسم وكل شئ عندكم جديد" (٣٧) ثم قوله له "يا سيدى إنهم يدرسون لكم فى الأزهر التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية ، وما أشك فى أنك تستطيع أن تعيد على كل ما سمعته من هذا ، ولكنك تملأ صدرك بما لاتفهمه ولا تحسن الانتفاع به (٣٨) وعندما امتد الحديث بينهما فإذا به يقول: "أحب أن تلقى عن رأسك هذه العمة الثقيلة التى تضطرك إلى وقار لا أحبه لك ، ولا أرضاه منك وأن تخرج من هذه الثياب التى لايلبسها إلا الشبان الذين تقدمت بهم السن إلى صحوة الشباب" (٣٩)

وعن التحول المثير فى مجرى حياته ، حيث كان يريد أن يكون شيخا من شيوخ الأزهر مجددا فى التفكير والحياة ، يؤدى دوره كدور الشيخ محمد عبده "فأصبحت وأنا أشد انصرافا عن الأزهر ، ونفورا من دروسه وشيوخه ، وحرصا على أن أهجر مصر وأعبر البحر إلى بلد من هذه البلاد التى يطلب فيها العلم الواسع والأدب الراقى وتتغير فيه الحياة من جميع الوجوه" (٤٠)

وعن دور الواسطة فى الوسط الاجتماعى وأثرها الهدام ، فقد تحدث عنها صديق طه حسين "ولكنه يخشى أن يغلبه على الفوز بالبعثة أولئك الشبان الذين يتوسط لهم أصحاب الجاه" (٤١)

وبهذه الواسطة من أصحاب الجاه وأعضاء الجامعة تم لهذا الصديق ما أراد وأصبح عضوا فى بعثة الجامعة إلى فرنسا ، ولعل خطورة هذا المرض الاجتماعى

---

(٣٦) د. محمد الدسوقى ، أيام مع طه حسين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ص ١٠٥

(٣٧) طه حسين،أديب ص١٤ . (٣٨) نفسه ص٢٠ . (٣٩) نفسه ص٢٤ (٤٠،٤١) نفسه ص٤٢

كبيرة إذ لايجد الإنسان المجتهد طريقا يحقق من خلاله طموحاته وأحلامه ، وتمكن لمن دونه كل شئ .

ويعرض المؤلف صورة مؤلمة للفرق الشاسع بين باطن الإنسان وظاهره ، خاصة عندما يكون من هؤلاء الذين درسوا بالأزهر "وإنى لأقيس نفسى إلى صاحبك هذا الشيخ ماكاد يظفر بالإجازة التى تجعله من علماء الدين وتضمن له أجرا يوسع عليه فى الحياة ويمكنه من الترفيه على نفسه ، حتى أقدم على ماتعلم وما لاتعلم من الآثام والخطايا والخصال التى لاتلائم علما ولا دينا ولا خلقا فهو يغرق فى المجون والإثم إلى أذنيه حين تمكنه الفرصة ، فإن لم تواته دعاها واتخذ إليها الوسائل والأسباب ، وهو فى الوقت نفسه يخطب فتاة كريمة من أسرة كريمة ، ويظهر لهذه الفتاة البريئة وأسرتها أنه أطهر الناس سيرة وأعفهم لسانا وقلبا ويدا" (٤٢)

فهو بهذه الصورة يبدو أمام الناس ملاكا عالما زاهدا ، وهو فى حقيقة أمره ذئب بشرى خطير ، وهنا يأتى الخطر ، حيث لم يتأثر بما جمع من علوم وآداب فهذا التناقض فى السلوك يوحى بضعف الوازع الدينى ، وانعدام الضمير الحى ولهذا يصوره بأنه كالحمار "والله يعلم فيم ينفق شيخك الحمار ، أو حمارك الشيخ نهاره ، وأكبر الظن أنه سيكذب ويمكر ويكيد ، ويسعى بين الناس بالشر (٤٣)

وتتوالى الأحداث ليذهب هذا الطالب الذى استطاع بالواسطة أن يكون ضمن أفراد البعثة العلمية للجامعة المصرية إلى فرنسا ، وقبل أن يسافر يذهب إلى الريف ليودع أهله ، وإنى لأعجب من تصرفات هذا الشاب الذى ينتمى إلى الريف وتعلم فى الأزهر وحفظ ماتيسر له من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، ذلك أن تصرفاته تحيط بها الخطيئة والاثم والفجور ، بعيدا عن قيم الإسلام ومثله العليا ، فمن أجل فرنسا طلق زوجته بلا ذنب مدعيا أنه يحبها "وأنا آسف أشد الأسف محزون أشد الحزن ، لأنى أعلم أنى سأتعرض للفتنة إذا عبرت البحر ، وأن بعض اللحظ سيمس قلبى ، وأن بعض الجمال سيستهوينى ، وأن بعض الشر سيدفعنى إلى شئ من الغى (٤٤)

وإن تصرفات هذا الصديق – ابن العمدة – توضح مدى التدنى السلوكى وضعف الإيمان عنده ، فهو يتحدث عن مجونه وخلاعته بلا مواربة ، وهو كثير التفكير فى الجنس مضطرب مشوش حين يتعلم أو يدرس.

---

(٤٢) طه حسين أديب ص ١٠١ . (٤٣) نفسه ص١٠٣ . (٤٤) نفسه ص١١٣ .

ومن القضايا الإسلامية التى طرحها المؤلف ، قضية القضاء والقدر ، فهو يرى أن الإنسان مجبر وليس بمخير ، ويؤمن بأن الحسد ظاهرة اجتماعية وبأن الإنسان إذا خاب أمله اندفع إلى الشراب ، وسخط على الزمن والقدر يعبر عن ذلك وهو يعبر البحر بالسفينة قاصدا فرنسا "وإنما حياتنا كهذه السفينة تمضى بنا إلى حيث يريد القضاء لا إلى حيث نريد ، ومهما نلح ، ومهما نصح ، ومهما نتخذ من وسيلة ، فلن نقف حركتها ولن نردها إلى وراء ، ولن نتقى الانتهاء إلى هذه الغاية التى رسمها لنا القضاء"(٤٥) .

وفى مرسيليا يقدم على الكذبة الأولى ، حيث يعجب بالمضيفة التى تعمل بالفندق ومن أجل إشباع نهمه الجنسى أخذ يؤجل سفره إلى باريس "وكذلك خلقت لنفسى أيها الصديق من التعلات والمعاذير ما اقنعنى بأن الإسراع إلى باريس خطل وحمق ، وما حملنى على أن أنبئ أصحاب الفندق بأنى سأقيم أياما وعلى أن أقدم علي الكذبة الأولى فى حياتى الجديدة فأكتب إلى مراقب البعثة بأنى متعب محتاج إلى الراحة ، وبأنى سأبلغ باريس بعد أسبوع " (٤٦)

لقد بدأ حياته العلمية الجديدة بالانغماس فى الملذات والشهوات الحرام وشرب النبيذ وارتكاب المعاصى والآثام ، ولذلك فإنه يشير إلى أثر ضعف الوازع الدينى فى السلوكيات الإنسانية.

وإن عدم الإحساس بالمسئولية يورث الذل والاستكانه خاصة لمن ذهب على نفقة الجامعة المصرية بغية التزود بالعلوم والفنون ، حيث يضيع الوقت فى لهو ، علاوة على أنه يكتب إلى أهله بالأكاذيب ويخدعهم بالأمانى حتى يستخلص منهم المال بالحق والباطل ، ولعل هذا يدعو الجامعة لمتابعة طلاب البعثات فى كل ميدان حتى تنتشلهم من براثن الخطيئة والعار على أيدى الساقطات من أمثال فرننر وألين "ثم تمضى أسابيع ، وإذا أنا قد صرفت عن العلم ودفعت إلى اللذة ، وأفلت من السوربون ولزمت

---

(٤٥) طه حسين ، أديب١٣١ .   (٤٦) نفسه ص ١٣٧ .

ذراعى ألين ، ويزورنى الأستاذ للدرس مع الظهر فيجدنى مغرقا في النوم ، لأنى أفنيت الليل ووجه النهار فى اللهو والعبث والمجون [٤٧]

وهكذا لا يكتب له النجاح ، ولعل هذا نتيجة طبيعية تتمشى مع تصرفات هذا الشاب الرذيلة ، ثم ينتهى إلى الجنون.

ولقد كانت رسائل هذا الأديب التى ترد إلى طه حسين من فرنسا تمثل صورة نفسية متكاملة لحياة إنسان تحول من حياة الريف إلى القاهرة ففرنسا ، ولقد كان صريحا مع نفسه إلى أن فارقه العقل وأصيب بالجنون.

والعناصر الإسلامية التى قدمها طه حسين من خلال عرضه للصورة النفسية المتكاملة لحياة إنسان نشأ فى الريف وعاش فى فرنسا تبدو واضحة لأثار دور الواسطة فى التحلل الاجتماعى ، حيث توصد أبواب للعلم أمام الشباب الطموح المحافظ على قيم دينه وشرفه والملتزم بتعاليمه ومبادئه ، فى الوقت الذى تفتحه أمام من ليس أهلا لتمثيل مصر فى بلاد الغربة.

كما عرض قضية النفاق الاجتماعى وآثارها السيئة فى حياة الإنسان والمجتمع حيث إنها تورث الذل والاستكانة وعدم الإحساس بالمسئولية وتبعات الجهاد ونجح فى تقديمه لقضية القضاء والقدر خلال عرضه لاستهتار هذا الصديق واستسلامه وإهماله لواجباته كطالب علم وجنوحه للكسل والسير وراء الساقطات وارتياد بؤر الفساد.

وقد جاءت نهاية القصة حزينة كئيبة لتتمشى مع مبادئ الحق ، فمن جد وجد ومن زرع حصد ، ولتكون عظة وعبرة لكل طالب علم خارج أو داخل وطنه بأن يواصل الاجتهاد والطموح ويترك كل مايشين نقاء سريرته ويوطد إيمانه بالله ورسوله.

---

(٤٧) طه حسين أديب ص ١٦٨

٣- العناصر الإسلامية فى قصته "أحلام شهرزاد"

نشرت هذه القصة فى الفترة مابين ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ ، وقد أشار المؤلف فى المقدمة إلى أهمية القراءة كوسيلة للرقى الحضارى ، ويستشهد المؤلف بدور القرآن الكريم فى الحض على القراءة والتزود بالمعرفة "وبهذا الفعل القصير الخطير بدئ تنزيل القرآن ، فكان أول ما خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم وخوطب به الناس من بعده ، هو هذا الأمر الكريم بالقراءة " (٤٨)

وكانت هذه القصة باكورة سلسلة "اقرأ" التى ساهم فيها المؤلف بغية إتاحة الفرصة أمام الجميع للقراءة والطموح إلى الكمال ، فالقراءة أخص مميزات الحضارة ، والأساس الذى تبنى عليه الحياة العقلية ، لترفيه الشعوب وإزالة الفوارق بين الطبقات.

والمؤلف يعرض علينا فى هذا الكتاب أربع ليال من ليالى شهرزاد مع شهريار مليئة بالخواطر المتباينة حول الحب والحرب والسلام والسياسة والحكم.

ومن خلال حوار طهمان بن زهمان" ملك الجن فى حضرموت وابنته الحسناء فاتنة يبرز المؤلف العديد من القضايا النفسية والاجتماعية.

وشهريار عند طه حسين نموذج للملك المستبد المتعطش لشرب الدماء المنصرف إلى إشباع غرائزه وملذاته ، أما شهرزاد فهى نموذج للملكة الحكيمة المثقفة التى استطاعت بذكائها أن تقنع الملك بسوء سيرته دون أن يمسها أذى منه ، وأن تقدم إليه المعرفة فى صور جذابة ومغرية ، خاصة عندنا جعلته يتعلق بها ويندمج معها وتتفاعل نفساهما فى صفاء روحى.

ومن القضايا الاجتماعية الإنسانية ، رعاية الأب لأبنائه وخشيته عليهم فى حياته تقول فاتنة لوالدها ويحى عليك يا أبت ! ماعرفتك قبل اليوم حافلا بالقلق أو معنيا بالخوف ، وما أرى إلا أنك تفكر فى ابنتك فتكثر التفكير ، ويسوءك أنك حين تفارق هذه الحياة لن تترك لها أخا ولانصيرا ،ولكن أحب أن تطيب نفسا وتقر عينا ، فتإن ابنتك قد تعلمت منك كيف تواجه الحياة وتثبت لخطوبها وتنفذ من مشكلاتها (٤٩)وعن الآثار السيئة للحرب وما تجلبه من خراب ودمار قالت فاتنة لوالدها "إنهم يأتمرون بهذا الملك ليدمروه ، وبصاحبته ليستذلوها ، وهم من أجل ذلك يهيئون

---

(٤٨) طه حسين ، أحلام شهرزاد ص هـ من المقدمة اقرأ العدد الأول .

(٤٩) طه حسين أحلام شهرزاد ص ٢٠ .

للحرب ويجهزون لها جهازا لم يجهزه أحد من قبل ، فإن الحرب لايقتلها إلا الحرب ، وإن الكيد لا يفسده إلا الكيد ، وإن الحديد لا يفله إلا الحديد [٥٠]

فالحرب تجلب الخراب والمكروه ،و أهوالها مزيلة للتقدم ومدمرة للحضارات وتجنبها خير من الوقوع فيها ،ما لم تكن حربا للدفاع عن الدين والشرف والوطن.

وعن آثار الحرب وكوارثها التى تصيب غالبا النفس والولد والمال والعمران ، يقول ملك الجن طهمان لابنته فاتنة: "فستأذنين لى فى أن أحدثك بما أبيت أن تسمعيه من الوزراء ورجال القصر فإنهم ياابنتى قد أشفقوا على أنفسهم ومدينتهم وأهل المملكة جميعا من هول هذه الحرب التى تتعجلينها وهم يعلمون أن أهوال الحرب لن تبلغك ولن تبلغنى فإن لك ولى ملكنا عصمة ووزرا ، ولكنها ستبلغهم هم ، ستعرض شبابهم للموت ، وستعرض أطفالهم لليتم ، وستعرض شيوخهم للبؤس والثكل ، وستعرض نساءهم للتأيم والشقاء ، وستعرض أموالهم للفناء ، ستصب عليهم البؤس صبا فى ألوانه المختلفة التى لم نذقها ولا ينتظر أن نذوقها" [٥١]

ولعل من مساوئ الحكم الديكتاتورى الانفراد باتخاذ القرارات دون المشاورة ، والويل والهلاك لمن يعترض أو يبدى اقتراحا ، وهكذا وجدنا الوزراء ورجال القصر ينكرون الحرب فى نفوسهم لأنها كارثة محققة ، ستكون سببا فى ضياع نعيمهم ولم يجرؤ أحد منهم أن يجهر بما أضمر فى قلبه ، لخوفه من الحاكم أو لخشيته من ضياع سلطته ، فيذعن للأمر على كره منه ، وبهذا يكون قد ساهم فى الإيقاع بأهله وشعبه فى المكاره.

وحول التواضع ومعايشة الجماهير الكادحة الفقيرة يشير المؤلف إلى ذلك من خلال حوار بين شهر زاد وشهر يار "ألم يأن لنا بعد أن نهبط من السماء ، وأن ننزل إلى الأرض فنعيش فيها مع الناس؟ [٥٢]

ويبرز المؤلف ارتكاب الحكام للأخطاء والذنوب وضرورة الاستغفار منها رحمة بهؤلاء المحكومين تقول شهرزاد لشهريار: "أترى إلى ذنوبك يا مولاى ، إنها

---

(٥٠) نفسه ص ٢٠ . (٥١) نفسه ص ٤٨ ، ٤٩ . (٥٢) نفسه ص ٣٦ .

عظيمة جسيمة ، وإنك خليق أن تستغفر منها إلى أمتك هذه التى تعفيك من الاعتذار وتستغفرك من تحدثها إليك فى هذه اللهجة القاسية التى إن صورت شيئا فإنما تصور الحب والإشفاق والحنان " (٥٣)

والحق والعدل والصدق من الأمور الواجب الالتزام بها عند الحكام والمحكومين والتناصح بها فرضه الله على المؤمنين ، بغية إقامة الحياة الشريفة ، ويبرز هنا طه حسين أثر التناصح بالحق والعدل عند الملوك ، يقول الملك طهمان لابنته فاتنة : "فإنى جربت الملك من قبلك ، وعرفت أن الحق لايبلغ من المرارة فى نفس أحد مايبلغه فى نفوس الملوك ، وعرفت أن النصح لايثقل على أحد كما يثقل عليهم فلكل امرئ من نفسه ماتعود ، كما سيقول شاعر من الناس فيما يقبل من الزمان ، ونحن قد تعودنا أن تستقيم لنا الأمور ، وأن تجرى لنا على ما نريد لا على ما يريد غيرنا ، ونحن قد ألفنا أن نأمر ولا نأتمر ، وأن ننهى ولا ننتهى ، وأن نطاع ولا نطيع ، فأصبح الشذوذ لنا طبيعة ، والجموح لنا فطرة ، والاستبداد بالحياة والأحياء لنا قانونا ، فإذا تحدث إلينا متحدث بالحق ، أو دعانا داع إلى العدل ، أو رغبنا مرغب فى أن ننصف من أنفسنا كما ننتصف لها ، ضقنا بذلك أشد الضيق ، وكرهنا أعظم الكره ، ونكلنا بمن يدعونا إليه أو يرغبنا فيه تنكيلا" (٥٤)

ولعل استخدام طه حسين للرمز فى هذه القصة جاء نتيجة طبيعية للاستبداد الذى مارسته السلطة الملكية بقوة الحديد والنار ، أو بقوة النبذ الاجتماعى ، فربما التعبير بهذه الطريقة الفنية غير المباشرة لا يعرضه للأذى ، فصوت الملك شهريار بما يحمل من أفكار ومساوئ صورة مطابقة للملك فاروق.

ولقد لجأ أغلب الأدباء العرب إلى هذه الوسائل واستخدموها بذكاء ومهارة فى إدانة بعض مالم يرتضوه من جوانب الفساد والتى لم يكن فى وسعهم السكوت عليها ، وكانت الأسطورة كما فى هذه القصة من التكنيكات الفنية التى تكون بالإضافة إلى ما تضيفه إلى العمل الأدبى من قيمة فنية ستارا يحتمى به أصحاب الكلمة ، ويحتجبون وراءه من تنكيل السلطة بهم ، ومن مواجهتها مباشرة بآرائهم فيها.

---

(٥٣) نفسه ص٤٠ .   (٥٤) نفسه ص ٥٢ ، ٥٣ .

ويتابع طه حسين إبرازه لأثر السلطة الفاسدة ومفهومها الخاطئ لكرامة الشعب ، تقول فاتنة لوالدها ملك الجن طهمان "إن أثرة ملوك والسادة والزعماء هي التي تثير الحرب دائما وهي التي ترهق الشعوب دائما ، وأكاد أعتقد أن الشعوب إنما خلقت ليرهقها الملوك والزعماء بالحرب والسلم جميعا ، فليست الشعوب أعظم حظا من السعادة أثناء السلم منها أثناء الحرب ، إنا ندفعها إلى الموت حين نحارب ، وندفعها إلى البؤس والشقاء حين نسالم ، فهي ضحية لنا على كل حال" (٥٥).

ويؤكد طه حسين على ضرورة قيام علاقة وطيدة بين السلطة الحاكمة وأفراد الشعب على أن تقوم هذه العلاقة على المحبة والوفاء ، لأن التفرقة بين الحاكم والمحكوم خطأ كبير "وعلمنا أن هذه الفروق بيننا وبين الرعية مصطنعه لم تأت من الطبيعة ، وإنما جاءت من الحضارة" (٥٦)

كما يشير المؤلف إلى أهمية التعليم في تبصير الشعوب بحقوقها ، ووعيها بكل مايجري حولها من أحداث "ما الذي يمنعنا أن نشعر الرعية بنفسها ونبصرها بحقها كما بصرناها بواجبها ، ونهيئها لا أقول لتستأثر من دوننا بالأمر ، ولكن لتشاركنا في الأمر وتعيننا على احتمال أعبائه الثقال" (٥٧)

ولهذا تم إنشاء المدارس وتكليف النابغين من أبناء الشعب بعض أعمال الدولة وتحمل تبعات ذلك كنوع من المشاركة في المسئولية.

ويضع المؤلف نهاية مؤلمة للطغاة من الملوك المستبدين الظالمين ، يأتي هذا على لسان فاتنة لملوك الجن ، حيث قالت لأحد وزرائها وهي تضحك: "بل طغاه بغاة ياسيدي فيجب أن يستقبلوا كما يستقبل الطغاه البغاة ، تلقهم أنت إن شئت ، أما أنا فلن ألقاهم ، ولك أن توكل بلقائهم من أحببت ، فإذا مثلوا بين يديك ، أو بين يدى وكلائك فخيرهم بين الموت وبين أن يشهدوا على أنفسهم بالطغيان وإهدار حقوق الشعوب فأيهم اختار الموت فجرعه كأسه ، وأيهم اختار الحياة - وكلهم سيختارها - وأشهد على نفسه أنه طاغية مهدر لحق شعبه ، فليخلع نفسه من الملك وليلق إلينا بيده ونحن نسلمه بعد ذلك إلى وطنه يصنع به مايشاء" (٥٨)

وقد وفق طه حسين في إبراز معاناة الشعوب من حكامها الظالمين ، وبين كيف تتخذ القرارات المصيرية والنهاية المفجعة التي تنتظر هؤلاء الفاسدين.

(٥٥) نفسه ص٥٤ . (٥٦،٥٧) نفسه ص٥٨ (٥٨) نفسه ص١٣٤ .

٤- العناصر الإسلامية فى "شجرة البؤس"

تعد رواية "شجرة البؤس" أول عمل فنى فى الأدب العربى الحديث تصور الحياة الطبيعية للبيئة المصرية فى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وتعرض وسط بيئة تؤمن بالغيبيات الصراع بين العقل والعلم والمنطق من ناحية والتواكل والحسية المستترة وراء الدين من ناحية أخرى من خلال أسرة صعيدية فقيرة تعيش فى جو مظلم من البؤس والضعف والشقاء ، وتحرص الحرص كله على عاداتها وأخلاقها وشرفها وعرضها" (٥٩)

وقد نجح طه حسين فى تسجيل خواطره تجاه هذه الأسرة أثناء إقامته فى لبنان ، ونشرها ١٩٤٤ وقد تضمنت الكثير من العناصر الإسلامية ، التى وفق فى عرضها من خلال عرضه والتى تدعو إلى:

- ضرورة مواجهة البدع والشعوذة المتمثلة فى الطرق الصوفية: حيث أبرز المؤلف مدى انتشار هذه الطرق الصوفيه وسيطرتها على العوام من المريدين الذين ينتسبون إلى هذه الطرق ، فهذا خالد الذى تمكن والده من تهريبه من المدرسة النظامية ينضم إلى مشايخ الطرق وحلقات الذكر "وأصبح ابنه خالد يتعصب لشيخه وطريقته أكثر مما يتعصب للتجارة ، حتى أشفق الشيخ نفسه على هذا الشاب أن يغرق فى التصوف وينتهى إلى الانجذاب" (٦٠)

وكان شيخ الطريقة على دراسة كاملة بأحوال المنتسبين له ، يأمرهم فيطيعون ، وينهاهم فينتهون فخالد يستجيب لأوامر الشيخ ويتزوج بفتاة قبيحة المنظر لم يرها قبل الخطبة ، تزوجها لإرضاء شيخه وأبيه ، وبهذا زرع شجرة البؤس فى نفسه وبيئته ، ولعل هذا الإذعان وإيثار حب المال كان سببا فى جلب التعاسة والشقاء ، يقول عبد الرحمن والد الفتاة "وما كنت أعرف أن الشيخ يعلم أن لى ابنة ، وأن اسمها نفيسة ، قال على: فإن الشيخ لايخفى عليه شئ من أمر تلاميذه ومريديه" (٦١)

والعجيب فى الأمر أن والد الزوج عندما علم بأن زوجة ابنه قبيحة المنظر بشعة لم يتخذ أى موقف ولكنه قال ضاحكا" أو ليس قد أمر الشيخ ؟ أو ليس قد تلا

---

(٥٩) د. يوسف حسن نوفل ، القصة والرواية بين جيل طه حسين وجيل نجيب محفوظ ، دار النهضة العربية ط أولى ٧٧ ص٩٣ .

(٦٠) طه حسين ، شجرة البؤ س ص١٣ (٦١) نفسه ص١٦ .

عليك الشيخ هذه الآية فى أحلامك ؟ فأينا يقدر على أن يخالف أمر الشيخ ؟" (٦٢)

ومن العناصر الإسلامية التى أبرزها طه حسين في ذلك الموقف أنه كشف النقاب عن تلك المعتقدات الخاصة التى رسخت فى أذهان بعض الناس مما يتصل بالتماس البركة من الشيوخ ، وهى معتقدات تغلغلت فى صميم الوجدان المصرى متأثرة بمواريث التخلف ، وظهرت واضحة فى عصور الضعف نتيجة للبعد عن الدين الصحيح كحركة دافعة وقوة إيجابية راشدة ، وطه حسين لا يرتاح لهذه الظاهرة ولهذا عالجها فى هذه القصة وفى غيرها من الأعمال الإبداعية.

ولعله بهذا العرض السافر للواقع الاجتماعى ومافيه من خلل فى المعتقد الدينى ، قد استطاع أن يعالج ذلك الوهم الباطل الذى تحول عند غالبية البسطاء إلى عقيدة جعلتهم يلتمسون الأشياء عند من لايملكون لأنفسهم شيئا فضلا عن غيرهم ويبرز طه حسين عنصرا آخر من العناصر الإسلامية التى حرص على عرضها وهى المشورة بين أفراد الأسرة خاصة فى اتخاذ القرارت المصيرية ومنها الزواج حيث أوضح المؤلف أن والد الفتى خالد قد أعماه الطمع والجشع ولم يفكر فى أن يأخذ رأى ابنه فى شريكة حياته ، بل لم يستمع إلى زوجته التى تألمت لما أقبل عليه زوجها لأنه هو "لايزوج ابنه من ابنة صاحبه ، وإنما يزوج نفسه من ثروة صاحبه " (٦٣)

والشئ المؤسف أن هذا الرجل الذى فرض على ابنه زوجة لاتناسبه ولم يقم باختيارها بمحض إرادته أخذ يهدد زوجته بالطلاق إن لم يتم هذا الزواج فتصرخ أمامه "ولكن ثق بأنك ستندم على ما أنت مقدم عليه من الأمر ، وبأنك إن اتممت هذا الزواج لم تزد على ان تغرس فى دارك شجرة البؤس" (٦٤)

ونتيجة لذلك ازداد حزن والدة الفتى ، وكان هذا الحزن ناتجا عن شعورها بأن زوجها يكن للشيخ أكثر مما يكنه لها من السمع والنصيحة والمشورة "ولولا أن الشيخ أمر بهذا الزواج المشئوم لما صمم عليه ولا ألح فيه ، ولنزل فى أمره عن إرادة امرأته ، ولكنها عرفت حين تم هذا الزواج على كره منها أن هناك شخصا هو آثر منها فى قلب على ، وأكرم منها فى نفسه وأحرى ألا ترد له كلمة" (٦٥)

---

(٦٢) نفسه ص١٨ . (٦٣) نفسه ص٢٠ . (٦٤) نفسه ص٢١ . (٦٥) نفسه ص٢٦ .

ويمتد القهر والحزن بالوالدة حتى تحتضر ، وهنا يطلب منها زوجها على المغفرة عما ارتكبه من أخطاء فتقول أم خالد في صوت نحيل ضعيف "ليكن مرضى وموتى كفارة عما جنيت بتزويج ابننا من هذه الفتاة ، قال على وقد كاد صوته يحتبس في حلقه: فإنه أمر الشيخ" (٦٦)

ولعل المؤلف يريد أن يوضح أن الإسلام بتعاليمه السمحاء لايجبر الرجل على نكاح من لايريد ، كما أن النكاح في الإسلام يراد به الاستمتاع وتكوين أسرة صالحة ومجتمع سليم والمرأة كلما كانت جميلة المنظر عذبة المنطق قرت العين بالنظر إليها ، وأصغت الأذن إلى منطقها فينفتح لها القلب وينشرح لها الصدر وتسكن إليها النفس ، ويتحقق فيها قوله تعالى:

"ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة"(٦٧) .

ويتناول المؤلف قضية اجتماعية وهي: تعدد الزوجات ، موضحا آثارها من خلال موقف خالد تجاه زوجات أبيه وإحساسه ومشاعره تجاه ذلك بعد وفاة والدته وطلاق زوجته "فأما الآن فهو غريب في دار أبيه بين هؤلاء الضرائر اللاتي لا ينظرن إليه ولا يحفلن به ، لأنه لايغني عنهن شيئا فيما يكون بينهن من تنافس وتباغض وخصام " (٦٨)

فالآثار المترتبة خطيرة على الأبناء وسبل رعايتهم وتنشئتهم النشأة الصالحة.

كما يستقصي المؤلف ما يعانيه الإنسان المصري في مجتمع يواجه مشكلات الفقر والجهل والمرض وانتشار المحسوبية ، لدرجة أن شيخ الطرق الصوفية له تأثير كبير وسلطة تتعدى العامة إلى أصحاب السلطة ، يبدو ذلك عندما أراد خالد وابن عمه سليم أن يتوسط الشيخ لدى الباشا من أجل تعيينهما في الحكومة ، قال سليم "كلمة من شيخنا في أمرك وأمري إلى الباشا تبلغنا ماتريد" (٦٩)، ليبين أثر هذه المحسوبية على حياة الإنسان وطموحه .

ثم يعرض لقضية الفسادالاجتماعي وانتشار الرشوة حيث يوضح المؤلف هذه المفسدة خلال حديث على والد خالد مع صديق السوء الذي قال له " فلا تصدق أن

---

(٦٦) نفسه ص ٢٧ . (٦٧) سورة الروم آيه ٢١ .

(٦٨) طه حسين ، شجرة البؤس ص٥٩ . (٦٩) نفسه ص٥٦ .

موظفا يكتفي براتبه الذى يقبضه فى كل شهر ، ويقضى للناس حاجاتهم دون أن يأخذ على ذلك أجرا" (٧٠)

ويبين المؤلف أسباب انتشار ظاهرة الرشوة ووسائل تبريرها ، نجد ذلك عندما تتأزم الحياة أمام علي والد خالد وهو رجل مزواج مطلاق ، فيحتاج إلى مبالغ كبيرة من ابنه خالد ، فيدور حوار بين خالد وسليم يقول سليم نأخذ من الناس أجر مانؤدى إليهم من خدمة ، قال خالد: فإنها الرشوة إذا ، قال سليم: سمها أنت الرشوة ، فأما أنا فأسمي بعضها أجرا مستحقا ، وأسمي بعضها الآخر هدية مبذولة ، قال خالد: فإن الأسماء لاتغنى عن الحق شيئا ، فإنكم تتقاضون أجركم على ماتعملون آخر الشهر ، فما تأخذونه من الناس لايحل لكم ، لأنها الرشوة لاأكثر ولا أقل ، قال سليم: يحل لنا أولا يحل ، هذا آخر شئ نفكر فيه ، يجب أن نعيش قبل كل شئ ، والراتب الذى نقبضه لا يمكننا من أن نعيش" (٧١)

المؤلف يشير الى مسئولية الحكومة تجاه هؤلاء الذين تضطرهم بعض الظروف الصعبة إلى قبول الرشوة ،وتغيير مسماها لتبرير قبولها ،والتماس الأعذار نحوها.

ويعتبر طه حسين الرشوة جريمة خطيرة تؤدى إلى فساد المجتمع وأنظمته ويدعو لمحاربته ويدعو إلى تحقيق العدل الاجتماعى ، من خلال تقديمه لصورة الظلم الواقع على الفلاحين من الإقطاعيين والاستبداد الإدارى المتفشى وكان أبغض شيء إليه أن يكون صاحب أرض وزراعة ، يتعرض لما يتعرض له الفلاحون من الظلم والعنف ،ومن القسوة والشدة ومن هذه السياط التى كانت تأكل أجسامهم حين يقصرون مع سادتهم أو مع الحكومة ، أو حين يتهمهم سادتهم وتتهمهم الحكومة ظلما بالتقصير" (٧٢)

وقد وفق طه حسين فى إبراز صورة الفلاحين المظلومين وهم يفرون من زراعة الأرض تفاديا من الظلم والسخرة والإلزام ،وهكذا أصبح المواطن المصرى

---

(٧٠) نفسه ص١١٠ . (٧١) نفسه ص١١٤ . (٧٢) نفسه ص١٢ .

كارها لكل شيء تأمر به الحكومة ولكنه رأى الحكومة تريد أن تستكره الناس على أن يتعلموا فى المدارس النظامية ، وكان يرى هذة المدارس إثما من الإثم ، وزورا من الزور ، فهرب ابنه من المدينة وجد فى تهريبه. (٧٣)

ومن القضايا التى عرضها المؤلف وأبدى مواجهة حاسمة لها ، قضية الأمية ، التى قدمها بصورة رائعة ، مؤمنا أن العلم طريق الحضارة والتقدم ، فهذا مسعود التاجر صديق الشيخ كان يغتاظ حين يرى الزراية على الأمية والغض من الأميين ، كان يرى فى ذلك شيئا من الإثم ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان أميا ، ولأن العرب كانوا أميين لم يعابو بذلك ولم يغض ذلك من قدرهم قليلا ولاكثيرا . (٧٤)

ثم ينبرى طه حسين لدحض هذه الأفكار الخطيرة ، والتى تستشرى بين الناس العاميين خاصة فى المجتمعات الريفية البسيطة" فإذا كانت أمية النبى آية له فأمية الحاج عمران نقص فيه ، وإن العرب لم يفاخروا قط بأميتهم ، وإنما جاء النبى ليخرجهم من هذه الأمية" (٧٥)

ويلح طه حسين فى الدعوة إلى نشر العلم والثقافة باعتبارها القاعدة الصلبة التى تبنى عليها الحضارات

ونجد كثرة استشهادات المؤلف بآيات القرآن الكريم والحديث النبوى سواء كان ذلك على لسان المؤلف أو إحدى الشخصيات بالرواية ، علاوة على تصويره لأداء الشعائر الإسلامية " فرغ الرجلان من صلاة العصر ، ومما تعودا فى أعقاب الصلوات من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير ودعاء" ويذكر ان خالدا "قام عند امرأته ذاكرا لله تاليا للقرآن داعيا مستعيذا من الشيطان ، واضعا يده على رأس نفيسة ، مؤمنا بأن هذه الآيات والأدعية التى كان ينطلق بها لسانه فى صوت مرتفع بعض الشئ فيه كثير من الإيمان وكثير من الخوف ، لاتصدر عن فمه فتشيع فى الغرفة وتطرد الشياطين فحسب ، ولكنها تصدر عن جميع جوارحه بعد أن تجرى مع دمه فى عروقه كلها كأنها الروح اللطيف الحار. " (٧٧)

---

(٧٣) بنفسه ص١٢ . (٧٤) نفسه ص٩٠ . (٧٥) نفسه ص٩٠ .
(٧٦) نفسه ص٣٠ . (٧٧) نفسه ص٣٤ .

٤- العناصر الإسلامية فى قصة "ماوراء النهر"

تم نشر هذه القصة فى الذكرى الثانية لوفاة د. طه حسين فى عام ١٩٧٥م ، وإن كانت قد نشرت على صفحات مجلة الكاتب المصرى منذ عام ١٩٤٦.

ولعل إحساس طه حسين بدور الأديب فى معالجة الواقع الاجتماعى ، بتصويره وإبراز آثاره وطرح قضاياه من خلال الصور الأدبية المختلفة ، هو الذى دفع طه حسين لتقديم هذا العمل الأدبى بغية الإصلاح الاجتماعى.

والعناصر الإسلامية المستخلصة من هذه القصة ، تعد صرخة ضد الظلم بكل أشكاله وألوانه ، ونشدان العدل فوق أرض مصر ، وربما حاول المؤلف التهكم والسخرية فى محاولة مقصودة منه لإنكار حدوث هذه القصة على أرض مصر فى عصر الملكية الفاسدة "وقصتنا لم تحدث فى العصر القديم ، وإنما نزعم أنها حدثت فى هذا العصر الذى نعيش فيه. (٧٨)

والكاتب ينفى حدوث هذه القصة بمصر معللا ذلك بطبيعة أرض مصر حيث السهول والانبساط وتعذر وجود الروابى ، ولسبب آخر وهو الأخلاق الطيبة التى يتميز بها أهل مصر ، ولأن أحداثها لاتتمشى مع طبائع المصريين "فلست ترى بينهم قويا يستذل ضعيفا ، ولا غنيا يستذل فقيرا ، ولا ناعما يستطيل على بائس ولا سعيدا يستخف بشقى ، ولست ترى بينهم متعجلا للمنفعة ولا مؤجلا لعمل من أعمال البر ، ولا مضحيا بمصلحة الكافة فى سبيل المصلحة الخاصة ، ولا مؤثرا لنفسه بالخير من دون مواطنيه" (٧٩)

ولا يخدعنا المؤلف بإلحاحه فى إنكاره والادعاء بأن أحداثها لم تقع فى أرض مصر ، ولعل هذا يتمشى مع قوله" إن هذا الأدب الجديد الذى أنشأته حكومات الطغيان إنشاء حين اضطرت الكتاب إلى العدول عن الصراحة إلى فنون من التعريض والتلميح ، ومن الإشارة والرمز ، حتى استقل هذا الأدب بنفسه ، وتنافس فيه القراء تنافسا شديدا وجعلوا يقرأون ويؤولون ، ويناقش بعضهم بعضا فى التأويل والتحليل واستخراج المعانى الواضحه والإشارات الغامضة " (٨٠)

---

(٧٨) طه حسين ، ما وراء النهر طبعة أولى ، دار المعارف بمصر ص١١ .

(٧٩) نفسه ص١١ . (٨٠) طه حسين المعذبون فى الأرض ، المقدمة ص١١،١٢ .

وتدور أهم أحداث القصة فـى قصـر كبـير قـائم علـى ربـوة شـديدة الارتفـاع والاتسـاع ، وفى دار من الطين الغليظ منخفضة فى قرية قبيحة تقع على السهل المنبسـط مما يلى الربوة

وبالنسبة للشخصيات الرئيسة نجد ثلاثة من سـكان القصـر وهم رءوف سيد القصر ، وولده الفتى نعيم وشاعره الشيخ "راغب".

أما سكان القرية الذين شاركوا فى تطور الأحداث فهم محمـود الحـذاء وابنتـه خديجة وولده أحمد وهناك العديد من الشخصيات الهامشية التى تملأ الفراغـات وتسـهم فى إكمال الصورة الفنيـة ، وطـه حسين يصـف هـذه الشـخصيات جميعـا وصفـا دقيقـا يوحى بالمقدرة والإبداع ويفسر الظواهر السلوكية ببراعة وإتقـان ، مسـتجليا البواعـث التي تكمن وراء الأحداث وتطورها.

وطه حسين يؤكد لقراء قصته أنهـا لاتحتمـل القـراءة السـلبية التـى لا تجـدى ويدعوهم إلى ضـرورة المشـاركة الوجدانيـة فـى تفهم الأسـباب والنتـائج ، ويـبرع فـى تصوير معالم الظلـم ومظـاهره المؤلمـة ، فسـكان القصـر قسـاة القلـوب غـلاظ الأكبـاد ينتشون بارتكـاب المظـالم ، يؤثـرون أنفسـهم بكـل شـئ أمـا سـكان القريـة فهـم أحـرار كالعبيد ، وعبيـد كـالأحرار والصلـة بيـن هـذه الشـخصيات هـى صلـة السـادة بـالخدم ، فالفلاحون يزرعون الأرض ويقدمون خيراتها لسادتهم ،وقد شاء حس المؤلف تصويـر ذلك من خلال عرضه للصلة بين الربوة والقرية بشقيها المادى والمعنوى.

ويميل المؤلف إلـى الاسـتطراد والتحليـل حـول طبيعـة المكـان والشـخصيات مؤثرا ذلك على الولوج فى استعراض الأحداث الرئيسة للقصـة " أحـب أن أنشـئ بينـى وبين القراء نوعا من الزمالة ، بحيث نبدأ القصة معا ونمضى فيهـا معـا ، نتفـق أحيانـا ونختلف أحيانا أخرى ، ويشجر بيننا الخلاف والخصام من حين إلى حين [٨١]

ولكن ربما أدت كثرة التفصيلات إلى أن تصرفنا عن العمل الفنى لا أن تقربنا منه خاصة أن هذا العمل قصة ينبغى عليها أن تضـع القـارئ مـع الأحـداث مـن أول وهلة كما أن إيجاد علاقة الزمالة بين القـارئ والكـاتب لاتصنعهـا التحليـلات المطولـة بقدر ما يصنعها الصدق فى التوصيل والقدرة على النفاذ إلى وجدان هذا القارئ .

---

(٨١) طه حسين ما وراء النهر ص٣٠ .

ولقد كانت الاحداث تدور بين مكانين امامهما نهر وعلى الضفه الشرقيه منه كانت الربوة والقرية ، وهذا النهر "عجيب بين الأنهار ، لايعرف الناس له منبعا ولا مصبا ، وإنما يرونه يسعى من الشرق إلى الغرب دون أن يستطيع أحد أن يقول من أين يأتى ؟ ولا إلى أين يجرى ؟" (٨٢)

ويستطرد المؤلف فى وصفه للنهر أن هناك جبالا شاهقة ترتفع إلى السماء ثم إن العبور إلى هذا الشاطئ يملأ القلوب رعبا وفزعا ، وقد عرف الناس أن من يعبر هذا النهر لايعود ، ثم ربط بين معرفة طبيعة هذا النهر والشاعر الشيخ ، ولذلك فهو يؤثر حديث النهر عن سواه ، حيث كان النهر "يقرأ على شاعرنا ألوانا من رسائل اختلسها من ريح الشمال ، وكانت تحملها إلى ظلال قوم عبروا النهر ولم يعودوا ، وكانت هذه الرسائل تصور ما يضطرم فى بعض القلوب من لهيب الحزن والأسى ، وما يزهر فى بعضها الآخر من الذكريات " (٨٣)

وتبدأ أحداث القصة بحوار بين الفتى نعيم والشاعر راغب ، يستفسر خلاله الشاعر عن سبب قراره بالسفر المفاجئ ، فتكون إجابة الفتى نعيم "إنها المأساة يا سيدى ، إنها المأساة ، لقد زلزلت الأرض وغضبت السماء ، وأظلمت الدنيا وفسد فى حياة القصر كل شئ" (٨٤)

وعندما أراد الشاعر من الفتى أن يفسر هذه المشكلة قال نعيم "ذاك أن الشيوخ ينسون الشباب ، أو قل إنهم يستبقون الشباب لأنفسهم ، ويستأثرون بما يتيح لأصحابه من فرصة ، وما يبيح لهم من تجاوز الحدود ، يرون ذلك سائغا حين يتصل بأشخاصهم ، ويرونه حراما حين يتصل بغيرهم من الناس" (٨٥)

ولم يكن الشاب نعيم هو الذى سيغادر القصر ، بل سيتبعه بعد أيام قوم نبت بهم الدار لقد طرد رءوف صاحب القصر ابنه نعيم وتخلص من زوجه أم نعيم بالطلاق ، والسبب فى ذلك هو أن نعيما أحب فتاة من أهل القرية ، راقه منظرها وفتنه سحرها ، فصبت إليها نفسه ، ثم انتهى الأمر بهما إلى غايته من الإثم ، خدعها فانخدعت "ومتى تحرج السيد من اللهو بإحدى إمائه ، ولم تتحفظ هى ، ومتى تحفظت الأمة فلم تستجب لأحد سادتها" (٨٦)

---

(٨٢) نفسه ص٣٥ . (٨٣) نفسه ص٤٣ . (٨٤) نفسه ص٥٠ .
(٨٥) نفسه ص٥٠ . (٨٦) نفسه ص٥٥ .

ويحاول الشاعر أن يوضح للشاب الفارغ المترف أنه ليس سيدا ، وإنما امتاز على الفتاة المخدوعة بثروته ومكانته الاجتماعية ، فيرد نعيم: إنكم تستذلونهم وتستغلونهم ، وتضطرونهم إلى البؤس وتفرضون عليهم الحرمان ، تكلفونهم ما تكلفونهم من ضروب الجهد والعناء ، حتى إذا آتى جهدهم ثمره وانتهى عناؤهم إلى نتيجة ، أخذتم خير ما تثمر الأرض على أيديهم فآثرتم به أنفسكم من دونهم واستمتعتم بنعيمه ، وهم ينظرون إليكم من قريتهم تلك التى توشك أن تكون قطعة من جحيم" (٨٧)

ويبدو من حديث الشاب أنه غير راض عن هذا النظام وهو المنتفع به وهو قد اقترف إثما كبيرا ولكنه مدرك لكل جريمته صادق النية فى إصلاح ماأفسده ، فقد قرر الزواج من خديجة على علمه بما يسببه ذلك من مشاكل وصعوبات ، ويأخذ طه حسين فى بعض الإسقاطات السياسية حول ذلك الحديث "إن أرض القرية لخصبة تنبت الغنى ، ولكنها تنبت الغنى لكم ، ولا تنبت لأهلها إلا فقرا وبؤسا وحرمانا ، وإنكم لتعلمون ذلك وتقبلون عليه عن تعمد له ورغبة فيه ، لاتتحرجون ولا يخطر لكم أن تتحرجوا ، فإن لامكم فى ذلك لائم أو عابكم عليه عائب دعوتم بالويل والثبور وعظائم الأمور ، ونظرتم إلى أنفسكم كأنكم الضحايا ، وإلى لائميكم والعائبين عليكم كأنهم الأعداء المغيرون" (٨٨)

ويستعرض الشاب مظاهر الحكم الفاسد وكيف يحل الحرام ويعمل على استغلال الفئات الفقيرة دون إحساس بمشاعرها ، ويتلذذ حين يشقيها ويتعسها ويطرح سؤالا آخر أمام الشاعر: "أواثق أنت بأن أبى إنما يسخط على غيرة على الحق وغضبا للحرمات ورعاية للخلق والدين ؟ أما أنا فما أرى أنه يسخط على إلا ضنا بى أن أنزل إلى مكانة دون مكانتى" (٨٩)

ولعل الشاب بهذه الصراحة قد بين حقيقة الأوضاع الاجتماعية ، ومدى الجور الواقع على الطبقات الفقيرة وابتعاد أداة الحكم ونأيها عن الدين كمنهج ودستور.

ويمضى المؤلف فى تصوير القصر وما يحتويه من تحف وتماثيل وترف وحياة ناعمة وحدائق فيحاء ، ويصور القرية ببؤسها وتعاسة أهلها ليأتى إلى شيخ

---

(٨٧)نفسه ص٥٦ . (٨٨) نفسه ص٥٨ . (٨٩) نفسه ص٥٨ .

عجوز "محمود" وبين يديـه نعال قديمة قد تخرقت وأدركها البلى وهو يعمل على إصلاحها ، ويقطن معه في هذا المكان الموحش أولاده أحمد وعلى وخديجة التي وقعت في حب نعيم وزوجه أم خديجة ويصور المؤلف أثر المأساة على أسرة الإسكافي ، وخاصة ابنه الشاب أحمد الذي أسرع إلى العاصمة ولحق بأخته وقتلها وأسلم نفسه للشرطي معترفا بما اقترف وحول مشاعر الشاعر تجاه نفسه ، يبرع طه حسين في إبراز هذه الأحاسيس ، إذ لم يكن الشاعر راضيا عن أي رأي أو مشورة ، بل كان كارها لكل ما قدم ، لأن حياته كانت دائما حياة الخادم مع السيد "ولو قد أحبتني الحياة كما أحبها ليسرتني لبعض العمل الذي يعصمني مما تورطت فيه أيام البؤس من تكفف الناس ، ومما أتورط فيه الآن من العيش في ظل هذا السيد الصديق ، فدعنا لما يريد هو " (٩٠)

يتضح من ذلك أن الشاعر نادم على هذه الفترة التي قضاها في خدمة سيده ويوحي ذلك بسوء الإدارة والنظام.

ثم يركز المؤلف على أهمية العمل الشريف في حياة الإنسان "فالحياة لا تحب الناس إلا حين يعملون لكسب حبها وهي لا تحتقر أحدا كما تحتقر الذين يعيشون عيالا على غيرهم" (٩١)

وحول نشاة رءوف سيد القصر ، والتربية التي تلقاها ، يذكر المؤلف أنه نشأ في ظل حياة يغمرها الترف "كان مدللا كأقصى ما يكون التدليل ، مترفا إلى أبعد حدود الترف يسئ الخلق من أجل ذلك كأسوأ ما يكون الخلق" (٩٢)

وهكذا عاش أول أطوار حياته وشبابه مغرورا عابثا ، يشبع غرائزه ، حتى أتيح له الزواج وتكوين أسرة ، ونشأ نعيم "يؤثر أمه البائسة بالحب والرحمة والرثاء ، ويختص أباه الماجن بكثير من السخط واللوم ، ولكنه يخافه أشد الخوف من جهة ، ويعجب به أشد الإعجاب من جهة أخرى ، يكره سيرته مع أمه ، ويرضى عن سيرته مع الناس" (٩٣)

ولعل هذا يعطي دليلا على دور التربية في النشأة وأهمية ذلك في حياة

---

(٩٠) نفسه ص٨٦ .
(٩١) نفسه ص٨٦ .
(٩٢) نفسه ص٨٥ .
(٩٣) نفسه ص٨٩ .

الإنسان ، وأثر التدليل والاستجابة المفرطة لكل رغبات الطفل دون الحد من التصرفت السيئة .

وعندما التقى الشاعر بسيد القصر رعوف دار الحوار بينهما حول مأساة مقتل خديجة ، يقول رعوف: "كأن لأمثال هؤلاء الناس شرفا تراق فى سبيله الدماء ، ويحتمل فى سبيله العقاب والعذاب ، لقد تغيرت الدنيا وفسد الناس ، وهبت على هؤلاء البائسين من أهل القرية وأمثالهم ريح لا أدرى من أين جاءتهم ، ولكنها حملت إليهم شرا عظيما " (٩٤)

فالحكام الظلمة لايعترفون بأية قيمة إنسانية للفقراء والبائسين ، وليس للشرف عندهم معنى ، ثم يستطرد رعوف سيد القصر "ولن أدهش إذا انبئت غدا ، أو بعد غد بأن هؤلاء الناس يضيقون بخضوعهم لنا ، وتسلطنا عليهم ، ويرون أن لهم فى أنفسهم حقوقا يدافعون عنها ، ويتكلفون فى الدفاع عنها مالم يتعودوا أن يتكلفوا وأن لهم فيما تخرج الأرض من الثمرات حقوقا أكثر مما نعطيهم ، وأن لهم فى الحياة مطامع وآمالا لم تكن تخطر لهم من قبل كل هذا يمكن ، وكل هذا خطير سئ العاقبة" (٩٥)

والمؤلف يوحى بغضب عن مشاعر الأغلبية المظلومة من طبقات الشعب الكادح ، ولعلها إرهاصات التغيير وإزالة كل مظاهر الفساد والرجعية التى أجاد طه حسين تصويرها فنيا أثناء حوار رعوف مع الشاعر.

رعوف: "انظر إلى ما وراء النهر أترى شيئا ؟ فمد الشاعر طرفه ثم رده ثم قال: تريد هذه النار التى تتألق على هذه القمة؟" (٩٦)

ولقد نجح طه حسين فى إبراز الثورة والمطالبة بالتغيير الشامل ، بالنار التى ستدمر الأغلال والقيود ، وتعيد البسمة المشرقة على الوجوه.

وحول الأسباب الحقيقية التى أدت بسيد القصر أن يطرد نعيم ويطلق والدته ، يعترف رعوف أن هذه الفتاة "كانت قد وقعت من نفسى موقعا غريبا ، قبل أن يفتن بها نعيما قال الشاعر فى صوت يريد أن يتفجر غيظا ولكن الشاعر يرده إلى الاعتدال والقصر ومن أجل هذا نفيت ابنك من الأرض ؟ قال رعوف: نعم وأخشى أن أكون نفيته من قلبي" (٩٧)

وأحداث القصة مليئة بالغرابة والغموض ، ولعلها تعد من الأدب الرمزى ،

(٩٤،٩٥) نفسه ص٩٤ . (٩٦) نفسه ص ١٠١ . (٩٧) نفسه ص١٠٣ .

فالقصة ليست مجرد سرد للأحداث وإبراز الشخصيات بقدر ماهى تدارس للظروف الاجتماعية والرمز فى القصة قديم ، والذى يتخذ منه الأديب ستارا لبث بعض الأفكار والمبادئ ولقد تجلت براعة طه حسين فى بث الأفكار وإجراء الحوار واختيار الشكل الفنى الذى تشكلت به القصة كمزيج من الحقيقة والخيال.

والرمزية عند طه حسين أقرب إلى التصريح منها إلى الرمز ، ولعل هدفه هو تصوير جوانب البؤس والشقاء والظلم فى حياتنا الاجتماعية وفساد النظام الحاكم والاستغلال البشع لكل حقوق الإنسان.

وفى هذه القصة يمثل رءوف شخصية الملك فاروق ملك مصر السابق وكاد المؤلف أن يشير إليه فى أكثر من موضع من خلال وصفه الجسمانى أو نظام تربيته وسلوكياته ومجونه وإسرافه فى المجون ، وعدم فهمه لقيمة الشرف ولعل موقفه من إبعاد نعيم وطلاق زوجه كان بسبب رغبته فى أن يكون هو المغتصب الأول لخديجة ، وقد وفق الأديب فى توضيح وكشف هذه الآثار المدمرة لإنسان ملكته وسيطرت عليه غرائزه وشهواته.

وابنه نعيم يرمز به إلى الحاشية الفاسدة التى كانت تأتمر بأمره وتسعى مستجيبة لكل مطالبه ، ومشاركته الفساد والاستغلال.

ولعل زوجه تمثل مصر ، حيث كان الحاكم يخونها ويسبب لها الكثير من الآلام والظلم بسبب تصرفاته السيئة ، وانتهى بها إلى الطلاق.

والنار المؤججة وذلك اللهب المشتعل الذى يبدو على الضفة الأخرى ليست إلا رمزا للثورة على الظلم والفساد والاستبداد.

ولعل النهر يمثل دور التاريخ الذى لا يتوقف ، بل يسجل باستمرار كل مظاهر الفساد والرجعية التى مرت بها مصر فى الأربعينيات.

ولعل شخصية "أحمد" شخصية إيجابية - رغم أنها ثانوية - فقد أدت دورا عظيما يكمن فى الدفاع عن الشرف ، ولولا الشرف ما كانت هناك قيمة للوجود ، نراه يقتل أخته خديجة على الرغم من أنه يحبها حبا عظيما ، لأنها لم تحافظ على سبب الوجود

أما شخصية "محمود" الاسكافى وامرأته "محبوبة" فإن كلا منهما يمثل الشخصية السلبية العاجزة ، فلم يتخذ أى منهم موقفا ما تجاه ابنتهما "خديجة" على الرغم من علمهما بهذه العلاقة التى تربطها والفتى نعيم.

ولعل الأديب هنا يشير إلى ضرورة وجود الرقابة والنصح والإرشاد من الآباء تجاه الأبناء.

كما أشار طه حسين إلى الاعتراف عما يرتكبه الإنسان من أخطاء ، يتضح ذلك فى اعتراف الشخصيةعن شئ فعلته ، وهذا ما نجده عند رءوف سيد القصر عندما يعترف إلى الشاعر الشيخ بأن الفتاة التى خدعها ولده قد وقعت فى نفسه - هو الآخر - موقعا غريبا.

وعندما أدار نعيم حوارا مع الشاعر ليتعرف على سلوكيات والده:

"إنك رفيق أبى منذ صباه وشريكه فى هزله وجده ، فهل تعلم أنه لقى من أبيه مثل ما ألقى منه ؟ وهل تعلم أنه وفق دائما لأن يخفى عبثه كله على أبيه ؟ أم هل تعلم انه كغيره من الناس له فى أثناء شبابه وجد ، وأسرف على نفسه وعلى أسرته فى اللهو أحيانا فأنكروا عليه فى رفق ، ونصحوا له فى حب ، ووجهوه إلى الخير ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وأكاد أقطع بأنهم لم يبلغوا مما أرادوا شيئا" (٩٨)

ولعل اهتمام طه حسين بالفكرة الإسلامية جاء نتيجة طبيعية للظروف الصعبة التى واجهت المجتمع المصرى من جراء التمزق السياسى والصراع الحزبى وفساد السلطة وحملات البطش والتنكيل بالأبرياء ، فهو يربط بين الظلم وآثاره السيئة فى حياة الأمة وشيوع ظاهرة الانحراف فى المجتمع.

وقد تمكن طه حسين ببصيرته النافذة من رصد حركة الانحراف والتحلل داخل البناء الاجتماعى للبيئة واستطاع أن يصور هذا الواقع المؤلم من خلال الشخصيات التى تفصح عن الأمراض والعلل التى تنخر كالسوس فى جسم المجتمع.

والمؤلف يهدف من جراء ذلك إلى أن نضع أيدينا على موطن الخلاص ، مستعينا على إحداث الأثر المطلوب فى نفس المتلقى بوسائله الفنية فى العرض والصياغة والتصوير.

---

(٩٨) نفسه ص٥٤ .

٦- العناصر الإسلامية فى قصة "المعذبون فى الأرض"

ظهرت مجموعة القصص التى صور من خلالها بؤس الإنسان المصرى ومعاناته من الظلم وقسوة الطغاة ، فى مجلة الكاتب المصرى منذ يناير ١٩٤٦م إلى فبراير ١٩٤٨م ، وعندما تم جمع هذه القصص فى كتاب يحمل عنوان "المعذبون فى الأرض" صادرته الحكومة "فيما صودر من كتب أخرى كانت تريد أن تبصر المصريين بحقائق أمورهم ، وأن تعظ منهم الطغاة والبغاة ، وتعزى منهم البائسين واليائسين" (٩٩)

وكان المجتمع المصرى الينبوع الذى استمد الكاتب منه ، أفكاره وصوره ، ولهذا حارب طه حسين الفقر المدقع الذى يؤدى بصاحبه إلى التهلكة ، والغنى الفاحش الذى يدفع صاحبه إلى المزيد من الكبر ، وأخذ يكرر دعوته إلى التحلى بالأخلاق الكريمة ونبذ كل رذيلة

ولعل إهداء الكتاب كفيل بأن يبرز مضمونه ، حيث قال المؤلف " إلى الذين يحرقهم الشوق إلى العدل ، وإلى الذين يؤرقهم الخوف من العدل ، إلى أولئك وهؤلاء جميعا أسوق هذا الحديث" (١٠٠)

وقد تضمن هذا العمل الأدبى سبع قصص ، وأربعة مقالات اجتماعية وسياسية تصور الواقع المصرى.

وعندما قدم طه حسين هذا العمل فى صورة أحاديث متفرقة ، لم تهتم بها الحكومة القائمة حينئذ ولم تلتفت إليه ، ولكن بعد أن تم جمع هذه القصص والأحاديث فى كتاب بهذا العنوان "المعذبون فى الأرض" وقفت له بالمرصاد وصادرته ، حيث "خيل للملك السابق فاروق" أنها دعوة للشيوعية ومجافاة للسلطان" (١٠١)

ولعل موقف الحكومات تجاه مثل هذه الأعمال بعد نعمة ونقمة ، أما أنه نعمة لأنه يضيف إلى أدبنا العربى لونا جديدا من الأدب دفع الأدباء إلى التلميح لا التصريح ، ومع ذيوع هذا النوع من الكتابة أقبل عليه القراء مؤولين لأفكاره ورموزه ، حيث

---

(٩٩) طه حسين ، المعذبون فى الأرض ،أقرأ العدد ١١٨ دار المعارف بمصر ص٩ .

(١٠٠) نفسه ص٥. (١٠١) د.يوسف نوفل ، الفن القصصى بين جيلى طه حسين ونجيب محفوظ ، ١٩٨٨ الهيئة العامة للكتاب ص٩٠ .

أخذوا يتنافسون فيما بينهم حول التأويل والتحليل واستخراج المعانى الواضحة من الإشارات الغامضة.

وهكذا "قهر الأدب بغى البغاة ، وأفلت من رقابة الرقباء ، وسجل على الظالمين ظلمهم ، وعلى المفسدين إفسادهم ، وأنشأ بينه وبين القراء لغة جديدة يفهمها الأدباء وقراؤهم ، وفنا جديدا يذوقه القراء ويحبونه ، ويؤثرون عليه التصريح والوضوح" (١٠٢)

ولقد وفق طه حسين فى تصوير الواقع الاجتماعى بمرارته ومآسيه ، ولم يكتف بتسجيل هذه الفواجع الإنسانية ، ولكنه أوحى بطريق الخلاص ، حيث فتح عيون المجتمع على أمراضه ومشكلاته محاولا استئصال شأفتها ، مع اعتزازه بانتمائه المصرى الإسلامى يتجلى ذلك خلال تحليلاته المسهبة.

وقد وفق طه حسين فى رصد حياة المجتمع المصرى فى الفترة مابين الحربين ، وما بعد الحرب الثانية وكان "المصريون فى تلك الأعوام القريبة البعيدة فريقين ، أحدهما يصور الكثرة الكثيرة البائسة التى تتحرق شوقا إلى العدل مصبحة ممسية وفيما بين ذلك من آناء الليل وأطراف النهار ، والآخر يصور القلة التى تشفق من العدل حين تستقبل ضوء النهار ، وتفزع من العدل حين تجنها ظلمة الليل". (١٠٣)

وفى القصة الأولى نجد المؤلف يقدم شخصية "صالح" كصورة للبؤس والشقاء والحرمان والجوع والذل "وأكبر الظن أن صالحا هذا لم يوجد قط ، لأنه يملأ المملكة المصرية من شرقها إلى غربها ، ومن شمالها إلى جنوبها ، يوجد فى القرى ويوجد فى المدن ويوجد فى كل مكان يملأ مصر نعمة وخيرا ، وهو مع ذلك يشعر الناس بأن مصر هى بلد البؤس والشقاء". (١٠٤)

وهذه القصة تدور أحداثها حول صديقين صغيرين أحدهما من أسرة متوسطة الحال بينما "صالح" من أسرة معدمة ، يلتقيان فى كتاب القرية ، ويختلف الصبى الثانى "صالح" إلى بيت الصبى الأول فى تردد وخجل ، لعله يصيب شيئا من طعام ، وكان

---

(١٠٢) د. السيد تقى الدين ، طه حسين أثاره وأفكاره جـ٥ دار النهضة مصر القاهرة ص٧٦ .

(١٠٣) طه حسين المعذبون فى الأرض ص٥.

(١٠٤) نفسه ص٢٤ .

صالح يعيش مع زوجة أب قاسية ، بعد أن طلق أبوه الفظ الغليظ أمه لشراسة أخلاقها ، وتتزوج أمه عدة أزواج تنتهي كلها بالفشل ، وتنتهي القصة بأن يأكل القطار سعيدا أخي صالح من أمه ، وصالحا في يوم واحد.

وطه حسين يركز الانتباه حول آثار الفقر المدمرة وما يستتبعه من جوع يمزق البطون "ولكن البؤس قد يتصل بأشياء أخرى ليست جوعا ولا إعداما ولكنها قد تكون شرا من الجوع والإعدام ، لأنها تتصل بالنفوس والقلوب" (١٠٥)

ومن العناصر الإسلامية التي اهتم المؤلف بتوضيحها دور كتاب القرية في تحفيظ القرآن الكريم وتربية الأبناء وتقويمهم بالرغم من أنه قدم شخصية العريف في الكتاب كرمز للرشوة والفساد ، وشخصية سيدنا كرمز للسذاجة والقسوة ،حيث يقوم الأطفال بالكتاب برشوة العريف بما يحملون إليه من مأكولات وغير ذلك ،أما صالح الفقير فلا يمكنه ان يحمل له شيئا مماجعله عرضة للضرب ، وعندما حاول أمين أن يفضح العريف أمام سيدنا تعرض هو الآخر للضرب ليتعلم "أن الشجاعة والصراحة وقول الحق خصال لاتحسن في جميع المواطن (١٠٦)

وأكثر المؤلف من الاستشهادات بآيات القرآن الكريم في مواضع متعددة ، ولعل ذلك سمة من السمات التي تميز بها أسلوب طه حسين ، كما نجد للمسجد وإقامه الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مكانا بارزا في أغلب قصصه الاجتماعية.

ويعرض المؤلف في القصة الثانية قاسم صورة دقيقة لمدى تأثير الفقر والجهل والمرض على قيم الإنسان ، فهذا "قاسم" مع أسرته في حجرة حقيرة ، يعمل صيادا على مايجود به البحر ، وتتحمل زوجه أمونة وابنته سكينة مرارة الأيام وشظفها ، وتتعرض الفتاة المسكينة لمحنة اخلاقية قاسية حين تلتقي في ظلمة الليل بزوج عمتها الحاج محمود الذي اصطنع الهدوء وتكلف التقوى وحافظ على الصلوات ولكن كانت "غريزته أقوى من إرادته ، وكأن ميله إلى اللهو كان أقوى من طموحه إلى التقوى" (١٠٧)

---

(١٠٥) نفسه ص٢٧ . (١٠٦) نفسه ص٣٠ . (١٠٧) نفسه ص٥٧ .

والمؤلف فى هذه القصة يوضح قيمة التمسك بالدين لابمظهر الدين ، حيث يتجلى ذلك فى سلوك الإنسان المؤمن وجوارحه.

ثم يبن أثر هذه الصدمة على الأسرة الفقيرة وقد اسودت الدنيا أمامها ، حيث يجلس قاسم والد الفتاة علي الحصيرة متهالكا حزينا بائسا وهو يردد "ماينبغى للفقراء أن يلدوا البنات " (١٠٨) فالشرف يمثل أسمى قيمة ترتبط بكرامة الإنسان ووجوده.

كما يستشهد المؤلف بآيات من القرآن الكريم تحفظ الإنسان وتؤمنه من الخوف ، جاء ذلك من خلال حديث الشيخ الضرير الذى قال لقاسم أخيه ذات يوم "إنك تسعى فى ظلمة الليل فتطيل السعى ، وتمتد بك الطريق مخوفة غير آمنة ، فاحفظ هذه الأية من القرآن ورددها فى قلبك أو فى لسانك ؛ فإنها تؤمنك من خوف ، وتؤنسك من وحشة ، ثم قرأ الأية الكريمة "الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب" (١٠٩)

وفى القصة التالية "خديجة" يوضح المؤلف نشأتها فى بيئة مليئة بالبؤس وشظف العيش ولكنها تميزت بالجمال والرقة رغم أن أباها شعبان كان وجهه جهما غليظا وأمها محبوبة كان وجهها قبيحا ، ومع الجمال عفة النفس والأمانه ، كانت الأم تعمل خادمة تتنقل فى البيوت وكان الأب يعمل بناء متواضعا حيث يقيم البيوت والحجرات التى تتخذ من الطين الغليظ ، وكانت خديجة الفتاة الجميلة الفقيرة البائسة تعمل خادمة عند إحدى الأسر الغنية ، وتتعرض الفتاة للضرب المبرح من والدتها عندما وجدت طبقين من الخزف بزاوية الحجرة "فلم تشك فى أن ابنتها تخون سادتها وتسرق ما فى دارهم من متاع ، لم يبق إذن إلا أن تسرق فتخون من يحسنون إليها وإلى أهلها ، ويتيحون لهم حياة فيها شئ من نعمة ورضا ، ولم يبق إذن إلا أن تسرق فتدخل الشر على أهلها وتزيد عيشهم ضيقا إلى ضيق ، وحياتهم شقاء إلى شقاء ، من أجل هذه السرقة التى استكشفتها قتر عليهم فى الرزق " (١١٠)

ويبرز المؤلف عنصرا إسلاميا رائعا وهو مدى حرص الأسرة الفقيرة على الأمانة ونبذ الخيانة ، والخوف من الله الذى يقتر فى الرزق لمن يخون الأمانة ، ثم تعلم الأم أن صاحبة المنزل الغنية هى التى أعطت الفتاة خديجة الطبقين وبهما قليل من الطعام.

---

(١٠٨) نفسه ص ٦٢ . (١٠٩) نفسه ص٤٣ . (١١٠) نفسه ص٧٢ .

وعندما تخطب الفتاة لفتى من فتيان القرية الموسرين ، ويأتى وقت الزفاف تنتاب الأم حالة من الخوف والهلع مما ستتكشف عنه ساعة من ساعات هذا الليل حين يدخل الفتى على زوجه ويؤكد المؤلف فى هذا التصوير الواقعى الرائع على اهتمام الإنسان الريفى البسيط بالشرف والحفاظ علي العذرية النقية الطاهرة ، وتأتى هذه الساعة "وتنطلق الزغاريد كأنها سهام من فضة تشق ظلمة الليل الحالكة ، وتسمع طلقات للبنادق هنا وهناك ، ويظهر جمع من النساء والصبية قد نصبوا شيئا يشبه أن يكون راية قانية ، وهم يهتفون بألفاظ ينكرها السمع ويمجها الذوق ، وسهام الزغاريد منطلقة يتبع بعضها بعضا ، كأنما تريد أن تمزق أحشاء الليل تمزيقا ، وامرأة وقاح تهز محبوبة هزا عنيفا وتزجرها زجرا مخيفا ، وتقول لها فى صوت يسمعه الناس: أفيقى ، ثوبى إلى نفسك ؛ ماتخافين ؟ لقد بيضت خديجة وجهك ووجه شعبان" (١١١)

ويوفق المؤلف فى تصويره لأحوال المجتمع المصرى متمثلا فى حياة هذه الأسرة المصرية وما حل بها من هموم وآلام ، ومدى المعاناة المريرة التى حدثت نتيجة التفاوت الكبير بين الطبقات علاوة على الطمع والجشع الذى سيطر على الكثير من أبناء هذا المجتمع ، "وأخص مايمتاز به هذا العصر الذى أعيش فيه الأثرة وحب النفس" (١١٢)

وظلت كتابات طه حسين ترغب الإنسان فى الحرية كوسيلة لحياة شريفة يمكنه خلالها أن يحقق ذاته ويعمل فكره ويشق طريقه ، تمثل ذلك فى تأكيده على مبدأ الحرية حتى بينه وبين القارئ "ويجب أن تكون الحرية هى الأساس الصحيح للصلة بين القارئ وبينى حين أكتب أنا ويقرأ هو" (١١٣)

وربما تكون هناك آراء متعددة ووجهات نظر متنوعة حول قضية من القضايا الاجتماعية التى يطرحها المؤلف "وأنا أريد دائما أن أكون كاتبا ذا خطر فأرضى قرائى وأسخطهم ، وأسر قرائى وأسوءهم ، وأعجب قرائى حتى يكلفوا بى أشد الكلف" (١١٤)

ويقدم طه حسين القصة الرابعة "المعتزلة" وهى أسرة مصرية بائسة فقدت

---

(١١١) نفسه ص٧٧ . (١١٢) نفسه ص٨٤ .

(١١٣) نفسه ص٢٣ . (١١٤) نفسه ٨٣

بنيها عام ١٩٠٢ نتيجة الإصابة بوباء الطاعون ، وهو نفس العام الذى ذهب فيه شقيق طه حسين طالب الطب من نفس الوباء ، "وخطر لى أن أهدى حديث هذه الأم وبنيها الثلاثة إلى البائسين المعذبين الذين مسهم الضر قبل الوباء ، وألح عليهم بعد الوباء حين تخطف الموت أبناءهم وآباءهم وأخوتهم وعائليهم وتركهم نهبا للشقاء لايدرون كيف يتقونه ، ولا كيف يحتملونه ، ولا كيف يخلصون منه" (١١٥)

وقصة "المعتزلة" تروى حياة أسرة تعيسة غريبة الأطوار ، نزلت إحدى القرى وأقامت فيها معتزلة الناس ، لها ابنة دميمة تسمى سعدى ،وتنتهى أحداث القصة بانتحار الأم وجنون الابنه البلهاء التى حملت فى بطنها جنينا لايعرف له أب ويتعرض الكاتب لطبيعة العصر القائمة على الزيف والأنانية ، ويكشف عن دور بعض الأدباء الذين يعملون على خداع الجماهير الكادحة بالكلمات المعسولة التى لاتعبر عن قضاياهم ومعاناتهم ومطالبهم المشروعة "وأخص ما يمتاز به هذا العصر الذى أعيش فيه الأثرة وحب النفس" (١١٦)

وطه حسين ينكر على أصحاب الأثرة من الأغنياء والمسئولين فى الحكومة أثرتهم بل ويحرض عليهم المجتمع البائس من حولهم فى أسلوب يفيض مرارة وألما وبؤسا ويسخر فى نفس الوقت ويستهزئ بالكتاب الذين يمتصون غضب الجماهير بأحاديث الوعظ والإرشاد التى لاتعبر عن طموحهم أو آلامهم "ومن الكتاب البارعين من يشيعون خواطر عقولهم وعواطف قلوبهم وأحزان ضمائرهم فى حديثهم كله منذ يبدأونه إلى حيث يفرغون منه ، يتخذون من قصصهم أغشية لهذه المواعظ والعبر ، فيخدعون بذلك بعض القراء عن أنفسهم" (١١٧)

ويركز المؤلف من خلال الأحداث المتشعبة ، والملاحظات المتفرعة ، والتحليلات الشمولية على أن "حالة الحرمان والبؤس والفقر والجوع هى البطل الحقيقى فى كل هذه الصور" (١١٨)

---

(١١٥) نفسه ٨٢ . (١١٦) نفسه ص٨٤ . (١١٧) نفسه ص٨٨ .

(١١٨) د.محمود الحسينى المرسى ، الاتجاهات الواقعية فى القصة المصرية القصيرة حتى عام ٨٠ دار المعارف ١٩٨٤ ص٢٩١ .

ويعرض علينا فى قصته الخامسة "رفيق" قضية اجتماعية وهى الأضرار الناتجة عن تعدد الزوجات وعدم تحرى العدل بينهن وأثر ذلك على حياة الأبناء ، "فأسرة الضابط التركى كانت تعيش فى سعادة وهناء وكانت ربة الدار سيدة كريمة ، فقد تقدمت بها السن شيئا ولكنها كانت حلوة الشمائل ، عذبة الحديث في لهجة عربية غريبة" (١١٩)

وقد أنجبت فتاتين جميلتين "تفيدة ، إقبال" - وصبيين أحدهما أزهرى "عثمان" والآخر "محمود" ، ومع هذا الجو الأسرى الطيب يعود هذا الضابط التركى القديم من القاهرة ومعه سيدة تركية لم تبلغ الثلاثين تتمتع بفتنة وجمال بارع ، ومن هنا انقلبت الأوضاع كلها فالدار "المترفة الأنيقة التى كانت جنة من جنات النعيم ، قد أصبحت مستقرا للحزن والبؤس والشقاء ، قد أصبحت جحيما تصلى فيه أم البنين نار الحزن ولوعة الغيره ويشقى فيها هؤلاء الثلاثة بما يرون من حزن أمهم وبؤسها وبكائها المتواصل واعتكافها فى حجرة لاتبرحها إلا أن تكره على ذلك إكراها" (١٢٠)

ولو أن هذا الزوج عدل بين زوجتيه لاستمرت الحياة بطبيعتها السعيدة ، ولكنه لم يرع حرمة الزوجة السابقة ، ولم يرع حياء ابنته الكاعب ، ولم يرع صبا غلاميه الصغيرين مما أودى بحياة الزوجة أم البنين.

وينتقل هذا الضابط وأسرته من المدينة إلى مكان آخر ، وتمضى الأيام ليتقابل مع "محمود" أثناء محاضرات الجامعة القديمة ، ويلمس حالته بعد أن تشتتت الأسرة "وانتهينا إلى دار متواضعة حقيرة وأوينا من هذه الدار إلى حجرة بائسة قد ألقى عليها حصير بال ، وألقى على الحصير وسادة ولحاف" (١٢١)

ومع تكاثر الأحزان ، أصيب "محمود" بالحمى التى أسلمته إلى الموت أثناء الصيف ويمكن أن نستخلص من هذه القصة ، أهمية رب الأسرة فى رعاية أولاده والعمل على تربيتهم التربية الصحيحة ، والحد من تعدد الأزواج إلا للضرورة ، مع مراعاة العدل واحترام المشاعر والمعاملة الإنسانية ، التى تورث المحبة والوئام .

ويقدم لنا فى قصته السادسة "صفاء" نموذجا صارخا حول الصراع بين الحب والمال حيث أرغمت صفاء على الزواج من موظف غنى ، وكان قلبها متعلقا مع

---

(١١٩) طه حسين المعذبون فى الأرض ص١١١ .   (١٢٠) نفسه ص١١٣ .

(١٢١) نفسه ص١١٩ .

جارها الموظف الفقير ووفق المؤلف فى تصويره لجوانب متعددة مثل العلاقة بين الآباء والأبناء ، وبين الشيوخ والشبان ، والتفاوت بين الأجيال تجاه العديد من القضايا الاجتماعية "فانظر إلى الأبناء كيف يجحدون حقوق الآباء ، وانظر إلى الشباب كيف يكفرون بنعمة الشيوخ وانظر إلى هؤلاء الفتيان الناشئين ، كيف يؤثرون أنفسهم بالخير ويختصونها بالملذات. ويتركون آباءهم وأمهاتهم وأخواتهم يشقون بالنقص فى الأموال والثمرات ، بل يشقون بالبؤس والجوع والحرمان (١٢٢) وفى القصة الأخيرة "خطر" يستعرض المؤلف قصة موظف من موظفى الدولة يعول أسرة كبيرة رغم تفاهة راتبه والشئ الذى ليس فيه شك ، أن هذا الموظف ليس وحيدا فى بؤسه هذا المنكر ، وفى عبئه هذا الثقيل ، وإنما له نظراء لا يحصون بالعشرات ولا بالمئات ، وإنما يحصون بالألوف وأخشى أن يحصوا بعشرات الألوف" (١٢٣)

وأمام مطالب الأسرة يتعرض للاستدانة أو يلتمس الإحسان ، وربما يمنعه خلقه ودينه من اقتراف الإثم ، فالحياة قاسية مريرة ، وينعكس أثرها على سلوكيات الأفراد ، ولهذا يطالب بضرورة مضاعفة الضرائب وزيادة المرتبات مع الالتزام بالكف عن الإسراف فى الأموال العامة "وليس إلى الإصلاح الاجتماعى من سبيل- إلا إذا وجدت الأداة السياسية الصالحة التى تستطيع أن تنهض بعبئه وتنقذه من مشكلاته ، فهل ترى أن مصر تملك فى هذه الأيام أداة سياسية صالحة تمكنها من محاولة هذا الإصلاح؟" (١٢٤)

ويتناول المؤلف عدة موضوعات قدمها فى صورة مقالات ، من بينها مقال بعنوان "تضامن" تعرض فيه لما أصاب المسلمين فى عام الرمادة من أزمة طاحنة ، وكيف واجهها عمر بن الخطاب والمسلمون حتى انفرجت ، هنالك ينهض عمر للقاء هذه الأزمة العنيفة الجائحة نهوض الرجل الذى يعرف الحق كما لم يعرفه أحد بعده ، ويحمل العبء كما لم يحمله أحد بعده ، ويواجه الخطب مصمما على أن ينفذ منه أو يموت من دونه مهما تكن الظروف ، حتى أصبح عام الرمادة ذاك كنزا من كنوز المسلمين لاينفد ولا يدركه الفناء" (١٢٥)

لقد تجلت مسئولية الحاكم تجاه شعبه ، فى مشاركته الفعلية ومعايشة لهذا

---

(١٢٢) نفسه ص١٣١ .
(١٢٣) نفسه ص١٥٣ .
(١٢٤) نفسه ص١٥٦ .
(١٢٥) نفسه ص ١٥٩ .

الواقع المؤلم فكان قدوة لهم ، فالمسئولية كما بينها الإسلام تكليف لا تشريف ، مغرم لامغنم ، كما اتضح تضامن الأغنياء مع الفقراء لمواجهة هذه المجاعة ، وينطلق من ذلك التاريخ الإسلامى لينادى الحكومة المصرية والأفراد بضرورة مساعدة المحتاجين "يجب أن تعلم الدولة ، ويجب أن يعلم الموسرون أن التصدق بالمال خير فى أوقات الرخاء والدعة واللين فإذا اشتدت الشدة وأزمت الأزمة وألم الوباء فالتصدق واجب بفرضه العدل ، فإن لم ينهض به الأفراد من تلقاء أنفسهم وجب على الدولة أن تأخذهم به أخذا" (١٢٦)

وفى المقال الثانى "ثقل الغنى" يعالج طه حسين مشكلة الفقر ، وذلك بتقديم نماذج إنسانية طاهرة عايشت الرسول صلى الله عليه وسلم ولم تتردد عن تقديم يد العون للمسلمين عندما اشتدت المحن وعظم البلاء ، ومن هذه النماذج الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف الذى "كان من أكبر المسلمين تصدقا ، ومن أسخاهم بماله ، ومن أوصلهم للرحم ، ومن أبرهم بالناس ، أنفق حياته كلها مستثمرا لماله متصدقا به ، وكان تصدقه لاينقص من ماله ، وإنما يزيد فيه ويضاعفه أضعافا ، كأنما قضى الله ألا يجزيه عن صدقته فى الآخره وحدها ، وألا يضاعف له قرضه فى الجنة وحدها ، وإنما يكفل له ثواب الدنيا والآخرة جميعا" (١٢٧)

وكان طه حسين يستحث الأغنياء المزيد من العطاء لمن حولهم ممن يعانون البؤس والشقاء.

وفى المقال الثالث "سخاء" يبرز المؤلف حقيقة اجتماعية آلمته ، حيث يتكالب الكثيرون على جمع المال وكنزه دون أن يستشعر حاجة أخيه ، ويعلن عن ضيقه لما رآه ولمسه ، ولهذا أخذ يناشد أولئك الذين يقبلون على لذاتهم ومنافعهم ، ولا يسوءهم منظر البؤس وأصحاب الحاجة ويأتى هذا المقال بعد انتشار الكوليرا وهلاك الكثيرين من المصريين ، ويستشهد بمواقف عثمان بن عفان رضى الله عنه عندما أجدبت المدينة أيام أبى بكر مما أدى إلى ارتفاع الأسعار ، ولم يجد الفقراء مايستطيعون شراءه ، فإذا التجار يساومون عثمان لشراء بضاعته الآتية من الشام بأضعاف أثمانها ،

---

(١٢٦) نفسه ص١٦٣ .   (١٢٧) نفسه ص١٧١ .

ويتصدق عثمان بهذه البضاعة للمسلمين "فليت أغنياءنا يفكرون فى أنهم يستطيعون أن ينفقوا من فضول أموالهم مخلصين ، غير منافقين ولا مرائين ، دون أن يرزأهم هذا الانفاق شيئا ذا خطر " (١٢٨)

ويقدم نموذجا آخر من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو طلحة بن عبد الله رضى الله عنه الذى قسم أمواله بين ذوى قرابته ومودته وأصحاب الحاجة من المسلمين فلم ينقص ذلك من ماله شيئا.

وفى المقال الأخير "مصر المريضة" يعلن المؤلف تبرمه على مايسود مصر من وباء الكوليرا وتفشى الظلم والجهل والمرض فكل مصرى مثقف يقدر نفسه ويقدر وطنه ويستحضر مابذل المصريون من الجهود فى العصر الحديث ليرقوا بوطنهم إلى حيث ينبغى أن يكون من العزة والأمن والحرية والصحة فى الأبدان والقلوب والعقول ، كل مصرى مثقف يجد هذا الشعور المر الذى وجدته ، والذى هو مزاج يأتلف من الحزن المحض والخزى الذى تطأطأ له الرؤوس (١٢٩)

ويكثر الأديب من الإلحاح على الأغنياء بضرورة المساهمة فى تخفيف الأعباء عن الضعفاء والمحتاجين والبؤساء ويكثر من ضرب الأمثلة التى تحض على البذل والصبر والإيثار.

ولقد ظل المؤلف ينادى بضرورة أن يعيش الإنسان فى مناخ الحرية والعدل من خلال قصصه ومقالاته التى تضمنها عمله الأدبى "المعذبون فى الأرض "والذى اتهم بسببه بالشيوعية وظلت هذه التهمة لصيقة به حتى رفضها مصطفى النحاس وعين وزيرا للمعارف" (١٣٠)

وطه حسين يؤكد مفاهيمه حول العدل والحرية من منطلق دينى ، حيث يستشهد بالكثير من الآيات القرآنيه والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة ، الأمر الذى يوضح أن اتهامه بالشيوعية لا أساس له من الصحة.

وقد استمر فى منهجه بالتضامن الاجتماعى والمساواة بين جميع أفراد المجتمع مستحضرا التاريخ الإسلامى الملىء بالعظة والعبر ، مناديا بالإصلاح فى كافة

---

(١٢٨)نفسه ص١٣٦ .　　　(١٢٩) نفسه ص١٤٣ .

(١٣٠) أحمد عبد الرزاق أبو العلا، طه حسين، البحث عن العدل الإجتماعى، المكتبة الثقافية ٤٤٦ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨ م ص٤١ .

شئون الحياة ، ولعل مجانية التعليم التى أطلق صيحتها كانت نتيجة إحساسه بأن التعليم هو الخلاص من بؤس الإنسان المصرى وفقره المادى والمعنوى.

ولقد استطاع طه حسين أن يجعل هذه المآسى تطفو فوق السطح لكى تحدث فى النهاية هذا الرد الفعلى فى المطالبة بالتغيير او بالثورة ضد القهر والظلم الذى هيمن على الحياة المصرية فى العهد الملكى، وكانت هذة الصور القصصية تعد تمثيلا للواقعية التسجيلية التى تقوم على رصد جميع الملاحظات و المظاهر الخاصة بقضية معينة ويعالج من هذا التصور المضمون الذى كثيرا ما يأتى على حساب الشكل او البناء الفنى ، وجاءت لغته فى سرد الأحداث وتصوير الشخصيات سهلة واضحة تميل إلى الاستطراد والمبالغة ، حيث يقلب الحدث على كل جوانبه.

ويلفت النظر فى معالجته الفنية أن الشريحة الاجتماعية التى عنى بها وتوفر على تصويرها كانت هى الطبقة المتوسطة بمستوياتها المختلفة من بين طبقات المجتمع المصرى ، ولاضير عليه فى هذا الاختيار ، فإن من حق الأديب الفنان أن يختار ما يروقه من الأماكن مسرحا لأحداث رواياته ، ولعل دافع طه حسين إلى الاختيار السابق معرفته الدقيقة بأحوال تلك الطبقة ، وخبرته العميقة بعادتها وتقاليدها ، لنشأته الريفية البسيطة ثم انتقاله إلى الأزهر الشريف بالقاهرة والجامعة المصرية ثم سفرياته فى الداخل والخارج وتأثره بقراءة القديم والحديث من الأدب الاجتماعى.

ولقد تسبب انعدام المساواة الاجتماعية وانتشار الظلم فى ظهور الوعى بمظاهر متباينة حيث تمثل فى الاضطرابات التى قام بها العمال ، ومظاهرات الطلاب ،وتحركات الفلاحين فى بعض القرى التى كان يملكها كبار الإقطاعيين ، ولهذا فرضت التناقضات الاجتماعية والطبقية نفسها ، مما دفع إلى ضرورة التفكير بهدف إيجاد الحل المناسب لها ، مما "هيأ لذلك تلك المقدمات الفكرية الواقعية التى تمثلت فى كتابات الاقتصاديين الاجتماعيين الواعين ، وفيما حفلت الصحافة من آراء وفكر تقدمية جديدة" (١٣١) ،وهكذا نجد طه حسين يكشف من خلال تشكيله الفنى فى القصة عن فلسفة خاصة وتبرز انتماءه للنزعة الإيمانية وانتصاره للشخصيات التى تمثلها ، فهو يشيد دائما بالجهاد والدفاع عن الحق والعمل على مواجهة شتى صنوف الظلم بروح لاتعرف اليأس ، ويعلى المؤلف من مكانة وعطاء هذة الشخصيات بما يحقق لها الإيجابية ويجعلها أبرز المحاور فى أدبه.

(١٣١) د.سيد حامد النساج ، بانوراما الرواية المصرية الحديثة ، دار المعارف ط أولى ١٩٨٠ ص٤٥.

الفصل الثانى

الرؤية الإسلامية فى أعماله عن السيرة النبوية

١- على هامش السيرة.
٢- الوعد الحق .
٣- مرآة الإسلام.

كان للجهد الإحيائى الذى قام به أدباء النهضة فى العقد الثالث من هذا القرن كبير الأثر فى تمهيد الطريق للأدباء والمفكرين لإحياء مسيرة الأدب وتجديده ، خاصة أن تراثنا الإسلامى منهج ثرى ، وكنز ثمين ، ومنجم بكر ، بشخصياته وأحداثه ، التى تصلح أن تكون نماذج ناصعة للقدوة والعبرة ، لتبصرة الأجيال بمستقبل هذه الأمة.

وكانت السيرة النبوية مجالا خصبا لاستخدام القيم والمبادئ، استطاع الأدباء أن يقدموها مادة أدبية شيقة على ضوء المناهج الأدبية الحديثة بأشكالها المتعددة.

وأقبل الكثيرون من الأدباء فى عصرنا الحاضر على مائدة التراث الإسلامى ، يستلهمون أحداثه وشخصياته بغية إثراء الأدب العربى وتنمية الذوق ، وبعثا لثورة فكرية جديدة "والوعى بالتراث والوعى بالدور التاريخى ، هما القدمان اللتان يمشى بهما التراث ، واللتان تقودان خطواته وتوجهانها ، ولا يمكن أن تتحقق مسيرة بقدم واحدة ، فالوعى بالتراث دون وعى بالدور التاريخى من شأنه أن ينتهى بهذا التراث إلى الجمود". [1]

وإذا أحسن الأديب إعادة تشكيل هذا التراث فى إطار هذا الوعى وبما يوافق رؤيته الذاتية يمكنه أن يحقق "أهدافا ثلاثة أولها الاستجابة الصحيحة لمطالب النهضة العربية الحديثة ، ولحقائق الواقع العربى المتطور ، وثانيها إحياء الموروث العربى القديم وتجديده ، وثالثها الاتصال بالموروث الفكرى الإنسانى قديمه وحديثه" [2]

وإن روعة التقديم المساير لحسن الانتقاء فى الأشكال الأدبية المتنوعة كان ثمرة ذلك الاستلهام الواعى لتراثنا ، "وإن المرحلة التى كان يعيشها الجيل الماضى ، وهى الواقعة بين أواخر القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين كانت مرحلة ذات طابع إحيائى حتمى إن صح هذا الوصف ، فقد اتجهت أنظار المصلحين من الأدباء والشعراء ورجال الدين فيها لأسباب عدة إلى التراث الإسلامى والأدب القديم فى عصور العربية الزاهية ، يأخذون منه وينسجون على منواله ، وذلك بالإضافة إلى تيار الثقافة الغربية التى أخضعوا الأخذ منها لقيود صارمة ، كانت غايتها المحافظة

---

(١) مجلة فصول، المجلد الأول، العدد الأول أكتوبر ١٩٨٠م ،مقال د.عز الدين إسماعيل ص١٦٧، ١٧٠

(٢) د.عبد المنعم تليمه،النقد العربى مداخل تاريخية حول اتجاهاته الأساسية ، ط١٩٧٧ ص٤٥٣ .

على الطابع الإسلامى والعربى فى مواجهة المد الاستعمارى الذى أخذ يتربص باستقلال العالم العربى ويسعى إلى استعماره" [٣]

ولقد تعددت الكتابات حول السيرة النبوية ،التى غدت ترضى حاجة العقل المفكر والقلب الحى المتيقظ ،وكان "على هامش السيرة" ١٩٣٣م لطه حسين من باكورة الأعمال الأدبية التى اتجهت صوب هذه السيرة العطرة ، ولعل أهمية هذا العمل تكمن فى أنه "الكتاب الأول فى اللغة العربية الذى يجعل من بعض حقائق السيرة وبعض أساطيرها فنا حيا جذابا"[٤].

وتحسس طه حسين بوعيه الرشيد هذا العطاء الفياض ليجد فيه توافق المنزع مع المطلب النفسى لإنسان حفظ القرآن الكريم قبل التاسعة ، وقضى مع العلوم الأزهرية سنوات عديدة ، وبهذا العمل فتح المجال للعديد من الأدباء لينهلوا من هذا التراث العظيم ، فكان تناول د. محمد حسين هيكل للسيرة فى عمله الإسلامى "حياة محمد" ١٩٣٥م الذى وثق بعطاء تراثه المادى والروحى "كم فى ماضينا من أرواح ذات ضياء باهر ، قادرة بقوتها على أن تبعث الحضارة الإسلامية خلقا جديدا" [٥]

وجاء العمل الثانى لهيكل "فى منزل الوحى" ١٩٣٦م دعوة إلى وجوب ربط الحضارة المصرية الحديثة بالحضارة العربية القديمة ، ولزوم استلهام الفكر والأدب المعاصر للفكر والأدب الإسلاميين لأن التراث الروحى للعروبة والإسلام هو أنسب مايمكن أن تستلهم الروح المصرية التى لم تنفصل عن ماضيها فى العروبة والإسلام" [٦]

وكانت كتابات هيكل ثمرة لتجارب مريرة خاضها عندما شغف بنقل ثقافة الغرب "وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذها جميعا هدى ونبراسا ، لكننى أدركت بعد لأى أننى أضع البذر فى غير منبته ، فإذا الأرض تهضمه ثم لاتتمخض عنه ، ولا تبعث الحياة فيه" [٧]

---

(٣) مجلة فصول ، المجلد الأول ، العدد الأول ، د. إبراهيم عبد الرحمن محمد ص٦٠ .

(٤) سيد قطب ، كتب وشخصيات ، دار الشروق ط ثانية ١٩٨١ ، ص١٠٨ .

(٥) د.محمد حسين هيكل ، أضواء على الأدب العربى المعاصر ، دار المعارف ، ص١٠٧ .

(٦) د. أحمد هيكل ، تطور الأدب الحديث فى مصر ، دار المعارف ، ص٢٨٦ .

(٧) د. محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، دار المعارف ص٢ .

وقدم توفيق الحكيم بأسلوب حوارى قريب من الفن المسرحى عمله الأدبى "محمد الرسول البشر" ١٩٣٦م الذى يخاطب العقل والوجدان معا ، وقد دفعه لهذا العمل الرد على "فولتير" وبعض دعاة الفكر الذين تهجموا على الإسلام ونالوا من شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم بوقاحة وابتذال ، فكان رده بنفس الأسلوب الذى كتب به فولتير ، وهو أسلوب الحوار التمثيلى.

أما العقاد فقد اتجه إلى التراث مستلهما هؤلاء الأعلام وتصويرهم فى صور تستحق الإكبار والإجلال ، ولهذا ركز فى تقديمه لهذه الشخصيات الإسلامية على الملكات والأخلاق دون الاحتفال بالأحداث والوقائع "ولقد حافظ العقاد على ماتميزت به هذه الشخصيات الإسلامية من شمائل إنسانية كريمة ، فلم يحاول تمزيق ما تتدثر به من تلك الشمائل وأيضا فإنه لم يحاول أن يصعد بها إلى ذروة الكمال ، بسلم علم النفس الملتوى الدرجات ، بل ظل حفيا بها على طريقة الكماليين من علماء الأخلاق ، وبهذا احتفظت الأمة الإسلامية بشخصياتها المثالية ، ولم يعبث بها أى عبث ، لقد سواها فى صور حية ناطقة" (٨)

وقدم العقاد "عبقرية محمد" ١٩٤٢م كرد مفحم وقول مسكت لبعض المستشرقين الذين وجهوا سهامهم الغادرة يريدون إصابة الإسلام بمقتل ، والإساءة إلى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكانت مهمة عبقرية محمد "تبرئة المقام المحمدى من تلك الأقاويل التى يلغط بها الأغرار والجهلاء عن حذلقة أو سوء نية"(٩)

وكتاب النبى الانسان. لمحمود تيمور الذى قال عنه كان مفتاح فهمى لرسالة الإسلام انى تصفحت حياة الرسول جانبا بعد جانب ، فتجلت لى شخصية عامرة بالعظائم فى بناء كيان الأمة ، وفى تقديم خلق الفرد وفى نهج الحياة لسالكيها من سائر الناس ، كان محمد إنسانا قبل أن يكون نبيا ، فلما اظلته نبوته لم تبرحه إنسانيته ، بل لقد زكت وتوهجت ، وبقى إنسانا فى جوانب حياته ، تتصل أرومته بأرض البشر ، وتسمو روحه إلى أعلى" (١٠)

---

(٨) د. شوقى ضيف ، مع العقاد ، اقرأ ، دار المعارف ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٩) عباس محمود العقاد ، العبقريات الإسلامية ص١٢٣ .

(١٠) محمود تيمور ، النبى الإنسان ومقالات أخرى المطبعة النموذجية ص١٢ ، ١٤ .

ويتناول عبد الرحمن الشرقاوى السيرة النبوية فى كتابه "محمد رسول الحرية" ١٩٦٢ مؤكدا أن الرسول جاء "لتحرير القلب من سلطان الكهنوت والأوثان ولتحرير الجهد الإنسانى من الاستغلال وتحرير الرقاب من النخاسين ، جاء بتحرير الوجدان من الزراية والهوان والخوف لتنطلق كل طاقات الإنسان تؤكد فوق هذه الأرض نبالة المجهود البشرى" (١١)

ويتناول عبد الحميد جودة السحار السيرة النبوية فى أسلوب قصصى روائى ، متأثرا بطريقة طه حسين "فأعجبتنى طريقة الدكتور فى السرد ، وجعلتنى أعيش بكل جوارحى فى ذلك العصر الذى استطاع الدكتور ببراعته أن يجعله ينبض بالحياة" (١٢)

جاء ذلك فى كتابه محمد رسول الله والذين معه ، أبو الأنبياء ، أهل البيت.

وقدم إبراهيم على أبو الخشب كتابه "من فيض الرسالة" مسلطا الأضواء على أحداث السيرة النبوية.

واقترب محمد بحر العلوم فى عرضه لسيرة الرسول من خلال تناوله أبطال الإسلام وشخصياته العظيمة وقد نحا منهج طه حسين فى تجنبه تناول شخصية الرسول بطريقة مباشرة ، حيث اتخذ من أمجاد الإسلام وبطولاته منطلقا لعرض السيرة النبوية ، وفى كتابه "بين يدى الرسول الأعظم" يعتبر مثلا صادقا لسمات الرسول وقيم الإسلام.

ولم يقتصر تناول السيرة على الأدباء العرب ولكن نجد أن من بين الشعراء الأوربيين الكبار من يستلهم الشخصيات الإسلامية فى أعماله الأدبية مثل الشاعر الإيطالى الكبير "دانتي" فى ملحمته الشهيرة "الكوميديا الإلهية" التى استلهم خلالها حديث المعراج النبوى وغيره من المصادر العربية والإسلامية ، وكذلك الشاعر الألمانى "جيته" الذى قرأ القرآن الكريم فى ترجمته الألمانية واستمد منه الكثير من الموضوعات والصور فى ديوانه المشهور "الديوان الشرقى للمؤلف الغربي".

وإن دور الفنان الذى يتناول الحقائق التاريخية والأحداث والشخصيات المصاحبة لها يكمن فى قيامه بعملية إلباس هذه النماذج ثوبا جديدا ، ووضعها فى إطار

---

(١١) عبد الرحمن الشرقاوى ، محمد رسول الحرية ، دار الشعب ١٩٦٢ ، ص١٦٦ .

(١٢) عبد الحميد جودة السحار ، محمد رسول الله والذين معه جـ١ ط الثانية ، مكتبة مصر القاهرة ، مارس ١٩٦٩ ص٣٣٨ .

جذاب ، إذ هو يرى في الحقيقة التاريخية شيئا أشبه بالهيكل العظمى ، فيكسوها بخياله لحما ، وينفخ من روحه الإبداعية فإذا الحدث التاريخي قد استوى كائنا حيا جاءنا عبر العصور ، ليس على صورته التاريخية الدقيقة ولكن في الإطار العام للحقيقة التاريخية وإذا بالتاريخ بشخوصه وأحداثه قد صار يعايشنا في حاضرنا ، ويعبر عن هذا الحاضر بفضل الفنان الذي بنى جسرا بفنه ، جعل الماضي والحاضر يتداخلان تداخلا يصعب تحديد مداه ، مما ييسر التمعن في الأحداث فأخذ العبر منها "وأين هذا القارئ الذي يطمئن إلى قراءة الأسانيد المطولة ، والأخبار التي يلتوى بها الاستطراد ، وتجور بها لغتها القديمة الغريبة عن سبيل الفهم السهل والذوق الهين الذي لايكلف مشقة ولا عناء" (١٣)

وينبغي على الفنان ألا يلوى عنق الحقيقة التاريخية في سبيل الإبداع الفني ، فإن ذلك يعد تزييفا للتاريخ ، وينأى بالعمل عن خاصية أولية من أهم خواصه ، وهو الصدق التاريخي الذي لا تراه متعارضا مع الصدق الفني ، خاصة عندما يكون الأمر متعلقا بالدين.

ولقد كان طه حسين من الأدباء الذين أجادوا استخدام المنهج العلمي في تفكيرهم ، بما تميز به من رأي ثاقب وفكر عميق ، واتصاله بالأدب الغربي ومناهجه ، ولكنه في هذا العمل آثر هذه النزعة إلى الحرية في التصوير والتعبير والخيال "فهو لاينظر إلى التاريخ مادة ولكنه ينظر إليه روحا ، لاينظر إليه ألفاظا ولكنه ينظر إليه معاني ، يجب ألا تطغى الألفاظ على المعاني فتحصرها في حيز ضيق ، ويؤثر أن تطغى المعاني على الألفاظ فتسترسل بها حيث تشاء ، وهو بهذا ضامن أن يحمل التاريخ أسمى ما يراد له وما يتفق وحاجة الناس إليه ، هو يريد من التاريخ نتيجته ، يريد منه أن يكون العظة التي تقر في النفوس وتشغل لها العقول ولا يريد منه أن يكون كلاما يحفظ لتردده الألسنة بحججه وبراهينه". (١٤)

---

(١٣) طه حسين ، على هامش السيرة جـ١ المقدمة (هـ) .

(١٤) إبراهيم الأبياري وآخرون ، طه حسين كما يعرفه كتاب عصره ، دار الهلال ص ٩٠ .

١ – منهج طه حسين فى تناوله لشخصية الرسول (ص) "على هامش السيرة"

جاء هذا العمل الأدبى معبرا عن مضمونه التعبير الصادق ، وعن منهج طه حسين تجاهه ، فالكاتب لم يقصد أن يكون "على هامش السيرة" كتاب تاريخ أو سيرة يستعرض خلاله شتى الأحداث التى شهدها الرسول صلى الله عليه وسلم أو تصوير لكافة الشخصيات التى ساهمت فى تحمل عبء الدعوة وما قبلها.. "ولست أريد أن أخدع القراء عن نفسى ولا عن الكتاب ، فإنى لم أفكر فيه تفكيرا ، ولا قدرته تقديرا ، ولا تعمدت تأليفه وتصنيعه كما يتعمد المؤلفون ، إنما دفعت إلى ذلك دفعا ، وأكرهت عليه إكراها ، ورأيتنى أقرأ السيرة فتمتلئ بها نفسى ، ويفيض بها قلبى ، وينطلق بها لسانى ، وإذا أنا أملى هذه الفصول وفصولا أخرى أرجو أن تنشر بعد حين" [١٥]

ومن ذلك يتضح أنه اتجه صوب السيرة لإرضاء قلبه المتعطش إلى صور الحياة البشرية ، وإبراز الرؤية الحقيقية للنفس البشرية بالفائدة القيمة "وأحب أن يعلم الناس أيضا أنى وسعت على نفسى فى القصص ، ومنحتها الحرية فى رواية الأخبار واختراع الحديث مالم أجد به بأسا إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبى ، أو بنحو من أنحاء الدين ، فإنى لم أبح لنفسى فى ذلك حرية ولا سعة ، وإنما التزمت ما التزمه المتقدمون من أصحاب السير والحديث ورجال الرواية وعلماء الدين". [١٦]

وقد حقق طه حسين نجاحا باهرا فى بناء نموذج كامل للبطل وفق الأصول الفنية لأدب القصة أو الرواية ، التى ترتكز على النوازع الداخلية فى النفس الإنسانية بما فيها من جوانب القوة والضعف ، ولهذا استخدم أسلوب القصة ليدفع القارئ إلى متابعة القيم الفنية ، والإلمام بالمضامين الهامة والاستفادة من جودة هذا الأدب الجديد حيث جودة الوصف وبراعة التحليل ، وفق تسلسل الأحداث ونموها مع حيوية الشخصيات وتطورها.

واتبع طه حسين فى طريقته رسم خط واضح فى تقديم شخصية الرسول ، تستنبط من المفاهيم العامة عن طريق الشخصيات الجانبية التى انتقاها انتقاء دقيقا ، ودعمها بمقتطفات من التراث لتشير إلى شخصية الرسول من بعيد ، وبطريقة غير

---

(١٥) د. طه حسين . على هامش السيرة ، دار المعارف ط الثالثة ج١ المقدمة ط .

(١٦) نفسه – المقدمة ك .

مباشرة ؛ أى إنه تناول شخصيات حول السيرة ، وأصبحت سيرة الرسول بؤرة النور وبوتقته التى تشد هذه الشخصيات جميعا ، ووفق فى الربط بين هذه الشخصيات المختارة وشخصية الرسول ، وهكذا تناول السيرة فى حذر شديد ، وليس بحرية الأديب المطلقة الذى يعبر عن أحاسيسه وعواطفه وانفعالاته ، خاصة عندما يقترب من شخصية الرسول ، بينما تيسر له حرية التحدث وتصوير الجوانب المتنوعة فى الشخصيات المضادة ومنها على سبيل المثال شخصية عمرو بن هشام الذى وقف معارضا الدعوة الإسلامية ، وأكد تناوله للسيرة بهذا الأسلوب أنها من الأدب الحى الملئ بالنماذج البشرية الباقية ، التى تملأ الأبصار والبصائر ، على مر العصور والأزمان "وليس القدماء خالدين حقا إذا لم يكن التماسهم إلا عند أنفسهم ، ولا تعرف أبناؤهم إلا فيما تركوا من الدواوين والأشعار ، إنما يحيا القدماء حقا ، ويخلدون إذا امتلأت بصورهم وأعمالهم قلوب الأجيال مهما يبعد بها الزمن ، وكانوا حديثا للناس إذا لقى بعضهم بعضا ، وكنوزا يستثمرها الكتاب والشعراء لإحياء ما يعالجون من ألوان وفنون الكلام" (١٧)

واستخدم طه حسين الاستعراض التصويرى فى تقديمه للشخصيات التاريخية ، مبرزا ما تتضمنه من أفكار وخواطر وما تتميز به من سمات إنسانية ، مستعينا بما لديه من أسلوب وخيال مبدع تمكن من أن يحيل المعانى والأفكار ، والأحداث صورا حية ، والأشخاص فى القصة مدار المعانى الإنسانية ومحور الأفكار والآراء العامة ، ولهذه المعانى والأفكار المكانة الأولى فى القصة منذ انصرفت إلى دراسة الإنسان وقضاياه "إذ لايسوق القاص أفكاره وقضاياه الهامة منفصلة عن محيطها الحيوى ، بل يسوقها ممثلة فى الأشخاص الذين يعيشون فى مجتمع ما ، وإلا كانت مجرد دعاية ، وفقدت بذلك أثرها الاجتماعى وقيمتها الفنية معا ، فلا مناص من أن تحيا الأفكار فى الأشخاص أو تحيا بها الأشخاص ، وسط مجموعة من القيم الإنسانية يظهر فيها الوعى الفردى متفاعلا مع الوعى العام فى مظهر من مظاهر التفاعل على حسب ما يهدف إليه الكاتب فى نظرته إلى هذه القيم وفى أغراضه الإنسانية" (١٨) .

---

(١٧) نفسه المقدمة ح

(١٨) د. محمد غنيمى هلال ، النقد الأدبى الحديث ، نهضة مصر ص ٥٢٦ .

وتبدو سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم فـي هذا العمل الفكرى ومضـات مضيئة لجوانب من حياة الرسول وجهاده وصراعه مع الكفار ، وجاءت هذه الومضات متناثرة فى أجزاء الكتاب الثلاثة لتصور ميلاده ورضاعتـه وحضانتـه وقيمـه واشـتغاله برعى الغنم والتجارة وسماته الإنسانية .

ولقد نجح طـه حسين فـى أن ينقل الشـخوص والأحـداث مـن عـالم التـاريخ والخبر إلى عالم الحياة والشعور ، فى إطار قصة ممتعة موحية ، فالشخوص فيها آبـاء وأمهات وأزواج وأحباب ، وليسوا بعنـاوين مسطورة فـى الصحـائف ، والعلاقـة التـى تجمعهم علاقة حب وعطف ورحمـة ، أو بغض ونقمة وطمع ، وليست علاقـة كـلام بكلام ، وبهذا تمكن من نقل الحياة الجاهلية والحياة فى أوائل ظهور الإسـلام إلينـا كمـا كان يألفها أصحابها ، لا كما نفهمهاو نألفها نحن حيث التحليل والتعليل والتفسير ، نقـل إلينا الجاهليين كما كانوا فى حياتهم وعقائدهم وأفكارهم ، ولم ينقلهم إلينا كما نكـون لـو أننا انتقلنا بزماننا إلى زمانهم "فأسباب انتشار اليهوديــة فـى اليمـن نعقلهـا نحـن بعـد أن نعرضها علـى الفكـر ونقـابل بينهـا وبيـن النظـائر والأشباه ، وأفكـار الكـاهن اليونـانى لأساطير الوثنية هو إنكار الإلهام والرؤيا وليس بإنكار التمحيص والتنفيذ وكذلك كل ما فى القصة من أسباب ومن إيمان ومن إنكار". (١٩)

وعندما أخذ يصور البيئة الجاهلية التى ظهر فيها النبى صلى الله عليـه وسـلم بعاداتها وعنفوانها ، فإنه أراد أن يـبرز الأثـر الـذى انعكـس بعـد الإسـلام ، مـن خـلال المقدمات والبشائر لنور الإسلام.

ولقد كان طه حسين أقدر على أن يكون من أصحاب المنهج العلمى فى تناولـه لأحداث التاريخ ، فهو من رجال هذا الميدان ، من حيث صلته بـالأدب الغربـى عـلاوة على أنه صاحب رأى ثاقب وفكر عميق "ولكن الرجل بعد هذا كله ثـائر ، نشـأ لا يقبـل الرأى قبل أن يخاصمه مخافـة أن يدلسـه عليـه أنسـه بـه ، لهـذا كـان نزوعـه إلـى هـذا الجانب الأبعد حرية والأفسح فكرا ، ولهذا أنس بأن يضع سيرته فى أسلوب القـاص لا فى أسلوب المؤرخ ، ولقد كان هذا شأن طـه حسين فيمـا أرخ ، لايكـاد يبعـد عـن هـذه السبيل كثيرا حتى يرتد إليها" (٢٠)

---

(١٩) عباس محمود العقاد - ساعات بين الكتب ج٢ مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ص ٣٣٣ .

(٢٠) إبراهيم الأبيارى ، طه حسين كما يعرفه كتاب عصره ، دار الهلال ص ٨٩ .

ولقد استطاع طه حسين أن يعيد تشكيل السيرة والعمل على تقديمها فى قالب قصصى جديد ، ولهذا يقول فى المقدمة "إنما الأدب الخصب حقا هو الذى يلذك حين تقرؤه ، لأنه يقدم إليك مايرضى عقلك وشعورك ، ولأنه يوحى إليك ماليس فيه ، ويلهمك بما لم تشتمل عليه النصوص ، ويعيرك من خصبه خصبا ، ومن ثروته ثروة ، ومن قوته قوة" . (٢١)

إنه لاينظر إلى التاريخ مادة ولكنه ينظر إليه روحا ، لاينظر إليه ألفاظا بل معانى ، لأنه يريد من التاريخ نتيجته ، يريد منه أن يكون العظة التى تقر فى النفوس ، وتشغل به العقول ، ولا يريد منه أن يكون كلاما يحفظ لتردده الألسنة بحججه وأدلته وبراهينه "وكتبه فى التاريخ الإسلامى تنزع كلها إلى الجانب العام ، وإن بدا بعضها فى الجانب الخاص ، لأنها بهذا النزوع تكون ألصق بمنهج صاحبها وأقدر على استخلاص العظة العامة الجامعة ، ولأنها بهذا النزوع تحلق فى حياة أمة لا فى حياة فرد ، ولأنها بهذا النزوع تستطيع أن تملى فى أفسح مدى تريد"(٢٢).

ولعل هذه الصفحات المشرقة من تاريخنا القديم تعطى دلالة على مدى الجهد الذى بذله حتى قدمها كأدب أسطورى جميل ، عرض من خلال الأحداث الجسام التى سبقت ولادة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، فتحدث بنزعة قصصية رائعة عن قريش وتبع ، وعن الحجاز واليمن ، عن بلاد الحبشة وما جاورها ، وقد ربط بين هذه القصص وبعض الأساطير القديمة ، بين نشاة اليهودية واصطدامها بالوثنية ، ونشأة المسيحية واصطدامها بالوثنية واليهودية معا ، وانتهى من هذه القصص والحركات التى رافقت الديانتين إلى ولادة الإسلام ، بعد أن صور بلاد العرب وعاداتها ورجالاتها وطبيعتها وقصصها ونشأة أديانها بأسلوب غاية فى الدقة ، "واستطاع أن يضفى على التاريخ لونا من طلاوة الأدب وفتح باب المثولوجيا الإسلامية على مصراعيه". (٢٣)

وتتجلى ريادة طه حسين فى إسلامياته ، فهو وسط سيادة الركود والتقليد والغيبيات قد عمد إلى كتابة إسلامياته ، وذلك بنفس جديد ، وبأسلوب متلقح بالعلم والجرأة ، والحق أن هذا الأسلوب يبدو تجديدا فى البيئة العربية ، ولهذا وجب النظر

---

(٢١) طه حسين ، على هامش السيرة ، المقدمة .

(٢٢) إبراهيم الإبيارى ، طه حسين كما يعرفه كتاب عصره ص ٩٠ .

(٢٣) سامى الكيالى ، مع طه حسين ، دار المعارف بمصر ، إقرأ العدد ٣٧٥ ص ٦٨ .

إليه من هذه الزاوية الروائية التى أملت عليه أن يأخذ بما لم يأخذ به فى بقية كتبه الإسلامية ، لأن العمل القصصى يقوم على التشويق والمتعة وللخيال فيه نصيب وترفده الأسطورة بالوهج الأخاذ ، وبالتالى فإن ما تنبذه فى الدراسة العلمية المتشددة ، حيث تتفحص المرويات وتخضعها للتحقيق والتشكيك والنقد الصارم تتقبله ، وربما تسعى إليه فى الصنيع القصصى ، لأنه يسعفك على أن تنسج الحبكة الروائية الجذابة ، التاريخ هنا مادة خاضعة لضرورات الفن وللصياغة الأدبية فى حين أن التاريخ كعلم ، شئ آخر تماما ، لذا ينبغى التفريق بين هذين النوعين: الرواية التاريخية والتاريخ لدى طه حسين ، لأن الخلط بينهما يؤدى بنا إلى أن نؤاخذ طه حسين على آراء أملتها عليه الضرورة الفنية ولولا ذلك لكان له منها موقف مغاير.

وطه حسين عندما كتب فى التاريخ الإسلامى أراد أن يعالجه معالجة إنسانية ينهض بها دارس وعالم ، لا أن يصدر فى هذه المحاولة عن مؤمن يأخذه الهوى والرهبة والخشوع وإن تفاسيره فى الغالب تغوص فى لجة الصراعات الاجتماعية التى هى عماد الدين ومحركه.

البناء الفنى

قدم طه حسين عمله الأدبى "على هامش السيرة" فى ثلاثة أجزاء ، صدر الجزء الأول منها فى ديسمبر عام ١٩٣٣م ، وتدور أحداثه ما بين اليونان والشام والعراق وفارس واليمن والجزيرة العربية ومصر والحبشة قدمها فى أربعة عشر فصلا ، صور خلالها حالة الجزيرة العربية والصراع بين اليهودية والنصرانية حتى ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم..

وفى الفصول الخمسة الأولى: حفر زمزم – التحكيم – الفداء – الإغراء – البين يترجم المؤلف لشخصية عبد المطلب وعلاقتها بالبيئة وما اتسمت به من خصال اجتماعية ، وفى الفصول الخمسة التالية: القضاء – الردة – الطاغية – البشير – راهب الاسكندرية يدور الحديث حول تاريخ اليهودية فى اليمن والصراع بينها وبين النصرانية ، ولا علاقة لها بسيرة الرسول ، إلا فى بعض الجمل التى تشير إلى قدوم الرسول وفق ماجاءت به الكتب الإلهية التوراة والإنجيل.

وفى الفصول الأربعة الأخيرة: اليتيم – الحاضنة – المراضع – البر ، يركز المؤلف على أحداث السيرة النبوية ، متقيدا بما ورد فى سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبرى خاصة فيما يتعلق بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفى الجزء الثانى ١٩٣٧ عرض المؤلف لضيق النصارى واليهود بالأصنام ، وتطلعهم إلى نبى يجدد حياة البشرية ، ويمحو هذه الضلالات ، ويزيل الفساد المتفشى فى كافة أرجاء المجتمع.

وقدم خلال هذا الجزء الثانى صراعا فى الأفكار ولقاء فى المذاهب والآراء ، وحوارا ممتعا يدور حول الفكر والمذاهب ، خاصة عندما قدم قصته الذهنية "الفيلسوف الحائر" ثم يتجه صوب السيرة النبوية مرة أخرى ليقدم فصلا حول "راعى الغنم" ثم حديث باخوم" – وفصلا حول "صاحب الحان" ويختتم هذا الجزء بفصل عن "نادى الشياطين".

وفى الجزء الثالث ١٩٣٨ يقدم أحد عشر فصلا تتصل بالسيرة اتصالا وثيقا وهى فصول صريع الحسد –سيد الشهداء – ذو الجناحين – حديث عداس – مصعب بن عمير – طريد اليأس – نزيل حمص – الوفاء المر – طبيب النفوس – شوق الحبيب إلى الحبيب ويختتم ذلك بالقلب الرحيم .

وفى هذا الجزء الأخير يوضح المؤلف بداية الإسلام ويؤكد على أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هى امتداد لرسالة موسى ، ويستتبع ذلك باستعراض شامل للصراع بين الإسلام واليهودية والمسيحية ، وكيف حقق الإسلام بعون من الله وتأييده الانتصار.

وخلال أجزاء الكتاب الثلاثة تتعدد القصص حيث تتكون كل منها من مقدمة وبناء وخاتمة ، تحمل المقدمة الخيوط الأولى للشخصيات والحدث ، والبناء يجمع هذه الخيوط ويعقدها ويطور الحدث ثم تأتى الخاتمة لتحقق ماكان يصبو المؤلف تحقيقه.

وقد انتقى طه حسين أحداث قصصه من فترة ماقبل مولد الرسول وبعدها ، حيث قدم فى الجزء الأول صورة واقعية للبيئة العربية وماكان يسودها من عقائد والحالة الاجتماعية والدينية والاقتصادية ، أبرز ذلك من خلال عرضه لحياة عبد المطلب التى بلورها المؤلف فى اهتمامه بالدين "كان عبد المطلب أيضا قوى الإيمان ،

تملك قلبه وتسيطر عليه نزعة دينية حادة عنيفة". [٢٤]

وكانت همته فى حفر بئر زمزم وتقديم ابنه عبد الله فداء للآلهة خير شاهد على ذلك ، ثم أوضح مدى اهتمام سكان الحضر بالدين عن سكان البادية ، جاء ذلك على لسان سمراء زوجة عبد المطلب: "إنكم لتكبرون من هذا البناء المنصوب مالا نكبر نحن فى البادية ، ولولا حاجتنا ومنافعنا لما هبطنا بطاحكم حاجين ولا معتمرين"[٢٥]

وعندما عبر الشاعر عن أهمية الدين فى حياة قريش أبرز على لسان الوليد بن المغيرة وابن أخيه عمرو بن هشام "تكبر آلهتنا ونعظم من أمرها وإنا لنزدريها فى نفوسنا أشد الازدراء ، ونمقتها فى قلوبنا أعظم المقت [٢٦] ثم يعود ليؤكد هذه الفكرة مرة أخرى بقوله: "وإنك لتعلم أن قريشا لاتكره من أحد شيئا كما تكره الانحراف عما ألفت من عادة ودين ، ولا تخاصم أحدا فى شئ كما تخاصمه فى مالها ودينها ، ودين قريش جزء من مالها ، لأنه كما علمت، وسيلتها إلى السيادة والسلطان" [٢٧] ثم يعود مرة أخرى ليؤكد على نفس المعنى "فإنى لاأكره من قريش شيئا كما أكره منها هذا الرياء: تكبر الآلهة وتعظم أمرها إذا شهد العامة أو حضر أهل الموسم فإذا خلا الملأ من قريش إلى أنفسهم فأى استخفاف بالآلهة وأى ازدراء لمن يدينون لها بالإكبار والإجلال". [٢٨]

وفى مرآة الإسلام يردد المؤلف نفس الفكرة بقوله: "ولا أكاد أشك فى أن وثنية أهل مكة لم تكن صادقة ولا خالصة ، وإنما كانوا يتجرون بالدين كما كانوا يتجرون بالعروض" . [٢٩]

ويستمر المؤلف فى الإلحاح على نفس الفكرة حتى يصل إلى أن ما قام به محمد صلى الله عليه وسلم من مهاجمة النظام الاجتماعى المتداعى والاقتصادى المتفكك وإيجاد مبادئ جديدة تصون كرامة الإنسان وتمنع استغلال الغنى للفقير ، وتذيب الفوارق بين الطبقات بالمساواة كل ذلك هو ماحفز قريشا إلى معارضة الدين الجديد ، ويعتقد طه حسين فى أن الرسول صلى الله عليه وسلم "لو قد دعاها إلى التوحيد دون أن يعرض للنظام الاجتماعى والاقتصادى ، و دون أن يسوى بين الحر والعبد ، وبين

---

(٢٤) طه حسين ، على هامش السيرة ج١ ص١

(٢٥) نفسه ج ١ ص ١٧ (٢٦) نفسه ج ٣ ص ١٥ (٢٧) نفسه ج ٣ ص ١٧

(٢٨) نفسه ج ٣ ص ١٧ (٢٩) طه حسين -مرآة الإسلام ، دار المعارف ص ١٥

الغنى والفقير ، وبين القوى والضعيف ، ودون أن يلغى ما ألغى من الربا ، ودون أن يأخذ من الأغنياء ليرد على الفقراء ، ولو دعاهم النبى إلى التوحيد وحده دون أن يمس نظامهم الاجتماعى والاقتصادى لأجابته كثرتهم فى غير مشقة ولا جهد ، فما كانت قريش مؤمنة بأوثانها إيمانا خالصا ، ولا كانت قريش حريصة على آلهتها حرصا صادقا ، وما كانت قريش إلا شاكة ساخرة ، تتخذ الأوثان وسيلة لاغاية ، وسيلة إلى استهواء العرب واستغلالها"(٣٠).

وقدم المؤلف سردا شاملا امتزج بالحوار يوضح خلاله التيارات الجارفة التى اجتاحت العالم ، تنشر الرعب والفزع والفساد ، مما جعل هؤلاء الباحثين فى بحث دائم عن الخلاص ، عن النور الذى يبدد هذا الظلام الدامس ، ويشير إلى البشارات التى دلت على أن هذا النور سيأتى من الجزيرة العربية ، وأن ما قاموا به من عمل للمجتمع يقصد تغيير هذه الجذور الفاسدة والأوضاع الاجتماعية السيئة ، إنما هو تمهيد ، يعطى لشخصية الرسول عندما تتولى الأمر القدرة على استكمال المسيرة.

لقد أنكر هؤلاء الباحثون عن الحقيقة على قولهم ماهم فيه من ضلال وفساد ، وخاصة ذلك الدور الرائع الذى قام به ورقة بن نوفل الذى عرف المسيحية ونشر تعاليم التوحيد ، وفضح سوء الأحوال الاجتماعية والفكرية والدينية السائدة ، وكان منهم زيد بن عمر الذى رفض المسيحية واليهودية ، واهتدى إلى مبادئ دين إبراهيم ، وعبد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وغيرهم ، وصور المؤلف حالة الفقر التى عاشها عم الرسول "وكان أبو طالب رجل مروءة وصدق وحسن بلاء ، ولكنه كان فقيرا كثير العيال ، وكان يجد جهدا عظيما فى إقامة عياله الكثيرين" .

وفى موضع آخر يذكر المؤلف "لقد كان شائعا فى مكة متواترا بين أهلها أن عمه الشيخ رجل سئ الحال ، ضيق ذات اليد ، مقتر عليه فى الرزق مع كثرة العيال"(٣١) .

حتى أن محمدا صلى الله عليه وسلم عاش حياة هؤلاء الفقراء "ولكنه كان على كل حال فتى فقيرا معدما يرعى الغنم لقومه بأجياد" (٣٢) .

---

(٣٠) طه حسين- الفتنة الكبرى ج١ عثمان ط٨ دار المعارف - القاهرة ١٩٧٠ ص١١ .

(٣١) طه حسين- ، على هامش السيرة ج٢ ص ١٤٥ .

(٣٣) نفسه ج٢ ص ١٢٩ .

ويبرز المؤلف أن عبد الله والد الرسول مات نتيجة البحث عن لقمة العيش والحياة الكريمة له ولأسرته.

وفى شكل فنى أقرب إلى الرواية يتناول المؤلف قصة الرسول صلى الله عليه وسلم ، تلك القصة التى شغلت خمسة فصول فى الجزء الأول من "على هامش السيرة" حيث صور طبيعة الحياة فى الجزيرة العربية وعادات الناس وطباعهم وآمالهم وآلامهم ، ورسم صورة جلية لجد الرسول عبد المطلب الذى أقدم على حفر بئر زمزم ، غير عابئ بما وجد أثناء الحفر من جواهر وسلاح ، محتفظا بما وجد من ماء له ولأولاده من بعده ، ثم الاحتكام إلى كاهنة بنى سعد هزيم فى شأن مخالفة قومه له فى حقه فى الماء ، ويحدث المؤلف بعض الومضات لتثير كوامن النفس الإنسانية داخل هذا العمل الروائى ، فالماء يمتنع عنهم وقد طال بهم السير نحو العرافة حتى رأوا الموت جهارا ، وإذ بعبد المطلب يتفجر من تحت راحلته الماء فيسلمون له بالأمر كله ، ويعود إلى مكة ظافرا ، ويتزوج من فاطمة المخزومية ليكثر من ولده حتى بلغوا عشرة أبناء فيقدم عبد الله الذى وقع عليه القداح نداء لنذر قد وعد به يوم تفجر الماء من زمزم ، وينتهى الأمر بفداء عبد الله بمائة من الإبل ، ويعود عبد الله سالما إلى أهله لتخطب له أسماء زوج أبيه آمنة بنت وهب.

ولم يكد عبد الله يبنى بآمنة حتى يأمره والده بالخروج فى قافلة تجارية للشام ، ويلبى عبد اله أمر والده ، فهو لم يتعود العصيان ، ويغادر عروسه راضيا مطمئنا .

ويستعرض المؤلف أثر زواج عبد الله من آمنة فى لقائه مع فاطمة الخثعمية ابنة مر الخثعمى صاحب المال الوفير ، التى أخذها الإعجاب بعبد الله كل مأخذ ، منذ يوم الفداء ، حيث أقدمت على إغرائه بجمالها ومالها "فقد تلقته الفتاة فرحة بلقائه أول الأمر ، ولكنها لم تكد تثبت بصرها فيه حتى هدأ هذا الفرح ، ثم قالت: فإنى لا أرى فى وجهك ماكنت أراه فى الضحى من الإشراق ، ولا أرى فى جبينك ماكنت أراه فى الضحى من الضوء ، ولا أسمع فى صوتك ماكنت أسمع" (٣٤) ثم تضيف قائلة لإحدى صديقاتها: "لاتهزئى فقد ذهبت آمنة بخير ماكنت أحب" (٣٥).

---

(٣٤) طه حسين- على هامش السيرة ج١ ص٥٢

(٣٥) طه حسين- على هامش السيرة ج١ ص٥٣

وفى الفصل الخامس يرتحل الركب بعبد الله وترى آمنة بنت وهب تباشير لإرهاصات النبوة إذ ترى رؤيا فى منامها "وإنما كانت تعلم أنه كان شيخا مؤنسا عذب الصوت ، دنا منها حتى إذا كاد يمسها تحدث إليها فى رفق كأنه يناجيها ويسر إليها سرا فقال: أتعلمين أنك حامل ؟ قالت: لا ، قال: فأعلمى أنك ستكونين أما لخير من حملت الأرض من الناس". (٣٦)

وفى أكثر من موضع يسرد المؤلف بعض ما تردد فى السير القديمة من أخبار حول رؤية النور منها ما جاء على لسان الرسول نفسه "إن أمى رأت فى المنام أن الذى فى بطنها نور". (٣٧)

وأتبع المؤلف ذلك بذكر بعض العادات والتقاليد البالية قبل الإسلام ، يتجلى ذلك فى قوله "وعلقت آمنة ما وصف لها من تمائم ، ولكنها لاحظت أنها ما كانت تفيق من نوم إلا وجدت تمائمها وقد انقطعت أسبابها وسقطت عنها ، فلما تكرر ذلك أعرضت عن التمائم ولم تحفل بها". (٣٨)

وحول إرهاصات النبوة يذكر المؤلف نصيحة حبرين من الحى المخالف للأوس والخزرج لتبع الملك الذى خرج من اليمن غازيا فى جيش كبير ، بالعدول عن مكة والمدينة "فإن الله لم يقدر لك أن تقهرهم ، ولا أن تملك أرضهم ، إنما ادخرهم وادخر أرضهم لشئ سيكون فى آخر الزمان نجده عندنا مكتوبا فى هذه الأسفار التى نتلوها عليك ، قال: وما ذاك ؟ قالا: نبى يخرج من هذا الصوب - وأشارا نحو مكة - فيمكر به قومه ويأبون عليه ، ويكيدون له ، ويخرجونه من الأرض ، فيأوى إلى هذا البلد ، فيجد النصر والمنع". (٣٩)

ويستطرد المؤلف فى إظهار ما تكنه النفس الإنسانية ، فالقافلة التى اتجهت صوب الشام تعود من غير أن يكون عبد الله بينها ، فقد مرض ومات فى يثرب ، وإذا بآمنة بنت وهب تعلن أن عبد الله حملها أمانة ترى النور فى يتم ، وهنا تهمس فاطمة

---

(٣٦) طه حسين- على هامش السيرة ج١ ص ٥٩

(٣٧) طه حسين- على هامش السيرة ج١ ص ١٧١

(٣٨) طه حسين- على هامش السيرة ج١ ص ٦٠

(٣٩) نفسه ج١ ص ٧٢ .

الخثعمية بعد أن تتأكد من النبأ "نذر وفداء ، ورحلة ومرض ، موت فى يثرب ، إن للقدر فى هذا الفتى من قريش لسرا ". [٤٠]

ويمضى المؤلف بعد ذلك فى عرض موقعة الفيل تلك التى ارتد فيها جيش أبرهة مهزوما ترميه حجارة من سجيل "رأيت الفيل قد برك ، حتى دنا منه ساسته لينهضوه نهض معهم حتى إذا وجهوه إلى مكة برك من جديد". [٤١]

ويصور المؤلف صورة حية لهزيمة أبرهة وجيشه "إنى لأرى الآن السحاب حين كان يقبل علينا أسرابا من طير صغار ، لها مناقير الطير وأكف الكلاب ، حتى إذا دنت منا أخذت تحصب الجيش بحجارة دقاق كانت تحملها فى مناقيرها وأرجلها ولم تك هذه الحجارة تبلغ دقة العدسة ولا عظم الحمصة ، وإنما كانت شيئا بين بين ، وكانت على دقتها لاتمس شيئا إلا هشمته تهشيما ، ولا تمس رجلا إلا ألقته صريعا". [٤٢]

وإذا كانت قصة الفيل قد قطعت السرد حول ميلاد الرسول ، فقد عاود المؤلف الحديث عن مولد الرسول من خلال عدة قصص منها اليتم والحاضنة والبر وغيرها وفى هذه القصص مايشير إلى بناء الشخصية وما اتسمت به من سمات نبيلة.

ولقد استرسل المؤلف فى عرض بعض الأحداث الثانوية المتضمنة أخبارا أسطورية مثل تصدع إيوان كسرى وخمود نيران فارس وجفاف بحيرة ساوة ، وجعل هذه الأحداث مرتبطة بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فآمنة "كانت ترى ، وهى يقظة غير نائمة ، أن نورا ينبعث منها فيملأ الأرض ومن حولها ويزيل الحجب عن عينها". [٤٣]

وإنا لنتسامع بأن إيوان كسرى قد اضطرب ومادت به الأرض ، فسقطت شرفاته وتهدم بنيانه وإذا أصوات أخرى تصيح منتشرة فى الفضاء ، وإنا لنتسامع بأن نار الفرس قد خبت فجأة لأول مرة منذ ألف سنة ، وإذا أصوات أخرى تصيح ؛ إنا لنتسامع بأن بحيرة ساوة قد جفت وما عهدناها إلا غزيرة جمة الماء". [٤٤]

---

(٤٠) نفسه ج١ ص ٦٤ . (٤١) نفسه ج١ ص ١٤٤

(٤٢) طه حسين- على هامش السيرة ج١ ص ١٤٤، ١٤٥

(٤٣) نفسه ج١ ص١٥٢

(٤٤) طه حسين- ج١ ص ١٥٧

ونظرا لالتزام المؤلف بما ورد فى السير القديمة ، فقد أثبت مثل هذه الاخبار التى ربما لايقبلها العقل الحديث ، إلا أنا نلمس أنه لم يؤكد صحتها من عدمه ، بما استخدمه لذلك من عبارات الظن والزعم دون عبارات اليقين والتثبيت. "وإن مثل هذه الظواهر التى يتعرض لها الأديب فى سيرة الرسول عليه السلام غالبا ما توقعه فى موقف حرج يضعف تصرفه فى استخدام الخيال بحرية وهذه خاصية من خاصيات الأدب القصصى الذى لم يكن مقنعا وخاضعا للمنطق الإنسانى". (٤٥)

والسير التى انتقى منها المؤلف هذه الأخبار سير معتمدة ولكنها مليئة بالأخبار الصحيحة وغير الصحيحة ، وفيها ما يمثل حقيقة تاريخية ثابتة ، وفيها من الأخبار ماهو موضوع لايرقى إلى المستوى المطلوب خاصة ما يتفق وشخصية الرسول عليه السلام ، فالأخبار الغريبة التى لايطمئن إليها العقل ولا تؤدى إلى الإيحاء بما يخدم سمات هذه الشخصية وفعالياتها تثير فى النفس بعض الحيرة ، وعموما فإن طريقة الكاتب مردودة إلى مدى ثقافته وأهدافه من كتابته ، وقد بينها المؤلف أنه قصد إمتاع النفس لا العقل "أحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شئ ، وأن للناس لملكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا عن العقل ، وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن إليها العقل ، ولم يرضها المنطق ، ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمى ، فإن فى قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها ، وما يحبب إليهم هذه الأخبار ويرغبهم فيها" . (٤٦)

وإذا كان المؤلف قد أعتاد ذكر الأخبار الغريبة كما ورددت فى بعض كتب السيرة فإنه قد أثار الشك فى بعض هذه الأخبار "وإن من الناس قوما يتحدثون عنه بأعاجيب لايطمئن إليها العقل ، ولا تجرى بها عادة الناس ، فمنهم من يزعم أنه رآه ذات يوم وقد اشتدت الهاجرة ، وإن سحابة لتقيه الشمس ، ومنهم من يزعم أنه رآه ذات يوم قد أوى إلى ظل شجرة تحنو عليه حنو الأم ، وإذا هو يسمع الشجرة تتلقاه بالتحية والسلام". (٤٧)

---

(٤٥) عبد المحسن طه بدر ، تطور الرواية العربية الحديثة ، دار المعارف بمصر ، القاهرة، سنة ١٩٦٣ ص ١٩٤ .

(٤٦) طه حسين- على هامش السيرة ، ج١ . (٤٧) نفسه ج٢ ص ١٤٨

وتجاوز طه حسين الاستقصاء العلمي أو التاريخي ليبرز الأحداث الهامة أو التجارب الإنسانية الخالدة وكل مايتعلق بحياة الإنسان من صراعات عقائدية ومعاملات إنسانية ، ولهذا تعددت الموضوعات القصصية وتنوعت بأحداثها وشخصياتها ، ورغم تعددها وتنوعها فهي تصور جانبا من جوانب حياة الرسول ، يبرز سمة من سمات هذه الحياة .

وإذا كان طه حسين قد حدد اتجاهه في تناوله للسيرة النبوية على أساس انه يقدم مجرد "صحف لم تكتب للعلماء ولا للمؤرخين ، لأني لم أرد بها إلى العلم ، ولم أقصد بها إلى التاريخ". (٤٨)

فإن هناك من الباحثين من يظن أن وراء ذكر طه حسين لبعض الأساطير هدفا يسعى إليه "و إني أتشكك في الهدف الذي يسوقه طه حسين ، ويعلن عنه صراحة في المقدمة بأنه يقدمها إلى القلب والشعور ، على انها مثيرة لعواطف الخير ، صارفة عن بواعث الشر ، معينة على إنفاق الوقت ، واحتمال أثقال الحياة وتكاليف العقل ، فالهدف في ظني أكبر من ذلك وأخطر وأكاد أجزم أنه قصد إظهار عقم وإفلاس الروايات التقليدية المتواترة عن أعظم حادث في التاريخ الإسلامي وهو البعثة النبوية – بما انطوت عليه من خرافات وغيبيات ، عمد المؤلف إلى ذكرها كما وردت عند الطبري وابن سعد وابن هشام وغيرهم ، فليس معقولا أن ينزلق فكر عقلاني فذ كطه حسين إلى سوق مجموعة من الأخبار والأحاديث التي لايسيغها العقل ولا يرضاها".(٤٩)

ولعل الحرية التي أباحها المؤلف في انتقاء الأحداث التي هي بمثابة أدوات تعينه على تصوير مايراه من خلجات النفس ونبضات القلب ، كانت وراء اهتمامه بما في كتب السيرة من احاديث قد لايقبلها العقل الخالص ، ولكن "أحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شئ ، وأن للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا عن العقل ، وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن إليها العقل ، ولم يرضها المنطق ، ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمي ، فإن في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة ، واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها مايحبب إليهم

---

(٤٨) طه حسين ، على هامش السيرة ج١ المقدمة ص هـ

(٤٩) د. محمود إسماعيل ، قضايا في التارخ الإسلامي منهج وتطبيق، مكتبة مدبولي القاهرة ص ١٧٨.

هذه الأخبار ويرغبهم فيها". [٥٠]

يتضح من ذلك أنه يرتضى مثل هذه الأحداث والأخبار مادامت تلبى نداء المشاعر الإنسانية وتؤدى إلى إمتاع العقول والأرواح ، وهكذا يتأكد أن طريقة الكاتب ومنهجه يخضعان دائما لثقافته وفكره وهدفه من هذه الكتابة التى يقدمها.

وقد أشاد د. محمد رجب البيومى بكتابة طه حسين الأدبية فى تناوله للسيرة النبوية ووصفه بأنه "رائع رائع ، لأنه رسم ألواحا بارعة للدعوة الإسلامية فى نشأتها الأولى ، وما كتبه عن المولد بالذات من احسن ماصوره أديب فنان فى مثل هذا الموضوع". [٥١]

وهكذا استطاع طه حسين أن يحول ما فى بطون الكتب والمتون تلك الأسانيد المدونة فى السيرة بأحداثها وشخصياتها إلى صورة فنية سهلة الفهم ، تدل على المعنى التاريخى المقصود "والدكتور طه حسين كفنان مؤرخ لديه مقياس يقف بتاريخ الأدب ودراساته بين العلم والفن ، بحيث لايغرق مؤرخ الأدب فى العلم إغراقا من شأنه أن يصيب بحوثه التاريخية الأدبية بالجفاف ، وبحيث لايغرق فى الفن إغراقا من شأنه أن يفنى الشخصيات فى ذاته وشخصيته ، بل هو يتخذ فى تناوله المادة الإسلامية طريقا وسطا بين العلم والفن ، بين التاريخ والأدب ، طريقا تتفق فيه علوم اللغة والصرف والنحو والبيان والتاريخ ومناهج البحث الأدبى فى استكشاف الظواهر وحقائق النصوص الأدبية، مع ماينبغى له من الحس الدقيق المرهف ، والذوق المهذب المصفى ، بحيث تتجلى شخصيته فيما ينثر من أحكام وآراء وفيما يصور من مواطن الجمال الفنى فى الآثار الأدبية والتاريخية المختلفة". [٥٢]

ولقد سار طه حسين فى تصويره فى الكثير من قصص "على هامش السيرة" مستخدما المنهج الاجتماعى خاصة فى تصوير الشخصيات ودراسة أحوال البيئة و إدراك العلاقات بينهما مستعينا بأحداث التاريخ لإكمال فنيتها وإثراء مواقفها ، لتتطور الشخصية وتنمو مع تطور الحدث ، ويمكن للقارئ أن يكتشف ملامحها

---

(٥٠) طه حسين ، على هامش السيرة ج١ ص ى ، ك

(٥١) مجلة الهلال عدد يناير ١٩٨٣م .

(٥٢) سامح كريم ، إسلاميات طه حسين ، دار العلم ببيروت لبنان طبعة ١٩٨٢ ص ٤٣ .

ويتعرف على سلوكياتها ومبادئها من خلال الأحداث ، ومن ثم يكون الحكم عليها سلبا أو إيجابا.

والحدث عند طه حسين يعالج جزئية من السيرة بصورة عامة ، داخل نطاق محدود للشخصية الجانبية التى عقد قصته للحديث عنها.

ولقد ارتبطت أغلب أحداث هذا العمل الفكرى الأدبى بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم و بدعوته الجديدة ، وإن كانت أغلب هذه الأحداث تدور حول شخصيات ثانوية ، ويتولى المؤلف رواية الحدث أو يحكيه بنفسه ، ويتعمق أحيانا عن طريق تحليل الحدث وما ترتب عليه من تغيرات اجتماعية ودينية ، وينتهى الحدث ومدى أثره فى بناء الدعوة وتطويرها وتثبيت أقدامها ، ومدى أثره فى تطوير شخصية الرسول التى لها وضعها الخاص فى التناول الأدبى فى القصة الحديثة.

وحول ما كان ينتاب العالم قبل مجئ الرسول من قلق فكرى وصراع مذهبى يهيئ العقول والنفوس لتقبل الرسالة المحمدية ، يقدم المؤلف عرضا ممتعا خلال قصته "الفيلسوف الحائر" التى دارت أحداثها بين حاكم المدينة الرومانى وصديقيه كاليكراتيس وأندروكليس ، حول مايريده قيصر من رقابة على دين الناس ، يفرض عليهم المسيحية ، وحول مايريده هؤلاء النفر من عبادة حرة لآلهة اليونان والرومان القدماء ، وبعد حدة الصراع تبدو فكرة الخلاص بالموت من هذه الحيرة العقلية ولعل هذه اللفتة تشير إلى مصدر هذا اللون من القصص عند الدكتور طه حسين الذى يمضى بصاحبه يقلب معه مختلف الحلول بين الهرب من المعرفة أو تحدى قيصر وتقبل العقاب أو مداراته ومصانعته ، حتى يلقى راهبا يزور حاكم المدينة فيمضيان الليل فى حديث طويل وحوار فذ حول حرية العقيدة وحرية الرأى ، ثم حوار بين كاليكراتيس وبحيرى الذى يبشره بنور جديد ينبثق من الجزيرة وتبدو علاماته كل حين ، ويلتقى بشيخ من قريش هو زيد بن عمرو الذى فر من بلاد العرب بحثا عن الإيمان إلى بلاد الروم ، ثم يتوجه الاثنان إلى قريش ، ولكنهما يقتلان دون الوصول إلى غايتهما.

ومن ذلك يتضح هدف طه حسين من إبراز مثل هذا القصص ، وهو وجود القلق والاضطراب الروحى والنفسى قبل مجئ الرسول صلى الله عليه وسلم الذى أذهب كل شك وقضى على كل قلق .

وحول سبب عداوته للرسول "قال عمرو: لا والله ماغاظنى شئ قط كما غاظنى احتكام قريش إلى محمد فى أمر الركن ورضاها بحكمه ، واستئثار محمد من

دون قومه بهذا الشرف حين أخذ الحجر بيده فوضعه فى موضعه من الكعبة ، ونحن قيام ننظر إليه لانقول شيئا كأنما سكرت أفواهنا ، ولا نصنع شيئا كأنما شلت أيدينا". (٥٣)

وكلما وجد القلوب تلتف حول الرسول ازداد غيظه وحقده "حتى ساء خلقه وقبحت سيرته واستهتر بالدعوة إلى الفتنة والإغراق فيها ، فعرف بين المسلمين بأبى جهل لأنه صورة للجهل والحمق والغضب الذى لايبقى على شئ". (٥٤)

وفى حوار أداره المؤلف بين الوليد بن المغيرة وعمرو بن هشام يقول الوليد: "ألست تذكر أن محمدا غير من عادات قريش فى الحج مالا يقدر أحد على تغييره ، فحج كما يحج العرب لا كما يحج أهل الحرم؟ قال عمرو بن هشام وهو يبتسم وهز رأسه: لا أذكر من ذلك شيئا ، وأضاف لا أنكر عليه شيئا ولا أقره على شئ ، ولا أعنى من ذلك كله بكثير ولا قليل ، ولو قد عنيت من ذلك بشئ لسلكت فيه طريق الأمين ، ولأعنته وجاهدت معه ، حتى نرد قريشا إلى السنة الأولى". (٥٥)

وفى حوار آخر بين شيبة بن ربيعة وعمرو بن هشام يقول شيبة: لقد قمت يا أبا الحكم عن الأمين مقاما سيعلمه ويحمده لك ثم يضيف: ماظننت قط أن أحدا يبغض الأمين ، وما عرفته إلا محمدا كاسمه بين قومه محببا إلى النفوس جميعا". (٥٦)

وتمثل قصة "صريع الحسد" شطرا كبيرا من حياة الرسول ، إذ تتضمن بطريقة غير مباشرة صورة واقعية لأحوال الجزيرة العربية قبل مولده ثم مرحلة شبابه وبعثه وحروبه دفاعا عن دعوته ، وقد عقد المؤلف أحداث هذه القصة حول عمرو بن هشام الذى كانت قيادة العرب أملا يراوده ، وعندما لم تتح له هذه الفرصة غلب عليه طابع الحقد والبغضاء والحسد وبالرغم من اهتمام المؤلف بإبراز هذه الشخصية حيث أدار عليها أحداث قصته إلا أنها تشير بطريق غير مباشر نحو شخصية الرسول فى سلوكياته وتصرفاته والمبادئ التى يدعو إليها ثم تطور صراعه مع الكفار ، وجاءت أساليب القص على لسان الشخصيات المعادية والمعترضين الذين كانوا يحاورون عمرا بن هشام عن مبادئ الدعوة واهدافها.

ومن خلال أحاديث ورقة بن نوفل ودروسه التى كان يلقيها على عمرو بن هشام

---

(٥٣) طه حسين – على هامش السيرة ج٣ ص٤٣

(٥٤) نفسه ج٣ ص٨٦ . (٥٥) نفسه ج٣ ص ٣٨ (٥٦) نفسه ج٣ ص٤١ .

بقصد تعليمه وتثقيفه قد أوضحت مكانة الرسول فى قريش وأنه المؤهل الوحيد للقيادة ، مما انعكس أثره فى حنق عمرو وكيده للرسول ، وكان من السهل أن يبرز المؤلف جوانب الضعف والقوة فى شخصية عمرو بن هشام ، ومن المواقف التى أوضحها المؤلف إقرار عمرو بما يتميز به الرسول "ما أرى إلا أنى ظالم لابن عبد المطلب ، حاسبت نفسى منذ قلت تلك المقالة فى دار شيبة فما حمدت حسابها ، إن ابن عبد المطلب ، ليصل الرحم ويصدق الحديث ويرفق بالضعيف ويرحم الرقيق ، وإنه لمؤتمن فى قومه على الهين والعظيم من أمرهم ، وأنى لأجد فى نفسى الحسد له ، وليس الحسد من أخلاق الرجل الكريم". (٥٧)

وقدم المؤلف قصة "ذو الجناحين" التى صور خلالها جعفر بن أبى طالب كشيخ ضاقت به الحياة فآثر العزلة ولبث الشيخ مطرقا تتغنى فى نفسه الكئيبة هذه الخواطر الحزينة التى تريد أن تبتسم فلا تجد إلى الابتسام سبيلا ، ويخفق قلبه بهذه المعانى الشاجية التى تريد أن تشرق فلا تكاد تدنو من النور حتى يلقى بينها وبينه ستار رقيق من الظلمة يدنيها منه وينئيها عنه ، ويغريها به ويزهدها فيه". (٥٨)

ولعل ما قدمه طه حسين يكشف عن معاناته النفسية ، نستشعر ذلك خلال استطراده "والله قد امتحن أخيار الناس بأشرارهم ، وابتلى علماء الناس بجهالهم ، وسلط على إخلاص المخلصين نفاق المنافقين و على جد أصحاب الجد و العمل كيد أصحاب الكيد و العجز". (٥٩)

وبأسلوب جذاب يصف حالته فى عزلته بعد أن تكالبت عليه الحياة بهمومها ومصائبها ، وقد جاءت إليه فتاة تريد أن تشاركه هذه العزلة وتخفف عنه آلامه ، وتعرف نفسها بأنها "أنا العزلة التى يفزع إليها المكروب إذا ضاق بالأحياء والأشياء ، وقل إنى أنا الوحدة التى يفر إليها الإنسان من نفسه وأهله ، ومن الأعداء والأصدقاء ، ومن الخير والشر ، وقل إنى أنا.الحرية التى يجدها الإنسان الفرد حين يفر من الجماعة إلى حيث يستطيع أن يفكر آمنا ناعم النفس رضى البال".(٦٠)

---

(٥٧) طه حسين على هامش السيرة ج٣ ص ٦٦.

(٥٨) طه حسين على هامش السيرة ج٣ ص ١٢٥.

(٥٩) نفسه ص ١٢٦ .

(٦٠) طه حسين على هامش السيرة ج٣ ص ١٣٠ .

ثم تبدأ هذه الفتاة فى سرد قصة جعفر بن أبى طالب واتصاله بابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم مصورة سمات هذا البطل الذى كناه الرسول "بأبى المساكين" لما تمتع من رحمة بالناس ، ورفقة بالمساكين والبائسين والضعفاء ، وإيثارهم على نفسه وأهله ، وتعبر عن سعادة الرسول بلقائه بعد فتح خيبر بقول الرسول: "ما أدرى بأيهما أنا أشد فرحا: بفتح خيبر أم بعودة جعفر". [٦١]

ويبرع المؤلف فى تصوير مشاعر جعفر عندما أراد مشاركة الرسول فى الجهاد ، خاصة بعد أن ذاق مرارة الهجرة إلى الحبشة فارا بدينه وعقيدته ، فقد كان طموحا لنيل الشهادة فى ميدان الجهاد بالنفس ، وفى غزوة مؤته حارب تحت إمرة زيد بن حارثه وكان يود أن تكون الإمارة له ، "إنما كان الشوق إلى حسن البلاء واحتمال أثقال الجهاد هو الذى دعاه إلى أن يعاتب النبى فى تقديم زيد عليه ، كان يؤثر زيدا والمسلمين ، ويريد أن يقدم عليهم نفسه إلى المكروه ، فلما رده النبى عن ذلك كانت نفسه تتأذى مخافة أن تظن به الأثرة ، وما أراد إلا الإيثار". [٦٢]

ثم يصور بطولته حين تقدم زيد بن حارثة فاستشهد وأخذ جعفر الراية وتقدم بها وأخذ يقاتل حتى قطعت يداه ثم تنهال عليه السيوف والرماح والسهام وينال الشهادة ، وأنبأ النبى بأن الله قد عوضه من يديه جناحين مخضوبين بالدماء يطير بهما فى الجنة فيتبوأ منها حيث يشاء". [٦٣]

ومن الأحداث التى اهتم المؤلف بإبرازها ، حياة الرسول الاجتماعية واشتغاله برعى الغنم وعمله بالتجارة ثم زواجه من السيدة خديجة التى اختارته زوجا لها ، رغم التفاوت الكبير فى الغنى والثروة ، واستطاع المؤلف أن يتناول شخصية الرسول عبر رؤية زوجه خديجة علاوة على تدخله من حين لآخر لملء بعض الفجوات فى السرد ، وحول هيئة الرسول يذكر المؤلف أن خديجة وقفت مع مجموعة من النساء فى انتظار عودة القافلة من الشام "وقد أقبلن فنظرن ، فرأين شيئا لم ير الناس مثله قط: رأين فتى مشرق الوجه ، واضح الجبين ، مهيب الطلعة".[٦٤]

ولقد وجدت خديجة فى شخصية الرسول النموذج الحى للصدق والأمانة ، فأعجبت به

---

(٦١) نفسه . (٦٢) ج٣ ص١٣٤.

(٦٣) نفسه ص ١٣٥ .

(٦٤) طه حسين على هامش السيرة ج٣ ص١٣٠ .

واختارته دون غيره من الرجال زوجا أمينا عليها وعلى تجارتها "هناك أحست خديجة فى قلبها حبا لهذا الفتى لم تعرف كيف تصفه ولا كيف تسميه ، ولكنها كانت تجد من نفسها الطاهرة نزاعا شديدا إلى أن تراه وتسمع عنه وتتحدث إليه ، ولم يكن ذلك يتاح لها ولا يهون عليها ، فأين هى من ثروتها الضخمة ومالها الكثير ، ومكانتها الممتازة من هذا الفتى اليتيم الذى ينفق أكثر أيامه خارج مكة يرعى الغنم ، فإذا عاد إلى مكة اعتزل الناس ، أو كان كالمعتزل لهم ، فلم يعرض لخديجة ، ولم تستطع خديجة أن تعرض له ، ومع ذلك فقد كانت نفسها تتبعه ، وقد كان شخصه لايفارق قلبها".(٦٥)

وحول تأثير حب خديجة للرسول وخوفها عليه ، عقد المؤلف عدة مقارنات أدبية ، إذ قارن بين حب عبد المطلب وحب خديجة للرسول ، وحب آمنة بنت وهب لعبد الله ليصل من كل هذه المقارنات إلى مدى إخلاص خديجة للرسول ومساندتها فى دعوته وتوفير المناخ الملائم له "ولم يكن أمر خديجة بأيسر من أمر عبد المطلب ، ولم يكن خوفها بأهون من خوفه ، ولم يكن إشفاقها بأقل من إشفاقه ولكن خواطرها كانت من طراز آخر ومن طبيعة أخرى ، كانت تحب هذا الفتى ، وحسبك بالحب مثيرا للخوف والقلق ، وباعثا للجزع والفزع ، وحائلا بين القلوب وبين ماتحتاج إليه من الهدوء والاطمئنان".(٦٦)

ولم يكن حب خديجة إلا عن وعى وحنكة بالحياة والناس ، لقد رأت فيه رجاحة العقل وحلو الشمائل "وما أشد ماكانت خديجة تألم حين تعرف أن خير قريش كلها يحتاج إلى أن يرعى الغنم لقومه بأجياد ، وإلى أن يكسب فى ذلك القراريط من حين إلى حين ، يستعين بها على ما يقيم أوده ، ويفضل منها على أبناء عمه الشيخ".(٦٧)

وفى قصة المراضع حيث الخطوات الأولى من حياة الرسول فى البادية بنقائها وصفاء جوها وبعدها عن المجتمع المدنى الفاسد ، يتعلم الرسول أصول اللغة العربية مما انعكس أثره على بناء الشخصية ، ويستطرد المؤلف فى تصوير بعض كرامات الرسول "وينهض الأعرابى إلى شارفة يلتمس فى ضرعها الجاف قطرات من لبن يبل ظمأ امرأته ، وينقع بها بعض غلته ، فما أسرع ما يأخذه عجب لاينقضى حين يرى شارفة

---

(٦٥) نفسه ج٢ ص ١٤٧ .

(٦٦) طه حسين– على هامش السيرة ج٢ ص١٥٥ .

(٦٧) نفسه ج٢ ص ١٤٧ .

حافلة تمنحه من اللبن مايريد وما تريد امرأته وفوق مايريد وما تريد امرأته".(٦٨)

وحول حادثة شق الصدر يذكر المؤلف على لسان الرسول عليه السلام "فبينما أنا ذات يوم منتبذ من أهلي في بطن واد مع أتراب لي من الصبيان نتقاذف بيننا بالجلة ، إذ أتانا رهط ثلاثة معهم طست من ذهب مليء ثلجا ، فأخذوني من بين أصحابي ، فخرج أصحابي هرابا ، حتى انتهوا إلى شفير الوادي ، فعمد أحدهم فأضجعني على الأرض إضجاعا لطيفا ، ثم شق ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي وأنا أنظر إليه لم أجد لذلك مسا ، ثم أخرج أحشاء بطني ، ثم غسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ، ثم أعادها مكانها ، ثم قام الثاني منهم فقال لصاحبه تنح فنحاه عني ، ثم أدخل يده في جوفي فأخرج قلبي ، وانا أنظر إليه ، فصدعه ، ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها ، ثم مال بيده يمنة منه كأنه يتناول شيئا ، فإذا أنا بخاتم في يده من نور يحار الناظرون دونه ، فختم به قلبي فأمتلأ نورا ، وذلك نور النبوة والحكمة".(٦٩)

٢- الرؤية الإسلامية في كتابه "الوعد الحق".

تلتقي أحداث هذا العمل الأدبي مع أحداث الجزء الثالث من كتابه "على هامش السيرة" الذي أصدره طه حسين عام ١٩٥٠م ، إذ يتناول خلاله أكثر من صحابي جليل ، ممن جاهدوا وثابروا خدمة للإسلام ، وحبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستطاع أن يبرز سمات هذه الشخصيات الإسلامية في صراعها المرير مع ذوي الجاه والنفوذ في قريش ، محققة رمز الصمود والتضحية لهذه الفئة المستضعفة ، ولما يجب أن يكون عليه الإنسان المسلم دائما .

واتخذ طه حسين في عرضه الاسلوب القصصي الذي يعد دعامة لعرض سيرة الرسول وأصحابه في ثوب جديد ، وقد أفلح الأديب في بلورة شخصية البطل الممثلة في شخص الرسول بطريقة غير مباشرة ظهرت من خلال تناوله للشخصيات الجانبية التي كانت مثلا في الكفاح من أجل إنقاذ الإنسان من الظلم والاستعباد البشري .

وإن ما قام به طه حسين من تناوله لشخصيات الصحابة لايبعد أن يكون مكملا للسيرة نظرا للدور الهام الذي قاموا به في خدمة الدعوة الإسلامية ، ولهذا فقد

---

(٦٨) طه حسين –على هامش السيرة ج٢ ص١٥٥

(٦٩) نفسه ج١ ص١٧٩، ١٨٠

تابع المؤلف حياتهم والأهوال التى تعرضوا لها حتى مثواهم الأخير.

ومن الشخصيات التى تناولها المؤلف شخصية ياسر بن عامر وهو يمنى الأصل ، جاء إلى مكة باحثا عن أخ له قد فقد ، وآثر البقاء فى مكة ، وهنا يبرز طه حسين دور الإيمان بالقضاء والقدر "وحياة الناس ليست رهنا بما يريدون ، وليست مستجيبة لما يقدرون ، وإنما هى أمور خفية يجريها القضاء ، لايؤامر فيها أحدا ، ثم يكون لها فى حياة الناس من الآثار مالم يكن ليخطر لهم على بال. (٧٠)

وعاش ياسر ضيفا على أبى حذيفة ثم حليفا ، ثم زوجا لأمته السوداء سمية بنت خياط ومن خلال معايشته لهذه الشخصية يصور الحياة فى مكة والأوضاع الطبقية السائدة وطموح الضعيف من الرقيق إلى نشدان الحرية "ويرون الرقيق وقد طمحوا إلى الحرية واشتاقوا إليها وهاموا بها ، وجعلوا يتحدثون فيما بينهم كأنهم ليسوا أقل من سادتهم استحقاقا للحياة ولا استئهالا للكرامة ولا ارتفاعا عما ينقص ، ولا تنزها عما يشين كل قد خلق جسمه من تراب ، وكل يصير جسمه إلى تراب ، لاتتمايز أجسامهم حين تولد ولا تتمايز أجسامهم حين تموت ، وإنما تتمايز نفوسهم وقلوبهم وضمائرهم بين ذلك". (٧١)

وتمضى الأيام ويرزق ياسر ابنا أسماه عمار ، دخل نور الإسلام قلبه ، فأصبح ممن يترددون على دار الأرقم بن أبى الأرقم ، ثم يدعو والديه للإسلام ، وبمجرد أن أسلموا "إذا أبو جهل عمرو بن هشام قد أقبل فى فتية من أحرار مخزوم ورقيقها فوضعوا عمارا وأبويه فى الحديد ، وأشعلوا فى دار ياسر النار". (٧٢)

لقد عذبت هذه الأسرة بأشد أنواع التعذيب ، حيث أخذهم بمكاوى النار فى جنوبهم وصدورهم ، ووضعوا على صدورهم الحجارة الثقال ثم صبوا الماء على وجوههم، ويتحملوا الإيذاء فى صمت "ولكن نفوس الأسارى قد تحدث بعضها إلى بعض ، وفهم بعضها عن بعض فعقدوا ألسنتهم وعمروا قلوبهم بذكر الله ، وخلوا بين القوم وبين أجسامهم يصنعون بها مايريدون". (٧٣)

---

(٧٠) طه حسين- الوعد الحق- إقرأ دار المعارف للطباعة والنشر بمصر العدد ٩٦. ص٨

(٧١) نفسه ص ١٧ . (٧٢) نفسه ص ١٧ .

(٧٣) طه حسين ، الوعد الحق ص٣٩ .

وينضم إلى هؤلاء صهيب الذى جاء مكة تاجرا أمينا ، آمن بدعوة الإسلام بمجرد علمه بها وأخذ يتردد على دار الأرقم بن أبى الأرقم ، بعد أن أعتقه عبد الله بن جدعان "و وقف أبو جهل على نادى قومه فاتكأ على قوسه ثم قال فى صوت المحنق المغيظ أعلموا يا معشر قريش أن صهيبا قد صبأ ، وأنه يشارك آل ياسر فى عذابهم منذ اليوم".(٧٤)

ويروى المؤلف حادثة أبرهة فى هجومه على مكة فى محاولة لهدم بيت الله الحرام وهزيمته النكراء ، أمام الطير الأبابيل التى أطاحت به وبجنوده ، وكان من نتيجة ذلك أن وقعت أميرة من أميرات الحبشة ضمن الأسارى ، فأراد رجل عربى "سحيم" إذلالها فأهداها إلى "خلف" الذى قبل زواجها من رباح الخادم الحبشى الزنجى ، ولكن ذلك الخادم عاملها كأميرة ، وتطورت العلاقة بينهما وتوطدت ، ليعاشرها كزوج وأنجب منها "بلالا" وآل أمر بلال إلى أن أصبح من أحب الناس إلى النبى وآثرهم عنده".(٧٥)

ومنذ ذلك التاريخ وبلال يواجه التعذيب بشتى ألوانه صابرا محتسبا ثم يروى طه حسين قصة خباب بن الأرت ، اشترته أم أغار وهى امرأة خزاعية وأحسنت معاملته ، ثم تعلم صناعة الحديد والسلاح ، وترتاح نفسه ذات يوم إلى سماع بعض آيات من القرآن الكريم فيطلب من صاحبه أن يصطحبه إلى الأمين "ويقبل أبو جهل ذات صباح على نادى قومه فى المسجد فيقول وهو يضحك ملء شدقيه ويضرب فخذه بيده: يا معشر قريش ، اغدوا إن شئتم على منظر عجب ، إن ابن الخائنة قد صبأ ، وإنا محرقوه بالنار قبل أن ينتصف النهار".(٧٦)

ويتابع طه حسين سرد قصص هؤلاء المستضعفين من صحابة رسول الله فيذكر قصة عبد الله بن مسعود الذى أصبح راعيا لعقبة بن أبى معيط ، وبينما يؤدى عمله يأتى إليه رجلان يسأله أحدهما أن يسقيهما من اللبن فيمتنع الغلام لأنه مؤتمن وهنا يطلب أحد الرجلين شاة لم ينز عليها الفحل ويمسح على ضرعها ويدعو فإذا

---

(٧٤) نفسه ص ٤٧

(٧٥) طه حسين الوعد الحق ص٦٨ .

(٧٦) نفسه ص ٧٦ .

الضرع قد حفل باللبن فشربوا جميعا ، وقد ترك هذا الموقف أثرا بالغا عند الغلام ، إذ يتجه إلى الرسول معلنا إسلامه "وإنما خلق ليلزم محمدا هذا الأمين فيسمع منه ويحفظ عنه ويدعو بدعوته".(٧٧)

وذات يوم كان عبد الله بن مسعود يتلو ماتيسر من سورة الفرقان فى جمع من المسلمين ، وسمعه أبو جهل ثم قال له "ويلك يا أبن أم عبد ، وما تزال تفسد علينا أخلاقنا ورقيقنا ، وما أراك منتهيا حتى تصيبك منى بائقة ، وهم ابن مسعود أن يرد عليه مقالته ، ولكن أبا جهل لايمهله ، وإنما يعلوه بالقوس فيشجه ، وقد أخذ الدم يتحدر على وجهه ، ولكنه لم يحفل بذلك ، وإنما يسرع فى خفة إلى أبى جهل وهو يقول: فأما إذا فعلت فخذها وأنا فتى هذيل ثم يدفع صدر أبى جهل بإحدى يديه ويلطم وجهه بيده الأخرى".(٧٨)

ولعل هذا يبرز أثر الإسلام فى النفس الإنسانية وما تتسم به من صبر وإباء وتحمل لكل ما تواجهه من آلام رهموم .

ويستطرد المؤلف فى سرد العديد من القصص التى توضح حب هؤلاء لمحمد ، وحول تأثير حب محمد فى النفوس ، قال أبو حذيفة "لم يصنع محمد بقلوبنا إلآ أنه نقاها من الغى ، وجلاها من الضلال واستنزل عليها السكينة التى ملأتها أمنا ورضا وثقة وأملا وحالت بينها وبين الخوف والشك والقنوط.(٧٩)

ويوضح المؤلف أن المعاملة السيئة التى كان يلقاها المستضعفون ، كانت لتخويف ورع الرقيق والمستضعفين ، وينظر إليها شباب قريش على أنها لون مستحدث من التسلية واللهو والمجون حيث كانوا "يتحدثون ببراعة أبى جهل فيما كان يخترع من ألوان الفتنة والمحنة راضين عنها معجبين بها وكانوا يتحدثون عن احتمال أولئك الرهط للفتنة و المحنة فى أنفسهم بالجلد والصبر والأناة فى كثير من الإعجاب ، كما كانوا يتحدثون فى عبث وسخرية بما كانت أجسام أولئك الرهط تأتى من الحركات حين يمسها العذاب".(٨٠)

وأبرز المؤلف مدى تحمل هؤلاء المستضعفين من أولئك البغاة الظالمين متيقنين بأن الله ناصرهم ، وكان النبى يرى آل ياسر وهو يعذبون ، وقد سطحوا على الأرض

---

(٧٧) طه حسين الوعد الحق ص٨٣ .

(٧٨) نفسه ص ٨٦

(٧٩) طه حسين الوعد الحق ص١٠٢

(٨٠) نفسه ص ١٠٧

موثقين ، ووضعت على صدورهم الصخور الثقال ، فيقول لهم رسول الله: "أبشروا آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة". (٨١)

ويسرع أبو بكر في شراء بلال بعد أن نال منه العذاب بالحديد والسياط والحجارة ويربطون أطرافه بالحبال ويأمرون الصبية بشد الحبال من كل اتجاه ، وبعد أن اشتراه أبو بكر أعتقه لوجه الله.

ويوضح طه حسين مبادئ الدين الإسلامي التي تقوم على الحرية والعدالة والمساواة ، "إن الإسلام لايفرق بين الحر والرقيق ، ولا يميز بين الناس إلا بالتقوى وبما يقدمون بين أيديهم من البر والخير وعمل الصالحات".(٨٢)

وكما انتهى تعذيب بلال بالعتق ، فقد استطاع صهيب الرومي أن ينسل من حبسه بمكة في اتجاه المدينة ، وترسل قريش خلفه الخيل ويتوقف صهيب مهددا هؤلاء بما يحمل من سهام إن حاولوا إعادته إلى قريش وخيرهم بين ذلك وبين ما جمع من مال وتركه بمكة ، فوافقوا على أن يدلهم على مكان المال وتركوه لشأنه .

وكذلك هاجر عبد الله بن مسعود إلى المدينة فكان صاحب سواد رسول الله ووساده ونعليه وطهوره ، حتى كأنه من أهل بيته "فليس غريبا إذن أن يكون أحفظ الناس للقرآن وأكثرهم سماعا عن النبى ، ثم أصبح بعد وفاة النبى أكثر الناس تعليما للقرآن وأقلهم رواية لحديث النبي" .(٨٣)

ويشير المؤلف إلى وقعة بدر ، وانتصار المسلمين وهزيمة المشركين ، ومقتل العديد من صناديد قريش ، ويرى عبد الله بن مسعود أبا جهل وقد صرع ، فيجلس على صدره ثم يحتز رأسه معلنا عدل الله مع الظالمين ، وكبر النبى والمسلمون لتأييد الله ونصره .

وكشف المؤلف عن بلال مؤذن الرسول "وقد عرف رسول الله لبلال سبقه إلى الإسلام وسبقه إلى الأذان فجعله صاحب أذانه ما أقام فى المدينة".(٨٤)

---

(٨١) نفسه ص ١١١ (٨٢) نفسه ص ١٢٨ . (٨٣) نفسه ص ١٣٤

(٨٤) نفسه ص ١٤٠ .

أما بالنسبة لعمار بن ياسر فقد أقبل إلى المدينة مهاجرا ، وأقطعه رسول الله موضع داره ، وكان موضع حب الرسول وإشفاقه ، ومن أعماله مشاركته فى بناء المسجد بالمدينة ومساهمته فى حفر الخندق ، وكان الرسول يقول له أكثر من مرة تقتلك الفئة الباغية ، وقد انتهى عمار بن ياسر إلى الكوفة فى عهد عمر بن الخطاب "ونظر عمار بن ياسر فإذا هو أمير لمصر عظيم – من أمصار المسلمين وجيش عظيم من جيوشهم وأكبر الظن أنه استحضر فى نفسه ما لقى من الشدة والبأساء مع النبى بعد أن هاجر إلى المدينة ، فلم يقع هذا كله من نفسه موقعا غريبا ، وإنما آمن بأن وعد الله حق".[٨٥]

وبين المؤلف أن "عمار" قد أقام العدل وحكم بالقسط ونصح فى الدين وسار مع أهل الكوفة سيرا حسنا ، وكان لايغضب لنفسه بل لله ورسوله ، وبعد أن عزله عمر عن ولاية الكوفة فرغ للعبادة والطاعة والأمر بالمعروف وتأديب الناس فى دينهم .

ومع كثرة الشكوى وازدياد الاضطرابات فى المدينة أثناء حكم عثمان ، ذهب عمار إلى عثمان ليحدثه برأى الناس فى ولاته ، وساءت العلاقات بينه وبين عثمان "فيخرجه غلمانه ويضربونه حتى يغشى عليه وحتى يظن الناس أنه الموت ، ولكن عمارا يفيق ويقول: طالما عذبنا فى الله من قبل ، ويصبح منذ ذلك اليوم زعيما من زعماء المعارضة لعثمان".[٨٦]

وبعد مقتل عثمان اشتد عمار فى مناصرة على ، وخرج مقاتلا فى صفين وعمره قد جاوز التسعين ، وقد أبلى البلاء الحسن حتى قتل ونال شرف الشهادة.

أما بالنسبة للصحابى عبد الله بن مسعود فقد أقام فى الكوفة ، ولكنه لم يكن راضيا عن السياسة المالية الجديدة التى يتبعها الوليد فى بيت المال حيث التوسع فى النفقة "وكان قد ألف منذ أيام عمر أن أموال بيت المال ملك للمسلمين لا للأمراء وأن الأمراء لاينبغى أن ينفقوها إلا بحقها وفى الوجوه التى تنفع عامة المسلمين".[٨٧]

علاوة على أنه لم يكن راضيا عن جمع القرآن فى مصحف واحد وقراءة واحدة ، ويأمر عثمان بإخراج ابن مسعود من الكوفة إلى المدينة ، وأساء عثمان معاملته وأمر

---

(٨٥) نفسه ص ١٥٨

(٨٦) طه حسين –الوعد الحق ص١٦١ . (٨٧) نفسه ص ١٦٤ .

بإخراجه من مسجد الرسول وهو يصيح "أنشدك الله لاتخرجني من مسجد خليلي صلى الله عليه وسلم ، ولكن الغلام يمضي به حتى إذا بلغ باب المسجد ضرب به الأرض فكسرت إحدى أضلاعه ، وحمل إلى بيته مكروبا".(٨٨)

ومات ابن مسعود بعد رحلة عناء وتعب وجهاد وصبر .

لقد وفق طه حسين في عرض صورة دقيقة لما لقيه المستضعفون من أذى واضطهاد ولم يقف بأولئك الرقيق والأحلاف عند مرحلة التعذيب ، بل تابع رحلة حياتهم في ظلال الدعوة الإسلامية إلى أن صاروا إلى جوار ربهم .

يلقي المؤلف نظرة واعية على التاريخ قديما متابعا حياة قريش والفرس والروم وما كان يسودها من ظلم تجاه الضعفاء "كان التاريخ في ذلك الوقت كما كان في أكثر الأوقات أرستقراطيا لايحفل إلا بالسادة ، ولا يلتفت إلا إلى القادة".(٨٩)

قد أتاح الإسلام أمام التاريخ فرصة تناول التحول الذي طرأ في حياة المستضعفين والأرقاء وتغير حياتهم من الخوف والضياع إلى الأمن والاستقرار .

مع متابعته الجادة لحياة هؤلاء المستضعفين وجهادهم وصبرهم تناول بشيئ من التفصيل الأحداث الهامة في تاريخ الإسلام مثل حادثة الهجرة النبوية ، ثم غزوة بدر وأحد والأحزاب وفتح مكة وحركة الردة ومواجهتها والفتوحات العظيمة التي تمت في عهد أبي بكر وعمر والصراع الذي نشب بعد مقتل عثمان بين معاوية وعلي وآثار ذلك على الساحة الإسلامية .

لعل عنوان الكتاب "الوعد الحق" ينم عن الفكرة العامة للكتاب حيث أنصف الله هؤلاء المستضعفين ومكن لهم في الأرض "لقد أورث هؤلاء المستضعفين أرضه ، وأدال لهم من قيصر وكسرى ، وجعلهم أئمة للناس ما عاشوا ، حتى إذا اختارهم لجواره وآثرهم بنعيمه جعل ذكرهم خالدا ، وسيرتهم رضا ، وحياتهم قدوة صالحة وأسوة حسنة ، فهم أئمة للمسلمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها".(٩٠)

قد أفسح طه حسين المجال لخياله الأدبي عندما صور حياة هؤلاء الصحابة قبل الإسلام ، فكان تصويره لهذه الشخصيات منسجما مع صورة البيئة آنذاك وتتجلى براعة المؤلف عندما استطاع أن يجعلنا نعيش في الصورة التي رسمها للبيئة العربية

---

(٨٨) طه حسين –الوعد الحق ص١٦٦ .   (٨٩) نفسه ص ١٥ .

(٩٠) طه حسين –الوعد الحق ص١٧٦ .

حين ظهر الإسلام ، ولعل الخطوط العريضة لها قد ارتسمت عند قراءته للسيرة النبوية الشريفة ، وخياله كان أقرب للواقع ، وجاء متمشيا مع طبيعة العصر والشخصيات والتغييرات التى تأثرت بدخول الإسلام وقيمه الفاضلة .

وإذا كان طه حسين قد ذكر انه قد استلهم مادته الأدبية والفكرية من مصادرها "تاريخ الطبرى - طبقات ابن سعد - سيرة ابن هشام" فإنه كان من الواجب أن يشير إلى هذه المصادر خاصة وأن هذا العمل الفكرى يعد تكملة لعمله الرائع "على هامش السيرة" .

وقد اعتمد طه حسين فى هذا العمل الفكرى على أكثر من طريقة فى أسلوبه ، حيث لجأ إلى الرواية والتحدث والوصف ، ولكن الأسلوب الحوارى ظل السائد فى أغلب صفحات الكتاب ولعل هذا التنوع بشد القارئ وينمى تذوقه الفنى ، ويدفعه للمتابعة المستمرة لكل مايدور حول هذه الشخصيات.

وقد تلاحظ أن طه حسين قد ركز تصويره للشخصيات الإسلامية من المستضعفين من أمثال آل ياسر - صهيب الرومى - بلال بن رباح - خباب بن الأرت - عبد الله بن مسعود - سالم مولى أبى حذيفة ، عبد الله بن سهيل ، ولم يتحدث عن غيرهم من أجلاء الصحابة إلا بما يخدم حديثه عن هذه الطبقة ، ويؤدى إلى تكامل الصورة الفنية الإبداعية .

وقد أورد العديد من الآيات القرآنية على سبيل الاستشهاد [٩١]، كما استعان بالأحاديث النبوية الشريفة ليدعم بها الآراء والأفكار المطروحة عبر المضامين القصصية المتعددة .

وقدم طه حسين هذا العمل الرائع فى نفس العام الذى أخرج فيه كتابه "المعذبون فى الأرض" ، وهو فى الكتابين يحث على التحلى بالصبر ويبشر بأن نتيجة ذلك الخير العميم .

واهتمام المؤلف بمثل هذه الشخصيات ذات المنحى الدينى والتى تتحرك فى مواقفها من منطلق أخلاقى ، تبين معالم اتجاه محدد يصدر عنه طه حسين وينفعل له ويتفاعل معه ويوظف فنه وإمكاناته فى بلورة حركته.

---

(٩١) أورد المؤلف للإستشهاد العديد من الآيات القرآنية فى الصفحات ٨٤، ٨٥، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٠، ١٣٧، ١٣٩، ١٤١، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٥، ١٥٧، ١٦٠، ١٦١، ١٧٦ .

والمنطلق الذي يجدد مسار هذا المسلك ينبع أساسا من عقيدة الإيمان بالقدر ومظهرها الرضا بما قسم الله والجهاد في سبيل الحق والتزام المبادئ الإسلامية ونشر الخير ومواجهة الباطل.

٣- مرآة الإسلام

صدر هذا العمل الفكري الرائع عام ١٩٥٩م وقسمه إلى كتابين، أبرز في الأول ماتتميز به البيئة العربية في الجزيرة العربية من سمات ومدى اتصالها بغيرها من الأمم المجاورة منذ القرن السادس للمسيح، ثم بين أثر الإسلام في هذه البيئة، ثم اختص الكتاب الثاني ببيان حول إعجاز القرآن الكريم وإثارة عدة قضايا فكرية ودينية تتعلق بالإسلام وأهله.

والمتأمل في كتابات طه حسين الإسلامية يجد أنها أضافت إلى الدراسات المعاصرة لتراثنا الإسلامي رؤية جديدة عميقة تستوحي العقل والقلب، وتنم عن مكانة المؤلف كرائد من رواد الجيل الذين فتحوا أمام الشباب آفاق العلم والمعرفة على أساس علمي يتميز بالاستيعاب والتمحيص.

وعن أحوال الأمة العربية قبل الإسلام يصورها طه حسين بأنها "متخلفة أشد التخلف بالقياس إلى الأمم التي كانت تجاورها، لها في الجنوب بقايا حضارة كانت قد درست، ولم يكن أهل الجنوب أنفسهم يعلمون من أمرها إلا أخلاطا هي إلى الأساطير أقرب منها إلى الحق".(٩٢)

ويشير إلى أن أهل الجنوب قد وصلت إليهم دعوة الدينين اليهودي والمسيحي فأثرت في نفسياتهم، حيث جعلتهم "أرق قلوبا وأصفى طباعا من أهل الشمال".(٩٣)

وربما كانت لعوامل البيئة الدور في هذا الشأن إذ كانت أعمالهم في الزراعة والتجارة قد خففت من قسوة الطبيعة كما هي في الشمال.

ويربط المؤلف بين المكان والأخلاق، فأهل البادية غلاظ القلوب في أخلاقهم شئ من جفاء بينما أهل القرى حيث الزراعة والتجارة يتمتعون بشئ من السماحة،

---

(٩٢) طه حسين – مرآة الإسلام –دار المعارف ص٥ .

(٩٣) طه حسين – مرآة الإسلام – ص ٧ .

ويوضح أن اليهودية قد استقرت فى شمال الحجاز "لأسباب لا نحققها ولا يبينها التاريخ".[٩٤]

ولعل اتصال العرب بالأمم المجاورة والتجارة كان وراء دخول اليهودية أو النصرانية أو اعتناق البعض للمجوسية الفارسية أو الوثنية الساذجة .

ويتعرض لمكة فيذكر اهتمامها بجمع المال والتجارة ، أما عبادة الآلهة والأوثان فكانت مجرد شفاعة عند الله حيث "يظهرون الإيمان بتلك الوثنية والتعظيم لتلك الآلهة ترغيبا للعرب فى الحج وتحقيقا لمنافعهم منه". [٩٥]

ويقسم سكان مكة إلى طبقات ثلاث : طبقة لها كل الحقوق وهى قريش – طبقة الحلفاء ، طبقة الرقيق ورغم اتصال قريش بالبلاد المتحضرة "ولكن الحضارة لاتنقل من مكان إلى مكان كما تنقل العروض وإنما تنشأ فى بيئة من البيئات تنبت من الأرض ثم تقوى وتشتد ويزيدها الاتصال بالأمم المتحضرة نموا وازدهارا ". [٩٦]

ويشير إلى أن قريشا قبل بعثة الرسول لم يحدد لها نظام الحكم الذى يكفل إقامة العدل بين الناس جميعا ويحقن الدماء "إنما كان لها سادة أو شيوخ يلتئم منهم مجلس فى المسجد الحرام أو فى دار الندوة وأمام هذا المجلس تعرض مشكلات التجارة وتعرض المشكلات التى تكون بين أحيائها".[٩٧]

ونظرا لعدم وجود العدل الشامل ، اجتمعت طائفة من خيار هؤلاء السادة وأقويائهم وتحالفوا على رفع الظلم وإقامة العدل ، وهذا الحلف يسمى حلف الفضول ، وقد شارك فيه النبى صلى الله عليه وسلم .

ويوضح المؤلف تميز ثقيف بالقوة والمنعة والدهاء والبراعة فى الكيد للعدو ، وبينما أهل يثرب ألين عريكة وأرق شمائل وأسمح أخلاقا وذلك لأنهم "أصحاب زراعة متصلة يزرعون ليعيشوا ولا يكادون يتجرون خارج الجزيرة العربية إلا قليلا وهم بعد ذلك مخالطون لأهل الكتاب من اليهود مخالطة متصلة".[٩٨]

ولعل قدرة المؤلف على تصوير هذا الواقع الاجتماعى كانت نتيجة الدراسات والأبحاث التى قدمها عن علم الاجتماع عند ابن خلدون ، وتأثير البيئة على الشخصية

---

(٩٤) نفسه ص ٨ .　(٩٥) نفسه ص ١٦ .

(٩٦) طه حسين – مرآة الإسلام – ص ٢١ .

(٩٧) نفسه ص ٢٢ .　(٩٨) نفسه ص ٢٧

الإنسانية والسلوك البشرى .

ويستعرض طه حسين سيرة النبى محمد صلى الله عليه وسلم من خلال تقديمه لشخصية جده عبد المطلب بن هاشم وحفر بئر زمزم وما تبع ذلك من أحداث نتيجة الخصومة بينه وبين قريش والاحتكام إلى أحد الكهنة ، ثم محاولة الوفاء بتقديم ابنه عبد الله والد الرسول صلى الله عليه وسلم قربانا للآلهة ووفاء لنذر وعده فلما أنجاه الله زوجه أبوه ثم أرسله مع قومه للتجارة إلى الشام حيث ذهب ولم يعد ، وبهذا ينشأ محمد صلى الله عليه وسلم يتيما .

كما يشير إلى الحملة الصليبية على الكعبة التى قام بها أبرهة ، وتجلى موقف الصبر والجلد والشجاعة والثقة بالله عند عبد المطلب حتى هزم جيش أبرهة وأهلك عن آخره ، وحول تأويل الطير الأبابيل يقول المؤلف "وما أحب أن أعرض لتأويل هذه الطير الأبابيل التى رمت الحبشة بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول ، لأنى أوثر دائما أن اقبل النص وأفهمه كما قبله وفهمه المسلمون الأولون حين تلاه عليهم النبى صلى الله عليه وسلم".(٩٩)

ويهتم المؤلف بسرد هذه الأحداث لعلاقتها بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم "فى نفس هذا العام - الذى سمته قريش وسماه الرواة بعد ذلك عام الفيل - ولد هذا الصبى يتيما".(١٠٠)

ثم يتابع سرده للسيرة الشريفة فيذكر استرضاع الرسول فى بنى سعد ثم عودته إلى أمه وهو فى السادسة حيث تصحبه لزيارة قبر أبيه عبد الله ولكنها توفيت لتعود به بركة أم أيمن يتيم الأب والأم وبعد وفاة جده يكفله عمه أبو طالب الذى صحبه فى رحلاته التجارية إلى الشام .

ويبرز المؤلف وصية أحد رهبان النصارى لعم الرسول عندما علم من أمر محمد أنه سيكون نبيا ، بأن يحرزه فى مكة من مكر النصارى واليهود .

وحول سمات الرسول صلى الله عليه وسلم يوضح طه حسين أنه كان يحب العمل حيث عمل على رعى الغنم ثم عمل بالتجارة ، وكان ينبل على أعمامه فى حرب الفجار التى كانت بين قيس وقريش ، وقد وفقه الله بزواجه من السيده خديجة بنت

---

(٩٩) طه حسين - مرآة الإسلام - ص ٣١ .

(١٠٠) طه حسين - مرآة الإسلام - ص ٣٤ .

خويلد وأتيح له منها الولد وحياة الأمن والاستقرار ، حيث لمست فيـه الأمانـة والصـدق والوفاء وطيب العشرة ، ويسرد المؤلف كذلك حادثة الخلاف الذى وقع بين قريـش عنـد إعادة بناء الكعبة حول من الذى يضع الحجر الاسود ويقضـى بينهم الرسول قضـاء يرضيهم حيث بسط رداءه و وضع الحجر فى وسطه ثم أمرهم بـأن يـأخذوا بـأطراف الرداء فيحملوه ويمشوا به حتى إذا بلغوا البناء أخذ الحجر فأقره بيده فى موضعه .

ويوضح المؤلف كيفية تلقى الرسول للرسالة الخاتمة ، حيث أخذ يميل إلـى العزلة فى غار حراء وهناك ينزل عليه الوحى فيعود مضطربا إلـى أهلـه ، فتذهـب بـه زوجه إلى ورقة بن نوفل فيخبره بأنه الناموس الذى نزل على موسـى عليـه السـلام ، وأن قومه سوف يعادونه ،وتتتابع الآيات القرآنية داعية الرسول بالدعوة الإسلامية فقـام محمد صلى الله عليه وسلم بتعميم دعوته ، فأنذر قومه وبشرهم ودعـاهم إلـى الايمـان بالله والبر والمعروف ، ولكنه فوجئ بضراوة عداوتهم له ، إذ لم يستجب لـه إلا القليـل منهم " وقد هابت قريش أن تؤذيـه إيـذاء ثقيـلا أو أن تخرجـه مـن وطنـه أو أن تقتلـه مخافة أن يغضب له قومه من بنى عبد مناف فيفسد عليها أمرها كله". (١٠١)

وقد كان حلماء قريش والمنصفون منهم يستمعون إلى القرآن الكريم حيـن يتلـى عليهم فيبهرهم بألفاظه ومعانيه ولكن بعضهم يمنعه الحسـد والبعض الآخر يمنعـه الكبريـاء ، وهناك الكثير من يريدون السير على ما كان عليه أباؤهم .

وعندما استيأسوا منه لجأوا إلى عمه فى محاولة لمراجعته على أن يكف عن ذم آلهتهم وتسفيه أحلامهم وإنكار ما تعارفوا عليه من عادات وتقاليد ومـن إفسـاد عبيدهـم عليهم ولكن هذا الأمر لم يزد الرسـول إلا إصـرارا علـى المضـى فـى دعوتـه ، فعمـدوا إلـى إيذائه فى أصحابه وفى الرقيق والضعفاء منهم خاصة لعلهم أن يصدوهـم عـن الإقبـال عليه فقتلوا ياسرا وزوجه سمية فكانا أول شهيدين فى الإسلام .

وعذبوا بلالا أشد العذاب ونكلوا به أعظم التنكيل ولم يرفع عنه العـذاب حتـى اشـتراه أبو بكر وكان رقيقا فأعتقه .

ويمتد الحصار لإيذاء بنى هاشم كلهم حيث أجمعوا ألا يبـايعوهم وألا يصـهروا إليهـم ولايزوجوهم وألا تكون بينهم وبين بنى هاشم معاملة ما ،وكتبت قريـش بهـذة المقاطعـة صحيفة جعلتها عهدا بين أحيائها .

---

(١٠١) مرآة الإسلام ص٤٢ .

ويذكر المؤلف أن هذا الحصار قد انتهى بالفشل واليأس ، وأن محمدا قد أخبر عمه أن الصحيفة التى كتبوهاو أودعوها جوف الكعبة قد أدركها البلى وعدت عليها الأرضة ، فلم تبق فيها مما كتبوا إلا اسم الله الذى ذكروه فى أولها، وقد تحقق أمام قريش بعد معاينتهم الصحيفة صدق ماذكره الرسول لعمه ،والمؤلف حين يذكر مثل هذه القصص يؤكد ذلك بعبارة -فيما يقول أصحاب السيرة - .

ومع اشتداد إيذاء قريش له توجه إلى قبيلة ثقيف بالطائف أملا فى أن يجد القلوب التى تتشرب طعم الإيمان ولكن قوبل بالسخرية والازدراء ، وكان يترقب موسم الحج يعرض نفسه فيه على قبائل العرب ، أيها يؤويه ويمنعه حتى يبلغ رسالات ربه ، فترده هذه القبائل حتى وجد بغيته عند أهل يثرب وبهذا بدأت أحداث الهجرة من مكة الى المدينة ، حيث هاجر الضعفاء سرا والأقوياء جهرا وجاء الإذن للرسول بالهجرة فكانت تحولا مثيرا فى الدعوة الإسلامية إذ فتحت أمامه وأمام دعوته طريقا جديدا .

وعندما يسرد المؤلف أحداث الهجرة فإنه ينسب ذلك إلى : قال الرواة ، قال أصحاب السيرة ، ومن ذلك "قال الرواة : وقد ارصد هذا النفر من قبائل قريش عند بيت النبى ليلا وآذنه الله بمكر قريش فلم ينم فى فراشه ليلته تلك وإنما أمر ربيبه وابن عمه عليا أن ينام فى فراشه ويتسجى ببرده وخرج على النفر الذين أرصدوا له ، فإذا هم قد غشيهم النعاس ، قال الرواة: فوضع على رءوسهم شيئا من تراب ومضى لميعاده مع أبى بكر". (١٠٢)

وتتجلى قدرة الله فى نصرته لرسوله وحمايته خاصة عندما جدت قريش فى طلب النبى ، وصاحبه ، ويكثر المؤلف من الاستشهاد بالقرآن الكريم فى ذكره للحوادث التى تتضمنها السيرة النبوية الشريفة .

ويبرز المؤلف أن المدة التى قضاها النبى بمكة منذ نبئ إلى أن هاجر ثلاث عشرة سنة لقى فيها من الجهد الكثير ، وصبر هو وأصحابه ، حيث كان يدعو إلى التوحيد وينهى عن الشرك ويأمر بالعدل وينهى عن الجور ، ويجهر بأن الناس جميعا سواء عند الله لايمتاز بعضهم من بعض إلا بالبر والتقوى.(١٠٣)

ويصور المؤلف ببراعة ما كان يدور بين القرشيين من سخرية بالنبى وبما كان يدعو

---

(١٠٢) مرآة الإسلام ص٥١ .

(١٠٣) مرآة الإسلام ص٥٣ .

عليهم من آيات القرآن الكريم ، وكان يتحداهم ويسألهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن وكان عجزهم عن أن يأتوا بمثله هو الدليل على أنه كلام الله الذى لاسبيل إلى محاكاته ، علاوة على أن الله كان يأمره أن يجيب على تحديهم له عندما يطلبون منه أشياء لا يقدر عليها سوى الله أن يقول لهم "سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا" .

وكان النبى يخوفهم قيام الساعة والبعث والحساب ، ويسرد عليهم ما حدث للأمم السابقة التى كذبت رسلها ، كان يقص عليهم أمر الطوفان الذى أغرق العصاة من قوم نوح ويقص عليهم أمر الريح التى أهلكت عادا حين عصوا أخاهم هودا وأمر الصيحة التى أهلكت ثمود حين عصوا أخاهم صالحا ، ويقص عليهم ماجرى على قوم لوط حين أمطرتهم السماء حجارة مسومة ، يقص عليهم ما جرى على أهل مدين حين أهلكتهم الرجفة لما عصوا شعيبا ، ثم يقص عليهم فى تفصيل ما أصاب فرعون وقومه حين عصوا موسى" .(١٠٤)

ويوضح كذلك أثر إخبار النبى لقريش بنبأ رحلة الإسراء والمعراج ، حيث انطلقت ألسنتها بالسخرية ووصل الشك إلى قلوب بعض الذين آمنوا .

وعن جهاد الرسول في المدينة يبرز المؤلف أن حياته فى يثرب "لم تكن أهون ولاأيسر من حياته فى مكة ولعلها كانت أشق منها مشقة وأحفل منها بالخطوب ولكنه استقبلها راضيا بها شاكرا لها حامداً لربه على أن أتاح له الأمن والنصر والمأوى حتى يبلغ رسالته ويؤدى حق الله عليه".(١٠٥)

وكانت من أبرز أعماله المؤاخاة التى أقامها بين المهاجرين والأنصار ، والحلف الذى أبرمه بينه و بين أصحابه من جهة وبين اليهود من جهة أخرى بغية الدفاع عن المدينة ومواجهة الكوارث ثم بناء المسجد الذى أصبح مركز إشعاع تربوى ودينى .

ومع العام الثانى للهجرة تقع موقعة بدر ، وتنشب حرب بين المسلمين وقريش والمسلمون قلة أمام كثرة ، ويتحقق النصر بعون من الله للمسلمين وتتسامع العرب بالنبى وتحس قوته وبأسه ، ومع العام الثالث تحاول قريش الثأر وقد كادت أن تعود إلى مكة بالخزى والهزيمة ، لولا أن طمع بعض المسلمين فى الغنائم قد أغراهم بمخالفة أوامر الرسول ، وكانت النتيجة هزيمة المسلمين وقتل عم الرسول "حمزة" .

---

(١٠٤) طه حسين – مرآة الإسلام – ص ٥٨ .   (١٠٥) نفسه ص ٦٣ .

وكان انتصار قريش فى أحد دافعا لها لكى تتأهب لغزو المدينة مرة أخرى ولهذا أخذت تؤلب العرب وتحالف القبائل واليهود موقنة بأنها لن تأمن مابقى للنبى وأصحابه شوكة ، وتشاور المسلمون وقرروا حفر الخندق ، وكانت رؤيتهم لهذه الجموع المحتشدة على أنها امتحان فى إيمانهم وثقتهم بما وعد الله ورسوله ويمتحنون فى صبرهم على البأس والمكروه .

ويأتى النصر للمسلمين من عند الله ، إذ أرسل الله ريحا عاصفة "تطفئ نيران الحلفاء وتكفأ قدورهم وتنزع خيامهم فيأخذهم الذعر ، ويشتد فيهم الاختلاط والاضطراب حتى لايعرف الرجل منهم صاحبه".(١٠٦)

ثم يتطرق إلى صلح الحديبية وما تابعه من أحداث أثبتت تأييدا للمسلمين ، وبشارة لهم بقرب فتح مكة .

موقف النبى صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب والمنافقين :

واجه النبى صلى الله عليه وسلم كيد اليهود ، إذ عملوا على الاتصال بالمنافقين من أهل المدينة بغية القضاء على الإسلام وأهله ، حيث أقدم بنو النضير على إلقاء صخرة فوق رسول الله ، لولا أنبأه الله وأنجاه لتمكنوا من القضاء عليه ، لهذا عمل الرسول على طردهم من المدينة .

وغدر بنو قينقاع عن الوفاء بالحلف ، فأجلاهم النبى عن المدينة ولم يرزأهم إلا السلاح .

أما بنو قريظة فقد غدروا يوم الأحزاب بكل العهود والمواثيق ، حيث أعانوا على المسلمين بانضمامهم إلى حلف قريش فحاصرهم النبى والمسلمون حتى أنزلهم على حكمه ثم حكم فيهم سعد بن معاذ - رحمه الله - بأن تقتل المقاتلة وتحتاز الأموال وتسبى الذرارى والنساء .(١٠٧)

وهكذا تم القضاء على اليهود فى الحجاز ، وأمن المسلمون غدرهم ، وعملت البقية منهم فى خيبر ووادى القرى فى الزراعة يأخذون نصف ماينتجون .

ويستشهد المؤلف بما ورد فى القرآن الكريم من وصف لليهود وما اقترفوه .

أما بالنسبة للنصارى فقد كانت إقامتهم فى نجران ، ولم يشتد الجدال بينهم وبين

---

(١٠٦) طه حسين - مرآة الإسلام - ص ٧٢ .

(١٠٧) طه حسين - مرآة الإسلام - ص ٧٧ .

المسلمين إلا عندما ينحرفون فى مقالاتهم وما يظهرون من دينهم عن التوحيد الخالص ، وأبرز المؤلف تكريم القرآن للمسيح عيسى بن مريم وما اختصه من معجزات ، والإشادة بأمه السيدة مريم ، وبين أن المسيح برئ من عبادة النصارى إياه ، وأن العداء الذى وقع كان بسبب غزو نصارى العرب بالشام للجزيرة العربية خشية منهم "أن ينشأ فيها ملك منظم يصبح خطرا على حدود الإمبراطورية البيزنطية ، وهذا فى أكبر الظن هو الذى حمل النبى على أن يرسل جيشا إلى "مؤته" على حدود الشام والجزيرة العربية".(١٠٨)

وبعد أن استعرض موقف الرسول من اليهود والنصارى شرع فى إبراز موقفه صلى الله عليه وسلم من المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر ، والذين كانوا يكيدون العداوة والبغضاء للمسلمين ، يعرف النبى والمسلمين إسلامهم بأطراف ألسنتهم وكفرهم فى أعماق قلوبهم ، ثم يرون منهم ويسمعون ما يكرهون فى أوقات كثيرة ، ولا يستطيعون أن يعرضوا لهم بسوء ، لأن الله عصمهم منهم بكلمة التوحيد التى تنطلق بها ألسنتهم وتغلق من دونها قلوبهم .

ولقد كان المنافقون خطرا أيام السلم ، وأشد خطورة أيام الحرب ، إذ ينشرون الخوف ويشيعون الذعر بين المسلمين ، وأوضح المؤلف أن غزوة تبوك بظروفها كانت بمثابة محنة عامة للمنافقين جميعا ، حيث جاءت فى وقت اشتد فيه قيظ الصيف مع بعد المسافة بين المدينة وتبوك ، وتناسب ذلك مع موسم نضج الثمار وجمعها ، حيث انكشف أمرهم لأنهم لايجاهدون ابتغاء مرضاة الله ، لأن قلوبهم لم تؤمن به ، ولا يجاهدون إيثارا للنبى على أنفسهم ، لأنهم لم يحبوا النبى ولم يخلصوا له ، وإنما يجاهدون إن جاهدوا ابتغاء للغنيمة واتقاء لعاقبة القعود .

وعندما صلى النبى على عبد الله بن أبى بن سلول وراجعه عمر فى ذلك ، جاء الأمر الإلهى بالنهى عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم .

وهكذا كانت حياة النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة جهادا متواصلا ، ضد اليهود والمشركين والمنافقين ، ومع ذلك فقد استمر فى طريق الدعوة ناشرا للدين معلما

---

(١٠٨) طه حسين – مرآة الإسلام – ص ٩٠، ٩١ .

للمؤمنين والمسلمين مبينا لهم حقائق الإسلام ، ويريد المؤلف بهذا التصوير لجهاد النبى "لنعرض عليك مرآة صادقة للعصر والبيئة اللذين عاش فيهما النبى وأصحابه ولنشأة الإسلام وانتشاره".[(١٠٩)]

ويتطرق المؤلف إلى موقف المهاجرين والأنصار بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم من الخلافة ، فيصور ذلك الخلاف الذى ظهر بينهم ، وحجة كل منهم فى طلب الخلافة ، وكيف انتهى الأمر إلى قريش ومبايعة أبى بكر ، ثم الخلاف الآخر الذى نشب بين أبى بكر وفاطمة بنت رسول الله حين جاءت تطلب ميراثها من أبيها ، فأبى عليها ذلك ، مما أدى إلى غضبها وزوجها وتأخر بيعة على لأبى بكر.

ويبرز دور أبى بكر فى مواجهة المرتدين الذين رفضوا دفع الزكاة ، لأنه رأى أن قول لا إله إلا الله بطرف اللسان ليس إيمانا ولا إسلاما ، وإنما يجب أن تقال باللسان ترجمة عما فى القلب من الإيمان بالله والتصديق للنبى والائتمار بما أمر الله ورسوله به ولذلك لم يشك أحد من المهاجرين والأنصار والذين استقاموا على الإسلام فى أن قتال هؤلاء واجب ، ولهذا قاتلهم أبو بكر ، وأنزل الله نصره ، وعادت الجزيرة خالصة للإسلام ، ليتفرغ أبو بكر لمواجهة الفرس والروم.

ومن وجوه الإعجاز القرآنى أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كان يناقش "ويجادل اليهود فى التوراة ، ويجادل النصارى فى الإنجيل ويصفهم بأنهم يكذبون على موسى ويقولون على المسيح غير الحق ، ويحرفون ما عندهم من التوراة والإنجيل ، كل ذلك وهو لايقرأ التوراة ولا الإنجيل ، وإنما ينبئه الله نبأ الحق بما فى كليهما ، وهو لم يأت لنسخ التوراة ولا لنسخ الإنجيل وإنما جاء مصدقا لما بين يديه منهما ، ومضيفا إليهما ما أمره الله أن يضيف من العلم والدين".[(١١٠)]

فإذا كان جدال الرسول لليهود والنصارى مبنيا على إعلان الله سبحانه وتعالى له لأنه كان أميا لايقرأ ، فإن ذلك يعد إعجازا وتأييدا وتأكيدا على أن القرآن من عند الله عز وجل ، أما قول المؤلف أن القرآن لم ينسخ الشرائع السابقة ، فهذا مردود ، لأن القرآن قد نسخ ما قبله من الشرائع وإلا فما دلالة قوله: "إن الدين عند الله الإسلام" ، وقوله تعالى: "ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه" .

---

(١٠٩) طه حسين – مرآة الإسلام – ص ١١٥ .

(١١٠) طه حسين – مرآة الإسلام – ص ١٤٦ .

وفى الكتاب الثانى يتناول تفسير بعض الآيات القرآنية التى تضمنت إنذار الكافرين وتبشير المؤمنين ، ويذكر المؤلف أن تعليم الرسول للمؤمنين نوعان: أحدهما: كلام أوحاه الله إليه وأمره أن يبلغ نصه للناس وأن يتلوه عليهم ليسمعوه أولا ويفقهوه بعد ذلك ، وعليه أن يفسر لهم بالقول أو بالعمل أو بهما جميعا ، ما قد يقصرون عن فهمه من هذا النص ، والثانى: علم ألهمه الله إياه ألقاه فى قلبه لينتفع به هو أولا وليعلم الناس منه ما ينفعهم فى أمور دينهم ودنياهم جميعا .

وحول إعجاز القرآن يذكر المؤلف أنه "يكثر ويطول وتختلف وجوهه وتختلف فنونه أيضا ، فالقرآن كلام لم تسمع العرب مثله قبل أن يتلوه النبى فهو فى صورته الظاهرة ليس شعرا لأنه لم يجر فى الأوزان والقوافى والخيال على ماجرى عليه الشعر".[111]

ثم ذكر المؤلف وجها آخر للإعجاز القرآنى وهو نظم القرآن أى أسلوبه فى أداء المعانى التى أراد الله أن تؤدى إلى الناس ، فالآيات التى تضمنت التشريع تحتاج إلى الأناة والتمهل فى التلاوة ، والآيات التى تتضمن الإنذار والتخويف نجد أن آياتها قد فصلت تسارا ملتئمة الفواصل ويحتاج أداؤها إلى القوة والعنف ، وعندما تتعرض لقصص الأنبياء نجد أنها تميل إلى الهدوء لإثارة التفكير والاعتبار والتروية فيما جرى على الأمم التى خالفت أوامر الله .

وحول تأثير القرآن الكريم فى تغيير التاريخ وتحويله أمة جاهلة شديدة التنافر والتدابر إلى أمة "قد خلقت خلقا جديدا ، فألفت النظام والأمن والعدل وطمحت إلى الرقى وجعلت منها أمة واحدة تتعاون على الخير والبر وترقية الحضارة".[112]

ويشير إلى دور القرآن فى تقويم الألسنة العربية حين تلتوى باللهجات العامية المختلفة علاوة على أنه حفظ اللغة العربية أن تذوب فى اللغات الأجنبية حين تفرقت كلمة المسلمين وخضع العرب لاستعمار الأعاجم من الفرس والترك ثم الاستعمار الأوربى .

كما أن بعض الأمم الإسلامية التى خضعت لسلطان العرب فى وقت مضى طوت

---

(١١١) طه حسين – مرآة الإسلام – ص ١٤٥ .

(١١٢) طه حسين – مرآة الإسلام – ص ٢٨٣ .

قلوبها على بغض العرب والعروبة فآذتهم حين استطاعت إيذاء شديدا ولكنها مع ذلك احتفظت بالقرآن لمكان الإسلام منها أو لمكانها من الإسلام فدرست القرآن ودرست لغته العربية .

ويستطرد طه حسين في توضيح إعجاز القرآن من خلال دراسة تطبيقية على آيات القرآن الكريم وما تتضمنه من تبشير وإنذار .

ثم يناقش طه حسين قضية إخضاع القرآن والدين للفلسفة والعلم ، وإعمال العقل فيما لايحسن الفعل أن يعمل فيه من البحث والنظر فيقول: "ولكن الشئ المحقق هو أن عقل القدماء وعقل المحدثين من أصحاب الفلسفة والعلم ما زالا أضعف وأقصر باعا من أن يصلا إلى استكشاف حقيقة الله ، أو البحث عن صفاته ، وإصدار هذه الأحكام التي أصدرها الفلاسفة والمتكلمون ، اغترارا بالعقل واستجابة لما لا تنبغي الاستجابة له".[113]

واستشهد المؤلف بتأويل المحدثين والقدماء حول تفسير بعض الآيات القرآنية وفق مايتصوره عقلهم ، فمن هؤلاء من يزعم أن الطير الأبابيل وما رمت به جيش الحبشة أمام مكة إنما كانت وباء من الأوبئة ، وكانت الحجارة نوعا من الميكروبات ومن هؤلاء من يقول إن السموات السبع التي تذكر في القرآن هي الكواكب السيارة ولعل هؤلاء يريدون أن يخضعوا أو يلائموا بين القرآن ومستكشفات العلم الحديث فيضطرهم ذلك إلى تكليف النصوص من التأويل مالا تحتمل ، والدين من عند الله الذي لاحد له ، والعلم الحديث كالعلم القديم محدود بطاقة العقل الإنساني وبهذا العالم الذي يعيش فيه الإنسان ، فلا بأس على الدين أن يلائم العلم الحديث أويخالفه .

وبعد أن استعرض الأصل الأول من أصول الإسلام ، وهو القرآن ، يتجه إلى توضيح الأصل الثاني وهي السنة التي جاءت شارحة وموضحة لما ورد في القرآن الكريم ، فالله يأمر المؤمنين أن يقيموا الصلاة وأن يؤتوا الزكاة ، ولكنه لايبين لهم في القرآن كيف تؤدى الصلاة ولا يبين لهم مواقيتها في تفصيل ، ولا يبين لهم عدد الركعات في كل صلاة ، وإنما يعلم نبيه صلى الله عليه وسلم هذا كله بما يلقى في قلبه من

---

(١١٣) طه حسين – مرآة الإسلام – ص ٢٨٣ .

المعرفة ، وعلى النبى صلى الله عليه وسلم أن يعلم النـاس ممـا علمـه اللـه بـالقول حينـا وبالعمل حينا آخر .

ويفرق المؤلف بين الإيمان والإسلام فأما "الإيمان فإنه شئ فى القلوب قوامـه إخلاص الدين لله من دخيلة النفس واستقرار التصديق بوجوده وبإرسال النبى وبكل ما أوحى إليه فى أعماق الضمير ، ونتيجة هذا الإيمان الاستجابة لله ولرسوله فـى كـل مـا يدعوان إليه ، من غير جعجعـة ولا لجلجـة ولا تـردد مهمـا تكـن الظـروف والخطـوب والكوارث والأحداث".(١١٤)

أما الإسلام فهو الطاعة الظاهرة لما يأمر الله ورسـوله بـه ومـا ينهيـان عنـه بأداء الواجبات واجتناب المحظورات ، وإن لم يبلغ الإيمـان الصـادق مـن القلـب المبلـغ الذى وصفه الله من خشية الله والتوكل عليه .

والإحسان هو أن يبلغ الإنسان فى الطاعة حتى يصل منها إلى اقصى مـايطيق لايفتر ولا يكسل ولا يقصر بل يجتهـد بقلبـه ونفسـه وجوارحـه مـا وجـد إلـى الاجتهـاد سبيلا.

ويوضح المؤلف أن القرآن "باق على الدهر لايضره أن يختلف المسلمون فى فهم نصوصه وفى تأويلها ، ولا كذلك السنة لأن النبى لم يأمر بكتابتها بل يروى أنه كـان يكره ذلك".(١١٥)

وقد أدى تصاعد الخلاف بين الأحزاب ونشأة القصاص الذين كـانوا يجلسـون لوعظ الناس مرغبين ومرهبين ، إلى كثرة بعض المعانى التى يضيفونها من أنفسـهم ثـم ينسبونها إلى النبى ، حيث يريد كل حزب أن يثبت أنـه أشـد استمسـاكا بسـنة النبـى مـن غيره ، ولهذا نشأ عن المحدثين علـم خـاص بتصحيـح الحديـث ، وينصـح المؤلـف كـل مسلم بأن "يحتاط قبل الأخذ به ، وأن يعرضـه علـى القرآن ، فـإن كـان لايتـاقض القرآن فى قليل ولا كثير ، ولا يناقض المـألوف مـن سيرة النبـى وعملـه ، أخـذ بـه وإلا وقـف فيه".(١١٦)

ويبرز المؤلـف أثـر انقسـام المسـلمين إلـى هـذه الأحـزاب الثلاثـة: الشـيعة والخـوارج والجماعة من تفكك الرابطة الدينية وقيام النزاعات وتفرق المسلمين فى الرأى وفى الدين

---

(١١٤) طه حسين – مرآة الإسلام – ص ٢٠٦،٢٠٥ .

(١١٥) طه حسين – مرآة الإسلام – ص ١٣٦ . (١١٦) نفسه ص ٢٣٨ .

نفسه "وليس من شك فى أن هذا الجدل والاختلاف وتفرق الـرأى قد مـلأ الدنيـا علمـا ، وجعل للأمة الإسلامية تاريخا فكريا رائعا خصبا ولكن ليس من شك أيضا فـى أن هـذا كله قد ضر الدين أكثر مما نفعه ، وأساء إلى الإسلام أكثر مما أحسن إليه"(١١٧)

ويستطرد المؤلف فى توضيحه لأثر اختلاف هذه الفرق الإسلامية التى مـلأت حياة المسلمين فسادا ، فمن ذلك الغلو فى التأويل إلى أبعد ما يتصوره العقل ، وإلى غـير مايفهم صراحـة من نصـوص القرآن ، وعن اختـلاف الفرق بعد ذلـك ولجاجهـا فـى الخصومـة ، نشـأت الدعوة السرية لبعـض المذاهـب السياسـية وكـان هـذا مصـدر اضطرابات كثيرة زعزعت أحيانا مركز الخلافة".(١١٨)

ولعل هذا العرض لحياة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأحوال الأمة الإسلامية عبر تاريخها الممتد ، يبرز مدى موسوعية المؤلف وفهمـه للتـاريخ الإسـلامى ومتابعتـه الجادة للأحداث التاريخية وصدق إحساسـه بمـا تعانيـه الأمـة الإسـلامية فـى حاضرهـا وغدها ، وضرورة العمل على الالتزام بالكتاب والسنة لكى نسير على الطريق الصحيح.

---

(١١٧) طه حسين – مرآة الإسلام – ص ٢٧٣ . (١١٨) نفسه ص ٢٩٣ .

الفصل الثالث

العناصر الإسلامية فى السيرة الذاتية

(الأيام)

وفى عام ١٩٢٩ أخرج طه حسين هذه الفصول التى كتبها عن حياته فى كتاب بعنوان الأيام ولعله أراد أن يشغل نفسه بعمل لايجر عليه المتاعب ، بعد أن مر بأزمة كتابه "فى الشعر الجاهلي" ١٩٢٦ ، وهو يتكون من ثلاثة أجزاء ، وحول تأليف هذا العمل يقول طه حسين : "وبهذه المناسبة أذكر أنى ألفت الجزء الأول والثانى من الأيام فى أوربا ، وأنى أمليت الجزئين فى ظروف متشابهة فالجزء الأول أمليته بعد تأليف كتاب الشعر الجاهلى وما أثاره من مشكلات وخصومات ، وكنت فى أوربا أتابع مايدور حول هذا الكتاب ، وأشعر بضيق شديد لما يجرى من أحداث وحاولت الهروب من هذا الضيق أو التغلب عليه بإملاء الجزء الأول من الأيام ، أما الجزء الثانى ففى عام ١٩٣٨ حرض محمد محمود رئيس الأحرار الدستوريين طلبة الحقوق علىَّ ، فهجموا على مكتبى فى كلية الآداب وحطموا بعض أثاثه ، وقد تألمت لهذا أبلغ الألم ، ولجأت، وأنا فى أوربا إلى إملاء الجزء الثانى من الأيام علنى أنسى تلك الآلام".[1]

وقد أجاد تصوير طفولته وطبيعة الحياة الريفية فى الجزء الأول ، بينما اهتم فى الجزء الثانى بإبراز حياته فى الأزهر والبيئة الأزهرية ، وخصص الجزء الثالث الذى أصدره ١٩٧٢م ليروى أحداث جهاده فى سبيل العلم والأدب والمثل العليا ، كما يتضمن دراسة للحياة الجامعية والحياة السياسية فى مصر من وجهة نظر أديب مفكر.

ويكتسب هذا العمل الأدبى مكانة مميزة نتيجة صدق التصوير لحياة المؤلف ، وبأسلوبه الرائع ثم تلك اللمسات الإنسانية التى تنم عن خبرة عميقة بالذات والمجتمع الإنسانى والقيم التى لابد أن يعيش فيها وينعم بها ، وتعد طفولته المحور الرئيسى لهذا العمل الفنى الذى تعدى الاهتمام بالذات ليتجاوزها إلى تصوير رؤية شمولية لريف مصر وما ساده من نظم وعادات وتقاليد وخرافات تسرى فى حياة الناس مسرى العقائد.

ويذكر د. محمد حسن عبدالله أنه لايمكن اعتبار الأيام رواية تاريخية لاعتبارات عديدة ، فمؤلفه ماثل فيه ، فضلا عن أنه يمثل فترة قريبة لاتزال حية ، ثم هو أخيرا لايصور العصر بأجمعه ، بل لايصوره فى أهم ملامحه وأبرز قسماته ، وإنما اختار بيئة خاصة ، وصور بعض جوانب الحياة فيها ".[2]

عنوانه الذى يومئ إلى هذا المعنى الأخير ، لأن عنصر الاختيار بين الأحداث

---

(١) د. محمد الدسوقى ، أيام طه حسين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط١٩٨٧ ص ٦٨.

(٢) د. محمد حسن عبد الله ، فنون الأدب أصول ،نصوص ،قراءات، الكويت ط ١٩٨٧ ص ١٩٧ .

ينفى عن الكتاب كونه مجرد يوميات أو مذكرات كما أن خشية المؤلف من الصراحة الكاملة ينفى عنه كونه مجرد اعترافات.

ونظرا لأن الأديب لا يروى كل مشاهداته ، ولا يقص جميع ماحدث ، فإن الاختيار يعد أساس الإبداع الفني ، لأنه يختار مايخدم فكرته ويجلو آراءه في بناء فني متماسك.

ولعل ثقافة طه حسين تنم عن وعي بالدور الاجتماعي ، لهذا نجده يهتم بدراسة عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، وفي تصويره لبعض مشكلات طفولته ، يعرضها محللا لها لهذا لا نستطيع أن نعتبر كتاب الأيام مجرد ترجمة ذاتية للمؤلف مرحلة زمنية محددة ، وتحتفظ بالترتيب الزمني للأحداث كما وقعت لصاحبها "وفي السيرة الذاتية عوائق دون الوصول إلى التأثير الوجداني لدى القارئ ، إنها سلسلة أحداث تفتقر إلى نقطة ارتكاز ، وربما يتوه فيها القارئ ليرى ماذا يجمع بينها إلى جانب أنها حدثت لهذا الكاتب ودارت حوله ، ولكن كتاب السيرة الذاتية فطنوا من أول الأمر إلى هذا الخطر ، خطر بعثرة الأحداث وإنما تنتخب منها وتسلكها كلها في خيط متصل ، وهذا مافعله طه حسين في كتابه الأيام ، فقد أراد أن يرسم لنفسه أو على الأصح لبيئته مايسترد به إيمانه بالمستقبل وإيمانه بذاته".(٣)

والعناصر الإسلامية تبدو خلال تصوير طه حسين لما عاناه وتحمله من تأثيرات البيئة الريفية التي نشأ فيها ، علاوة على الاهتمام بحفظ القرآن الكريم منذ الصغر ، وقراءة الأوراد وصراع الإنسان مع القدر حيث يصور شخصية الطفل الكفيف يلتقي بالحياة أول ما يلتقي بالحياة فاقدا بصره ، ويقدم شخصية فتاه وهو يصارع الحياة جميعا ، بعد أن سلبته عنصرا من أهم عناصر كفاحه ، إنه لايرى الحياة حتى يصارعها ، إنه لايرى عدوه حتى يتقي ضرباته أو يسدد إليه الضربات ، ومن عجب بعد ذلك أن يصيب العدو ويقهر الحياة ويرغمها على أن تكون في ركابه بدلا من أن إتكون من أعدائه ، إنها قصة ذلك الإنسان الذى إستطاع بجهده أن يصبح شكله مقبولا ولا تقتحمه العين ولاتزدريه وأن يهيئ لابنه وابنته حياة راضية ، واستطاع بجهده أن يصبح شكله مقبولا ولا تقتحمه العين ولاتزدريه وأن يهيئ لابنه وابنته حياة راضية ،

---

(٣) مجلة فكر ، مائة عام من النهوض العربى ، السيرة الذاتية الأيام سهير القلماوى ص ٢٩٩ .

واستطاع أن يثير فى نفوس كثير من الناس ما يثير من حسد وحقد وضغينة وان يثير فى نفوس ناس آخرين ما يثير من رضا عنه وإكرام له وتشجيع".[4]

إن كتاب الأيام يمثل الصراع الذى واجهه الفتى عندما كان فقيرا كفيفا ، يحيط به جهل القرية ويحاصره من كل جهاته ، ولعل ذلك يتشابه مع قصة أوديب الذى صارع القدر وفقأ عينيه وإن كان الفتى قد صارع القدر بعد أن فقد عينيه ، بقول طه لابنته: "نعم يا ابنتى فقد عرفت أباك فى هذا الطور من حياته وإنى لأعرف أن فى قلبك رقة ولينا ، وإنى لأخشى لو حدثتك بما عرفت عن أمر أبيك حينئذ أن يملكك الإشفاق وتأخذك الرأفة فتجهشى بالبكاء ، لقد رأيتك ذات يوم جالسة على حجر أبيك وهو يقص عليك قصة أوديب ملكا وقد خرج من قصره بعد أن فقأ عينيه لايدرى كيف يسير ، وأقبلت ابنته أنتيجون فقادته وأرشدته ، رأيتك ذلك اليوم تسمعين هذه القصة مبتهجة من أولها ، ثم أخذ لونك يتغير قليلا قليلا وأخذت جبهتك السمحة تربد شيئا فشيئا ، وما هى إلا أن أجهشت بالبكاء وانكببت على أبيك لثما وتقبيلا".[5]

وينعكس موقف طه حسين كروائى وكاتب ترجمة ذاتية وباحث على تقديمه للأحداث فى كتابه ، فحين يلجأ إلى تقديم المواقف التى تكشف عن مشاعر الصبى وانفعالاته دون تدخل مباشر منه فى تقديم الأحداث يصبح أقرب إلى موقف الروائى الذى تكشف صوره عن الدقة والروعة ، ونجد ذلك فى تصويره لما عاناه من الآفة التى دفعته لإدراك العامل المادى من خلال الحس واللمس والصوت ثم يذكر أنه لايخرج ليلة إلى موقفه من السياج إلا وفى نفسه حسرة لاذعة ، لأنه كان يقدر أن سيقطع عليه استماعه لنشيد الشاعر حين تدعوه أخته إلى الدخول فيأبى ، فتخرج فتشده من ثوبه فيمتنع عليها ، فتحمله بين ذراعيها كأنه الثمامة ، وتعدو إلى حيث تنيمه على الأرض وتضع رأسه على فخذ أمه ثم تعمد هذه إلى عينيه المظلمتين فتفتحهما واحدة بعد الأخرى ، وتقطر فيهما سائلا يؤذيه ولا يجدى عليه خيرا ، وهو يألم ولكنه لايشكو ولا يبكى ، لأنه كان يكره أن يكون كأخته الصغيرة بكاء شكاء".[6]

ونلتقى بمثل هذه الصور ، حيث يقدم لنا المؤلف الموقف الذى أثر فيه فى إقباله على

---

(٤) ثروت أباظة ، شعاع من طه حسين ، روز اليوسف فبراير ١٩٧٤ ص ١٠٩ .

(٥) طه حسين ، الأيام ط٥٨ ح١ ص١٤٦،١٤٧ .

(٦) طه حسين ، الأيام ح١ ص٥،٦ .

الطعام "كان يأكل كما يأكل الناس ، ولكن لأمر ما خطر له خاطر غريب ، ما الذى يقع لو أنه أخذ اللقمة بكلتا يديه بدل أن يأخذها كعادته بيد واحدة ؟ وما الذى يمنعه من هذه التجربة ؟ لاشئ ، وإذن فقد أخذ اللقمة بكلتا يديه وغمسها من الطبق المشترك ثم رفعها إلى فمه ، فأما أخوته فأغرقوا فى الضحك ، وأما أمه فأجهشت بالبكاء".(٧)

ولقد جاءت الصور الفنية التى رسمها د. طه حسين بحروف كلماته ، وكانت إلى ريشة الفنان أقرب ، ومع ذلك جاءت على أحسن ماتكون من روائى فنان يضع من الكلمات وشيا وحللا فضفاضة ينبئنا من خلالها بما هو مكنون فى نفسه "كان يحس من أمه رحمة ورأفة ، وكان يجد من أبيه لينا ورفقا ، وكان يشعر من إخوته بشئ من الاحتياط فى تحدثهم إليه ، ومعاملتهم له ، ولكنه كان يجد إلى جانب هذه الرحمة والرأفة من جانب أمه شيئا من الإهمال أحيانا ، ومن الغلظة أحيانا أخرى ، وكان يجد إلى جانب هذا اللين والرفق من أبيه شيئا من الإهمال أيضا ، والازورار من وقت إلى وقت ، وكان احتياط اخوته وأخواته يوذيه ، لأنه كان يجد فيه شيئا من الإشفاق مشوبا بشئ من الازدراء".(٨)

وهكذا كان صراع طه حسين مع القدر أقوى من أى صراع آخر ، استطاع المؤلف أن يبرزه بكل أبعاده ليعبر عن اشتجار الإنسان مع الحياة وانتصاره عليها.

"ومن هذه الصور التى تشدنا إلى كتاب الأيام تصويره الرائع لموت أخته وأخيه ، ولكن هذه الصور وحدها لاتكفى لكى تجعل من كتاب الأيام رواية".(٩)

ولقد حفظ طه حسين فى طفولته العديد من الأوردة والأدعية علاوة على حفظ القرآن الكريم وكان أهل القرية يحبون التصوف ويقيمون الأذكار ، وكان صاحبنا يحب منهم ذلك لأنه كان يلهو بهذا الذكر وبما ينشده المنشدون أثناءه ، ولم يبلغ التاسعة من عمره حتى كان قد وعى من الأغانى والتعديد والقصص وشعر الهلاليين والزناتيين والأوراد والأدعية وأناشيد الصوفية جملة صالحة ، وحفظ إلى ذلك كله القرآن".(١٠)

---

(٧) نفسه ص١٩، ٢٠.

(٨) طه حسين ، الأيام ح١ ص ١٧.

(٩) د. عبد المحسن طه بدر ،تطور الرواية العربية الحديثة ص٣٠٠ .

(١٠) طه حسين ، الأيام ح١ ص٢٧ .

ويبرع المؤلف فى تصوير سيدنا بكتاب القرية ، وكان كفيفا مثله ، وذلك عندما يأتى إلى الكتاب وكان منظر سيدنا عجبا فى طريقه إلى الكتاب وإلى البيت صباحا ومساء ، كان ضخما بادنا وكانت دفيته تزيد فى ضخامته ، وكان كما قدمنا يبسط ذراعيه على كتفى رفيقيه ، وكانوا ثلاثتهم يمشون وإنهم ليضربون الأرض بأقدامهم ضربا ، وكان سيدنا يتخير من تلاميذه لهذه المهمة أنجبهم وأحسنهم صوتا".(١١)

وحين يعبر عن حرمانه فى طفولته وصباه يختار الصور والمواقف التى تبرز هذا الحرمان ، تحس بأنه أصبح أقرب مايكون إلى الروائى ، وحين تفقد هذه الظواهر والمواقف الرابطة الداخلية التى تربط بينهما ويتبع المؤلف فى عرضها الترتيب الداخلى لوقوعها ، منصبا على الواقع الاجتماعى وكل ما يسود البيئة من عادات وتقاليد ، فالأيام "ليست فقط نصا أدبيا بالغ الشفافية والشاعرية وليست أول وأصدق من سيرة ذاتية فى أدبنا العربى كله فحسب ، إنها فوق كل هذا وثيقة اجتماعية بالغة الثراء عميقة الفهم ، فلا مبالغة إذن فى القول بأننا لانستطيع أن نفهم الربع الأول من هذا القرن فهما متكاملا فى ظواهره السياسية والاجتماعية وحياته الفكرية والأدبية إذا لم نقرأ الأيام".(١٢)

وتجلت براعة طه حسين فى تصوير الريف باهتمامه بالقيم الدينية وشيوع الإيمان بمظاهره المتعددة فى سلوكيات أبنائه وحياتهم اليومية ، فكان رائدا فى الصدق التاريخى والفنى ، خاصة عندما يروى عن نشأته المتواضعة فى القرية فخورا بها معتزا بخصائصها ومميزاتها فاهما محللا لعيوبها وما تعانيه من هموم وآلام ، وما يشكله الجهل والمرض من مآسى كثيرة.

عرض المؤلف صورا صادقة من حياة الريف المصرى ، وقص نوادر ممتعة من ذكرياته أيام الحداثة سواء أكان ذلك فى بيت والده وبين أسرته ، أو مع معلميه من شيوخ الكتاتيب والمساجد وحلقات الذكر وأمثالهم ، وأطلعنا على حالة بيئته القديمة وأدخلنا إلى أعماق نفسه ، مما جعلنا نشعر أحاسيس متناقضة ، تبعا لما مر به من أحداث وتقلبات ، ومع دقة التصوير وعذوبة اللفظ ، ويصور حاله بعد أن خرج من طور الكتاب وأخذ يلتمس ألوانا أخرى من علوم اللغه والدين ، وقد أصابه من مصائب

---

(١١) نفسه ص٣٢ .

(١٢) جريدة الجمهوريه العدد ٧٤٥٠ فى ١٩٧٣/١١/١ الصفحة الأخيرة.

الحياة ما هز نفسه من الأعماق فقال: "وهكذا اتصلت أيام الصبى بين البيت والكتاب والمسجد وحلقات الذكر ، لا هى بالحلوة ، ولا هى بالمرة ، ولكنها تحلو حينا وتمر حينا آخر ".[١٣]

ومن أروع ما يذهب إليه معبرا عنه بمرارة وألم ممض فقد بصره يوم كان طفلا نتيجة لجهل أهله ، ثم ما أصابه من حزن عميق بموت أخته الصغرى بنفس السبب فنراه يقول: "أصبحت الطفلة ذات يوم فى شئ من الفتور والهمود لم يكد يلتفت إليها أحد ، والأطفال فى القرى ودون الأقاليم معرضون لهذا النوع من الإهمال ، ولا سيما إذا كانت الأسرة كثيرة العدد ، وربة البيت كثيرة العمل ، ولنساء القرى فلسفة آثمة وعلم ليس أقل منها إثما ، يشكو الطفل وقلما تعتنى به أمه ، وأى طفل لا يشكو ، إنما هو يوم وليلة ثم يفيق ويبل ، فإن عنيت به أمه فهى تزدرى الطبيب وتجهله ، وهى تعتمد على هذا العلم الآثم ، علم النساء أو اشباه النساء". [١٤]

ثم يأخذ بأسلوبه المؤثر فيصف تلك الطفلة وهى تتلوى على فراش الموت من الألم حتى فارقت الحياة بما فيها من شقاء وحرمان ، ويصور بدقة جزع والديها وأخوتها لهذه المصيبة التى هزت كيانهم وأدمعت قلوبهم ، وعندما أصاب وباء الكوليرا الكثير من البشر ، مات أخ له فى الثانية عشرة من عمره ، وكان لهذه المصائب المتوالية أكبر الأثر فى تغيير نفسيته "تغيرت نفسية صبينا تغيرا تاما ، عرف الله حقا وحرص على أن يتقرب إليه بكل ألوان التقرب: بالصدقة حينا ، والصلاة حينا آخر ، وبتلاوة القرآن مرة ثالثة ، ومنذ ذلك الوقت عرف الصبى أرق الليل والأحلام المروعة".[١٥]

ومن الأمور التى تسترعى الانتباه ، مواقف طه حسين من الامتحان الأول والثانى والثالث فى حفظ القرآن أمام الشيخ والوالد ، ثم التحفيظ على يد العريف ، ثم قيامه بتحفيظ غيره ، واتخاذه نفس الأساليب الملتوية مع تلاميذه التى كان يتخذها شيوخه من قبله مع تلاميذهم وهو منهم ، ثم وقوفه أمام كتاب الألفية الذى أبعده نوعا ما عن طريقة الشيخ والعريف ، وحيث أوصاه أخوه الطالب الأزهرى الذى تمجده القرية كلها بدراسته ، ويدلنا ذلك على كم كانت نفسه تواقة إلى أن يحصل على التعليم الأزهرى

---

(١٣) نفسه ص ١٣٥.

(١٤) طه حسين ، الأيام ح١ ص ١١٨ (١٥) طه حسين ، الأيام ح١ ص ١١٨ .

(١٥) نفسه ص ١٣٥

الذى يتميز صاحبه كل هذا الامتياز فى القرية ولذلك كم كان مبتهجا حين خلع نعله عند باب المسجد ومشى على الحصير ثم على الرخام ثم على هذا البساط الرقيق الذى فرش به المسجد ، وكم كان سعيدا حين أخذ مكانه فى الحلقة على هذا البساط إلى جانب عمود من الرخام ، لمسه فأحب ملامسته ونعومته ، وأطال التفكير فى قول أبيه: إنى لأرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضيا ، وأراك صاحب عمود فى الأزهر". (١٦)

كان والده يتمنى أن يكون ابنه عالما أزهريا ، يضيف إلى معارفة الجديد من العلم ليتخطى هذه العقلية الريفية الساذجة "وما كان أبعد صبينا وأترابه عن ابن خلدون وأمثال ابن خلدون ، إنما كانت تقع فى أيديهم كتب السحر ومناقب الصالحين وكرامات الأولياء ، فيقرعون ويتأثرون ، ثم لايلبثون أن يتجاوزوا القراءة والإعجاب إلى الاقتداء والتجربة وإذا هم يسلكون مناهج الصوفية ، ويأتون ما يأتيه السحرة من ضروب الفن ، وكثيرا ما يختلط فى عقولهم السحر والتصوف ، فيصبح كلاهما شيئا واحدا ، غايته تيسير الحياة والتقرب إلى الله". (١٧)

وعندما تيسر لطه حسين حفظ القرآن وهو فى التاسعة من عمره دعاه أبوه شيخا وكان أبواه يكتفيان من تمجيده وتكبيره بهذا اللفظ الذى أضافاه إلى اسمه كبرا منهما وعجبا لا تلطفا به ولا تحببا إليه ، أما هو فقد أعجبه هذا اللفظ فى أول الأمر ، ولكنه كان ينتظر شيئا آخر من مظاهر المكافأة والتشجيع ، كان ينتظر أن يكون شيخا حقا ، فيتخذ العمة ويلبس الجبة والقفطان".(١٨)

وكان تصوير طه حسين لشخصية سيدنا والعريف ينم عن ضيقه بما كان يراه من تناقض فعندما امتحن الأب ابنه وكان ناسيا ما حفظ من القرآن ، أقسم سيدنا بأغلظ الأيمان أن الفتى قد أتم الحفظ أقسم بالله ثلاثا ما نسيه ولا أقرأته ، وإنما استمعت له القرآن فتلاه على كالماء الجارى لم يقف ولم يتردد ، وكان صاحبنا يسمع هذا الحوار وكان مقتنعا أن أباه محق وأن سيدنا كاذب ، ولكنه لم يقل شيئا".(١٩)

ثم يصور العلاقة بين العريف وسيدنا على أنها قائمة على الاحتقار والنفاق والتملق فأما العريف فكان يكره سيدنا ، لأنه اثر غشاش كذاب ، يخفى عليه بعض

---

(١٦) طه حسين ،الأيام ح١ ص٣٧.

(١٧) نفسه ص١٠٠

(١٨) طه حسين ، الأيام ح١ ص٣٧

(١٩) نفسه ص٤٤

موارد الكتاب ، ويستأثر بخير ما يحمل الصبيان معهم من طعام ، ويزدريه ، لأنه كان ضريرا يتكلف الإبصار وكان قبيح الصوت يتكلف حسن الصوت".[٢٠]

ويتكرر ذلك مرة أخرى عندما يقوم والده غاضبا لعدم مقدرة الفتى على تلاوة ما حفظ "قال سيدنا: أقسم بالله العظيم ثلاثا ما أهملته يوما ، وإنه ليقرأ على القرآن مرة فى كل أسبوع ، ستة أجزاء فى كل يوم ، أسمعها منه متى وصلت فى الصباح ، قال الشيخ: لا أصدق من هذا شيئا ، قال سيدنا امرأتى طالق ثلاثا ما كذبتك قط ، وما أنا بكاذب الآن ، وإنى لأسمع له القرآن مرة فى كل أسبوع ، قال الشيخ. لا أصدق ، قال سيدنا. أفتظن أن ما تدفع إلى فى كل شهر أحب إلى من امرأتى ؟ أم تظن أنى فى سبيل ما تدفع إلى استحل الحرام وأعيش مع امرأة طلقتها ثلاثا بين يديك ؟".[٢١]

وكان طه حسين يفكر فى مقدرة سيدنا على الكذب ، وفى هذا الطلاق المثلث الذى ألقاه كما يلقى سيجارته متى فرغ من تدخينها.

والعريف يصوره طه حسين على أنه ماكر داهية سارق "يأتمر مع كبار الصبيان فى الكتاب ، ويبعث معهم على غفلة منه ، فإذا صليت العصر وأغلق الكتاب كان بينه وبينهم مواعيد هناك عند شجر التوت أو عند القنطرة أو فى معمل السكر".[٢٢]

وقد انعكست هذه الصفات التى نعت بها سيدنا والعريف عليه ، حين إمتحنه والده فى حفظ الألفية ، فكان يسمعه كلاما منظوما ، ولم يكن عند الشيخ الوالد دراية بأبواب الألفية وأبياتها ، حتى تزامن الامتحان مع وجود أخ له عائد من المدارس المدنية بالقاهرة حيث اكتشف أن طه حسين يخدع والده ، وبمجرد انصراف الوالد قال الشاب لأخيه طه: "إنك تخدع أباك وتكذب عليه ، وتلعب فى الكتاب ولا تحفظ من الألفية شيئا ، قال الصبى: إنك كاذب ، وما أنت وذاك ؟ وانما الألفية للأزهريين لا لأبناء المدارس ، وسل القاضى ينبئك بأنى أذهب إلى المحكمة فى كل يوم قال الشاب: أى باب حفظت اليوم ؟ قال الصبى: باب كذا ، قال الشاب: ولكنك لم تقرأ هذا الباب على أبيك ، وأنما قرأت عليه باب كذا ، وهات نسخة الألفية أمتحنك فيها ، بهت الصبى

---

(٢٠) نفسه ص٤٩

(٢١) طه حسين ، الأيام ص٦١

(٢٢) نفسه ص٥٠

وظهر عليه الوجوم ، وهم الشاب أن يقص القصة على الشيخ ، ولكن أمه توسلت إليه".(٢٣)

وأشار المؤلف إلى إجلال أهل الريف للعلماء ، فمن العلماء من يتبع المذهب الشافعي او المالكي أو غيره من المذاهب ، ومنهم أيضا بعض الرجال الذين يعملون في مجالات بعيدة عن العلم ثم يدعون صفة العلماء ويؤثرون فيالناس متسلطين على الدهماء منهم ، فمنهم الخياط أو الحمار ومنهم أهل الطريق ومنهم حملة كتاب الله وغالبيتهم من المكفوفين الذين يترددون علىالبيوت يتلون فيها القرآن وكان لهؤلاء الفقهاء علم مخالف كل المخالفة لعلم العلماء الذين يأخذون علمهم من الكتاب ، والذين بينهم وبين الأزهر سبب قوى أو ضعيف".(٢٤)

تأثر عقل طه حسين بكل هؤلاء جميعا ، ونتج عن ذلك اضطراب وتناقض في علمه وفهمه ؛ الأمر الذى دفعه بعد ذلك للاطلاع على أمهات الكتب وتصحيح المفاهيم الخاطئة التى كانت تؤرقه من خلال الدراسة بالأزهر ثم الجامعة.

وبعد أن يروى المؤلف هذه السيرة الذاتية يوجه إلى ابنته كلمة عامرة بالحنان الأبوى ، ليذكرها ببصره ومعاناته وهو فى مثل سنها "ألست تحبين أن تعيشى الآن كما كان يعيش أبوك حين كان فى الثامنة من عمره ؟ ومع ذلك فإن أباك يبذل من الجهد ما يملك ، ويتكلف من المشقة ما يطيق وما لايطيق ، ليجنبك حياته حين كان صبيا "(٢٥)

لقد أحس طه حسين بالشقاء فى معايشته لسيدنا والعريف ، وكان يحمل آفته معه فى كل مكان ، حتى إلى بيت المفتش الذى تولى أمر تحفيظه القرآن الكريم على قراءة حفص ، حيث وجد متعة فىالحديث إلى زوجه التى كانت صغيرة جدا بالنسبة لزوجها مفتش الطرق ، ولعل هذه المتعة قد أيقظت عنده عواطف مبهمة ، وهو فى هذه السن الباكرة ، فقد كان يستمع إليها ويلعب معها.

ولقد استطاع طه حسين أن يرسم بأمانة وبإبداع فنى حياة القرية ، وحياته نفسها حيث اندمج فيما حوله اندماجا كليا ، وعاش بيئته بكل حواسه رغم فقدانه نعمة البصر.

ولعل ما أشار إليه طه حسين فى تصويره البارع لطابع الحرمان الذى تعانى

---

(٢٣) طه حسين ، الأيام ج١ ص٧٨. (٢٤) نفسه ص٨٦. (٢٥) نفسه ص ١٤٥،١٤٦ .

منه القرية المصرية يدفعنا إلى ضرورة معالجة هذه القضية ، حيث كان العامل المباشر الذى جعل من الحرمان اللون البارز الذى يلون حياته ، يتمثل فى جهل بيئته وفقرها ، هذه البيئة التى تعيش حياة غيبية لا تعترف بالعلم الحديث ، ولا تستطيع أن تمنح الطفل الحنان الذى يرطب حياته ، ولا الطبيب الذى يعالجه ، ولا التربية الصالحة اتى تشفى جراح نفسه ، ولا التعليم الصالح الذى يثبت أقدامه فى الحياة ، ونتيجة لجهل هذه البيئة حرم نعمة البصر ، وفقد أخته الجميلة التى كانت كالزهرة المتفتحة فى أسرته ، ثم يفقد أخاه فى وباء سريع غامض ، ثم فقد حنان الأم التى كانت مشغولة بهذا العدد الكبير من الأبناء ثم معاناته من مدعى العلم والدجالين والسحرة.

لقد ظهر عدم تعاطف طه حسين مع كثير من الشخصيات فى القرية ، ويظهر عدم تعاطفه مع شخصياته فى قسوته عليها ، واقتصاره فى رسمه لها على تصويرها من جانب واحد هو فى الغالب جانبها السئ و لم يعف من قسوته شخصيات أقرب المقربين إليه مثل شخصية والده "وماهى إلا أيام حتى سئم لقب الشيخ ، وكره أن يدعى به ، وأحس أن الحياة مملوءة بالظلم والكذب ، وأن الإنسان يظلمه حتى أبوه ، وأن الأبوة والأمومة لا تعصم الأب والأم من الكذب والعبث والخداع".(٢٦)

وإذا كان طه حسين قد أحس نوعا من الظلم فى معاملة والديه ، فقد كان من المتوقع أن يجد هذا الحنان عند الجد ، حيث من المفروض أن يبذل الجد لأحفاده الكثير من الحب كما هى العادة ، ولكننا نجد المؤلف يرسم للجد صورة تبدو قاسية إلى حد كبير "كان جده ثقيل الظل بغيضا إليه".(٢٧)

ولا نشعر بتعاطف المؤلف إلا فى حديثه عن أخته الصغيرة التى انتزعها الموت بسبب جهل البيئة ، ونلمس نفس التعاطف فى حديثه عن موت أخيه ، والشخصية الوحيدة من الأحياء التى يتعاطف معها المؤلف هى شخصية المفتش الزراعى ، الذى قدم من القاهرة وكان يمثل ثقافة أكثر تطورا ، فهو مطربش يتحدث الفرنسية متخرج فى مدرسة الفنون والصنايع ، حافظ لكتاب الله مجود لآياته ، ولعل السر فى تعاطفه هذا أنه كان الحلقة الأولى التى ربطت بين الصبى وبين الثقافة العصرية التى اتجه إليها بعد ذلك والتى ساهمت كثيرا فى تخلصه من الجهل المتفشى فى بيئته الأولى.

ولم يقتصر المؤلف على قسوته فى الحكم على بعض الشخصيات التى شاركت

---

(٢٦) نفسه ص ٣٨ .　　(٢٧) نفسه ص ٢٦ .

فى الجهل ولكنه يعرض بعض هذه الشخصيات بسخرينه الحادة العنيفة ، وهذه السحريه تكشف عن مدى كرهه لها ونفوره منها ، مثل شخصية سيدنا صاحب الكتاب ، التى تشعرنا بالرثاء لا الازدراء ، حيث يتجلى الفقر السادى ، ونمطية الحياة وجمود معالمها.

ولقد امتدت قسوته على شخصياته وعلى البيئة بوجه عام ، لتصل إلى أمه وأبيه حيث ينسب إليهما شيئا من الإهمال أحيانا ، ومن الغلظة أحيانا أخرى ، ثم ينسب إليهما الكذب والعبث والخداع ، وقد توقفت قسوته عليهما عند حد الطفولة ، حين داهمتهم كوارث موت الأحباء ، وبلغ من عطفه على والديه أنه كان يلفق لهما الأحاديث عن طعامه الفاخر ومتعه فى القاهرة ، على حين كان يعانى عذاب الحرمان من كوب اللبن الذى يستاثر به أخوه من دونه.

وقد امتد سوء ظنه إلى كل شئ حتى على نفسه ، حيث يذكر أنه قبل الرشوة من الصبية مثل السكر النبات أو القصص والحكايات والغناء والتعديد "وأخذ هو يسترد بالرشوة ما كان يدفع إلى العريف ، على أن رشوته كانت متنوعة ، كان الصبيان يتفننون فى إرضائه ، فيشترون له أقراص النعناع و السكر النبات واللب والفول السودانى وكان يتفضل بكثير من ذلك إلى العريف ، ولكن لونا من الرشوة خاصا كان يعجبه ويفتنه ، ويشجعه على أن يهمل واجبه أشنع إهمال ، وهذا اللون هو القصص والحكايات والكتب ، فإذا استطاع الصبى أن يقص عليه أحدوثة ، أو يشترى كتابا من هذا الرجل الذى يتنقل بالكتب فى قرى الريف أو يتلو عليه فصلا من قصة " الزير سالم " أو " أبى زيد" فهو واثق بما شاء من رضاه ورفقه ومحاباته.(٢٨)

ولعل الدافع إلى تصوير هذه الشخصيات التى تنتمى إلى الطبقة الكادحة هو التعزى عن الحاضر بالهروب إلى الماضى ، وفى الهروب تمرد واحتجاج ، على ما ساد ويسود من تخلف فكرى عانى منه الريف المصرى ، وهو بهذا قد وضع أيدينا على مصدر العلة فى حياتنا ، إنه الجحود وعبادة القديم ومحاربة الجديد ، إنه الفقر الروحى والضلال النفسى ، إذن هو فقر مادى وعقلى وروحى ، مجتمع فقير يتعزى بالخرافة عن مواجهة الحقيقة ، ويرضى بالخديعة قانعا ومفضلا لها عن البحث والتفكير.

---

(٢٨) نفسه ص ٥٤ .

ونرى أنه قد حمل حملة شعواء على نظام التعليم القديم ، فصب جام غضبه على الكتاب وسيدنا والعريف وعلى من يسمون أنفسهم رجال الدين سواء كانوا من حملة كتاب الله أو من الفقهاء أصحاب المذاهب أو سالكى طريق التصوف ، فكلهم جاهل مغرور يتخذ من جهل البيئة مركبا إلى الغنائم والتمتع بأطايب الحياة ، كما هاجم طريقة التعليم فى الأزهر " وقد أقسم لى بعد ذلك أنه احتقر العلم منذ ذلك اليوم ، سمع الشيخ يقول: " ولو قال لها أنت طلاق أو أنت ظلام أو أنت طلال أو أنت طلاة ، وقع الطلاق ولا عبرة بتغير اللفظ " يقول ذلك متغنيا به مرتلا له ترتيلا فى صوت لا يخلو من حشرجة".(٢٩)

وقد استطاع طه حسين أن يضفى على الرواية مناخا عاطفيا مناسبا ، فهذه السيرة تفيض حزنا ولكنه حزن صامت يرفرف فى هدوء حول أحداث القصة التى لا يسيطر عليها التشاؤم ، فمن خلال الآلام التى عاناها الصبى نرى صورا مشرقة تنبض بالأمل والثقة ولا سيما أن القارئ يعرف مسبقا أن الصبى نجح فى تخطى كل العقبات والمحن ، فأبوه رجل مكافح يسعى لبناء حياة افضل لأولاده وذريته ، وأمه التى اعترف بأنها تركت فى نفسه أثرا عميقا كانت تكد لتوفر لهم الراحة وسبل العلم.

وفى الجزء الثانى صور طه حسين حياته فى الأزهر والبيئة الأزهرية وما واجهه خلال هذه الرحلة من أحداث ، ولكن الحديث كان بخطوة أسرع ، ويبدو أثر الريف والهدوء الطبيعى فى القرية وتشابه الأيام ، كل ذلك أملى على المولف الأناه فى حديثه خلال الجزء الأول من الأيام.

ومن أجمل ما صوره طه حسين تلك الموازنة التى عقدها فى نفسه بين أصوات الشيوخ فى دروس الفجر وما يخيم عليه من هدوء وسكينة وأصواتهم فى الظهيرة حيث الجلبة والضوضاء ، وقد بهر بالعلم كقيمة عظيمة " حقا إن العلم بحر لا ساحل له ، والخير كل الخير للرجل الذكى الذى يغرق فيه " إلا أن ضيقه من الأزهر يرجع فى الغالب إلى المناهج الأزهرية " فقد كان هؤلاء الشبان يضيقون بكتب الأزهر ضيقا شديدا ، يتأثرون فى ذلك برأى أستاذهم " الإمام" فى كتب الأزهر ومناهجه".(٣٠)

ثم يتطرق لذكر حال هذه الجماعات الضخمة من أبناء الريف التى كانت تفد على القاهرة لتدرس العلم والدين فى الأزهر ، فيذكر انها كانت تصيب مع العلم ألوانا

---

(٢٩) نفسه ص ١٤٤.

(٣٠) نفسه ج٢ ص ٦٤ .

من علل الأجسام والأخلاق والعقول فيصور زيارات أبى طرطور ، ذلك الشيطان الذى " كانت زيارته حلوة البدء مرة العاقبة ، وكانت زيارته تكلف الذين يلم بهم عناء ثقيلا ، ربما أذاهم فى أنفسهم ، ولكنه كان يؤذيهم فى علمهم وفى أجسامهم دائما ، وكان يعرضهم للعلة أحيانا وللزكام فى كثير من الوقت ولا سيما فى الشتاء ".(٣١)

ويوحى رسم طه حسين لشخصية "أبى طرطور" بما كان يتمتع به من حياء حيال المسائل الشائكة، فكان يغلفها بغلالة من الإبهام، ويكنى عنها كى لا يعرض نفسه للحرج أمام النشء ممن يقرأون كتابه.

ولعل هذه الدراسة عن الحياة النفسية والعقلية والخلقية والاجتماعية لطلاب الأزهر آن ذاك قد اتسمت بالصدق ، وساهمت فى تصوير الواقع الاجتماعى بأمانة.

ويصور المؤلف كيف سيطرت ظاهرة العناد والنقد العنيف لديه ، حيث كانت بدايتها عند عودته فى إحدى الاجازات إلى القرية التى كان يتوقع أن يتم استقباله فيها مثل أخيه فى ابتهاج وحفاوة علاوة على أن أهل القرية لم يتوافدوا إلى منزله لتحيته ، مما جعله يشعر بأنه قليل الخطر ضئيل الشأن ، وتأثر من ذلك وانعكس هذا على فكره ومواجهته لأهل قريته إذ أخذ يتمرد على من كان يظهر الإذعان والخضوع ، وعندما شعر بإنكارهم له تكلف وعاند وغلا فى الشذوذ ، ويتجلى ذلك عندما سمع "سيدنا" يتحدث إلى أمه ببعض أحاديثه فى العلم والدين ، وببعض تمجيده لحفظه القرآن وحمله كتاب الله ، فأنكر عليه. حديثه ورد عليه قوله ، ولم يتحرج من أن يقول هذا كلام فارغ ، فغضب "سيدنا" وشتمه ، وزعم أنه لم يتعلم فى القاهرة إلا سوء الخلق وأنه أضاع فى القاهرة تربيته الصالحة".(٣٢)

ثم تكون المواجهة الثانية مع والده الذى يقرأ دلائل الخيرات بعد صلاة الصبح والعصر فأعلن أن قراءتها عبث لاغناء فيه ثم قال لوالده "تعلمت فى الأزهر أن كثيرا مما تقرؤه فى هذا الكتاب حرام يضر ولاينفع ، فما ينبغى أن يتوسل إنسان بالأنبياء ولا بالأولياء ، وما ينبغى أن يكون بين الله وبين الناس واسطة ، وإنما هذا لون من الوثنية ، هنالك غضب الشيخ غضبا شديدا ، ولكنه كظم غضبه ".(٣٣)

ولقد لقى طه حسين تشجيعا من والده فى المضى فى ذلك ، حيث لم يكن أبوه ينكر

---

(٣١) نفسه ص ٦٤ . (٣٢) نفسه ص ١٢٢ . (٣٣) نفسه ص ١٢٣ .

مايقول ولكنه كان يتأذى به "وكان الشيخ بهذا كله سعيدا وله مغتبطا وعلى تجديده حريصا".(٣٤)

وتسامع أهل قريته بإنكاره لكثير مما يعرفونه ، واستهزائه بكرامات الأولياء ، وتحريمه التوسل بهم وبالأنبياء "وقال بعضهم لبعض: إن هذا الصبي ضال مضل ، قد ذهب إلى القاهرة فسمع مقالات الشيخ محمد عبده الضارة وآراءه الفاسدة المفسدة ، ثم عاد بها إلى المدينة ليضلل الناس".(٣٥)

وأقام طه حسين حوارات متعددة مع الكثير من مدعى العلم والدين ، واشتد الصراع فى هذه المناقشات ، ولعل ذلك أعجب أولئك الذين لم يدرسوا فى الأزهر ولم يتفقهوا فى الدين وخاصة والده الشيخ الذى "كان يحب أن يرى ابنه محاورا مخاصما ظاهرا على محاوريه ومخاصميه ، وكان يتعصب لابنه تعصبا شديدا ، وكان يسمع ويحفظ ماكان الناس يتحدثون به ويخترعونه أحيانا من أمر هذا الصبى الغريب ، ثم يعود مع الظهر أو مع المساء فيعيد ذلك كله على زوجته راضيا حينا وساخطا حينا آخر".(٣٦)

وهكذا ظل اسم طه حسين يتردد فى المجالس فى عدة أماكن منها المحكمة ، الكتاب ، المساجد فى قريته ، ونال ما كان يبتغيه من شهرة ، وترك القرية مسرورا لما أحدثه من ثورة على القديم المتعارف عليه ، ليعود إلى الأزهر لاستكمال دراسته .

ويسرد المؤلف بعض المواقف التى جعلته يكره شيوخ الأزهر ، منها ما سمعه من الشيخ الضرير الذى تولى تدريس النحو بعد انتقال الشيخ عبد الله دراز إلى معهد الأسكندرية حيث اتهم طه حسين بالغباء والوقاحة وأثار الطلاب عليه ليضربوه ، وآخر يضرب "بظهر يده فى جبهة الغلام وهو يقول : ردوا يا غنم ، ردوا يا بهائم ، ردوا يا خنازير".(٣٧)

من أجل هذا كان طه حسين سئ الرأى فى العلماء فى قريته والشيوخ بالأزهر ، وبدأت تتلاشى من ذهنه تلك الآمال التى كان يتمناها عندما انتسب إلى الأزهر "ليسلك طريقة الأزهرية الخالصة ، حتى يبلغ الامتحان ويظفر بالدرجة ، ويسند ظهره إلى عمود من الأعمدة القائمة فى ذلك المسجد العتيق ، ويتحلق الطلاب من حوله فيسمعوا منه درسا فى الفقه أو فى النحو أو فيهما جميعا ، كذلك كان يتمنى أبوه ، وبذلك

---

(٣٤) نفسه ص ١٢٥ . (٣٥) نفسه ص ١٢٦ . (٣٦) نفسه ص ١٢٧ . (٣٧) نفسه ص ١٤٠ .

كان يتحدث إلى الأسرة فى شئ من الأمل والإعجاب بابنه هذا الشاذ الغريب ، وكذلك كان يريد أخوه ، وكذلك كان يريد هو".(٣٨)

كما أدت بعض الأحداث إلى انحرافه عن الدراسة الأزهرية وانصرافه عن شيوخه وطلابه منها وفاة الأستاذ الإمام ، وما تركه فى نفوس المخلصين من آلام مبرحة إلا أن طه حسين لمس أن الذين بكوا الشيخ صادقين لم يكونوا من أصحاب العمائم ، ولأن البيئة الأزهرية كانت أقل البيئات المصرية اضطرابا لهذا الحادث الجلل "وكذلك عرف الفتى فى ألم لاذع ولأول مرة فى حياته الناشئة أن ما يقدم إلى عظماء الرجال من الوان الإكبار والإجلال وضروب التملق والزلفى لغو لا طائل تحته ولا غناء فيه ، وأن وفاء الناس ينحل فى أكثر الأحيان إلى كلام لايفيد".(٣٩)

ولقد عانى طه حسين كثيرا من الحرمان أثناء مرافقته فى السكن مع أخيه الأكبر الشيخ أحمد حيث كان هذا الأخ يستأثر نفسه بأشياء كثيرة ، منها أنه كان يشتاق لشرب كوب من الشاى الذى يتناوله الشيخ أحمد ورفاقه فى الحجرة "وكان الصبى لهذا كله محبا وبه كلفا وإليه مشوقا متحرقا ، وربما أحس الصبى فى دخيلة نفسه الحاجة إلى كوب من أكواب الشاى تلك التى تدار هناك ، فقد كان هو أيضا كلف بالشاى وشعر بالحاجهة إلى أن يشربه مصبحا وممسيا وإلى أن يستكمل منه النصاب ، ولكنه حرم هذا كله".(٤٠)

وكان أبغض شئ إلى نفسه أن يطلب إلى أحد شيئا ، ولعل ذلك من أهم سمات طه حسين ، كما يذكر استيلاء أخيه على الصندوق الخاص به بالقرية حيث نقله معه إلى القاهرة ولم تنتقل ملكيته إلى طه حسين إلا بعد أن اشترى أخوه الشيخ أحمد دولابا ضخما ، يضع فيه ملابسه وكتبه ، وقد اضطر إلى أن يقتر عليه فى المعيشة من جراء ذلك ومن المحقق أن شراءه قد جر على الشيخ الفتى وعلى أخيه أعباء ثقالا فلم يكن بد من دفع هذا الثمن أقساطا ومن أن تقتطع هذه الأقساط من وظيفة الشهر الضئيلة التى كانت تأتى من القرية".(٤١)

علاوة على خروج الأخ الأكبر لزيارة أصدقائه وتركه طه حسين وحيدا فى الغرفة "ولكنه لم يكد يبلغ الباب حتى كان الحزن قد غلب الصبى على نفسه فأجهشه ببكاء كظمه ما استطاع".(٤٢)

---

(٣٨) نفسه ص ١٤٣.(٣٩) نفسه ص ١٤٦.(٤٠) نفسه ص ٣٣.(٤١) نفسه ص ٩٠ (٤٢)نفسه ١٠٥ .

وبعد مرور ثمانية أعوام عليه وهو يطلب العلم فى الأزهر ، أخذ شغفه بالعلم يخف ويتضاءل وتحول إلى يأس ذلك البصيص من النور الذى كان يشع فى أعماقه ، ساعد على ذلك أن كراهية الشيخ المرصفى لأسلوب التعليم بالأزهر وتأثر طه حسين بذلك قد ازدادت ، "ولم يكن للشيخ حديث إلى تلاميذه إذا تجاوز درس الأدب إلا الأزهر وشيوخه وسوء مناهج التعليم فيه ، وكان الشيخ قاسيا إذا طرق هذا الموضوع ، وكان نقده لاذعا وتشنيعه على أساتذته وزملائه أليما حقا ، ولكنه كان يجد من نفوس تلاميذه هوى ، وكان يؤثر فى نفس هذا الفتى خاصة أبلغ تأثير وأعمقه".(٤٣)

وعندما فتحت الجامعة المصرية أبوابها انتسب طه حسين إليها "وكان سبب انصرافه المباشر المعاكسات التى كان يلقاها من أساتذته بعد أن أعيد إلى الأزهر وعقب فصله منه لمدة شهرين ، لأنه عبر عن فكرة تعارض فكرة أستاذه الشيخ ، وبيان ذلك أن أحد أساتذة الأزهر كان يدرس أمام جمهور من المستعمين ديوان "الكامل" وقال فيما قال: أجمع الفقهاء على كفر الحجاج لقوله: لايطوف الحجاج بقبر الرسول والكعبة ، وإنما يطوفون حول عظام بالية وأخشاب ليس إلا ، وما سمع طه كلام أستاذه حتى قال: لم يكفر الحجاج وإنما ارتكب ما ينافى الآداب".(٤٤)

وفى الجامعة درس طه حسين ووجد فى المنهج العلمى فى البحث الطريقة التى ترضى ملكة النقد عنده مبتغاه ، ويثنى طه حسين الثناء كله على المدرسين المصريين بالجامعة "ولم ينس الفتى طائفة من هؤلاء الأساتذة ، كان لهم فى حياته أبلغ الأثر وأعمقه ، لأنهم جددوا علمه بالحياة وشعوره بها وفهمه لقديمها وجديدها معا ، وغيروا نظرته إلى مستقبل أيامه ، وأتاحوا لشخصيته المصرية العربية أن تقوى وتثبت أمام هذا العلم الكثير الذى كان يأتى به المستشرقون".(٤٥)

وكان من هؤلاء الأساتذة الذين أعجب بهم طه حسين حفنى ناصف الذى تولى تدريسه الأدب العربى القديم ، والشيخ محمد الخضرى الذى كان يدرسه التاريخ الإسلامى ، مما جعله يحب دروسه فى السيرة النبوية وفى تاريخ الخلفاء الراشدين وفتوحهم وفى تاريخ الفن ودولة بنى أمية والصدر الأول من دولة العباسيين ، ولم تمض على طه حسين أيام منذ افتتاح الجامعة حتى تغيرت حياته تغيرا فجائيا كاملا

---

(٤٣) نفسه ص١٦١ ، ١٦٣ . (٤٤) د. إسماعيل أحمد أدهم ، أدباء معاصرون ج١ دار المعارف ٨٥ ص ٢٦٤ . (٤٥) طه حسين ،الأيام ج ٣ ص ١٣ .

"وإذا الفتى يخرج من حياته الأولى خروجا يوشك أن يكون تاما" .(٤٦)

ويصور طه حسين موقفا لطلاب الجامعه تجاه الأحداث العالمية ، وأخذ العبرة من ذلك الموقف حيث اتفق الطلاب فيما بينهم أن يضربوا عن درس الأستاذ نالينو الإيطالى ، لأن إيطاليا أعلنت الحرب على تركيا ، وأرسلت سفنها غازية لطرابلس ، وبمجرد أن أقبل الأستاذ وارتقى إلى مجلسه خرجوا جميعا وتركوه وحيدا ، وخرج الأستاذ بعد دقائق قائلا "مثلكم مثل الرجل الذى أراد أن يغيظ امرأته فضر نفسه ، وكان السهم صائبا ، وكان أثره لاذعا ممضا ومنذ ذلك اليوم لم يفكر طلاب الجامعة فى الإضراب ، ومنذ ذلك اليوم استقر فى نفس الفتى بغض شديد لإضراب الطلاب عن الدروس مهما تكن الظروف".(٤٧)

واستطاع طه حسين أن يثبت أقدامه ببذل المزيد من الجد والاجتهاد حتى استطاع أن يحصل على الدكتوراه ، وكان بذلك أول طالب مصرى يحصل على مثل هذه الشهادة ، وبدأ حياة جديدة خاصة بعد رسوبه فى الأزهر ، انعكست آثارها على نفسه وعلى أبيه الذى كان يتحدث بذلك إلى أهله ، وكان يتحدث به إلى الناس ، وكان كثيرا ما يقول لأولئك وهؤلاء: لله فى خلقه شئون هذا أضعف بنى وأخفهم على حملا وأقلهم نفقة ، قد أتيح له مالم يتح لأخوته الأقوياء المبصرين الذين كلفونى من النفقة ما أطيق وما لا أطيق ، لم تتحدث الصحف عن واحد منهم ، ولم يقابل الخديو واحد منهم ولم يخطر لى ولا لواحد منهم أنه قد يسافر إلى أوربا كما يسافر إليها أبناء الأغنياء وكان قصارى ماتمنيت لابنى هذا أن يجلس إلى عمود فى الأزهر ليلقى الدروس على بعض طلابه ، فإذا هو مسافر إلى باريس تلك التى نسمع من أحاديثها الأعاجيب".(٤٨)

وتتضح سمات طه حسين من خلال المثابرة والعزيمة القوية والإرادة الفتية ، وكلما واجهته مشكلة أو عقبة فإنها لم تزده إلا عزما وتصميما .

---

(٤٦) نفسه ص ١٠ . (٤٧) نفسه ص ١٩ . (٤٨) نفسه ص ٤٨ .

الباب الثانى

الاتجاه الإسلامى فى كتابات طه حسين التاريخية

الفصل الأول : الرؤية الإسلامية فى مؤلفاته عن عصر الخلفاء الراشدين

الفصل الثانى : العناصر الإسلامية فى تقويم فلسفة ابن خلدون

الفصل الثالث : التفسير الإسلامى لأزمة الثقافة المصرية

الفصل الأول

الرؤية الإسلامية فى مؤلفاته عن عصر الخلفاء الراشدين

١ - تمهيد

٢- الشيخان (أبو بكر و عمر)

٣- الفتنة الكبرى (عثمان- على و بنوه)

١ - تمهيد :

تميزت شخصية طه حسين بأنه أديب فنان إلى جانب أنه ناقد حساس ، استطاع أن يجمع بين فنية الأدب وحساسية النقد ، ولما كان التاريخ حسب التعريف القديم هو فى مجموعه علم من العلوم ، أو بالأحرى نوع من النقد والفن ، فمن الواضح أن جانبا كبيرا مما أصدره طه حسين يدخل ضمن الإطار التاريخى "فهو ناقد ولد للنقد التاريخى وقد اجتمعت به مادة عصره ، اجتمعت له مرويات وأخبار وأحاسيس ، فعرضها هذا العرض الناقد ، ولم يعرضها العرض الجامع ، فذاك أسلوب وهذا أسلوب ، وللمؤرخ أن يختار كما يملي هو لا كما يملى عليه ، ولهذا العرض وذاك أثره ، والتاريخ لاتستطيع ان تتلقفه بمادته وعظاته كاملتين مجتمعين من لسان واحد ، بل لابد من لسان ولسان تختلف كلها إملاء ليجتمع لك من اختلافها آخر الأمر برأى واحد.[١]

وإذا تأملنا كتاب الأيام لوجدناه يناقش قضايا عصرية ، ولهذا يعد تأريخا ناقدا لا جامعا ، ولم يكتف طه حسين بتناول قضايا عصره فحسب ، بل اتجه إلى الماضى لاستلهام الأعلام الإسلامية حيث تناول شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتابه على هامش السيرة ١٩٣٣ م موضحا هدفه بأن ما قدمه "صحف لم تكتب للعلماء ولا للمؤرخين" .[٢]

واستطاع بمنهجه العقلانى الديكارتى أن يبعث الجوانب المشرقة فى تراثنا ، معتمدا على "المنهج التاريخى القائم فى نظره على أساس من الشك العلمى ، وهو قاسم مشترك بين القدماء والمحدثين على السواء"[٣] .

اتجه طه حسين إلى التراث لإرضاء قلبه المتعطش إلى صور الحياة البشرية ، ومحاولة لإحكام الصلة بين التراث والفكر الغربى ، ولهذا "تأتى قيمة طه حسين فى حياتنا الثقافية ليس فقط من كونه مفكرا مبرزا ضرب بسهم وافر فى إثراء ميدان الإنسانيات بأعمال مبتكرة، ودراسات متنوعة المناحى ، بل تتجلى هذه القيمة

---

(١) إبراهيم الإبيارى وآخرون ، طه حسين كما يعرفه كتاب عصره ، طه حسين المؤرخ الإسلامى ص٨٤

(٢) د. طه حسين ، على هامش السيرة ج١، دار المعارف ص هـ من المقدمة .

(٣) د. محمود إسماعيل ، قضايا التاريخ الإسلامى ، منهج وتطبيق ، دار العودة بيروت ١٩٧٠ ص١٠٤

باعتباره داعية تنوير وصاحب رسالة تروم وضع حياتنا الثقافية برمتها على المسار الصحيح".[٤]

وقد استمد طه حسين أحداث التاريخ الإسلامي في عصوره الأولى وأخذ يصوغها صياغة جديدة فيها الخيال وفيها التصوير ، ولعل الدافع القومي يكمن وراء ارتباطه بالتراث ، لأنه أديب أحس بما تعانيه أمته ، ولا شك أن الأدباء هم أكثر الناس استجابة لهذا الدافع إذ إن الأديب المعاصر الذى يفقد اتصاله بتاريخ قومه ، وتراث أمته لايصلح بحال ما أن يعبر عن وجدانها المعاصر ، لأن فقدان وعيه لشخصيتها ، يجعله أجنبيا عنها ، غريبا عليها".[٥]

وعندما كانت حركة اليقظة القومية تتعرض لبعض المخاطر أو النكسات ، ويسيطر على الأمة فيها إحساس بمرارة الضياع أو الإحباط ، كان التراث بأمجاده وتجاربه وشخصياته هو الملجأ للأدباء الذين يحاولون أن ينشروا فيما يعكسه من عصور ازدهار وانتصارات مرت بها هذه الأمة ، بقصد استنهاض الهمم التى تملكها الخوف واليأس من المجهول ، لذلك كان هناك ترابط أو صلة وثيقة بين التراث واليقظة القومية حيث "لم تنفصل حركة إحياء التراث عن حركة اليقظة القومية ، وإنما كانت عنصرا أساسيا في برنامجها ، وموقعا من مواقع النضال فى الميدان العام الذى تقاسمه الرواد فيما بينهم".[٦]

وإن التراث هو بحق واحد من تلك الجذور القومية التى ترتكز عليها كل أمة فى مواجهة المحن التى تعصف بوجودها القومي . "وإن أية نهضة فى رأى كثير من هؤلاء المعاصرين لاتستلهم هذا التراث ولا تنبعث منه إنما تنفصل عن أرضها الحقيقة ، وتنتهى إلى الإخفاق والجمود ، لأنها تفقد عنصر الانتماء ، فتبقى بلا جذور تثبتها فى أرض الماضى بوصفه شرطا جوهريا لانبعاثها ، وهذا الشعور بضرورة استلهام التراث والانطلاق منه إلى آفاق من الإبداع حق فى جملته وتفصيله".[٧]

ولعل الظروف التى عاشها المجتمع المصرى وما واجهه من جراء التمزق

---

(٤) د. محمد حسين هيكل ، أضواء على الأدب العربى المعاصر ص ١٠٧ .

(٥) د. عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطىء" ، قيم جديدة للأدب العربى القديم والمعاصر دار المعارف ص١٦٥

(٦) د. عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطىء"، تراثنا بين ماى وحاضر ، دار المعارف ١٩٧٠ ص٥٧ .

(٧) د. عفت الشرقاوى ، فى فلسفة الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية ، بيروت ص ٤١٧ .

السياسي والصراع الحزبي وفساده ، هي التي دفعت طه حسين لاستلهام الشخصيات الإسلامية من تاريخنا المليء بهذه النماذج العطرة ، إذ كان "الاتجاه إلى التاريخ العربي الإسلامي من بعض الأدباء تعبيرا عن إحساس بالانتماء القومي ، ومحاولة للبحث عن الخلاص ، وإيمانا بالفكر الإسلامي الأصيل وقدرته على حل معضلات الحياة ، ومن هنا وجدنا كثيرا من كتاب القصة يتجهون إلى ماضي الأمة يستلهمون منه وحيهم ، ويستمدون منه مادة خصبة لقصصهم ، ولم يكن ذلك الاتجاه خاصا بالقصة فحسب ، بل تعداها إلى غيرها من فنون من الأدب جميعا" .(٨)

والحق أن ماسجله طه حسين أيام شبابه معبرا عن رؤيته للشعر العربي الجاهلي أو الإسلامي وعن بلاد اليونان القديمة والغرب في مظاهرها الاجتماعية والأدبية والدينية ، أو ماكتبه بعد أن بلغ سن النضوج وتعرض لأصول الأدب العربي القديم وتطوره ، وماكتبه عن مشاكل التعليم والثقافة في العالم العربي المعاصر ، يعتبر في جوهره نوعا من التاريخ ، ومع إجادة تصويره للجانب الأدبي في الإسلام فإننا نجده يتناول بالدراسة والتحليل المجتمع الإسلامي بعد الرسول في صراعه وتطوره .

ولعل منهجه في الكتابة عن الشيخين أو أحداث الفتنة الكبرى يتضح في اهتمامه بالحديث عن الأفراد والشخصيات وكل مايتصل بالمجتمع الإسلامي خلال فترة الخلافة الإسلامية .

وطه حسين لايتقيد بالترتيب الزمني في تأريخه للإسلام ، ولهذا نجده يعقب السيرة بتناوله للأحداث المريرة التي كانت في عهد عثمان وعلي ، مع أنه كان ينبغي أن يعقبها بأبي بكر وعمر ، وهو في اختياره لهذه الفترة كان دقيقا ، لأنها أدق وأخطر فترة في التاريخ الإسلامي ، تباينت حولها آراء المؤرخين القدامى والمعاصرين ، فمنهم من يشيد بآل البيت ويتعاطف مع الإمام علي ، ومنهم من ينحاز إلى معاوية فينحى باللائمة على الإمام علي لتخليه عن سياسة الفتح ، وانشغاله بالحروب الداخلية التي فتتت عضد المسلمين وفتحت الباب أمام رياح الحقد والبغضاء .

وولج طه حسين هذا الميدان ، فعرض للأحداث بمنهجه العلمي ، وقدم للقارئ مادة وافيه موضوعية عن تاريخ هذه الفترة بشتى ملابساتها ، وكان حريصا على تقديم شخصية الخليفتين عثمان وعلي مع دراسة شمولية للوسط الاجتماعي

---

(٨) د. صفوت يوسف زيد ، التيار الإسلامي في قصص عبد الحميد جودة السحار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٢٢

والصراعات التى أدت إلى تطور الأحداث ، واضعا رؤيته من خلال تصويره للأحداث ، لأن كتابته عن سيرة الخلفاء تحمل وجهة نظره ، لأن السيرة إذا خلت من وجهة نظر الكاتب "كانت الشخصية فاقدة للحياة مثل "خيال المآته" يمكن أن يقع بسهولة ، فتنفرط كل الأحداث كما تتكوم أحجار البناء المتداعى لخطأ هندسى.(٩)

والجزء الأول يعد دراسة لنظام الحكم الإسلامى وعناصره ودور كل من أبى بكر وعمر فى بناء المجتمع الإسلامى ، فهى إذن ليست صورة لفرد وإنما هى صورة متكاملة للعوامل والتيارات التى كان يموج بها عصر الخليفة عمر بن الخطاب ، وهذا هو مايعنيه طه حسين من تطبيق منهجه الاجتماعى فى الكتابة الإسلامية ، يقول :"أنا أريد أن أنظر إلى هذه القضية نظرة خالصة مجردة ، لاتصدر عن عاطفة ولا هوى ، ولا تتأثر بالإيمان ولا بالدين ، وإنما هى نظرة المؤرخ الذى يجرد نفسه تجريدا كاملا من النزعات والعواطف والأهواء مهما تختلف مظاهرها ومصادرها وغاياتها".(١٠)

وكان هذا تعبيرا عن رؤيته ومسئوليته كأديب إزاء الأحداث الخطيرة التى كانت مرتبطة بالإسلام" وهو يريد من التاريخ نتيجته ، يريد منه أن يكون العظة التى تقر فى النفوس وتشغل به العقول ، ولا يريد منه أن يكون كلاما يحفظ لتردده الألسنة بحججه وبراهينه".(١١)

واستطاع طه حسين بأسلوبه الأدبى وحسن عرضه وتصويره للأحداث التاريخية أن يقدم المادة التاريخية سهلة ميسرة ، يستطيع القارئ أن يعى منها مكان العظة .

ويعيب أحد المفكرين الإسلاميين وهو الدكتور / رشدى فكار تسمية ماجرى من أحداث خلال فترة الخلفاء بالفتنة الكبرى ، حيث "إن الدخلاء والأدعياء هم الذين أشعلوا نار الفتنة لتوسيع رقعتها بين المسلمين ، ولم يكتشف صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الدس وهذا الكيد لأنهم بشر من الممكن خداعهم ، وأن الدماء التى أسالها الفريقان المتخاصمان كان الدافع إليها صدق النية ، ونحن لاندافع عن هذه الرؤية ولا نعترض عليها ولكن نتحفظ فقط على إطلاقها دون ضوابط حتى لاتستخدم

---

(٩) د. ماهر حسن فهمى ، السيرة تاريخ وفن ، مكتبة النهضة المصرية ط أولى ١٩٧٠ ص٨٦ .

(١٠) طه حسين ، الفتنة الكبرى ج١ عثمان ، دار المعارف ص ٥،٤

(١١) إبراهيم الإبيارى وآخرون ، طه حسين كنا يعرفه كتاب عصره ، طه حسين المؤرخ الإسلامى ص٩٠

كذريعة لاستباحة دماء الناس".[١٢]

فهو يريد أن ينسب الفتنة الكبرى للأدعياء أما بالنسبة للصحابة جميعا فهى المواجهة الكبرى للدعاة معللا ذلك بقوله : "لأننا نبرأ بأصحاب رسول الله الأقربين أن يفتنوا بهذه السرعة ، وهذه السهولة حبا فى الدنيا ، إنهم لم يفتنوا ، وهذه كلمة حق ، والإصرار على استعمال مفهوم "فتنة" لن يستفيد منه إلا أدعياء الفتنة فى كل العصور ، فضلا عن كونه لا يفى بالعطاء التاريخى الصحيح لهذه المرحلة ، اللهم إلا لدى فقراء الفكر ، ومن ثم نؤكد أنها ليست "فتنة كبرى" فى مهب الأحداث إلا عند الأدعياء وحسب صنعهم وبغيتهم ، وإنما هى مواجهة كبرى من منطلق الحق والإصرار والالتزام بكلمة الله وإعلائها ولو بالاستشهاد فى سبيلها ، والتصدى لأقرب الأقرباء وأعز الأعزاء ، تمسكا بقوله تعالى "وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به".[١٣]

ولعل ماتوصل إليه د . رشدى فكار يعبر عن حقيقة تاريخية يجب إعادة تسميتها من خلال المفهوم الإسلامى ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حمل هؤلاء الصحابة مسئولية تبليغ الدعوة وتركها شورى بينهم ، فقام كل صحابى بدوره لايتهيب فى الحق ولا يخشى فى الله لومة لائم ، ولو كان ذلك فيما بين الصحابة أنفسهم ، وهكذا سارت الأحداث بين عثمان وعائشة وعلى ومعاوية مبقية أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يقاتل بعضهم بعضا ، وهم جميعا بشر ، إذا كانت بشرية الأنبياء جعلتهم فى بعض المواقف يكونون موضع عتاب ومعاتبة من الله سبحانه وتعالى ، ويطلبون العفو لا لنيتهم البريئة ، ولكن لبشريتهم ، فمن باب أولى تقبل هذا بالنسبة للصحابة والدعاة فالنية هى الأساس "إنما الأعمال بالنيات ، ولم تكن أطماع الدنيا وزخارفها وراء هذه الأحداث ، والدليل على ذلك أن الإسلام قد خرج من هذه المواجهة التى كانت فى سبيل الحق ودعوته أكثر قوة ، وجسده أقوى وأشد صلابة ، حيث اتسعت الفتوحات وانتشرت راية الإسلام فى بقاع كثيرة متعددة ، ولعل ما دفعنى بشغف لدراسة و تحليل هذه الفترة هو التوصل إلى ضرورة تصحيح مفهوم هذه المواجهة التاريخية ولا أعنى تغيير المسميات بقدر ما يجب إعادة النظر تجاه جوهر

---

(١٢) جريدة الوطن الكويتية ٥٢٣٦ الجمعة ١٩٨٩/٩/١٥ ، مقال د. رشدى فكار رؤية خاصة للفتنة الكبرى ص٦ .

(١٣) سورة الأنعام آية ١٥٢ .

الأحداث وإعادة صياغتها وفق معطيات التاريخ الإسلامى وما يتمشى وقيمه العادلة.

ولقد نجح طه حسين فى تقديم دراسة الفترة عن أحداث "الفتنة الكبرى"١٩٤٧ ، حيث جاءت تحليلا عقليا وماديا لفترة من أهم فترات التاريخ الإسلامي وأكثرها خصوبة ، ووفق فى توضيح الأسباب التى أدت إلى الانقسام والفرقة فى الدولة الإسلامية ، وناقش كل ظواهر هذه المرحلة وأخبارها بمنطق العقل والواقع دون تحيز ، "يفعل ذلك وهو يروى بعض ماينسب إلى سعد بن أبى وقاص تبريرا لعزله عن ولاية الكوفة ، وبعض ما اخترع دفاعا عن الوليد بن عقبة خلفه في الولاية ، ويفعله وهو يفند قصة عبد الله بن سبأ الذى حمله المؤرخون الإسلاميون مسئولية الفتنة كلها فحولوها من صراع اجتماعي وسياسى إلى نتيجة تولدت من دسيسة بذرها هذا اليهودى الذى كان حديث عهد بالإسلام تقنع به ليفسد على المسلمين دينهم ودولتهم"(١٤).

ولأن طه حسين يعتقد أن ظروف الحياة السياسية فى ذلك الوقت كانت بطبعها تدفع إلى اختلاف الرأى وافتراق الأهواء ونشأة المذاهب السياسية المتباينة ، فهو يرفض قصة عبد الله بن سبأ ، ويناقشها مناقشة عقلية هادئة ، ويقول "هذه كلها أمور لاتستقيم للعقل ، ولا تثبت للنقد ، ولا ينبغى أن تقام عليها أمور التاريخ.(١٥)

---

(١٤) صلاح عيسى ، الكارثة التى تهددنا ، مكتبة مدبولى ١٩٨٧ ص ١٧٣ .

(١٥) طه حسين ، الفتنة الكبرى ج١ ص١٣٤ .

٢- الشيخان :

أولا: أبو بكر الصديق" رضى الله عنه" :

قدم طه حسين عمله الأدبى الشيخان عام ١٩٦٠ وأوضح دوافع إقدامه على تناوله سيرة أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب بأن حبه الشديد لهما والبر بهما واستكمال سيرة الخلفاء الراشدين بعدالنبى ثم إرضاء ضميره الذى يشعر باللوم اللاذع على تقصيره فى ذاتهما ، يتجلى ذلك فى قوله : "أجد فى نفسى من الحب لهما والبر بهما ما يغرينى بالمشاركة فى الحديث عنهما" .[١٦]

وساهمت نشأته ودراسته الأزهرية فى توضيح منهجهما فى الحياة الإنسانية وكيفية سياسة الأمور ، حتى يأخذ بها الناشئة فى مواجهة تبعات الحياة المعاصرة وتحدياتها ، "أريد أن أعرف وأن أبين لقارئ هذا الحديث شخصية أبى بكر وعمر رحمهما الله ، كما يصورها ما نعرف من سيرتهما ، وكما تصورها الأحداث التى كانت فى عصرهما ، وكما يصورها هذا الطابع الذى طبعت به حياة المسلمين من بعدهما ، والذى كان له أعظم الأثر فيما خضعت له الأمة العربية من أطوار ، وما نجم فيها من فتن" .[١٧]

ويبرهن المؤلف على أهمية استعراضه لسيرتهما حيث إنها قد نهجت للمسلمين فى سياسة الحكم ، وفى إقامة أمور الناس على العدل والحرية والمساواة نهجا شق على الخلفاء والملوك من بعدهما أن يتبعوه" .[١٨]

ويتجلى موقف الكاتب فى حديثه منه الثناء عليهما أنه لايريد الثناء عليهما مع أن كلا منهما يستحق الثناء – فقد أثنى عليهما الناس فيما تعاقب من الأجيال ، كما أنهما كانا يكرهان الثناء ، وقد أخذ على القدماء إكبارهم الذى يوشك أن يكون تقديسا لهما ، كما يعيب عليهم المغالاة فى تصوير الأحداث التاريخية الهامة وتأويلها بما يتناسب مع الأهواء المتعددة التى سيطرت عليهم ، حيث لاحظ تلك المغالاة فى تناولهم لهذه الأحداث ووصفها كأنهم قد خاضوا غمارها فى الوقت الذى"لم يكن هناك إحصاء دقيق ، وحين لم يكن للناس علم بمناهج البحث والاستقصاء ، وتحقيق أحداث التاريخ"[١٩].

---

(١٦) طه حسين ، الشيخان ص٥ . (١٧) نفسه ص ٩، ١٠ (١٨) نفسه ص ١٠. (١٩) نفسه ص ٨ .

ولذلك فهو لايريد أن يفصل تلك الأحداث ويعلل ذلك بأن الفقهاء كتبوا عنها بعد وقوعها ، ومن الصعب أن يؤرخ المؤرخ للمواقع الحربية من غير مبالغة فيها ، وكانت الأحداث التى وقعت فى عهد الشيخين كبيرة فى نفسها ، قادرة على وصف نفسها ومن هذه الأحداث عودة المرتدين إلى الإسلام وفتح الشام ومصر وفتح العراق .

ويعد طه حسين من الكتاب القلائل الذين ربما لاتملهم إذا قرأت لهم ، فأسلوبه المسترسل يضفى على العبارة رونقا جذابا يدفع القارئ للاستمرار فى متابعة كتاباته وأفكاره ، وعندما يتعرض لطرح قضية من القضايا فإن ظاهرة الشك تبدو واضحة جلية ، فهو عندما استطرد فى تفصيل الأحداث الكبرى التى حدثت فى عهد الشيخين نجده يذكر "أنا بعد ذلك أشك أعظم الشك فيما روى عن هذه الأحداث ، وأكاد أقطع بأن ما كتب القدماء من تاريخ هذين الإمامين العظيمين ، ومن تاريخ العصر القصير الذى وليا فيه أمور المسلمين ، أشبه بالقصص منه بتسجيل الحقائق التى كانت فى أيامهما"(٢٠) .

والشك ظاهرة قديمة فى حياة طه حسين ، وهو منهج علمى سليم ، عندما يكون هدفه الحقيقة لا مجرد الشك والتشكيك ، مع ضرورة الإتيان بالأدلة والبراهين التى ترجح أحد الاحتمالين ، الصدق أو الكذب ، أما مجرد استمرار الشك يضعف من القيمة النفعية أو الثمرة المرجوة من متابعة القراءة .

وإذا كان فى القدماء أو فى المحدثين قلة من المغالين فإن ما يصدق على الثقات منهم هو الإكبار الحق لهذه الصفوة من خيرة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وحول الأحداث الكبرى التى تمت عقب وفاة رسول الله يذكر المؤلف أن "القدماء يقصون الأحداث الكبرى التى كانت فى أيامهما كأنهم قد شهدوها ورأوها رأى العين ، مع أننا نقطع أن أحدا منهم لم يشهدها ، وإنما أرخوا لهذه الأحداث بآخرة ، وليس أشد عسرا من التأريخ للمواقع الحربية ووصفها وصفا دقيقا كل الدقة ، صادقا كل الصدق" .(٢١)

وإننى أرى أن الذين شهدوا هذه المواقع وعاصروا الأحداث الكبرى هذه هم الذين ينتهى إليهم سند الرواية،وفى مقدمتهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(٢٠) نفسه ص ٦ .   (٢١) نفسه ص ٧ .

وهم خير الناس ، ومحل القدوة منهم ، واتهامهم بالكذب والشك فيهم إنما هو إساءة لمن نشروا الإسلام وهدم للقاعدة الأولى التى أرست قيم الإسلام ، فضلا عن أن ممارسة الأحداث لا تشغل عن رواية تفاصيلها على وجه دقيق .

وإذا كان تدوين هذه الأحداث جاء متأخرا فى آخر عصر بنى أمية وعصر بنى العباس وإن من المعروف أن العلماء قد وضعوا الضوابط الدقيقة لتدوينهم ، وإذا كان هناك بعض الرواة ممن كشف عن زيفهم فليس هذا يبرر أن نتهم تاريخ كل هذه الحقبة بالكذب ، لأن هذه الأحداث نفسها هى التى شقت للإنسانية طريقا إلى حياة جديدة كل الجدة ، ولا يمكن أن تكون كلها مفتعلة أو منحولة ، كما لايجب أن نشك فى كل تراثنا ، وإنما علينا "أن نقف وسطا بين التصديق والشك ، فنقبل مالا سبيل إلى الشك فيه ونشك فيما كانت حوله الشبهات ، أما أن نصدق كل شئ أو أن نشك فى كل شئ فهذان طريقان للانزلاق فى يسر ، وكلاهما يوفر علينا مهمة التفكير".(٢٢)

وحول وصف هذه المعارك الحربية التى وقعت فى عهد الخلفاء الراشدين ، والتى حاول المؤلف أن يؤكد عدم إمكانية حصرها للمقاتل الذى يشهدها ، لانشغاله بالهجوم أو الدفاع ، وعدم تفرغه لمتابعة كل ما يجرى أمامه فى ساحة المعركة ، فإن المعلوم أن هذه المعارك قد سقط فيها الكثير من المقاتلين ، وكل واحد منهم ينتمى إلى قبيلة ، وله أسرة ، ولهذا فإنه ليس من المتعذر تماما أن يتم نوع من الاحصاء التقريبى عن نتائج هذه المعارك وعدد القتلى أو الجرحى ، إحصاء يتمشى مع طبيعة العصر القديم ، حين لم يكن عند الناس علم بمناهج البحث والاستقصاء .

ويذكر المؤلف موقف الأعراب وعلاقتهم بالإسلام فى الفصل الثانى مؤكدا على أن الله قد اختار نبيه لجواره ، ومازال الأعراب مسلمين لم يدخل الإيمان فى قلوبهم بعد ، وهنا تكشفت القلوب عن دخائلها ، وأظهروا أنهم قد أسلموا لسلطان النبى دون أن تؤمن به قلوبهم فكانت الردة .

ويذكر المؤلف أنه بوفاة الرسول " عادت الارض كافرة بعد إسلامها ، واشتعلت فيها نار ما أسرع ما انتشر لهيبها حتى شمل جزيرة العرب كلها ، وحصر الإسلام فى المدينة ومكة والطائف "(٢٣)

---

(٢٢) د.السيد تقى الدين، طه حسين آثاره وأفكاره، ج٥-دار نهضة مصر للطبع والنشر ص ٢٨٥ .

(٢٣) طه حسين الشيخان ص ١٤ .

ولعل استشهاد طه حسين بالآية القرآنية " قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولو أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم "(٢٤) ، يدل على أن الإسلام قام فى الأعراب بالسلطان ، مع أن المعروف أن الإسلام انتشر بالاختيار الحر والرشد والقناعة التامة ، والآية هنا تشير إلى الفرق بين الإسلام والإيمان ، حيث يعلن الإنسان إسلامه أولا ثم يزيد الإيمان عند الإنسان مع تطبيقه لشرع الله والتزامه بسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد قال : " الأعراب أشد كفرا ونفاقا ، وأجدر أن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله "(٢٥) ، فقد قال أيضا :" ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته "(٢٦)

ومن ذلك يتضح أن من الأعراب من لا يؤمن بالله ومنهم المؤمن ، وادعاء طه حسين بأن الأرض عادت كافرة فيه تجاوز .

وإن ظهور التنبؤ فى بنى حنيفة أو ربيعة أو فى اليمن أو فى بنى أسد، ليس معناه أن هذه القبائل كلها قد ارتدت عن الإسلام ، وآمنت بهذه النبوءات ، حتى لم يعد هناك إسلام فى الأرض إلا فى مكة والمدينة والطائف ، بهذا الحصر والتحديد .

وبالرغم من أن طه حسين أفاد فى المقدمة بأن من المتعذر إجراء إحصاء ، فكيف يدعى أن الإسلام انحصر فى ثلاث مدن فحسب .

ويعيب عباس محمود العقاد على المؤرخين الذين يسيئون فهم الردة ومواجهتها الحاسمة التى تعد فتحا ونصرا للدين الناشئ " ولكنهم لم يكونوا على حق حين حاولوا أن يصبغوا الردة بغير صبغتها وأن يفهموها على غير وجهها ، ولاسيما النقاد المغرضين الذين انحرفوا بها عمدا ليتسللوا منها إلى الطعن فى نشأة الإسلام ، فقالوا : إن ارتداد الأعراب إنما كان دليلا على أنهم أسلموا مكرهين ، فما عتموا أن وجدوا سبيلا إلى النكصة على أعقابهم حتى نكصوا مسرعين "(٢٧)

ولهذ فان الارتداد كان شيئا طبيعيا ، يتمشى مع طبيعة النفس البشرية والظروف السائدة فى ذلك العصر ، فالدين الجديد بكل قيمه وتعاليمه لا يمكن ان يملك الناس جميعا فى الجزيرة العربية فيسرى إلى كل نفس .

---

(٢٤) سورة الحجرات "١٤"　　　(٢٥، ٢٦) سورة التوبة ٩٧، ٩٩ .

(٢٧) عباس محمود العقاد ، عبقرية الصديق ص ١٢٢ .

وقد حاول طه حسين إبراز أهم سمات شخصيتى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، من خلال تصويره وعرضه لهذه الأعمال الجليلة التى قام بها كلاهما بحزم لايعرف الوهن ، وأن يحيط القارئ علما بذلك النهج القويم الذى سارا عليه ، والذى قصر عنه كل من جاء بعدهما من الخلفاء والملوك .

وتجلت شخصية أبى بكر من خلال مواجهة ظاهرة الردة التى شاعت وانتشرت بينهم نتيجة إقبالهم على الدنيا وحب المال والجاه حيث " كان المال أحب اليهم من الدين ، وكانت نفوسهم أكرم عليهم من أن يؤدوا ضريبة إلى رجل لا يوحى إليه ولا يأتيه خبر السماء "[٢٨]

كما واجه ظاهرة أخرى دلت على أن فريقا من العرب أشهروا الردة لأنهم حقدوا على قريش أن تكون فيها النبوة وأن يكون لها هذا السلطان لما له من قوة فظهر فيهم التنبؤ ، من امثال مسيلمة فى اليمامة والأسود العنسى فى اليمن ، وطليحة بن خويلد فى بنى أسد ، وادعت امرأة النبوة فى بنى تميم وهى سجاح ..

ولم يواجه أبو بكر فى أول عهده ردة مانعى الزكاة وكفر التابعين لمن تنبأ من الكذابين فحسب بل إنما واجه فى الوقت نفسه استعداد العرب غير المسلمين فى الشام للإغارة عليه ، ويعبر طه حسين عن صلابة أبى بكر بقوله :" وليس شئ أصدق تصويرا لشخصية الرجل من ثباته للمحنة مهما تعظم ، ونفوذه من مشكلاتها مهما تتعقد ، وظهوره على هولها مهما يكن شديدا"[٢٩] .

وهذه الشخصية النقية كانت الدافعة له ليكون أول من أسلم من الرجال ، وليتبوأ تلك المنزلة السامية عند رسول الله فيؤثره بصحبته فى الهجرة "وقد أدبه الله فى القرآن تأدبا رائعا قوى شخصيته وزكى نفسه وعلمه كيف يرتفع عن الصغائر وكيف يحمل نفسه على ماتكره" .[٣٠]

ولقد كان تأثير الإسلام فى حياة أبى بكر عظيما ، حيث اكتسب شخصية لم تكن من قبل قوامها الإيثار والوفاء والاطمئنان والثبات ، ولهذا اختصه النبى بمصاحبته حين هاجر من مكة ، إذ كان المصدق لحديث الإسراء فى الوقت الذى كذبت فيه قريش ما جاء به النبى من أخبار عن رحلته وتردد بعض المسلمين فى تصديقه ،علاوة على أنه كان الرجل الوحيد الذى اطمأنت نفسه لصلح الحديبية ، وإنفاق المال فى مواساة

---

(٢٨) طه حسين ، الشيخان ص١٢ . (٢٩) نفسه ص ١٣ . (٣٠) نفسه ص ٢٢.

النبى والمسلمين وشراء العبيد وإعتاقهم وترفعه عن الصغائر وحمله النفس على ما تكره إرضاء لله وطلبا للمغفرة ، كل ذلك كان جديرا بأن يختاره النبى ليصلى بالناس .

وحول بيعة الخلافة التى تمت فى سقيفة بن ساعدة ، بين المؤلف أن رواة المسلمين بينهم من يزيد فى الحديث عن ترشيح الصديق للخلافة ، وهم يختلفون باختلاف نزعاتهم السياسية ، فقوم يزعمون أن النبى طلب إلى عائشة فى مرضه الذى قبض فيه أن تدعو أخاها عبد الرحمن ليكتب لأبى بكر كتابا لايختلف الناس معه عليه ثم عدل عن ذلك وقال دعيه فلن يختلف الناس على أبى بكر ، وقوم آخرون يقولون إنه لم يسم أبا بكر ولم يسم عبد الرحمن وإنما أراد أن يكتب لأصحابه كتابا لايضلوا بعده .

والمحققَ أن النبى قد مات ولم يوْص لأحد ، ولو أوصى لأبى بكر لما كانت سقيفة بنى ساعدة ، ولما خالفت الأنصار عن وصية رسول الله ، ولو أوصى لعلى لأسرع أبو بكر والناس إلى بيعته ، والدليل على ذلك أن هذا الموقف غريب من طبائع الأنصار خاصة والمسلمين عامة لأن الإسلام قد ألغى ما كان فى قلوبهم من التنافس والبغض ، فيستبعد أن تعود إليهم جاهليتهم بكل ما فيها من الحقد والحسد فجأة فى اليوم نفسه الذى مات فيه النبى .

ولعل كثرة الرواة المنتسبين للموالى الذين يحملون شيئا من البغض للعرب لأنهم فتحوا بلادهم وأزالوا سلطانهم ، كانت وراء الروايات المتناقضة التى تؤجج الصراع وتسيئ لمظهر المسلمين .

وقد اختلف الرواة فى بيعة على لأبى بكر أشد الاختلاف ، وهذه الروايات تكلفها المتأخرون فلم يخالف أحد أبا بكر ولم يتأخر عن بيعته لا من بنى هاشم ولا من غيرهم ، وكل ما يقال حول ذلك لا أساس له من الواقع ، فعلى قد بايع حين بايع الناس فى غير إسراع ولا إكراه والدليل على ذلك ، إن أيسر العلم بفضل على وبلائه فى الإسلام ونصحه للمسلمين يمنع من قبول مثل هذه الروايات ، ولا يستطيع إنسان أن يقطَع بأن عليا كان فيما بينه وبين نفسه يحقد على أبى بكر أو عمر لأننا لم نسمع بشئ من ذلك من الرواة الموثوق فيهم ، ولأن عليا أفضل فى نفسه وأكرم عند الله من أن يبايع الشيخين بلسانه ويضمر خلاف ذلك مع استشارتهما له ونصحه لهما .

ثم إن عليا لو خالف أو هم بالخلاف لاستطاع أن يحاج أبا بكر بحجة أبى بكر على الأنصار ، وأن الاختلاف دخل على الرواة نتيجة خلطهم بين بيعة على لأبى بكر وبين مغاضبة

فاطمة لأبى بكر فى ميراث النبى فقد طلبت فاطمة حقها من ميراث أبيها فى فدك وفى سهمه فى خيبر ، فلم يجبها أبو بكر إلى ما طلبت لأنه سمع النبى يقول : لا نورث ما تركناه صدقة ، وكان عليا جفا أبا بكر لهجران فاطمة له وهذا شئ لاشأن له بالبيعة وإن الذين يظنون أن عليا "بايع لمن بايع من الخلفاء تقية ، إنما يتهمونه بما لاينبغى أن يتهم به رجل أحب الله ورسوله وأحبه الله ورسوله"(٣١)

وناقش طه حسين ماروى عن عمر رحمه الله - من أنه قال إن بيعة أبى بكر كانت فلتة وقى الله شرها ، موضحا أن المسلمين من المهاجرين والأنصار وغيرهم فى القبائل المتعددة قد ارتضوا هذه الخلافة "ولولا ذلك لما استطاع أبو بكر أن يثبت للعرب حين ارتدت ، وأن يجند المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان لقتال المرتدين وحملهم على أن يدخلوا فيما خرجوا منه(٣٢).

وأنه إذا كان القرآن لم يشرع نظاما لاختيار الخلفاء وإذا كانت السنة لم تشر إلى هذا النظام ، فقد تعود المسلمون نظام البيعة أيام النبى ، فقد بايعوه على الإسلام والجهاد فى سبيل نشر الدعوة ، وبهذا استقرت نفوسهم على أن خلافة النبى يجب أن تقوم على المبايعة "فالبيعة إذن هى الركن الأساسى للخلافة ، ومن أجل هذا كره المسلمون فى صدر الإسلام أن تنتقل الخلافة من الآباء إلى الأبناء بالميراث(٣٣).

وإذا كان من يبايع النبى لايصح له أن يجادله فيما بايعه عليه وإن صح له أن يشير على النبى فى كل أمر لم ينزل فيه قرآن ، أما بيعة الناس للخلفاء فهى بمثابة عقد بينهم على السمع والطاعة فإن انحرف الخليفة عن الكتاب والسنة فلا طاعة له على الرعية ، ومن حقهم مطالبته بالاستقامة وإلا اختاروا غيره .

أما أن القرآن لم ينظم للمسلمين أمر الخلافة ، فقد يبدو ذلك صحيحا إن كان المقصود أن القرآن لم يفصل تعليمات مدونة على الطراز المألوف للخلافة ، وقد كرر طه حسين حديثه عن البيعة عندما قال "والواقع إن القرآن لم يشرع نظاما لاختيار الخلفاء وإن السنة كذلك لم تشر إلى هذا النظام ".(٣٤)

وقد يفهم أيضا عدم تشريع نظام الحكم فى الإسلام ، وربما يتصور البعض أن الإسلام شئ ونظام الحكم شئ آخر ، فالإسلام للعبادة أما نظام الحكم فلا علاقة له

---

(٣١) نفسه ص ٤١. (٣٢) نفسه ص ٤١. (٣٣) نفسه ص ٤٢. (٣٤) نفسه ص ٤٨.

بالدين ، والمتأمل يجد أن القرآن الكريم قد اهتم بهذا الأمر في قوله : "وأن احكم بينهم بما أنزل الله" [٣٥] وقوله : "وشاورهم في الأمر" [٣٦] وقوله : "وأمرهم شورى بينهم" [٣٧]

ولعل مفهوم كلمة الشورى يوحي بشكل الحكومة ونظامها وكيفية اختيار الحاكم وقول الرسول صلى الله عليه وسلم :"عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي" ، ويرى عباس محمود العقاد أنه "إذا لم تكن حكومة الصديق ديمقراطية حديثة ، فالديمقراطيه لا تتوخى من الحكم غاية أفضل من الغاية التي كانت تتوخاها حكومة الخلافة ، ولا تبعد من المبادئ شيئا غير المبادئ التي ابعدتها الحكومة الإسلامية بما نص عليه القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو اتفاق المسلمين .[٣٨]

ويذكر طه حسين مراجعة بعض الصحابة لأبي بكر في حرب الممتنعين عن الزكاة بقوله : "ولكن الرواة يزعمون أن بعض وجوه المسلمين راجعوا أبا بكر في حرب المرتدين ، وقال قائلهم ، وهو عمر – رحمه الله – كيف تقاتلهم وهم يقولون لا إله إلا الله؟ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :"أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله" ؟ فرفض أبو بكر وقال : "والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه ، فهم يفرقون بين الصلاة والزكاة ، والله لم يفرق بينهما ، والزكاة حق المال ، وقد قال رسول الله إلا بحقها .[٣٩]

وبعد سرده لهذه الرواية الصحيحة الثابتة في كتب الصحاح نجد طه حسين يقول : "ولست أقبل هذه القصة بحال ، فوجوه المسلمين من أصحاب رسول الله أعلم بدينهم من أن يجادلوا أبا بكر في الزكاة ولم يكن عمر أقلهم علما بالإسلام ، إلى ما عرف من شدة عمر في الحق ، ولم يكن عمر ولا أبا بكر قد عرفا هذا اللون من الجدل الذي ألفه الفقهاء والمتكلمون فيما بعد" .[٤٠]

ولقد كان من الأجدى للمؤلف أن يراجع سند الرواية الصحيحة ،علاوة على أن الاختلاف قد حدث في عهد الرسول تجاه عدة قضايا ولم يمس ذلك قيمة أي منهم بل أفاد بالعديد من النتائج .

---

(٣٥) سورة المائدة "٤٩" . (٣٦) سورة آل عمران "١٥٩" . (٣٧) سورة الشورى "٣٨" .

(٣٨) عباس العقاد ، عبقرية الصديق ص ١٥٥ .

(٣٩) طه حسين ،الشيخان ص٦٠ (٤٠) نفسه ص ٦٠ .

والمتأمل يجد أن عمر بن الخطاب قد أشار على الرسول صلى الله عليه وسلم في قضية أسرى بدر ، برأي يخالف رأي الرسول وأبي بكر ، ونزل القرآن يرجح رأي عمر ، فهل معنى ذلك أن مقام النبوة قد تأثر ، وقد ساقها طه حسين ضمن ما قدمه عن الفاروق عمر ، وكأنه لم ينكر اختلاف عمر وسواه مع الصديق في موضوع الزكاة ، فكيف يقبلها في موضع وينكرها في موضع آخر ؟

لقد كانت الكارثة شديدة الأثر ، وكانت صدمة واجهها أبو بكر بحزم ، وكان ثبات موقفه إشارة واضحة لرجحانه ، فلا غرابة إذا كان بعض الصحابة هالهم الموقف ورأى بعضهم عدم قتال الذين امتنعوا عن أداء الزكاة ، على فرض أنهم كانوا مشفقين من قتالهم في مثل تلك الأحداث المريرة .. حيث الأخطار تحيط بالمسلمين في الداخل والخارج ولا بد من اتخاذ القرار الحاسم لمواجهة مثل هذه الاضطرابات .

والأمثلة المتعددة التي تؤكد على أن الاختلاف في الرأي لاينتقص من قدر أو مكانة أحد ولعل ما ذكره المؤلف بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وتهديد عمر لمن يقول بأن محمدا قد مات ، وبمجرد أن قرأ أبو بكر عليه "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم[٤١]، وهنا هدأ عمر وكأنه يسمع هذه الآيه لأول مرة .

وأبرز طه حسين منهج أبي بكر في الحكم ، والذي يقوم على المصارحة ، والتزام طاعة الله ورسوله ، حيث أبرأ أبو بكر القوم من السمع والطاعة له إن عصى الله ورسوله وسألهم أن يعينوه إن أحسن ، وأن يقوموه إذا أساء ، وكان أبو بكر خير قدوة للمسلمين لما أظهر لهم من ثبات الجأش وضبط النفس والثقة المطلقة بالله ومع مواجهة المحن والشدائد ظهرت صفتان تميز بهما أبو بكر وهما : "الاطمئنان إلى ما وعد الله في غير تردد أو تعرض للشك أو الوهن ، والثبات في حزم وعزم لما يلم به من المكروه حتى ينفذ منه ، ويمضي في أمر الله إلى أن يبلغ النصر"[٤٢] .

وكشف المؤلف عن أثر ملازمة أبي بكر للرسول في سياسته وحكمه ، ولعل موقفه من الأسرى في عهد الرسول ثم موقفه من الردة يوضح إلى أي مدى تأثر بمعايشة الرسول ، خاصة وأنه منذ أسلم كان معروفا بلين الجانب ورقة القلب والرحمة

---

(٤١) سورة آل عمران ١٤٤ .

(٤٢) طه حسين ،الشيخان ص٦٤ .

للضعفاء والمكروبين ، وخلقه هذا هو الذى حمله على أن يشير على النبى صلى الله عليه وسلم بالرفق فى أمر الأسارى بعد وقعة بدر وقبول الفداء منهم ، بينما أشار عمر بضرورة قتلهم حماية للدعوة ، ونزلت آيات القرآن الكريم مؤيدة لوجهة نظر عمر ، ولذلك كان موقع هذه الآيات فى نفس النبى وفى نفس أبى بكر شديدا ، ولذلك عندما تولى الخلافة واجه المرتدين بقسوة رادعة ، وأوصى قواده أن يتتبعوا الذين قتلوا المسلمين ويجعلوهم لغيرهم نكالا ، وكان خالد بن الوليد أسرع القادة إلى طاعة الصديق فى تنفيذ سياسة الشدة "كان أبو بكر معجبا بقوة خالد وبأسه وحسن بلائه وبراعته الرائعة فى الحرب ، وكان خالد يصدق ظن أبى بكر به فى كل موطن من مواطن الشدة والبأس" (٤٣)

وأوضح طه حسين أن عصر أبى بكر والظروف التى أحاطت بخلافته القصيرة هى التى دفعته للشدة وأثارت غضبه ، فهو يريد أن ينقذ المسلمين فى الداخل من خطر الفتن وأهل الردة ، ويحميهم من الخطر الخارجى المتمثل فى الفرس والروم ، ولذلك كانت سياسته فى المدة القصيرة التى تولى فيها الخلافة هى سياسة حرب متصلة .

وفى هذا يقول طه حسين ، "كان عصر أبى بكر والظروف التى أحاطت بخلافته القصيرة كان كل ذلك مثيرا للغضب ، مخرجا لأولى الأحلام عن أطوارهم ، مزعجا لذوى القلوب المطمئنة والنفوس الرضية والطبائع السمحة ، عما كانوا يألفون من اللين والدعة ويؤثرون من الرفق والإسماح ."(٤٤)

ولقد تعرض أبو بكر للكثير من المحن العامة والخاصة ، فارتداد العرب وتعرضهم للمخاطر العظيمة وغضب فاطمة منه قد أثر فى نفسه تأثيرا شديدا وهو الذى عرف بلين الجانب ورقة القلب والرحمة للضعفاء .

ويتجلى إخلاص أبى بكر للرسول صلى الله عليه وسلم فى عدة مواقف ، منها موقفه مع فاطمة التى طالبته بميراثها من رسول الله وكانت ترى أنها على حق فى طلبها ولكنه "وجد نفسه بين شيئين كلاهما عسير عليه أشد العسر : فإما أن يعطى فاطمة ما طلبت فيخالف عما أمر رسول الله ، والموت أهون عليه من هذا ، وإما أن يمنعها ما طلبت فيؤذيها ، وأشد الأشياء كراهة إليه أن يؤذيها فهى بنت أحب الناس إليه

---

(٤٣) نفسه ص ٧٥.
(٤٤) نفسه ص ٨ .

وأكرمهم عليه وآثرهم عنده ، ومع ذلك فقد غلبت طاعته لرسول الله كل عاطفة أخرى فى نفسه فأبى على فاطمة ما طلبت ، واعتذر إليها من هذا الإباء"[٤٥].

والموقف الثانى موقفه من خالد بن الوليد حين أسرف فى قتل المرتدين وتزوج من زوجة مالك بن نويرة وغضب عمر رضى الله عنه تجاه ذلك .

ويخلص المؤلف من عرضه لسمات أبى بكر وموقفه تجاه خالد وموقف عمر من ذلك "أن كليهما قد اجتهد رأيه ، وأن كليهما أراد باجتهاده وجه الله ومصلحة المسلمين ، نظر أبو بكر إلى أن خالدا رجل حرب ، وإلى أنه أبرع قواده ، وإلى أن الإسراع إلى عزل القواد فى أثناء الحرب مضيع لمصلحة المسلمين ، ويوشك أن يوهن من عزائمهم وأن يفسد عليهم أمرهم بإزاء العدو ، ونظر عمر إلى المثل العليا خالصة من كل شائبة ، ومن هنا أصر أبو بكر على الانتفاع بقوة خالد ، وعلى ملاحظته يكفكفه إذا تجاوز القصد فى الحرب[٤٦].

وبفضل نظرة أبى بكر لخالد ورؤيته الشمولية فى معالجة قضايا الأمة الوليدة فى مواجهة المحن المتعددة استطاع أن يحقق خلال خلافته التى لم تتصل إلا سنتين وأشهرا أسمى أهدافه فى رد جزيرة العرب إلى الإسلام كعهدها أيام النبى صلى الله عليه وسلم وتأمين حدود بلاده من غارات الفرس والروم .

وأبرز المؤلف ما تميز به أبو بكر فى إدارة سياسة المسلمين الداخلية باتباعه منهج الرسول والذى يتلخص فى قوله "إنما أنا متبع ولست بمبتدع"[٤٧]

ولهذا كان ينفذ ذلك ويطبقه فى شتى أحكامه ، خاصة فى الغنائم التى كان يوزع خمسها بالتساوى بين جميع المسلمين ، يعطى الرجال والنساء والأحرار والرقيق ، ولما كلم فى السابقين إلى الإسلام والمجاهدين مع رسول الله قال : إن أجرهم على ذلك عند الله ، وإنما الدنيا بلاغ وسنرى أن عمر خالف هذا المذهب حين فرض الأعطية للناس .

وبالنسبة لمواجهة الفرس والروم فى العراق والشام نجد أن أبا بكر قدم الرجال الذين ثبتوا على إسلامهم بعد وفاة النبى ومنع الذين ردوا إلى الإسلام من المشاركة فى الفتح عقوبة لهم من جهة وإشفاقا منهم من جهة أخرى ، وسنرى أن عمر قد غير هذا الحكم علاوة على قيام أبى بكر بجمع القرآن الكريم بعد أن أشار عمر بهذا

---

(٤٥) نفسه ص ٦٥،٦٦ . (٤٦) نفسه ص ٧٧ . (٤٧) نفسه ص ٩٨ .

الرأى حتى لا يتعرض نص من نصوصه للضياع بقتل من يقتل من القراء خاصة ومن أصحاب النبى عامة .

وأبرز المؤلف أنه مع التزام أبى بكر بالاتباع لا الابتداع ، فقد استطاع عمر أن يقنعه بضرورة جمع القرآن ، وهو عمل لم يقم به الرسول صلى الله عليه وسلم و لهذا "لم يقبل عليه أبو بكر إلا بعد تردد ، لأنه كما رأيت يتحرج من أن يفعل شيئا لم يفعله النبى صلى الله عليه وسلم وهو جمع القرآن[٤٨].

وبعد الاقتناع كلف ابو بكر زيد بن ثابت ، وكان شابا مؤمنا صبورا عاقلا ومن كتبة الوحى ، كلفه بضرورة جمع القرآن ، وشرع زيد فى هذه المهمة الشاقة يجمع القرآن من صدور الرجال وألواح الحجارة وأكتاف الإبل وعسب النخل ، وتمكن من أن يجمع أول مصحف للقرآن الكريم "والمصحف الذى جمع لأبى بكر وعمر لم يكن مرجعا لعامة المسلمين ، وإنما أريد به إلى حفظ نصوص القرآن من أن تذهب بموت الذين يحفظونها فى صدورهم ، أو يحتفظ بها عندهم مكتوبة[٤٩] .

ومع أن مدة خلافة أبى بكر لم تزد عن سنتين وشهور ، إلا أنه أرسى خلالها قواعد الإسلام ، ونجح فى مواجهة الكفار والمرتدين وفتحت جيوشه العراق العربى واقتحمت الشام حماية لهذا الدين الجديد .

وفى شهر جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ مرض أبو بكر ، ومع مرضه قدم أعظم خدمة أداها رجل بعد النبى للإسلام ، وهى استخلافه عمر بن الخطاب ، نظرا للظروف التى كانت تمر بها الأمة الإسلامية وضرورة مواجهة الفرس والروم "وكان اختيار عمر أجل خدمة أداها أبو بكر للمسلمين ، فهو قد توفى وجيوش المسلمين فى الشام والعراق بإزاء الأسدين فارس والروم ، كما كان يسميها والعرب حديثو عهد بالردة ، فكان المسلمون فى أشد حاجة إلى رجل قوى شديد فى الحق ، ماض فى الأمور إلى غاياتها ، حريص على الإنصاف ، مخلص فى النصح لله ورسوله وللإسلام والمسلمين[٥٠] .

---

(٤٨) نفسه ص ١٠١ . (٤٩) نفسه ص ١٠٣ . (٥٠) نفسه ص ١٠٩ .

ثانيا: عمر بن الخطاب "رضى الله عنه" :

بين المؤلف صورة لنشأة عمر فى أسرة قليلة الحظ من الغنى ، حيث ورث عن أبيه غلظة القلب وفظاظته ، تلك التى رقت حين أسلم وسنه ست وعشرون سنة فى السنة السادسة من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم وكان تأثير الإسلام عظيما فى نفسية عمر حيث "صفى مزاجه فلطف من عنفه ، وحال بينه وبين الإسراع إلى البطش كما كان يفعل قبل إسلامه وزاد من رقة قلبه فجعله يسرع إلى رحمة الضعيف والبر بالملهوف .(٥١)

ومع ملازمته المستمرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأثره بما كان يسمع ويتلو من القرآن الكريم زادت نفسه سماحة وطباعه حسنا وأخلاقه سموا وما نعرف أنه بكى أثناء جاهليته فى موطن من المواطن ، ولكننا نعرف أنه كان سريعا إلى البكاء بعد أن أسلم.(٥٢)

كما كان جريئا حين يرى الرأى ويعتقد أنه الحق ، لايتردد فى أن يعترض على النبى نفسه كما فعل عام الحديبية حين أنكر صلح النبى مع قريش ، وقال للنبى فى صراحة :"لم نعطى الدنية فى ديننا" .

وقد وافق القرآن عمر فى كثير من آرائه "وذلك فى أعقاب غزوة بدر حين شاور النبى فى أمر الأسرى فأشار عمر بقتلهم ، وأشار أبو بكر بالفداء ، وأنزل الله فى سورة الأنفال لومه للنبى والمسلمين فى قبول الفداء" .(٥٣)

ووافقه القرآن الكريم فى أمنيته بتحريم الخمر بالرغم من كونه صاحب خمر فى الجاهلية ، ولكنه بعد إسلامه أضاء الله قلبه وعرف ضرر الخمر فكان يسأل الله أن يبين أمر الخمر بيانا شافيا وطابت نفسه حين أنزلت آيات تحريم الخمر فى سورة المائدة .

ووافقه كذلك فى موقفه من الحجاب فيما يتصل بنساء النبى صلى الله عليه وسلم ، فكم كان يتمنى أن يحتجب نساء النبى ، وتحدث مع النبى فى ذلك ، وجاءت آيات الحجاب فى سورة الأحزاب لترضى عمر كل الرضا حين وضع الله بيوت النبى حيث ينبغى أن توضع من الإجلال والكرامة .

---

(٥١) طه حسين ،الشيخان ص ١٢١،١٢٠ . (٥٢) نفسه ص ١٢١ . (٥٣) نفسه ص ١٢٦ .

وقد طابق القرآن رأيه حين مات عبد الله بن أبي بن سلول وكان منافقا ، وعندما جاء ابنه يسأل النبى أن يصلى على والده ، أجابه النبى وراجع عمر النبى فى ذلك وجادله بالقرآن الكريم ولكن النبى صلى الله عليه وسلم يرده إلى الأناة وبقوله له : "إن ربى خيرنى فاخترت ، ثم يصلى على عبد الله بن أبى بن سلول ، ولكن الوحى لايلبث - فيما تحدث الرواة - أن يطابق رأى عمر ، فينزل الله فى السورة نفسها "براءة" هذه الآية الكريمة موجهة إلى النبى وهى :"ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون.(٥٤)

ولعل اجتهادات عمر وآراءه كانت ثمرة يانعة للجو الإسلامى العام الذى عايش الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته .

وامتزجت حياة الفاروق عمر بالكثير من مواطن الشدة والعنف والرحمة والتسامح وكان دائما شديدا فى الحق أو فيما يرى أنه الحق ، على أنه كان يذعن لنهى النبى حين ينهاه عن الشدة والعنف ولا يفكر فى أن يستأنفهما إن كان الأمر له ، لأنه كان يؤمن بأن النبى حين يأمر أو ينهى إنما كان يصدر عن أمر السماء(٥٥).

وأوضح المؤلف طبيعة عمر فى محاسبة نفسه وأخذها بمأخذ الشدة ، "وكان يراقب أهله وبنيه أشد المراقبة ، يقول لهم من حين إلى حين : إن الناس ينظرون إليكم فلا أعلمن أحدا منكم خالف عما آمر الناس به أو أنهاهم عنه إلا أضعفت له العقوبة"(٥٦) .

كما تجلى موقفه عام الرمادة حين أصاب العرب فى الجزيرة الجدب حتى اضطروا إلى أن يأكلوا الميتة "وما نعرف أحدا من الملوك والولاة واسى الناس بنفسه على ما أصابهم ، كما كان عمر يواسى العرب بنفسه أثناء هذه الأشهر التسعة.(٥٧)

واستطاع عمر أن يواصل حماية الثغور الإسلامية فى مواجهة الفرس والروم ، وأن يحقق انتصارات باهرة علت بها كلمة الإسلام وكثرت الغنائم التى فاء الله بها على المسلمين إلا أنه لم يكن سعيدا إذ كان "يخشى دائما أشد الخشية أن يكون قد جار عن القصد فى قول أو عمل خطر أو ضئيل"(٥٨) .

ويتعرض المؤلف لإطلاق اسم أمير المؤمنين على عمر موضحا أن عمر

---

(٥٤) سورة التوبة ٨٤ . (٥٥) طه حسين ،الشيخان ص١٢٩ . (٥٦) نفسه ص ١٣٢ .
(٥٧) نفسه ص ١٣٦ . (٥٨) نفسه ص ١٦٠ .

أول من وعى أمير المؤمنين وأنها "ليست شيئا هينا يستطيع كل من قام بأمر المسلمين أن يتلقب بها ، وإنما هى تصور الأعباء الثقال ، والعناء المتصل ، والجهد الذى ليس فوقه جهد ، فى إقرار العدل ورفع الظلم وإنصاف الضعفاء من الأقوياء ، وتحقيق المساواة بين الناس.(٥٩)

وأشار المؤلف إلى توفيق عمر فى اتخاذ العام الذى هاجر فيه النبى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة بدء للتاريخ الإسلامى "وكان اختيار هذا العام موفقا كل التوفيق ففيه نشأت للمسلمين جماعة منظمة مستقلة يقوم النبى على أمرها بما كان الله يوحى إليه من القرآن الكريم ، وما كان يلهمه من البيان للقرآن الكريم ، وما كان يجتهد رأيه فيه أو يستعين عليه برأى المسلمين".(٦٠)

واستعرض طه حسين موقف عمر بن الخطاب من نفسه وحكامه ، وسياسته العامة ، خاصة مع أصحاب السابقة فى الإسلام من كبار الصحابة وأعلام المهاجرين ، حيث أخذهم بالحزم والرفق معا ، فجعلهم نظراءه وخاصته وأصفياءه وذوى مشورته .

وأوضح طه حسين أن ضمير عمر كان يراقبه فى كل أمر من الأمور ، مما جعله يأخذ نفسه بالشدة ويراقب أهله وبنيه أشد المراقبة "وكان يأمر أبناءه الذين يستطيعون أن يسعوا فى الرزق أن يجدوا فى ذلك حتى يستغنوا عنه ، وحتى لايضطروه أن ينفق عليهم وعلى أهلهم ".(٦١)

وكشف المؤلف عن نفسية عمر الصادقة ، حين يمكنه أن يوسع على نفسه من ماله ولكنه يضيق على نفسه خشية أن يظن أحد أنه ينفق على نفسه من بيت المال ، كما كان يشدد على نفسه إيثارا للزهد ، ومخافة أن يحيا حياة ألين من تلك التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يحياها أو حياة أبى بكر .

وكانت أول مشكلة واجهت عمر بعد الخلافة مشكلة الفتوح وموقف الجيوش التى أرسلها أبو بكر إلى العراق والشام ، واضطر عمر إلى دفع الناس إلى الجهاد لملاقاة الفرس حيث استطاع أن يجمع ألف رجل من المهاجرين والأنصار وأمر عليهم أبا عبيدة بن مسعود الثقفى منتدبا "فكلمه الناس فى أن يؤمر رجلا من كبار المهاجرين والأنصار فأبى ، لأنهم تقاعدوا عن الجهاد وكرهوا لقاء الفرس(٦٢).

وقد أوصى عمر أبا عبيدة بالحزم والتأنى وحسن التدبير ، إلا أن شجاعة أبى

---

(٥٩) نفسه ص ١٦٢. (٦٠) نفسه ص ١٦٣. (٦١) نفسه ص ١٣٢. (٦٢) نفسه ص ١٤٥ .

عبيدة غلبت رأيه خاصة حين أشار عليه الجنود بعدم عبور نهر الفرات ، ولكنه كره أن يكون الفرس أجرأ على الموت من المسلمين ، فعبر المسلمون النهر ثم قطع الجسر من ورائه ، وأقدم المسلمون مدفوعين فقاتلوا باستبسال ، وفجأة قدم الفرس الفيلة في ميدان المعركة مما تسبب في فزع الخيل وانهزم المسلمون ، وكان عمر قد خالف عن سياسة أبي بكر ، "فأباح لمن كان ارتد من العرب ثم عاد إلى ما خرج منه ، أن يشارك في الجهاد فأقبل هؤلاء مسرعين"[٦٣] .

وأصر عمر على مواجهة الفرس ، وتهيأ للحرب ، وتولى سعد بن أبي وقاص قيادة الحملة وكتب الله له النصر على الفرس "فكانت موقعة القادسية التي طالت وشقت وامتحن المسلمون منها امتحانا شديدا ، ولكن الله أنزل عليهم نصره بعد خطوب" .[٦٤]

وبالرغم من سعادة عمر بانتصار المسلمين وكثرة الفتوحات وانتشار نور الله في الأرض وإعلاء كلمة الإسلام إلا أن الفتح كان يكلفه تدبير أمور الجيش ، والدقة في اختيار العمال ومراقبتهم ، والحرص على توزيع ما أفاء الله عليهم من المال ، وبالنسبة للأرض فقد كان عمر يصر على "ألا تقسم ، وإنما تترك لأهلها يعملون فيها ويعيشون عليها ويؤدون عنها الخراج"[٦٥]

ولرعاية تنظيم الأموال الكثيرة التي وردت إلى بيت مال المسلمين أنشأ عمر الديوان لينظم عملية التوزيع وفق القرابة من النبي ، والعمل على تجنيد الجنود ورعاية أسرهم والاهتمام بالأطفال واللقطاء "ونظام العطاء هذا كما فرضه عمر جديد من جميع نواحيه ، لا نعرف أن أمة من الأمم التي سبقت العرب إلى الحضارة عرفته أو عرفت شيئا قريبا منه.[٦٦]

ولعل ما ابتكره عمر يعد لونا من النظام الاجتماعي يهدف إلى تأمين الناس على حياتهم من بيت المال ، وكان يرى تميز أصحاب السابقة والبلاء في الإسلام "لأنهم أتقى الناس وأئمتهم ومعلموهم ، عنهم يؤخذ الدين ، وبسيرتهم يقتدي عامة الناس .[٦٧]

وكان عمر أول من عس بالمدينة ليلا ، يتفقد أحوال الرعية ، رفيقا وراعيا بالمسلمين ، متابعا للولاة شديدا في حسابهم ومراقبتهم ، وهكذا استطاع أن يقيم "نظام الدولة على نحو يكفل منافع الناس ، ويكفل لهم العدل والإنصاف ملائما بين ما أتيح له

---

(٦٣) نفسه ص ١٤٥. (٦٤) نفسه ص ١٥٦. (٦٥) نفسه ص ١٦٧. (٦٦) نفسه ص ١٤٧.
(٦٧) نفسه ص١٧٩ .

من الرأى فى شئون الحكم للبلاد الأجنبية المفتوحة وبين أصول الإسلام.(٦٨)

وأوضح طه حسين أن عام الرمادة الذى أقبل فى أعقاب سنة ١٨ هـ كان عام ابتلاء للمسلمين ، ظهرت خلاله شخصية عمر واضحة ، "ظهر حزمه ومضاؤه وظهر بنوع خاص صبره على الكوارث واحتماله للشدائد وقيامه على أمور الناس فى جد.(٦٩)

ولقد شغل عمر نفسه فى معالجة أمور المسلمين يطعم الجائع ويقدم لكل محتاج ما يصلح به شأنه ، وقد يصنع الطعام بنفسه ويقدمه لمن يحتاج إليه ويظل على هذا حتى يطلع الفجر ، كما استنجد بولاته على الأقاليم ، فأغاثه عمرو بن العاص والى مصر وعماله على غيرها ، وجعل من نفسه القدوة المثلى حيث حرم على نفسه اللحم والسمن واللبن ، وجعل أهل بيته قدوة لغيرهم ، ووقف عمر الزكاة فى عام الرمادة ، وفرض على الأغنياء مقاسمة الفقراء الطعام والشراب "وما أعرف أن المسلمين رأو خليفة أو ملكا سار فيهم هذه السيرة أو سيرة تقاربها ، بل ما أعرف من أمة من الأمم قديمها وحديثها رأت ملكا أو أميرا يسير فى الناس سيرة عمر فيمن عاصره من المسلمين والذميين على السواء.(٧٠)

وأبرز المؤلف اهتمام عمر بشئون الدين حيث كان يدبر للناس أمر دنياهم وبنفس الدرجة يعلمهم أمور دينهم ، ولا يقف عند الجوانب النظرية بل يمزج ذلك بالجوانب العملية التى يمارسونها فى حياتهم اليومية ، وعمل على إرسال الأمراء إلى الأمصار البعيدة ليقيموا للناس صلاتهم ويعلموهم شرائع الدين وقراءة القرآن.

وبين طه حسين ما أضافه عمر إلى التشريع الإسلامى فمن ذلك أنه قد سن للناس صلاة التراويح فى رمضان ولم يقصر ذلك على الرجال بل على النساء أيضا ، كما فرض بمشورة صحابة رسول الله حدا لشارب الخمر ، حيث أخذ برأى على بن أبى طالب الذى أشار بأن عقوبة شارب الخمر ثمانون جلده كعقوبة القاذف للمحصنات ، ولعل اجتهادات عمر قد عالجت أمورا كثيرة تخص المسلمين فى حياتهم ، وهى تتمشى مع أصول الدين "وإنما يكره الله من الأئمة أن يبتدعوا فى سياسة الناس ما لا يلائم أصول الإسلام ، وأن يهملوا من أمور الدين قليلا أو كثيرا ، وأن ينظروا إلى أنفسهم أكثر مما ينظرون إلى رعيتهم من المسلمين والمعاهدين.(٧١)

---

(٦٨) نفسه ص ١٩٢. (٦٩) نفسه ص ١٩٤. (٧٠) نفسه ص ٢٠٠ (٧١) نفسه ص ٢٠٧.

واستعرض طه حسين سياسة عمر العامة ، خاصة مع أصحاب السابقة فى الإسلام من كبار الصحابة وأعلام المهاجرين ، حيث أخذهم بالحزم والرفق معا فجعلهم نظراءه وخاصته وأصفياءه وذوى مشورته ، وهو "كان يخاف على أكابر أصحاب النبى من أن يفتتنوا أو يفتنوا الناس ، ولذلك لم يولهم الأمصار ، إذا استثنينا سعدا حين ولاه حرب الفرس وأبا عبيدة حين ولاه حرب الشام".(٧٢)

ومن مظاهر عنايته بالدين أنه أنشأ نظام القضاء ، وعممه فى الأمصار وجعل للقاضى حريته الكاملة فى إصدار الأحكام ، على أن يتقاضى أجره من بيت مال المسلمين ، وفتح أمام القضاة باب الاجتهاد بعد الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وكان عمر يتحرج من رواية الحديث عن النبى خشية أن يزيد فيه أو أن ينتقص منه ، "وكان يكره أن يكثر الناس الحديث عن النبى ، وينذر المكثرين بالعقوبة ، وقد أنذر أبا هريرة بالضرب والنفى إلى بلاده التى جاء منها ، لأنه كان يكثر الحديث فلما نهاه عمر كف عن رواية الحديث ولم يعد إليها إلا بعد وفاة عمر.(٧٣)

كما اهتم عمر بالآداب العامة وأولاها كامل رعايته ، فكان أول من أخذ الدرة يؤدب بها الناس إن حادوا عن العدل دون تفرقة بينهم .

ولقد وفق طه حسين فى عرض سيرة عمر والتى صور من خلالها حياته الخاصة والعامة التى قامت على الدين والخوف من الله ، مما جعله يجعل رضا الله ومصلحة المسلمين فوق كل اعتبار ، فكان العدل سمة ظاهرة فى حكمه .

وفى السنة الثالثة والعشرين يقوم عمر بأداء فريضة الحج ، ومعه أزواج النبى وبينما عمر يؤدى صلاة الفجر طعنه أبو لؤلؤة ، واستشهد بالفاروق عمر وكان استشهاده فاجعة للمسلمين "وإذا كان عمر قد عرف بالعدل وضرب به المثل فيه ، فإن هذا العدل ليس إلا مظهرا من مظاهر خوفه من الله ، وإحضاره نفسه حساب الله عز وجل ، وتحرجه أن يصنع أشياء ، لا لشئ إلا لأنه يكره أن يسأله الله عنها يوم القيامة ، فلم يكن عمر مثلا فى العدل وحده ، وإنما كان مثلا فى رعاية الدين فى جميع أمره صغيره وكبيره.(٧٤)

---

(٧٢) نفسه ص ٢١٦ .   (٧٣) نفسه ص ٢١٣ .   (٧٤) نفسه ص ٢١٨ .

٣- الفتنة الكبرى "عثمان ، على وبنوه "

أولا : "عثمان" رضى الله عنه :

عندما أقبل طه حسين على كتابة الأحداث التاريخية فى كتابه "الفتنه الكبرى" ، كان يعلم أنه يعرض لفترة من أدق وأحرج فترات التاريخ الإسلامى كله ، إذ تعرض العالم الإسلامى لانقسامات أثرت ولا تزال فى وحدته وبنيانه ، وانتقلت بالخلافة الإسلامية ونظامها الفريد الذى تميزت به إلى نظام ملكى وراثى دنيوى ، يعتمد على القوة والمال ، ولهذا نجد المؤلف يقر بالحيدة الكاملة قبل أن يشرع فى تناوله لهذه الفترة "فلست عثمانى الهوى ، ولست شيعة لعلى ، لست أفكر فى هذه القضية كما كان يفكر فيها الذين عاصروا عثمان واحتملوا معه ثقلها وجنوا معه أو بعده نتائجها .[(٧٥)]

وأدرك طه حسين خطورة ذلك الموقف التاريخى ، فحاول جهده أن يلتزم أمانة النقل ، "أنا أريد أن أنظر إلى هذه القضية ، نظرة خالصة مجردة ، لا تصدر عن عاطفة أو هوى ، ولا تتأثر بالإيمان ولا بالدين ، وإنما هى نظرة المؤرخ الذى يجرد نفسه تجريدا كاملا من النزعات والعواطف مهما تختلف مظاهرها ومصادرها وغايتها [(٧٦)]

ولعله بهذا الالتزام "كانت نظرته التاريخية وتفسيره للأحداث يختلفان كل الاختلاف عن نظرة من سبقه من المؤرخين [(٧٧)]

ولقد أثبت طه حسين أنه مؤرخ جاد ، ظهر ذلك فى تناوله للسيرة النبوية فى كتابه "على هامش السيرة" ، وفى ترجمته للخلفاء الراشدين أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وكان مؤرخا أيضا فى تناوله للمجتمع الإسلامى بعد الرسول فى "مرآة الإسلام "والوعد الحق" .

ويتضح من خلال هذه الكتابات الإسلامية أنه وضع أصولا يجب الالتزام بها حين يشرع في الكتابة عن التاريخ الإسلامى .

(١) جانب علمى يتصل بفحص المادة التاريخية وتحقيقها واستنباط دلالتها مع دقة التفسير والتعليل والتحليل ومعرفة الظروف التى أحاطت بها والمؤثرات المختلفة التى أثرت عليها ، وبيان الصلات بينهم وبين محيطهم وبيئاتهم وعصورهم .

---

(٧٥) طه حسين، الفتنة الكبرى، ج١ ص٤ . (٧٦) نفسه ص٥ .

(٧٧) سامى الكيالى، مع طه حسين ص٩٠.

(٢) جانب فني يتصل بنقد هذه المادة التاريخية وتصوير شخصيات أصحابها ، وما تحدث في نفس قارئيها من لذة ، وهو الجانب الذي يحيل التاريخ إلى عمل أدبي ممتع يلذ العقل والشعور إذ نرى من خلاله خصائص المؤرخ التسجيلي ، وهو في ذلك يستخدم المنهج الاجتماعي الذي يبدو واضحا عندما تكون المادة التاريخية دائرة حول أشخاص ، "قد أشار إلى ذلك في كتابه "قادة الفكر" حين قال "الفرد ظاهرة اجتماعية ، وليس من البحث القيم العلمي في شئ أن تجعل الفرد كل شئ وتمحو الجماعة التي أنشأته وكونته محوا ، إنما السبيل أن تقدر الجماعة ، وأن تقدر الفرد ، وأن تجتهد ما استطعت في تحديد الصلة بينهما ، وفي تعيين ما تطلبهما من أثر في الآداب والآراء الفلسفية والنظم الاجتماعية والسياسية المختلفة [٧٨]

ويتناول طه حسين في الجزء الأول من الفتنة الكبرى ، ذلك الذي خصصه لعثمان بن عفان نظام الحكم الإسلامي وعناصره ، وبيان لاستغلال النفوذ الذي حاربه الخليفة عمر بن الخطاب ، فهو بذلك لم يقدم دراسة خاصة بعثمان بن عفان رضي الله عنه وتاريخ ولايته أو مقتله ، فهذه الدراسة إذن "ليست صورة لفرد ، وإنما هي صورة متكاملة للعوامل والتيارات التي كان يموج بها عصر الخليفة الشهيد"[٧٩] .

حيث نراه يتحدث عن نظام الحكم في الإسلام وأنه يتميز بميزتين أحداهما : معنوية وهي "تعني الدين الذي يأمر بالعدل والمعروف ، يفرضهما على الرعاة والرعية جميعا والأخرى : هذه الأرستقراطية الخاصة التي قام أمرها على الكفاية والتقوى وحسن البلاء والاتصال برسول الله" [٨٠]

ويتحدث عن نظام الشورى الذي اعتبره عمر أصلا لاختيار الخلفاء ، وأنه يعتبر ذلك شيئا عظيما توصل إليه عمر برغم أن طه حسين يصف ذلك بأنه غير كاف أو مقنع ، من حيث الظروف التي دفعته إلى التفكير في ذلك وهو مطعون وقد أشرف على الموت ، علاوة على عدم اتساع هذه الشورى لتشمل عددا أكبر يتولى الاختيار والمراقبة اليقظة لكل من الحاكم وصلاته وأعماله والمحكومين ومدى التزامهم واستجابتهم وصدقهم ويرى طه حسين أنه كان الأولى بالمسلمين "أن يفكروا في نظام الشورى هذا ، فيقيموه على أساس ثابت مضطرد متين ، يؤمنهم الفرقة أولا ، ويؤمنهم

---

(٧٨) طه حسين ، قادة الفكر ص٦٠ . (٧٩) سامح كريم ، إسلاميات طه حسين، دار القلم لبنان ص٤٩

(٨٠) طه حسين ، الفتنة الكبرى ج١ دار المعارف ط١٠ ص ٣٨ .

أن تعجل الأحداث خليفتهم عن أن يعهد لهم كما عهد أبوبكر ، وعن أن يشير عليهم كما أشار عمر ، ولكن الغريب أنهم لم يفكروا فى شئ من ذلك ، وإنما استخلف عثمان ، فلم يكد يستخلف حتى زاد فى العطاء ويسر على الناس ما كان عسر عليهم عمر ، وأذن لهم فتفرقوا فى الأرض ، ثم أذن لهم فاستكثروا من المال والأنصار" .(٨١)

ومع إشادة طه حسين بالنظام القائم على الشورى التى اعتبرها أساسا صحيحا لقيام الحكم الإسلامى بأداء دوره على الوجه الصحيح ، فإنه يرى ضرورة حماية الدين وصيانته ولا يتحقق ذلك إلا بأن يجمع الخليفة "إلى كفايته فى أمور السياسة والإدارة والحرب كفاية أخرى هى أشق منها مشقة وأعسر منه عسرا ، وهى الكفاية فى حماية الدين وحياطته وصيانته من أن يكيد له المغلوب ، أو يفتر فيه القائمون عليه الذين يجب عليهم ألا يخشوا فى حياطته لومة لائم مهما يكن .(٨٢)

ولقد وفق طه حسين فى شرح وتفصيل الظروف التى أحاطت بنظام الخلافة الإسلامية منذ بدئها مشيرا إلى أن نظام الخلافة قد قام على مبادئ الدين التى تكفل العدل الخالص والمساواة ، مشيدا بحكمة عمر بن الخطاب فى تطبيق هذا النظام والتأسى الصادق بالرسول صلى الله عليه وسلم "وما أعرف أن التاريخ الإنسانى كله يستطيع أن يجد لعمر نظيرا فى هذا الضمير الحى الحساس المتحرج المتأثم ، الذى يخاف على نفسه ما لايخاف ، وينكر من نفسه مالا ينكر ، ويأخذ نفسه من ضروب الشدة والعنف بما لا يأخذ الرجل به نفسه إلا أن يكون من أولى العزم .(٨٣)

ومع العناصر التى كان يأتلف فيها هذا النظام ، نجده يشير إلى عنصر آخر غير الدين وهو الأرستقراطية التى اعتمدت على الاتصال بالنبى والإذعان لأوامره ، والجهاد وحسن البلاء فى سبيل الله فى أوقات السلم والحرب ، ومع هذين العنصرين وجب أن يكون للرعية حظ من الضمير الحى اليقظ والحرص على رضا الله .

لكن بمرور الوقت ضعف سلطان الدين ، وضعف تأثير هذه الطبقة الممتازة فى الناس "وكانت هناك حتمية تغير هذا النظام الذى امتد طوال حياة النبى عليه أفضل الصلاة والسلام وصاحبيه الكريمين اللذين كان الناس يرون فيهما صورة النبى لقرب عهدهما به ، ولشدة تمسكهما بالاقتداء به ولقوة شخصيتهما" .(٨٤)

---

(٨١) نفسه ص ٤٨، ٤٩ . (٨٢) نفسه ص ٥٩ . (٨٣) نفسه ص ١٥ .

(٨٤) د. رشيده مهران ، طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتيه ط أولى ١٩٧٩ ص٤٥.

وأشار طه حسين إلى سياسة عمر مع كبار الصحابة وأعلام المهاجرين والأنصار ، والتى تعد نموذجا رائعا للتصرف الحكيم ، حيث كان يستشيرهم ويخاف عليهم الفتنة "فأمسكهم فى المدينة لايخرجون منها إلا بإذنه ، وحبسهم عن الأمصار المفتوحة لايذهبون إليها إلا بأمر منه."[٨٥]

ومع هذا الاستقصاء فى نظام الخلافة على عهد عمر وأبى بكر ، يهدف المؤلف إلى اختلاف وجهات النظر تجاه العديد من القضايا بين الخليفتين وعثمان الخليفة الثالث ، ليمهد للحديث عن أحداث الفتنة وآثارها ، ولكن الظروف تتغير ، مع مرور الزمن ، فالإنسان العربى الذى عاش فى البداوة ولم يتمرس على سياسة محددة ، ثم طبيعة البلاد التى تم فتحها والحضارة والرقى السائدة فيها ، كل ذلك دفع عمر لأن يجمع حوله هؤلاء الصفوة من كبار الصحابة والعلماء لمشورتهم فى أمور السياسة والإدارة والحرب حماية للدين وصيانة له من أن يكيد المغلوب أو يستغله الغالب .

ويخلص المؤلف إلى موقف عثمان الذى" لم يكد يتولى أمر المسلمين حتى فك عنهم هذا العقال وأذن لهم ، فتفرقوا فى الأرض ، فرضوا عنه كل الرضا ، ثم لم تمض أعوام حتى ضاقوا بد أشد الضيق ، وكانت الفتنة التى خشى عمر أن تكون" .[٨٦]

وقد ورث عثمان بعد توليه الخلافة ميراثا شائكا من المشاكل ومن متطلبات العصر سواء فى الداخل أو فى الخارج ، فالحدود تحتاج للحماية من حقد الحاقدين والجيوش تتطلب الرعاية والاهتمام ، ثم إدارة البلاد المفتوحة تتطلب الدراية التامة بأساليب الحكم المتطورة ودعوة دينية تحتاج لمن يقوم بأدائها وصيانتها .

وطه حسين يشرح بإسهاب هذه الظروف ليوضح أنها كانت أكبر عائق أمام الخليفة عثمان الذى تميز بالورع والتقوى علاوة على تقدم العمر ولذلك "لم يستطع عثمان أن يحتفظ بهذه المساواة ، فآثر قريشا من دون العرب عن عمد أو غير عمد ، ثم لم يستطع أن يسوى بين قريش نفسها ، فآثر فريقا منها على فريق راضيا بذلك أو كارها له" .[٨٧]

ولا نشك فى أن طه حسين لمس نقطة هامة بذلك ، فهو يرى أن قريشا آثرت نفسها أول الأمر وكان ضميرها اليقظ يكمن فى كبار الصحابة ، ولكن بعد عهد الصحابة لم يعد الاستمرار ممكنا ، وكان حريا بها أو بالمسلمين بعد أن اتسعت الدولة

---

(٨٥) طه حسين ، الفتنة الكبرى ج١ ص١٧ . (٨٦) نفسه ص ١٧. (٨٧) نفسه ص ٨٧ .

الإسلامية وترامت حدودها أن يتخذوا لأنفسهم دستورا مكتوبا يقوم على الكتاب والسنة بين الحدود ، ويعصم المسلمين من الفرقة والخلاف ، والمؤلف يلقـى بالمسئولية بعيدا عن الخلفاء الثلاثة ، ليحملها للظروف المريرة التى اكتنفت عهد عثمان منذ بدايته .

ويثير طه حسين قضية السياسة المالية عند عثمان والتـى تختلف عن نهـج الشيخين حيث يلتمس له العذر فى اتباع هذه السياسة.

هو لم يتعمد الجور ولا المحاباة إنما وسع على الناس من أموالهم ، رأى فـى بيت المال غنى فآثر الناس به ولم يغل فى الادخار ، وأى حرج فى أن يصل أصحاب النبى بشئ من هذا المال قليل أو كثير ، وهم أئمة الإسلام وبناة الدولة وأصحاب البلاء الحسن أيام النبى" .(٨٨)

ومما لا شك فيه أن مثل هذه السياسة الجديدة كان لها تأثيرها علـى مجريات الأحداث فيما بعد ، ولقد لعبت دورا كبيرا فى إثارة الناس على عثمان .

ويشير المؤلف إلى تغير اجتماعى آخر أثـار الفتنـة ، ذلك هو قيام الملكيات الضخمة التى تعتمد على الثروة ، حيث سمح الخليفة عثمان لبعض الناس بامتلاك مساحات شاسعة من الأراضى ، مما أدى إلـى نشأة طبقة غنية دفعها غناها لتنازع السلطان .

"والحق أن نظام الطبقات لا أثر له فى أمة كالأمـة العربيـة ، لأن الإسلام لم يكن قد تمكن من القضاء على نظام القبائل فيها ، فكان كل فرد منها يعيش لقبيلته ويفنى فيها ، ويتعصب كل التعصب لها ، ويتنافس فـى ذلك غنيها وفقيرها وكبيرها وصغيرها ، فلم يكن نظام الطبقات حينئذ هو الـذى أحدث تلك الثورة علـى عثمان ، وإنما أحدثتها أسباب أخرى(٨٩)

ولعل من تلك الأسباب حسد القبائل العربية لقبيلة قريش ، بعد أن صار لها بعد الإسلام ماصار من السلطان ، وقد ثارت عليها فى عهد أبى بكر فارتد بعضها عن الإسلام ، ومنع بعضها الزكاة ، فردها أبو بكر بالسيف إلـى الطاعة ، وقد هدأت فـى عهده وعهد عمر لشدتهما ، فلما جاء عثمان وكان معروفا باللين ، انتهزت الفرصة للثورة على قريش ويرى طـه حسين أن هناك جماعة من أصحاب النبـى قد حسن بلاؤهم فى الإسلام ، ثم تواكبت عليهم الأحداث والخطوب وامتحنوا بالسلطان والثراء ،

---

(٨٨) نفسه ص ٧٧. (٨٩) عبد المتعال الصعيدى ، مع زعيم الأدب العربى فى القرن العشرين ص ١٥٢

ففسدت بينهم الأمور وقاتل بعضهم بعضا ، ويلخص رأيه فى هذه القضية بقوله : "وإنما سبيلنا أن ننظر فى أعمالهم وأقوالهم من حيث صلتها بحياة الناس وأحداث التاريخ ، وأن نخطئ من نخطئ ، ونصوب من نصوب منهم من هذه الجهة وحدها ، دون أن نقضى فى أمر دينهم بشئ ، فإن الدين لله".(٩٠)

والجدير بالذكر أنهم كانوا يؤثرون أنفسهم بالسلطان نصحا للإسلام والمسلمين ، وليس حبا فى السلطان ، حيث يرى كل منهم أنه أقدر على احتمال الأعباء من غيره .

ويشير المؤلف إلى السياسة التى اتبعها عثمان مشيدا بها "وهذه السياسة التى رسمها عثمان لعماله ، هى نفس السياسة التى نزل بها القرآن ورسمها الأئمة قبل عثمان لأنفسهم وللمسلمين" .(٩١)

ثم يتطرق للحديث عن طبقية المجتمع واقعا أسير طريقته فى الكتابة حيث الإطناب وبسط الحديث والرجوع إليه ، فيقسم المجتمع إلى طبقات أربع ، أما الأولى فهى من رعية عثمان بقريش ، والتى كانت تتميز بالقوة التى مكنتها من الإشراف على البيت الحرام والاستئثار بمناسك الحج وكافة أمور الدين ثم مايعود عليها نتيجة التجارة والاحتكاك بالأمم المجاورة وقدرتها على تخطى العقبات وتجاوز المشكلات التى قد تصادفها ، كما أن المغالاة فى الكبرياء والحرص على حب المال الأمر الذى يدفعها أحيانا لأخذه بغير حقه يجعلها ضعيفة وربما يعرضها للظلم والاستعلاء .

وهكذا تتضح قدرة طه حسين وهو يكتب إسلامياته من تصوير كيفية تعامل عثمان مع هذه الطبقة الأرستقراطية التى تعامل معها عمر بالشدة ، خاصة حين جعل أمور الحكم والولاية بين المسلمين لمن يستطيع النهوض بها وتحمل أعبائها ، وإيثار عثمان جانب اللين حين أخلى بين قريش وبين الطريق ، تمضى فيه إلى غير غاية .

أما الطبقة الثانية فهى الأنصار ، ومكانة الأنصار فى الإسلام عظيمة حيث أثنى القرآن عليهم ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم بحسن رعايتهم ، وقد صرفت عنهم الولاية فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان ، وكانوا موضع المشورة ، وأهل الجهاد ، وكان موقفهم بعد أن استخلف عثمان رهينا بسيرة الخليفة فى قريش ، حيث

---

(٩٠) نفسه ص ٤١. (٩١)نفسه ص ٧١.

كان عمر لايفرق بين المسلمين ولا يؤثر قريشا بشئ من دون المسلمين ، لكن عثمان آثر قريشا راضيا أو كارها ، وإن إيثاره لقريش وقع من نفوس الأنصار موقعا أليما كان له أثره الخطير في الفتنة ، ثم فيما ستتبعته الفتنة من أحداث.(٩٢)

وكانت الطبقة الثالثة من رعية عثمان عامة العرب ، الذين بذلوا الروح رخيصة فى سبيل نشر الدين والذود عن حياضه ، حيث وعدهم الإسلام المساواة والعدل ، وكانت السياسة الملائمة هى إعادة التنشئة الإسلامية لهم ، بمقاومة العصبية فيهم ، وقد حرص الخلفاء على إشاعة المساواة والعدل الحازم بينهم ، إلا أن قريشا قد ميزت بين العرب وتسلطت عليهم ، واستأثرت من دونهم بأرفع المناصب وأعلاها .

أما الطبقة الرابعة من رعية عثمان فهم هؤلاء المغلوبون من أهل البلاد التى فتحت على المسلمين ، وسنة الإسلام فى سياستهم واضحة ، فى أن يؤخذوا بما عليهم من الحق ، فإن أدوه فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، وقد عرف عثمان هذه السيرة وأخذ نفسه وولاته بها.

ويعقد طه حسين مقارنة بين الخلافة الإسلامية وما طرأ عليها نتيجة التوسع الاقتصادى فى عهد عثمان الذى أتاح لهؤلاء الأغنياء تنمية أموالهم وإنشاء الملكيات الضخمة ، وبين ما حدث للجمهورية الرومانية نتيجة "اللاتيفونديا" التى أضاعت الجمهورية الرومانية حين "ملكت قلة قليلة من الرومانيين أرض إيطاليا فانقطع الناس إليها وأصبحوا أحزابا وشيعا ، وملكت قلة قليلة من المسلمين أرض الأقاليم ، فانقطع الناس إليها وانقسموا بينها شيعا وأحزابا ، ونتيجة هذا كله أن هذه النظام الذى استحدثه عثمان عن رأيه هو ، أو عن رأى مشيريه ، لم تكن له نتائجه السياسية وحدها ، من نشأة هذه الطبقة الغنية المسرفة فى الغنى ، التى استهوت الناس وفرقتهم أحزابا وتنازعت السلطان فيما بينها بفضل هذا التفرقة ، وإنما كانت له نتائجه الاجتماعية أيضا .(٩٣)

وقد نجح طه حسين فى توضيح الصورة التاريخية للمجتمع بكل دقائقهاومدى تأثيرها على الفرد وسلوكياته التى يتسم بها ، وتوصل من خلال ذلك إلى أن "الفتنة إذن إنما كانت عربية ، نشأت من تزاحم الأغنياء على الغنى والسلطان ، ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الأغنياء ، ولم يكد نظام عثمان هذا يذاع ويسرع الأغنياء

---

(٩٢) نفسه ص ٨٥ .

(٩٣) نفسه ص ١٠٩ .

إلى الانتفاع به ، حتى ظهر الشر ".[٩٤]

ويتعرض طه حسين لشخصية عثمان ، بعد أن وضح أسباب تحول أمر المسلمين إلى ما أصبحوا عليه فى عهد عثمان من تفرق ، فذكر أن العرب لم يكونوا كلهم أصحاب رسول الله ، ولم يكن هناك توازن بين الحاكم والمحكومين ، أو تضامن صحيح بين الخليفة وغالبية الرعية العربية ، ثم كثرة الفتن التى تعرض لها المسلمون "فليس من الغريب فى شئ أن يتعرض كثير من الصالحين ومن اصحاب النبى أنفسهم لأسباب الفتن ودواعي الغرور ، وأن يطرأ عليهم من الأحداث والخطوب ما يباعد بينهم وبين عهدهم الأول حين كان الإسلام غضا ، وحين كانوا يتصلون بالنبى مصبحين وممسين".[٩٥]

وهو بذلك يمهد للحديث عن شخصية عثمان ، ويترجم له ترجمة رائعة ، تجلى فيها التحليل الدقيق وجمعه للمتفق والمختلف من الأخبار ، ومن خلال هذا الكم المتسع من الأخبار يخرج لنا برأيه وتصوره ، ويسجل أول حدث تعرض له عثمان بعد توليه الخلافة وهو قتل عبد الله بن عمر الهرمزان وحقينة وبنت أبى لؤلؤة وهذه القضية كانت امتحانا عسيرا ، حيث لم تكن قضية سياسية بقدر ما هى قضية دين أولا ثم سياسية بعد ذلك ، ومن حق الإمام أن يفصل فيها وأن يعفو بشرط ألا يعطل عفوه حدا من حدود الدين ، وعثمان حين عفا لم يعطل حدا من حدود الله ولم يهدر دم الهرمزان وصاحبيه ، وإنما أدى ديتهم من ماله لبيت مال المسلمين الذى كان يرثهم وحده ، ولكن هذا النحو من العفو لايخلو مما يريب المتشددين فى الدين".[٩٦]

ويصور طه حسين خروج عثمان من هذه القضية على أن ذلك نتيجة حقيقية لشخصية عثمان التى تتسم بالرحمة والرأفة وإيثار العافية وتجنبه لما يحفظ قلوب الطبقة الخاصة من المهاجرين والأنصار ، وكان بدء خلافة عثمان محاطا بهذا الشك والاختلاف ، ولقد خرج عثمان من هذه المشكلة الكبرى بتأدية الدية للقتل من ماله الخاص ، وما كان عليه ليستفتح خلافته بقتل فتى من فتيان قريش وابن من أبناء عمر ، وما كان عثمان ليهدر دم مسلم وذميين .[٩٧]

ويظل طه حسين يؤكد أن الذى حدث من مشقة وشقاق كان نتيجة طبيعية ، وحدث لابد أن يحدث ، فيقول "فقد استقبل عثمان خلافته إذن وهو يريد أن يسير سيرة

---

(٩٤) نفسه ص ٤٠. (٩٥) نفسه ص ٦٧. (٩٦) نفسه ص ٦٦. (٩٧) نفسه ص ٢١٦ .

صاحبيه لايغير منها شيئا ، وسار على الجملة سيرة صاحبيه ، فلم يحتجب ولم يستعل ولم يتسلط وإنما أدركه ما قد يدرك الناس من هذا الضعف الذى لا يأتى عن نية سوء ولا عن تعمد للبغى ، وإنما يأتى عن خلق كريم وعن حب للخير ورغبة فيه.[٩٨]

وأبرز المؤلف أن عثمان عندما تولى الخلافة كان عمره قد بلغ السبعين ، وقد تميز بصلة الرحم وشدة الحياء وسماحة الخلق ، وعلى النقيض كانت تتميز عشيرته المقربة إليه بالطمع والجشع والاستعداد للتسلط والغلبة ، وقد كان ذلك خليقا لإيجاد المشاكل والأحداث التى تعرض لها عثمان وقد أفاض طه حسين فى استعراض بوادر الفتنة وأسبابها ومباشرة عثمان سلطة التولية والعزل فى الولاة وما نتج عنها من سخط واشتداد لتيار المعارضة حيث ازدحمت الكوفة خاصة والأمصار عامة بالطارئين ، وحدث انقلاب اقتصادى خطير فنشأت الملكية الكبيرة فى الإسلام ، فكانت بداية الفتنة ، فهى عربية نشأت من تزاحم الأغنياء على الغنى والسلطات وحسد العامة لهم وظهر الشر فى الكوفة قبل أن يظهر فى أى مصر آخر وتفاقم الأمر عندما نفى عامل الكوفة نفرا من أرضهم وأخرجهم بقوة السلطان.[٩٩]

ويرى طه حسين أن المعارضة لم تنشأ فى المدينة وحدها ، وإنما نشأت فيها وفى سائر الأقاليم فى وقت واحد ، ويستعرض موقف عبد الرحمن بن عوف أحد المعارضين لعثمان فى أمور الدين والسياسة وإعطاء الأموال لأصحاب عثمان ، ثم عرض لموقف سعد بن أبى وقاص الذى شارك فى المعارضة الرفيقة حيث كان لايتجاوز توجيه النصح ، وعندما تطورت المعارضة كف سعد ولزم الحياد ولم يشارك فى الفتنة ، أما الزبير بن العوام فكان يشارك الصحابة فى توجية النقد أو إسداء النصح ، أما طلحة فكان معارضا لعثمان من البداية وشارك فى حصاره .

ويؤكد المؤلف بأنه بعد أن علم الثائرون بإرسال عثمان طلب النجدة من فى مشهد مصرع عثمان حيث قتل عثمان فى بيته ، بعد أن فشلت كل المحاولات لإنقاذ الموقف .

عماله فى الأمصار حتى تغير الحصار ، وتغيرت سيرتهم مع عثمان ثم يصور المأساة

---

(٩٨) نفسه ص ٢١٦ .

(٩٩) مجلة فكر للدراسات والأبحاث، طه حسين مائة عام من النهوض العربى١٤ ص٣١٨ .

وطه حسين بعد مقتل الخليفة يصور بفكر الناقد البصير المتأمل والمستنتج من مجموع الظواهر والملاحظات التى قرأها قراءة متأنية وفحصها فحصا دقيقا ، يصور أحوال المسلمين وليس أمامهم سوى طريقين ، طريق الملك أو الطريق الذى سلكه النبى وصاحباه الذى يقوم السلطان فيه على المحبة والعدل وحل المشكلات بوسائل الدين "وينظر المسلمون الآن فإذا الطريق الأولى مازالت مزدحمة بهم جميعا يتهافتون فيها كما يتهافت الفراش فى النار ، وإذا الطريق الثانية مازالت قائمة واضحة بينة الأعلام ، ولكنها خالية لايقدر على سلوكها إلا أولو العزم من الناس ، وأين أولو العزم من الناس ؟ .(١٠٠)

وقد توصل طه حسين إلى اختلاف الناس فى قاتلى عثمان ، والذى لايقبل الشك أن الله لم يحل دم عثمان لقاتليه ، فربما يكون مخطئا فى سياسته وقد يكون مصيبا ، فأقصى مايباح للمنكرين عليه أن يثوروا به ويحملوا الأمة على هذه الثورة ، فإن ظفروا باجتماع الكلمة على خصومته اختاروا من المسلمين ممثلين لمحاورة عثمان ومناظرته ، ثم عليهم ترك الأمر فى المحاسبة للإمام ، ويرجع طه حسين سبب ذلك كله للظروف التى كانت أقوى منهم جميعا .

وإذا كان المؤلف قد ركز على السيرة السياسية التى تكشف تلك الحقيقة التى اختلف عليها الناس وخاصة تلك التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى طرأت على المجتمع ، فإنه كان فى حاجة إلى إعطاء صورة أفسح لعثمان الإنسان ، كما أنه لم ينصف عثمان فى مقارناته مع عمر بشكل يوحى بأنه لم يبلغ تلك العبقرية .

---

(١٠٠) طه حسين ، الفتنة الكبرى ج١ ص٢١٨ .

ثانيا: على وبنوه "رضى الله عنهم" :

وعندما شرع طه حسين فى الحديث عن ولاية الإمام على رضى الله عنه نجده يتعرض لموقف المسلمين غداة توليه الخلافة من خلال تصويره المنطقى للأحداث والمدعم بالدوافع والأسباب "فليس غريبا إذا أن يستقبل المسلمون خلافة على ووجوههم عابسة وقلوبهم خائفة ونفوسهم قلقة ويزيد فى هذا العبوس والخوف والقلق أن الثائرين الذين قتلوا عثمان كانوا مايزالون مقيمين بالمدينة متسلطين عليها ، حتى كأن الخليفة الجديد ومن بايعه من المهاجرين والأنصار لم يكونوا فى أيديهم إلا أسارى ، وأية ذلك أن الخليفة لم يستطع أن يمضى فى تحقيق ما أصاب عثمان وما أصاب المسلمين من كارثة الفتنة.[١٠١]

ويرجع طه حسين عدم استقرار الأوضاع فى بداية خلافة على إلى الأحداث الحادة المثيرة التى حدثت وانتهت بمقتل الخليفة عثمان ، ثم استمرار الخلافات بين على وخصومه وأولهم معاوية بن أبى سفيان وكثير من عمال الأمصار الذين ولاهم عثمان والذين يطالبون بالقصاص من قتلة الخليفة عثمان ، ويوضح طه حسين أن أحداث التاريخ تدور دورتها ، فكما واجه عثمان فى أول خلافته مشكلة قتل الهرمزان على يد عبد الله بن عمر متهما إياه بالتحريض على قتل أبيه وكان قتله فى غير تثبت وبغير بينة وبغير قضاء ممن يملك القضاء ، واجه أيضا الإمام على مشكلة مقتل الخليفة عثمان ، وكما تأزمت الأمور واختلفت وجهات النظر فى عهد عثمان ، تشابه ذلك أيضا مع بداية خلافة على ، وكما استطاع عثمان أن يضع حدا لهذه المشكلة بالعفو عن عبد الله ودفع دية القتلى من ماله ، تمكن الإمام على من حسن التصرف ، من خلال التعامل مع الواقع فإذا كان هو قد أصبح خليفة بحكم البيعة إلا أن الثائرين يحتلون المدينة ويسيطرون على مقاليد الأمور بحكم الواقع ، لهذا لجأ إلى التمهل والأناة حتى تستقر الأوضاع وتستقيم الأمور ويقوى سلطان الخليفة فى الأمر ثم ينظر فى القضية بعد ذلك فيجرى الأمر فيها على ماقضى الله ورسوله فى الكتاب والسنة[١٠٢].

وطه حسين يسلك نفس المسلك الذى انتهجه فى دراسته لعثمان رضى الله عنه ، متحريا عن الحقيقة بمختلف السبل وأوضحها ، وأدق النصوص وأوثقها، فيستعرض الوضع الذى حل بالمجتمع الإسلامى عقب مقتل عثمان ، وهى مشكلة ربما

---

(١٠١) طه حسين، الفتنة الكبرى ج٢ ص١٣ .   (١٠٢) نفسه ص ص١٠ .

ركز عليها طه حسين وأشار إليها كثيرا دون عمد ، إنها مشكلة اختيار الحاكم أو الخليفة ، مع الأخذ فى الاعتبار للتغيرات الاجتماعية التى حلت بالمجتمع الإسلامى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيطرح هذه القضية بعد مقتل عثمان ، حيث تبقى من الذين عهد إليهم عمر الشورى أربعة والأربعة هم سعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وعلى بن أبى طالب ، فأما سعد فقد اعتزل الساحة متجنبا الفتنة ، وظل النفر الثلاثة على وطلحة والزبير مختلفين فى تطلعاتهم ومواقفهم نحو المشكلة التى حلت عليهم ، فعلى كان يكف الثوار والناس عن الثورة والفتنة ، أما الزبير فكان يراقب الموقف هواه مع الثائرين من ناحية ، ونشطا فى رد الثوار من ناحية أخرى ، أما الأخير فلم يخف ميله إلى الثائرين وتحريضهم ، ومع هذا الموقف الصعب تعددت آراء الأمصار فى تأييدهم ، فأهل مصر مع على ، وأهل الكوفة مع الزبير ، وأهل البصرة مع طلحة ، والمهاجرون والأنصار يؤيدون عليا ، وينتهى الموقف بتولى على أمور الخلافة.

وإذا كان طه حسين قد استرسل فى عرضه لحال المسلمين وكيفية استقبالهم خلافة على فإنه يستعرض أيضا حال على فى استقبال الخلافة ومواجهته المشاكل الصعبة التى وقعت ولعل هذا يبين لنا كثيرا أن طه حسين يستعرض مادة دراسته استعراضا كافيا من كل جهة حتى إذا انتهى إلى قول أو نتيجة تطمئن نفسه بأنها إفراز طبيعى ، أو أنها نتيجة منطقية تستقر فى نفس مستمعيه وقارئى عمله ، يقول طه حسين مبينا كيف استقبل على الخلافة " وكذلك استقبل على خلافة المسلمين بما لم يستقبلها أحد من الذين سبقوه ، فلم يخالف أحد من أصحاب النبى عن أبى بكر إلا ما كان من سعد بن عبادة رحمه الله ولم يخالف أحد منهم عن عمر ولا عن عثمان ، ولكن عليا يرى جماعة من خيار أصحاب النبى الذين مات وهو عنهم راض وشهد لكثير منهم بالجنة يخالفون عن بيعته ، منهم من يريد اعتزال الفتنة ومنهم من يريد أن ينصب له الحرب ، ولعل الحسن بن على قد أصاب الحق حيث تحدث إلى أبيه فى طريقهما إلى البصرة بأنه كان قد أشار عليه أن يعتزل أمر عثمان فيترك المدينة أيام الفتنة فيلحق بمكة فى بعض الروايات ، أو يلحق بما له بينبع فى رواية أخرى ، فأبى على إلا أن يشهد أمر الناس"[(١٠٣)]

---

(١٠٣) نفسه ص ٣٠ .

ويبرز طه حسين مواقف الإمام على تجاه عمال عثمان ، حيث أوضح أنه لم يكن يستطيع أن يبقيهم ، لذلك عمل على سرعة اختيار هؤلاء العمال الاختيار الحسن ، وهكذا أعاد على النظر فى هؤلاء العمال ، وهو بذلك يبين ما تميز به الإمام على من ذكاء ، إذ كان تغيير العمال أمرا ضروريا " ومهما يكن من اختلاف المؤرخين ، فليس من شك فى أن عليا لم يكن يستطيع أن يستبقى عمال عثمان ، وكان دينه يمنعه من ذلك لأنه طالما لام عثمان على تولية هؤلاء العمال ، وطالما أنكر على هؤلاء العمال سيرتهم فى الناس ، فلم يكن يستطيع أن يطالب بعزلهم أمس ، ويثبتهم على عملهم اليوم ، وتمنعه السياسة من هذا ، فهؤلاء الثائرون الذين شبوا نار الفتنة وقتلوا عثمان لم يكونوا يكتفون بتغيير الخليفة ، وإنما كانوا يريدون تغيير السياسة كلها وتغيير العمال قبل كل شئ.(١٠٤)

ويمكن القول أن أمر الخلافة قد استتب فى كثير من الأمصار إلا الشام بقيادة معاوية ، إذ صمم أهل الشام على أن يثأروا لعثمان متخذين ذلك حجة على رفضهم البيعة لعلى.

ويعرض طه حسين لموقف عائشة حيث إنها لم تكن تحب عليا ولا تهواه ، بل كانت تجد عليه موجدة شديدة منذ حديث الإفك ، حيث أراد على أن يواسى النبى – صلى الله عليه وسلم- فأشار عليه بأن يطلقها ، ولهذا نجدها قد ضاقت عندما علمت بتولية على الخلافة ضيقا شديدا " وأعلنت أنها كانت تؤثر انطباق السماء على الأرض قبل أن ترى عليا وقد أصبح للمسلمين إماما(١٠٥)

ويضيف طه حسين أنها كانت تنكر على على أمرين ، أحدهما أنه تزوج من فاطمة بنت الرسول ورزق منها الحسن والحسين ، فكان بذلك أبا الذرية الباقية للنبى ، فى الوقت الذى حرمت فيه من الإنجاب ، والآخر أن عليا قد تزوج أسماء الخثعمية بعد وفاة أبى بكر رحمه الله ، وأسماء هذه هى أم محمد بن أبى بكر الذى نشأ فى حجر على.

وقد عادت إلى مكة مغاضبة ، وبالرغم من أنها كانت أشد نساء النبى إنكارا على عثمان فى حياته ، فقد أخذت تنادى بعد قتله بالثأر أثناء وجودها بمكة ، ولهذا أثارت أهل مكة مع عمال عثمان الذين تركوا الأمصار وعادوا إلى مكة ، وأصبحت

---

(١٠٤) نفسه ص ٢١ .　　(١٠٥) نفسه ص ٢٥ .

مكة مكانا آمنا للمعارضة ضد الإمام على " وجعل القوم يأتمرون ، فاتفقوا على أن هذه الفتنة قد أحدثت فى الإسلام حدثا خطيرا ، قتل الخليفة مظلوما ، ولابد من القيام فى هذا الأمر بما يرأب الصدع ويقيم دين الله كما ينبغى أن يقام ، وأول ذلك أن يثأروا لعثمان من الذين قتلوه مهما يكونوا ثم يرد أمر المسلمين شورى بينهم ، فيختاروا لخلافتهم من يريدون عن رضى النفوس وهوى القلوب واطمئنان الضمائر والنصح للإسلام والمسلمين".(١٠٦)

وأخذت جبهة المعارضة فى التخطيط فرأى بعضهم الإغارة على المدينة فتحرجوا من ذلك ، ورأى البعض التوجه إلى الكوفة ولكنهم عدلوا لمكانة أبى موسى الأشعرى ، وآثروا التوجه إلى البصرة ، وأعدوا العدة بمساعدة عمال عثمان الذين وفدوا إلى مكة بما جمعوه من أموال ، فكانت عدتهم ثلاثة آلاف ، وانضمت إليهم عائشة ، بمجرد أن علم الإمام بما دبر هؤلاء أسرع إليهم تاركا أمر الشام حتى ينتهى من هذا الأمر الطارئ ، وبعد مفاوضات مستفيضة ، اقتتل الفريقان قتالا شديدا منكرا " ورأى المسلمون يوما لم يروا مثله شناعة ولا بشاعة ولا نكرا، سل المسلمون سيوفهم على المسلمين ، وقتل خيار المسلمين خيار المسلمين ، فقتل من أولئك وهؤلاء جماعة من جلة أصحاب النبى ومن خيرة فقهاء المسلمين وقرائهم ، وحزن على لذلك أشد الحزن وأقساه.(١٠٧)

ويصور المؤلف ملامح المأساة عند الخليفة الجديد ، ابن عم رسول الله ، وأسبق الناس إلى الإسلام ، وأول من صلى مع النبى من الرجال ، فقد تركت موقعة الجمل فى نفس على ونفس كل مسلم صادق أعمق الأثر وأبقاه ، فلم تمض على خلافة على ستة أشهر حتى جرت دماء المسلمين.

---

(١٠٦) نفسه ص ٢٨ .

(١٠٧) نفسه ص ٥٠ .

الفصل الثانى

العناصر الإسلامية فى تقويم فلسفة ابن خلدون الاجتماعية

١- تمهيد

٢- المنهج التاريخى لابن خلدون

٣- أثر منهج الشك الديكارتى عند طه حسين على مفهومه لآراء ابن خلدون

٤- الوعى المتأمل فى فكر ابن خلدون

فلسفة ابن خلدون الاجتماعية

(أول رمضان ٧٣٢هـ - آخر مايو ١١٣٢م) - ٢٥ رمضان ٨٠٨هـ - ١٥ مارس ١٤٠٦م.

١- تمهيد:

اهتم طه حسين بدراسة الفلسفة الاجتماعيـة عند عبد الرحمن بن خلدون ، حيث عكف على مقدمته بدراسة عنها وعن صاحبها ، نـال بها درجة الدكتوراة من جامعة مونبيليه فى يناير ١٩١٨ ، بإشراف عالمى الاجتماع الفرنسيين إميل دوركايم ، وسلنتان بوجليه وكانت رسالته بعنوان: "الفسلفة الاجتماعية عند ابن خلدون" ومنحه المعهد الفرنسى العتيد "كلية فرنسا" جائزة سيانتير.

وقد وضع هذا العمل بالفرنسية ونقله إلى العربية محمد عبد الله عنان المحامى ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وطبع بمطبعة الاعتماد ، بعد أن تمت الترجمة وأقرها المؤلف.

وتعد رسالته هـذه عن ابن خلدون أول بحث علمى منظم كتب عن ذلك الفيلسوف وتناول شرح نظرياته فى التاريخ والاجتماع.

ويشير المؤلف فى مقدمته إلى أبى العلاء المعرى (٣٦٣ - ٤٤٨ هـ) (٩٧٣-١٠٥٨م) مشيدا بدوره فى تاريخ الآداب العربية حيث قدم مجموعة شعرية اسمها "اللزوميات" فلسفة باهرة تفيض زهدا وتشاؤما ، وتخيل لنا فى شبه قصة اسمها "رسالة الغفران" التى تذكرنا قراءتها "بالكوميديا الإلهية" للشاعر الإيطالى دانتى ألجييرى (١٢٦٥-١٣٢١م).

وقد أتيح للمؤلف أن يقدم دراسة متأنية عن حياة أبى العلاء ومؤلفاته فى رسالة قدمها إلى الجامعة المصرية بالقاهرة ١٩١٤م ، مما دفعه إلى دراسة عبد الرحمن بن خلدون ويذكر فى المقدمة "كان ابن خلدون عقلية عملية ، لم تمكنه حياته الدبلوماسية التى امتزجت أيما امتزاج بالدسائس والمصاعب السياسية ، من أن يطيل التأمل فى نفسه أو فى الحياة الأخرى على أنه استخرج من تلك الحياة ذاتها ومن دراسته لتاريخ الإسلام ومختلف النظريات الفلسفية التى عرفها المسلمون دراسة عميقة مستفيضة فلسلفة جديدة موضوعها المجتمع وتاريخه"(١)

وإذا كانت أعمال ابن خلدون قد تم دراستها وبحثها بواسطة بعض المستشرقين

---

(١) د.طه حسين ،علم الاجتماع ، المجلد الثامن دار الكتب اللبنانى ، بيروت ص ١٠٠٩.

وخاصة فى فرنسا إلا أنهم قد اهتموا كثيرا باللغه والألفاظ دون المعنى ، ولهذا أراد أن تكون رسالته ودراسته بطريقة صحيحة فى محاولة لتقديم الفلسفة الإسلامية لعالم عربى عرف منذ فاتحه القرن التاسع عشر وقد استوعب هذا العمل عشرة فصول.

وقد تناول فى الفصل الأول: "حياته - أخلاقه - مؤلفه".

وحول حياته يذكر أن اسمه أبو زيد ولى الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون ، وهو ينتسب إلى أسرة عربية نزحت إلى أسبانيا منذ أواخر القرن الأول للهجرة أى حينما افتتح المسلمون بلاد الأندلس.

ويشير إلى أن هذا العالم ينتسب إلى أصول عربية من قبيلة كندة الشهيرة التى دعا الرسول صلى الله عليه وسلم لشيخها وائل بن حجر بالخير له ولعقبه إلى يوم القيامة.

وفى أواسط القرن الثالث الهجرى كانت أسرة ابن خلدون تقيم فى أشبيلية وكان لها نفوذ كبير يرجع الفضل فيه إلى استيلاء "كريب" سليل لتلك الأسرة على الحكم باشبيلية سنة ٢٨٠ هـ (٨٩٣ م) واستطاع باستعمال القوة والدهاء والخديعة السياسية أن ينشئ فيها بلاطا سطع بهاؤه أثناء القرن الرابع وإلى نهاية حكم الأمويين وشغل أبناؤه مناصب الوزراء لبنى عباد الذين حكموا أشبيلية إبان القرن الخامس ومع القرن السابع نزحت أسرة ابن خلدون إلى تونس حيث شغلت عدة مناصب "ويدل تاريخها على أنها كانت تطمح دائما إلى السلطة ، ولئن صدقنا نسبها الذى يرجعها إلى قبيلة كندة فإنا نميل إلى الاعتقاد أن للوراثة دخلا كبيرا فى المعارك السياسية التى خاض مؤلفنا غمارها"(٢)

ولد ابن خلدون بتونس فى أول رمضان ٧٣٢هـ - آخر مايو ١٣٣٢م" فى بيئة علمية حيث تعلم القراءة والكتابه ومبادئ النحو والأدب والفقه وحفظ القرآن ورواه بالقراءات السبع ودرس السنة على كتابين شهيرين هما: موطأ مالك وصحيح مسلم وبعض نبذ من صحيح البخارى ، كما درس الفقه المالكى من كتاب "المدونة" وعلم المنطق والكلام ، أما عن معلوماته الفلسفية فيذكر المؤلف أنها لم تتضح إلا فيما بعد لاسيما فى الأثنى عشر عاما التى قضاها بالقاهرة ، أما نبوغه فإنما يعود إلى

---

(٢) طه حسين ، علم الأجتماع ص١٤ .

"أسفاره" وإلى المكاتب العديدة التى بحث فيها فى مراكش وغرناطة والقاهرة ودمشق"(٣).

وقد اضطر ابن خلدون إلى العمل بالتدريس بعد وفاة أمه وأبيه عقب الوباء الكبير (٧٤٩هـ -١٣٤٩م) وعين كاتبا عند السلطان ، "ومن ذلك الحين ثارت فى نفس الفتى شهوة الصراع والدس التى عرفت بها أسرته"(٤).

ومع قدوم ابن خلدون إلى القاهرة ، عين فى ٧٨٦هـ - ١٣٨٤م قاضيا للمالكية ، ثم فقد اسرته بسبب غرقها فى البحر ، وسافر لأداء فريضة الحج ٧٨٩هـ - ١٣٨٧م ثم تفرغ للتدريس بمصر ٧٩٧هـ - ١٣٩٤م حتى توفى فى ٢٥ رمضان سنة ٨٠٨هـ ، ١٥ مارس ١٤٠٦م .

وحول شخصية ابن خلدون نجد أن طه حسين يصفه بالسياسي وافر الحكمة والبراعة حيث يتميز بتوقد الذكاء وسمو الفكر ، إذ يتجلى ذلك من خلال متابعة مؤلفاته خاصة عندما وضع الفلسفة الاجتماعية فى قالب علمي. .

ويعيب عليه استخدام براعته السياسية لمنفعته الشخصية ،: كانت تغلب فيه عاطفة الأثرة ، وذلك واضح فى ترجمته وضوحها فى جميع مؤلفاته ، ومن الممكن جدا أنه لم يكتب ترجمته إلا حبا فى التحدث عن نفسه ورغبة فى الظهور ، فهو أول كاتب عربى خصص لتاريخ حياته كتابا كاملا"(٥) ويبرز طه حسين سمة الاعتداد بالنفس عند ابن خلدون على أنها صفة مشينة "لأن اعتداده الجم بشخصه أعماه أحيانا عن تقدير نفسه ، فلم يصدر حكمه على جميع الأشياء بنزاهة"(٦) .

ونستخلص من آراء طه حسين أن نشأة ابن خلدون فى بيئة كانت فيها يعرف وطنا ولا أسرة "فالوطن فى نظره هو حيثما استطاع العيش فى رغد واعتبار(٧)".

يذكر أن التاريخ الإسلامى لم يذكر قط "كاتبا أشد إكبارا لنفسه وأوفر شعورا بقيمته ، ومضحيا بالدين والأخلاق فى سبيل إطماعه الضخمة"(٨) كانت نتيجة لتأثر طه حسين بما كتبه المستشرقون حول هذا العالم الإسلامى ، علاوة على أن من هؤلاء ولعل هذه الصورة التى رسمها طه حسين عن ابن خلدون ، خاصة عندما

المستشرقين من اعتقد فى صدق تقوى هذا العالم المسلم مثل الأستاذ (فلفت) ولكن طه حسين يقول إنه أخطأ فى تصوره ذلك.

(٣،٤) نفسه ص١٦. (٥) نفسه ص٢٧. (٦) نفسه ص٢٧. (٧) نفسه ص٢٨.

المنهج التاريخى لابن خلدون :

كانت هناك عوامل متعددة وراء اتخاذ ابن خلدون لمنهج يفهم من خلاله حركة التاريخ بأحداثة وتطوراته ، ولعل من أهم هذه العوامل ما كان يتمتع به هذا العالم من ذكاء وحسن تصور للظوهر الاجتماعية المختلفة ، علاوة على أن هذا المنهج لم يتكون فى يوم وليلة ولكنه جاء نتيجة دراسات مستمرة لجميع العلوم التى عرفها العرب ، وخبرة مستمرة مليئة بالاضطرابات السياسية التى هى كل التاريخ الإسلامى فى القرن الثامن الهجرى.

وعندما تأمل ابن خلدون بعض الظواهر التى تتفاعل فى حياة المجتمع ، وجدها تتميز بالتشابه بين الماضى والحاضر والمستقبل فى مسبباتها ونتائجها ، وتأكد له أنها ليست مجرد ظواهر وقتيه أو خاصة بالبيئة أو العصر ، وبالتالى رفض بعض القصص التاريخية التى تتناقض وتصوراته ، واعتبر ذلك مجرد أغلاط ارتكبها كتاب هذه القصص .

ويمكننا أن نعتبر ذلك هو الدافع الرئيسى لدراسته التاريح وكتابته ، حيث رأى "لأجل أن يكون التاريخ صحيحا وكذلك لأجل أن يحسن فهمه ، وجوب وضع طريقة أكيدة لتحقيق الوقائع التاريخية وعرض القوانين التى تعمل طبقها النظم الاجتماعية بشكل واضح"(٩)

وأشار طه حسين إلى دور المؤرخ فى فهمه للتاريخ ومعنى التاريخ ومفهومه عند الفيلسوف ابن خلدون ، فأبرز اهتمام مؤرخ التاريخ بالآثار التى يرى من خلالها سير الحوادث ونتائجها ، بينما اهتم ابن خلدون بالتأمل المتمعن فى هذه الوقائع ومحاولة استخراج قوانين عامة تطبق على سير الحوادث فى الزمن أو فى الحياة الاجتماعية ، "فغرض المؤرخ الحديث إذا أن يقرر ويعرض الحوادث التاريخية بطريقة دقيقة واضحة على قدر الإمكان ، أما ابن خلدون فيرى أن قواعد الفحص والتحقيق ترجع إلى أصل واحد هو وجوب البحث بطريقة نظرية عما إذا كانت واقعة من الوقائع ممكنة فى ذاتها وعما إذا لم تك مناقضة لطبائع العمران ، وما إذا كانت تتفق مع الزمان والمكان اللذين حدثت فيهما ، فإما أن يستكشف الأثر المادى للوقائع ثم

---

(٨) نفسه ص٢٩.

(٩) نفسه ص٣٥.

يمتحنه ويستجوبه فإن ابن خلدون لايفكر فى ذلك ، وربما لم يعتقد أن ذلك فى حيز الإمكان"(١٠).

ولعل عدم اتباعه الطريقة التوقيتية كان نتيجة دراسة واعية للكثير من المؤرخين قبلة ومنهم المسعودى الذى عاش قبله بأربعة قرون.

ويعد ابن خلدون أول مؤرخ فى العهد القديم والعصور المتوسطة نظر إلى التاريخ من حيث هو كل لايتجزأ حيث تخيل أسلوبا لفهم وقائعه وتأملها وقد حدد ابن خلدون أسباب الأغلاط التى يقع فيها معظم المؤرخين ومنها :

١- التشيع وهى نفسية محضة وقد تنشأ عن اعتقاد يجرد الكاتب من حريته فى الحكم ويضطره إلى أن يسير بكل شئ إلى تأييد هذا الاعتقاد ويرى أن أول شرط يجب على المؤرخ مراعاته هو عدم التشيع.

٢- تصديق المؤرخ لما يرويه الناقلون دون فحص ، ولهذا يجب البحث الدقيق للتحقق من أمانة محدث أوصدقة ، فإن كان الراوية أمينا صادقا أمكن تصديق مايرويه.

٣- الجهل بطبائع الأحوال فى العمران ، فإن المؤرخ الذى لايلم بطبائع المجتمع ولايستطيع أن يفرق بين ما يتفق ومالا يتفق مع طبائع العمران يفقد أثمن وسيلة لتمحيص الوقائع

ويقرر ابن خلدون أنه من العبث وإضاعة الجهد أن يبحث عن مبلغ الثقة التى يصح أن نضعها فى تلك الواقعة ومن رواها إذا كانت مستحيلة فى نفسها أو مناقضة للزمان والمكان والظروف التى حدثت فيها. " (١١)

طه حسين نفسه بالمنهج العقلى عند تناوله لنتاج ابن خلدون ، ويبرر اختياره لعنوان "الفلسفة الاجتماعية" بقوله ، إن ابن خلدون أراد أن يدرس قوانين التقدم الإنسانى بصفة عامة ، ولهذا سمينا بحثه. "الفلسفة الاجتماعية" لأن الآراء التى يشرحها ليست موضوعية بدرجة كافية لأن تجعلها علمية ، ولم تعرض الطريقة القصصية التى هى طريقة التاريخ ، وهو نوع من التأمل فى الحضارة تدعمه أدلة تاريخية أو غيرها.

والفلسفة الاجتماعية فرع من فروع البحث الفلسفى يستهدف تحليل المجتمع والحياة الاجتماعية عن طريق استخدام المفاهيم والأفكار الفلسفية ويطلق هذا المصطلح على الفكر التاريخى الذى سبق تطور علم الاجتماع الحديث ، مثل مؤلفات

---

(١٠) نفسه ص ٣٦.

(١١) نفسه ص٣١.

أفلاطون وجون لوك ، وقد استخدمه طه حسين هنا للدلالة على مجموعة الأفكار التـى حوتهـا المقدمـة والتـى سعت للتوصـل إلـى القوانين الكليـة المفسـرة لمجـرى التـاريخ الإنسانى" كما يستخدم عادة بصورة تجعله ينطوى على ادعائـه بـأن التوجيـه الفلسفى فى علم الاجتماع يؤدى إلى نتائج متميزة وغير علميـة ، ومـع ذلـك فقدأثـرت الفلسفة الاجتماعية تأثيرا عميقا فى الفكر السوسيولوجى المعاصر"(١٢).

إنه نفس المنهج الذى أخذ بـه قبـل ذلـك ، وهـو بصـدد دراسـة أبـى العـلاء ، عندما قال: "لقد أخذنا أنفسنا فى صـدر هـذا الكتـاب بـأن تقـرر الأشـياء كمـا هـى ، لا نحمدهـا ولا نذمهـا ، إذ ليس الحمـد والـذم مـن عمـل المؤرخيـن ولا ممـا يتناولـه مـن التاريخ"(١٣).

وهو نفسه المنهج الذى اتخذه عندمـا اتجـه لدراسـة الشـعر الجـاهلى وأصـدر عمله الذى أثار ضجة كبيرة فى نهاية الثلاثينيات "فى الشعر الجاهلى" تلك التى أفضت إلى فصله من عمله إذ يقول: "أما نحن فنأبى كل الإباء أن نكون أدوات حاكية أو كتبا متحركـة ، ولا نرضـى إلا أن تكـون لنـا عقـول نفهـم بهـا ، ونسـتعين بهـا علـى النقـد والتمحيص فى غير تحكم ولا طغيان"(١٤).

قد يكون من المناسب أن نتعرض لمنهج ابن خلـدون كمـا شـرحه بنفسـه فـى خطبته وفى مقدمة مؤلفه فهو يقول فى الخطبة: "إذ هو التـاريخ فـى مظـاهره لايزيـد على أخبار الأيام والدول ، وفى باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل فـى الحكمـة وعريـق ، وجدير بأن يعد فى علومها وخليق" (١٥).

والمؤرخون إما أن يجعلـوا مـن الوقـائع موضوعـا للتـأمل ، وأن يسـتخرجوا منها قوانين عامة تطبق على سير الحوادث فى الزمن أو فى الحياة الاجتماعيـة ،وهـذا هو بالضبط ما رآه ابن خلدون وغيره من الفلاسفة.

ومن القوانين التى تهم التاريخ بنوع خاص والتى تعد أساس منهج ابن خلدون التاريخى .

---

(١٢) د.محمد عاطف غيث " تحريرومراجعة " قاموس علم الأجتماع ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٩ ، ص٤٣٢.

(١٣) طه حسين : تجديد ذكرى أبو العلاء المعرى ص٢٧٧. (١٤) طه حسين علم الأجتماع ص٤٩.

(١٥) طه حسين ،علم الأجتماع ص٣٥-المقدمة ص٣.

١- قانون العلية (ربط السبب بالمسبب) ، فالغاية الجوهرية لكل عالم هى معرفة العلائق التى توجد بين حادث معين وبين أسبابه ، وليس على المؤرخ أن يقرر ذلك القانون ، فإن ذلك موضوع العلم التحضيرى الذى يريد أن يضعه ابن خلدون ولكن على المؤرخ أن يعرف وجود ذلك القانون ، وأن يلم بجميع تأثيراته فى كل ما يتعلق بالمجتمع البشرى ، وعليه قبل أن يقرر واقعة ما أن يتأكد أنها تتفق مع قانون السبب والمسبب.

لقد كان التعليل دائما من أهم قواعد الاستنتاج ، ولكن طرافة ابن خلدون فى انه أراد أن يطبقه على التاريخ ، وفى أنه تحقق من وجود ارتباط ضرورى بين الظواهر الاجتماعية لايمكن بدونه فهم استمرار المجتمع وتطوره ، لقد آمن ابن خلدون بمبدأ الجبر التاريخى.

كما أن ابن خلدون لايقر المصادفة ، معترفا بأن العقل البشرى يعتريه النقص عن إدراك قوانين الكون دائما بطريقة صحيحة قاطعة ، وفى نفس الوقت يؤمن بالتأثير الخارق للعادة ذلك الذى ينسبه إلى الله وإلى الروح ، حيث يؤمن بالمعجزات والكرامات للأنبياء والأولياء الصالحين.

كما تأثر ابن خلدون بالتصوف وبفلسفة ماوراء الطبيعة الإشراقية لمدرسة الأسكندرية ويعتقد فى السحر ويؤمن بأن فى قدرة الساحر أن يغير قوانين الطبيعة ، ولقد كان من الواجب عليه وهو المؤرخ المسلم ألا يؤمن بهذه المعتقدات أصلا.

٢- قانون التشابه: فهو يرى أن المشابهات الاجتماعية سببها الوحدة العقلية للعقل البشرى ، أخذ يشرحها بواسطة الدين وفلسفة ماوراء الطبيعة والتقاليد .

والواقع أن هذه الوحدة التى أشار إليها ابن خلدون قد ذكرت فى التوارة والإنجيل.

٣- قانون التباين وينسبه ابن خلدون إلى أسباب جغرافية وطبيعية واقتصادية وسياسية ذلك أن أحوال العالم والأمم والمجتمعات لا تسير على وتيرة واحدة ، ومما لاشك فيه أن "المؤرخ الذى يلم بالقوانين الثلاثة التى ذكرناها وبمؤثراتها يكتسب نوعا من حسن التقدير يستطيع معه أن يحكم على الوقائع التاريخية ويستطيع بالأخص تمييز الحقيقة من الخطأ"(١٦)

---

(١٦) نفسه ص ٤٩ .

ومن خلال هذه القوانين نجد ابن خلدون يحاول طبقا لقانون التشابه أن يبين عدم صحة الخلاف الذى توهمه المؤرخون فى حجم الأجسام البشرية قديما وحديثا.

كما يوضح من خلال تطبيقه قانون التباين أن يكذب الخرافة القائلة بأن الزنوج أولاد حام اسودت وجوههم لأن نوحا حقد على حام حيث دعا الله أن يسود جلده وجلد عقبه .

وبتأثير الاتجاه الدينى ينقد ابن خلدون المؤرخين الذين طعنوا فى نسب الفاطميين الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وينسب التحريف إلى غيرة العباسيين خلفاء بغداد .

ويذكر طه حسين أن ابن خلدون يتأثر بعامل المصلحة الشخصية فيحيد عن طريقته فهو قد عاش فى ظل دولة الموحدين وسعى فى نيل رضاهم بمحاولة أن يثبت صحة نسب ، زعم مؤسس هذه الأسرة أنه يصله بالنبى صلى الله عليه وسلم ولم يستند فى تلك المحاولة إلى بحث علمي ولا إلى رواية ، بل إلى تخييلات تذهب أحيانا .. مذهب الإغراق والغرابة"(١٧)

ويخلص طه حسين إلى أن ابن خلدون لا يعنى بالبحث عن المصادر التاريخية ولايهتم للشكل الذى يجب أن يعرض به المؤرخ الوقائع بعد استيفائها بل يحاول هو التأمل الفلسفى لهذه الوقائع ولهذا كله يقرر طه حسين "إن طريقة ابن خلدون التاريخية خاطئة من أساسها هو يرى أن التاريخ بحث اجتماعى وتجب لكتابته وفهمه معرفة المجتمع البشرى"(١٨)

يتضح من موقف طه حسين أنه رافض لفلسفة التاريخ إذ حدد أن "غاية التاريخ كما نفهمه اليوم هى تقرير الحوادث الماضية بالاعتماد على المصادر وذلك علم ايضاحى"(١٩)

فإذا كان التاريخ عند طه حسين مجرد رصد للحوادث فلا مجال لفلسفة التاريخ بمحاولة تفسير هذه الأحداث ، بل وإذا كان يحتاط ويقول إن فلسفة التاريخ يمكن أن توجد أو انها وجدت فإنه لاصلة لها بالتاريخ لأنه لايعرف كيف يستخدمها لشرح التاريخ على نحو ما قال "ليس معنى هذا أن فلسفة التاريخ لم توجد قط ، أو أنه لا محل لوجودها كما يقول بذلك كثير من مؤرخى العصر الحديث ، بل نريد أن نقول

---

(١٧) نفسه ص٥١ (١٨) نفسه ص٥١. (١٩) نفسه ص٥٢.

فقط إنه إذا كانت تلك الفلسفة قد وجدت أو أنها إذا وجدت يوما ما فلا يجب أن تكون جزء من التاريخ ، وإذا كانت بطبيعتها فى حاجة إلى التاريخ لأنها تستند إلى الوقائع التاريخية فلسنا نفهم كيف يمكن استخدامها فى شرح التاريخ"(٢٠)

ويمضى طه حسين مشككا فى قدرة ابن خلدون فى فهم التاريخ ، مع أنه ذكر فى أسباب تناوله لهذه الشخصية "إنا لانبحث عن ابن خلدون من حيث هو مؤرخ للعلوم والفنون ، بل نبحث عن الفيلسوف الذى يدرس كل مظاهر المجتمع وكل ما ينتجه"(٢١)

لقد حدد طه حسين فهمه للتاريخ على أنه رصد للأحداث والوقائع وأن المؤرخ له "نظره الذى يجرد نفسه تجريدا كاملا من النزعات والعواطف والأهواء مهما تختلف مظاهرها ومصادرها وغاياتها"(٢٢)

أى إنه لايريد إلا أن يرصد ، أما عملية التفسير فهى بعيدة عن مراميه ، وإننا نجد ذلك يتناقض مع قوله: "إنما أحاول أن اتبين لنفسى وأتبين للناس الظروف التى دفعت أولئك وهؤلاء إلى الفتنة وما استتبعه من الخصومة العنيفة التى فرقتهم وما زالت تفرقهم إلى الآن"(٢٣)

إن طه حسين يتناقض فى فهم التاريخ ، فهو يرى أن للتاريخ بعدين: بعدا ظاهريا هو الوقائع وبعدا باطنيا هو الأسباب التى نتجت عنها هذه الوقائع ، يقول عن التاريخ: "إذ هو فى مظاهره لايزيد عن أخبار عن الأيام والدول وفى باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل فى الحكمة وعريق وجدير بأن يعد فى علومها وخليق"(٢٤).

ولقد دلل ابن خلدون على فهمه لفلسفة التاريخ أنها لاتقتصر على تحليل وتفسير الوقائع بل تسهم بالتنبؤ بالمستقبل ، وبرهن على "أن العلم الذى أنشأه لايقتصر على أن يسبر غور الماضى بل يمكن من التنبؤ بالمستقبل أيضا ، وعلى هذا النحو يرى الفقهاء أيضا أن من يعرف أصول الفقه تمام المعرفة لايستطيع فقط أن يفهم

(٢٠) نفسه ص٥٢. (٢١) نفسه ص٥١.
(٢٢) طه حسين - الفتنة الكبرى : عثمان ص٥. (٢٣) نفسه ص٥.
(٢٤) طه حسين ،علم الاجتماع ص٣٥.

الأحكام الموضوعية وعلاقتها بالقرآن والسنة ، بل فى وسعه أن يستنبط الأحكام للمستقبل أيضا"(٢٥) .

وإنني عجبت من غرابة تعبير طه حسين عن فهمه للتاريخ عندما قال عن ابن خلدون ، "وكيف يدرس المجتمع البشرى؟ أبالتاريخ الذى هو ملاحظة سطحية للوقائع؟ أم بالاستعانة بعلم آخر يتكون من ملاحظاتك بطريق مباشر؟ "(٢٦).

التاريخ إذن عند طه حسين مجرد سطحية تلاحظ وإذا كان طه حسين يخطئه لأنه يفسر ويحلل الوقائع فلماذا يثنى عليه فى موضع آخر بقوله: "يريد ابن خلدون أن يشرح تاريخ الإنسانية بأوسع معانى الكلمة ، وفى هذا تتفوق فكرته الاجتماعية تفوقا كبيرا على فكرة أفلاطون وأرسطو"(٢٧)

ويمكن أن يكون نقده لمفهوم التاريخ عند ابن خلدون جاء نتيجة تأثره بأستاذه دور كايم ، وهو تأثر لايخفيه طه حسين ، فقد كان شديد التأثر بدروس الأستاذ دور كايم فى علم الاجتماع ، والتى تلقاها على يديه فى السوربون"(٢٨) رغم من دراسته على آخرين من أمثال بوجليه ، ولا نسون ، وليفى برول ، وديمانجون ، وجالوا ، وكازانوفا ، وبيير جانيه فسمع منهم دروسا فى التاريخ اليونانى وتاريخ الرومان والفلسفة واللاتينى وعلم الثورة والبيزنطى والتاريخ الحديث والجغرافيا ، لكن دور كايم بزهم جميعا فى التأثير على طه حسين خلال تلك الفترة وخاصة عندما بدأ إعداد دراسته عن ابن خلدون ، والتى ظل مشرفا عليها حتى موته عام ١٩١٧ ليخلفه بوجليه ، وتتجلى أهم تأثيرات دوركايم فى آراء طه حسين عن ابن خلدون كالتالى:

١- محاولة إخضاع رؤية الظاهرة الاجتماعية عند ابن خلدون لمواصفاتها كما ناقشها وأوردها دور كايم فى كتابه "قواعد المنهج فى علم الاجتماع" الذى صدر عام ١٨٩٥م فطه حسين يرى أن ابن خلدون" لاينظر نظرة مستقلة إلى كل ظاهرة من الظواهر التى تحدث فى المجتمع ، ولا يبحث عن إحداها مستقلة عن الأخرى ، لأنه يرى أنها تكون كلا تتماسك أجزاؤه وتتفاعل ، فضلا عن أن هذا الكل يخضع لمؤثرات بعيدة جدا عن جوهر المجتمع ولكنها تؤثر فيه تأثيرا عظيما"(٢٩).

---

(٢٥) نفسه ص٣٧. (٢٦) نفسه ص٥٢. (٢٧) نفسه ص٥٨.

(٢٨) مذكرات طه حسين ص٢٥٢ (٢٩) طه حسين ، علم الأجتماع ص٥٠.

٢- نقده لمفهوم التاريخ عند ابن خلدون ، جاء متأثرا فى ذلك بمحاولات أستاذه دوركايم الدائبة لتمييز استقلالية علم الاجتماع.

وقد أخذ طه حسين على ابن خلدون خلطه بين التاريخ وعلم الاجتماع ، والواقع أن كلا من البحث السوسيولوجى والبحث التاريخى مختلفان ، من حيث كونهما نظامين ، وهذا الاختلاف يكمن بصورة أساسية فيما يتعلق بعمل كل منهم مع بيانات التاريخ وعلم الاجتماع وكيفية تناوله ودراسته ، ذلك لأن رؤية الأحداث مفردة يمكن أن يحقق إمكانية تصنيفها فى فئات معينة من خلال اكتشاف العلاقات التجريدية التى تربط فيما بينها وهو ما تنبه له ابن خلدون بقوله "أعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنسانى الذى هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات ، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول
مراتبها ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث عن ذلك العمران بطبيعته من الأحوال ، وهو لهذا اعتبره
جاستون بوتول: "صاحب مدخل تاريخى معنى يختلف عن سابقيه ويؤثر على علم الاجتماع الحديث فى دراسة الظواهر الاجتماعية"(٣٠).

ولقد كان صاحب المقدمة واعيا كامل الوعى بأنه بصدد اكتشاف علم جديد يدور حول العمران البشرى والاجتماع الإنسانى ، وهذا العلم له سماته الخاصة المميزة تتعلق ببيان مايلحقه من العوارض والأحوال ، ويرى ابن خلدون أن ثمرة ذلك العلم تكمن فى الأخبار كما رأى إغفال العلماء لهذا العلم إنما كان ناتجا عن رؤيتهم لضعف نتائجه ولهذا لم يكترثوا به.

والواقع أن تناقض موقف ابن خلدون إزاء علم العمران الذى بشر به إنما يعكس فى الحقيقة تناقضا داخليا فى مشروعه ككل وهو تناقض يرجع إلى المهمة المزدوجة التى أسندها صاحب المقدمة إلى علمه الجديد ، حيث أراد من مشروعه أن يتناول فى آن واحد التاريخ كأحداث والتاريخ كمعرفة ، فهو يطمع من جهة إلى تفسير الظاهرة العمرانية ككل ، انطلاقا من أن كل حادث من الحوادث يخضع لعوامل

---

(٣٠) جستابون بوتول : أبن خلادون ، فلسفته ، الأجتماعية ، مكتبة عيسى البابى الحلبى القاهرة ١٩٥٥ ص٩٧.

موضوعية وأسباب خارجة عن إرادة البشر.

ويرى طه حسين أنه "يجب لأن يوصف الاجتماع بأنه علم أن يكون مستقلا"(٣١) وهو نفس ما كان يسعى إليه دور كايم ويوجه جهده نحو علم الاجتماع عن الفلسفة والتصورات الميتافيزيقية وغيرها ، بهدف تحديد موضوعه ومجاله ومناهجه ، وهو ما أدى بطه حسين 'إلى اعتبار ماورد فى المقدمة أدخل إلى "الفلسفة الاجتماعية" والحق فإن مايميز ابن خلدون هو أنه سمى الأشياء بأسمائها ، وقال : هذه مواد تصلح أن تكون موضوعا للتحليل والدراسة فى إطار علم خاص ، وهذا هو التصنيف الذى اقترحه لها والأسماء التى أرى أن تسمى بها والاستنتاجات التى يجب الخروج بها منها.

٢- نقده لمشابهة ابن خلدون بين الفرد والمجتمع ، وهو هنا كذلك متأثر بأستاذه دور كايم الذى كانت بينه وبين جبرائيل تارد مساجلات فى هذا الصدد.

والواقع فإن اهتمام ابن خلدون بمعالجة المماثلة بين طبيعة الكائن الحى وطبيعة المجتمع كانت تستهدف مايقصده من تحليل المجتمع فى الأساس وأنه كان واعيا تماما بأنه يتكلم عن مماثلة فقط ، فلم يأت فى اعتقاده أبدا أن المجتمعات هى كائنات عضوية ، أو أن الكائنات العضوية مجتمعات ، وهو ما فطن إليه ابن خلدون حين قال: " إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم وغلهم لاتدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنه وانتقال من حال إلى حال ، وكما يكون ذلك فى الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع فى الآفاق والأقطار والأزمنة والدول"(٣٢).

ويمكن أن نحدد أن أهم الأخطاء على طريق دراسة المقدمة ، تكمن فى محاولة تفسير أفكارها ، بانتزاعها من سياق ظروفها الخاصة ، وقراءتها انطلاقا من رؤية مدارس سوسيولوجية معاصرة ، بعيدة عن الإطار المعرفى للنص الذى كتبه ابن خلدون.

ولهذا يجب التركيز على ضرورة قراءة ابن خلدون حسب معطيات الواقع التاريخى والحضارة من جهة ، وفى إطار حقله المعرفى من جهة ثانية ، ولا يمنع ذلك من مقاربة رؤية ابن خلدون مع اتجاهات أخرى.

---

(٣١) طه حسين ، علم الاجتماع ص٦٥.

(٣٢) نفسه ص١٧٦.

٣ -أثرمنهج الشك الديكارتى عند طه حسين على آراء ابن خلدون :

استطاع طه حسين برؤيته العقلية المتأثرة بمنهج الشك الديكارتى أن يزيل كثيرا من الأوهام فى التاريخ والأدب العربيين ، وهى رؤية لم تكن كلها تبنيا لفلسفة ديكارتية فى التفكير قدر ما كانت وقوفا عند تخوم الشك المنهجى لديكارت وامتدادا للمنهج العقلى الذى حاول أن يأخذ به نفسه منذ بداية حياته العلمية وهو ما يتضح لديه فى حديث الأربعاء حين يعلن "أما أنا فاعترف لسوء الحظ أو لحسنه أنى أوثر رضا العلم والضمير على رضا الناس وإعجابهم وتصفيقهم" (٣٣).

وتعلو النبرة فى صوت أبى العلاء حين يقول "دع ما استقر فى طباع الناس من إهمال الحق وإيثار الباطل اغترارا بالظاهر الكاذب من لفظ خادع أو وهم شائع أو خرافة باطلة فإنما حياة الناس ألوان من تلك الأباطيل المحترمة كأنها حق"(٣٤).

بهذه الروح الجسورة ولج طه حسين عالم ابن خلدون فى محاولة رؤية موضوعية تعرى أوهاما شائعة حول حياته ومقدمته . "على أنه يجب ألا نستنتج من كل ذلك أن ابن خلدون قد استخرج سياسته الاجتماعية من العدم أو أوحتها له عبقرية خارقة ولئن لم يع الأقدمون فلسفة اجتماعية بهذه الغزارة فإن السبب الجوهرى فى ذلك هو بلا ريب نقص معارفهم العامة عن الخليقة فقد كان من الضرورى الإلمام بعلوم مختلفة والوقوف بأوسع مما عرفه الأقدمون على نظريات تاريخية جغرافية درست ووضحت على شكل دائرة معارف حتى يمكن الاستعانة بمجموعة ملاحظات شاسعة كهذه على وضع فلسفة عامة عن المجتمع البشرى"(٣٥).

ويزداد صوت الشك عند طه حسين فى كل ما يتصل بابن خلدون بحيث يمكن اعتباره القاسم المشترك على طول صفحاته عنه ، فقد شكك فى نسبه "فأولى لنا نحن أن نشكك فى انتساب ابن خلدون إلى وائل"(٣٦).

وارتاب فى أن يكون ابن خلدون قد درس فى صباه جميع الكتب التى ذكرها وذهب إلى أنه ربما كان لا يعرف عن بعض هذه الكتب إلا أسماءها وأنه ذكرها بقصد التمدح والتفاخر ويؤيد طه حسين شكه هذا بقوله إن ابن خلدون "يذكر لنا فى

---

(٣٣) طه حسين ، حديث الأربعاء ج٣ ، ص١٧٤.

(٣٤) طه حسين ، صوت أبى العلاء ، ص١٧.

(٣٥) طه حسين ، علم الأجتماع ص١١. (٣٦) نفسه ص١٠.

مقدمته أن الكتب التى درسها فى حداثته وصباه كانت نادرة فى تونس وهذا هو السبب فى أنه عددها بالتفصيل ، لاسيما وأنه كتب ترجمة حياته فى القاهرة حيث كان من المحتوم عليه أن لايبدو أقل شأنا من منافسيه أساتذة الأزهر بيد أنه يجب أن نرتاب قليلا فى تلك التفصيلات وقد أمدنا ابن خلدون نفسه بداعى ذلك الريب فهو يقرر لنا مثلا أن مختصر ابن الحاجب (١١٧٥ - ١٢٤٩ م) كان من بين الكتب التى يقول إنه درسها فى تونس ويعده ضمن كتب الفقه المالكى فى ترجمته وفى مقدمته مع أن مختصر ابن الحاجب ليس كتاب فقه بل هو كتاب فى أصول الفقة وهو مؤلف جم الانتشار لا يزال يدرس في الأزهر حتى يومنا هذا ومؤلفه مالكى المذهب ولكنه لم يقتصر على الكلام على فقه المالكية بل شرح مبادئ التشريع فى المذاهب كلها وهو علم خاص وفى وسعنا أن نرتاب أيضا فيما يقرره المؤلف بشأن كتاب الأغانى الشهير فإنه فى ترجمته يزعم أنه استظهر جزاء منه وفى مقدمته يندب استحالة الحصول على نسخة منه وعلى هذا فإنا نعتقد أن المؤلف لم يعرف منه سوى الاسم"(٣٧).

ولايقتصر شك طه حسين على نسب أو قراءات ابن خلدون بل نجده يتصيد له كذلك ما يؤيد تضارب أقواله ويضرب مثالا على ذلك واقعة دفاع ابن خلدون عن الخليفة العباسى هارون الرشيد وشربه للخمر يقول ابن خلدون فحاش الله ما علمنا عليه من سوء وأين هذا من حال الرشيد بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان من صحابة العلماء والأولياء"(٣٨).

ويقارن طه حسين هذا النص بنص آخر يقول فيه ابن خلدون والطور الثالث طور الفراغ والدعة لتحصيل تراث الملك مما تنزع طباع البشر إليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت فيستفرغ وسعه فى الجباية وضبط الدخل والخرج وإحصاء النفقات والقصد فيها وتشييد المبانى الحافلة والمصانع العظيمة والأمصار المتسعة والهياكل المرتفعة وإجازة الوفود من أشراف الأمم ووجوه القبائل وبث المعروف فى أهله هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته فى أحوالهم بالمال والجاه واعتراض جنوده وإدرار أرزاقهم وإنصافهم فى أعطياتهم لكل هلال حتى يظهر أثر ذلك عليهم فى ملابسهم وشكلهم وشاراتهم يوم الزينة فيباهى بهم الدول المسالمة

---

(٣٧) نفسه ص١١،١٢.

(٣٨) نفسه ص٣١٧.

ويرهب الدول المحاربة"(٣٩).

ورغم أن طه حسين كان يرى أن ابن خلدون سياسى وافر الحكمة والبراعة إلا أننا نجده يغمز بفشله فى العمل السياسى حيث لم يلق ابن خلدون نجاحا ثابتا فى الحياة السياسية منذ خيبته فى بلاط فاس فبذل جهودا كثيرة لم تؤد إلى تحقيق غرض من أغراضه ولا ريب أنه كان يحق لملوك أفريقية الشمالية أن يرتابوا فى رجل خطر جم الأثرة كالمؤلف بعد كل الدسائس التى أوجزنا سردها"(٤٠).

هذا بالرغم من أن تاريخ طه حسين نفسه ومواقفه الصلبة توحى لنا كيف ظل المفكر فيه يقاوم بعيدا عن معترك السياسة لكن سرعان ما يدرك أن هذا الأمر ليس فى مستطاعه فيكون الاشتغال بالسياسة فى خلفية الصورة والانشغال بالنقد الأدبى والدراسات التاريخية والإبداع القصصى فى مقدمتها.

وقد أشار طه حسين نفسه إلى هذه المراوحة بقوله إنه "كان مستيقنا أن العلماء و المفكرين لن ينحازوا إلى الأحزاب ، ولكن يكونوا كغيرهم من عامة الناس الذين يقادون ولا يقودون ولم يكن يقدر أنه سيشارك فى السياسة من قرب أو بعد ولكنه لم يكن يتردد فى أنه لم يحجم عن أداء الواجب وقول الحق إن اضطر إلى ذلك غير حاسب للظروف و للعواقب حسابا على أنه لم يكن ينفق فى مصر شهورا حتى تبين أنه كان واهما فى كل ما قدر وأن العلماء والمفكرين ناس من الناس يتأثرون بالجماعات التى يعيشون فيها فيخطئون مثلها ويصيبون"(٤١).

كذلك أخذ طه حسين على ابن خلدون ركاكة أسلوبه وضعف لغته إذ إن "أسلوبه كمعاصريه أسلوب مضمحل جدا تكثر فيه العبارات المسجعة والاستعارات والمقارنات التى تكثر فيها التكلف والأغلاط فى استعمال الكلمات والخلط بين صحيح الألفاظ وعاميها ، بل توجد لديه أغلاط نحوية"(٤٢).

وهى ملاحظات لاشك فى صوابها سواء كان العمل أدبيا أو بحثيا وإن كان هو نفسه القائل "إن هذه الملكات الشخصية الفردية يجتهد العالم فى أن يتحلل منها"(٤٣)

ويزداد تحامل طه حسين على ابن خلدون حين يرى أن خلق ابن خلدون لم

---

(٣٩) نفسه ص١٧٦. (٤٠) نفسه ص ١٦. (٤١) مذكرات طه حسين ص٢٥٣.

(٤٢) طه حسين ،علم الأجتماع ص٢٩.

(٤٣) طه حسين ، فى الأدب الجاهلى ص٣٣.

يتأثر لا بانحطاط الدولة العربية ولا بما اعترى حياته من اضطراب"(٤٤).

هذا مع أنه هو الذى تساءل فى كتابه "تجديد ذكرى أبى العلاء" و"فى الحق أننا لو حللنا قوى الإنسان النفسية لم نجد من الجبر مندوحة ، فإن هذه القوى متأثرة فى نفسها بأشياء لا يملكها الفرد ولا الجماعة ، فالرجل لم يوجد نفسه إنما أوجده غيره وهو لم يكون قواه وإنما كونت له ، وللزمان والإقليم فيها تأثير عظيم وللبيئة الاجتماعية تأثير أعظم وللعادات والأخلاق الموروثة تأثير لا يكاد يقدر والحوادث الطارئة تصرفها كما تريد وتصوغها كما تشتهى فمن أين يأتى للإنسان حظه من الاختيار إلا أن الاختيار وهم قد ملك الناس منذ كانوا وهم على الخضوع له مجبون"(٤٥)

فإذا كان طه حسين على مثل هذا الإيمان بجبرية الأحداث فكيف يتأتى له القول إن خلق ابن خلدون لم يتأثر بشئ ؟

ويؤكد طه حسين هذه الجبرية فيما أورده كذلك فى كتابه "الفتنة الكبرى - عثمان" الذى صدر عام ١٩٤٧ حين قال : "وسيرى الذين يقرأون هذا الحديث أن الأمر كان أجل من عثمان وعلى ومن شايعهما وقام من دونهما وأن غير عثمان لو ولى خلافة المسلمين فى تلك الظروف التى وليها فيها عثمان لتعرض لمثل ما تعرض له من ضروب المحن والفتن ومن اختصام الناس وافتتانهم بعد ذلك فيه" (٤٦).

وفى هذا النص تبدو الحتمية التاريخية التى لا أثر فيها لدور الفرد وقد يرد بأن هذه الحتمية التى أخذ بها منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية شئ مغاير للحتمية التى كان يأخذ بها فى بدء حياته الفكرية ، إلا أنه أورد نصا فى " تجديد ذكرى أبى العلاء " يدفع هذا الرد ويتساوى مع ما أورده منذ سنة ١٩٤٠ حين يقول يدل ما قدمناه على أنا نرى الجبر فى التاريخ إلا أن الحياة الاجتماعية إنما تأخذ أشكالها المختلفة وتنزل منازلها المتباينة بتأثير العلل والأسباب التى لا يملكها الإنسان ولا يستطيع لها دفعا ولا اكتسابا"(٤٧).

---

(٤٤) طه حسين ، علم الأجتماع ص٢٣.

(٤٥) طه حسين تجديد ذكرى أ[ى العلاء ص٢٨٣. (٤٦) طه حسين ، الفتنه الكبرى ، عثمان ص٥.

(٤٧) طه حسين ذكرى تجديد أبى العلاء ص١٩.

إن القاعدة الأساسية لمنهج الشك الديكارتى كما أوردها طه حسين هى: "أن يتجرد الباحث من كل شئ كان يعلمه من قبل وأن يستقبل موضوع بحثه خالى الذهن مما قيل فيه خلوا تاما"(٤٨).

فهل هذه القاعدة هى قواعد ديكارت الأربع الشهيرة بتمامها ؟ لقد اجتزأها طه حسين واقتصر على جانبها السالب الجانب التطهيرى ولم يلتفت إلى حجر الأساس فى القاعدة الأولى لديكارت وهو الجانب الإيجابى الذى ينادى بالأخذ بأبسط الأشياء وأشدها وضوحا وجلاء بعد عملية التطهير السابقة وكانت أبسط الأشياء فى نظر ديكارت الكوجينو: أنا أفكر إذا فأنا موجود فهل نوصل هو باصطناع الشك الديكارتى إلى أبسط الأشياء وأشدها وضوحا وجلاء ؟ رغم أنه القائل: "إنى أعلم من أمر ديكارت ما لا يعلم الناس فى مصر فقد كنت أريد أن أضع فيه كتابا واصطر فى ذلك إلى كثير من البحث والتحقيق وإلى ألوان من الاستقصاء والاستقراء"(٤٩).

إن ما يريده المفكر الفرنسى هو التوصل إلى البديهيات التى لا يستطيع العقل السليم ان يشك فيها ولا يملك إلا التسليم بها وهى بديهيات لا تأتى من منطقة الشعور ، وإنما تأتى من منطقة العقل لا يسلم بها الذوق وإنما يسلم بها العقل أيضا فهل هذا هو ما فعله طه حسين مع ابن خلدون ؟

إنه يقول عنه : "إنه لم يعرف وطنا ولا أسرة فالوطن فى نظره هو حيثما استطاع العيش فى رغد واعتبار لم يتأثر من زيارته لأشبيلية موطن أجداده ولم يغادر مقام عزلته ليعود إلى تونس مسقط رأسه إلا ليطالع فى مكاتبها وقد غادر تونس إلى مصر دون أسف"(٥٠).

إن هذا لا يتفق مع القاعدة الأولى الديكارتية ولعل هذا هو الكامن خلف الأحكام الشخصية التى ربما كانت صحيحة لكن منطلقها المنهجى خاطئ. إن منهج طه حسين مغلف بالعاطفة ، بالانفعال ، لا يخضع لمنطق العقل وحده.

---

(٤٨) طه حسين ، فى الشعر الجاهلى ص١١.

(٤٩) طه حسين ، من بعيد ص٢٩٥ - ٢٩٦.

(٥٠) طه حسين ، علم الأجتماع ص٢٥.

٤-الوعى المتأمل فى فكر ابن خلدون :

لقد ساهمت عوامل كثيرة في سمو الوعى والفكر عند العلامة ابن خلدون ، حيث اكتسب العديد من الخبرات نتيجة كثرة الاضطرابات السياسية التى عاصرها ولهذا نجد أن الوعى الذى هيمن على تفكيره لم يكن وليد تفلسف أو استغراق فى التفكير بل كان نتيجة ممارسة شخصية وظروف موضوعية جاءت نتيجة اندماج تام وتفاعل مشترك حيث انخرط ابن خلدون بقوة وإلحاح فى أحداث عصره وكانت تجربته الشخصية وممارسته السياسية تحمل بين طياتها أصباغا متعددة من المفاجآت والتقلبات من النجاح والإخفاق.

هذه التجربة القلقة المضطربة الفاشلة لم تكن سوى صورة مصغرة من تجربة العصر كله إذ عاش صاحب المقدمة فى عصر كل ما فيه يشير إلى أن شمس الحضارة العربية الإسلامية آخذة فى الأفول فالقرن الثامن الهجرى كان بحق قرن التراجعات والكوارث فى العالم الإسلامى فمن هجمات التتر شرقا ، إلى تقلص حكم العرب فى الأندلس غربا ، إلى ضعف الأسر الحاكمة وتنافسها ودخولها مع بعضها فى مؤامرات وحروب لامبرر لها ، إلى الطاعون الجارف الذى خلف الخراب والدمار ، إلى التزمت الفكرى وانتشار الخرافة ، كل ذلك خلق أوضاعا مرتبكة تسودها الفوضى من كل جانب ، الأمر الذى عانى الكثير من أجله ابن خلدون" وكأنى بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه وكأنما نادى لسان الكون فى العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة والله وارث الأرض ومن عليها"(٥١).

لقد امتزجت فى وعى ابن خلدون تجربته السياسية التى انتهت بالفشل والتشرد وتجربة الحضارة العربية الإسلامية التى بلغت في عصره درجة من التدهور تدعو إلى اليأس فجعل يقرأ هذه بواسطة تلك ويقرأ تلك بواسطة هذه فتحول الذاتى فى وعيه إلى موضوعى و الموضوعى إلى ذاتى.

وكانت مذكراته التى كتبها تعبيرا مميزا عن الوعى وكذلك إعادة كتابة التاريخ على ضوء التجربة المريرة التى خاضها ولم تكن المشكلة التى واجهها تكمن فى تشرده أو فى مقتل صديقه أمير بجاية أو النكبة التى أصابت أسرته بقدر ماهى

---

(٥١) نفسه ص٤٠٦.

مشكلة حضارة أمة بأكملها وعندما تتعدى المشاكل نطاق الفرد وتتجاوز حدوده وإمكانياته أى عندما يطرح الحاضر نفسه كمشكلة تأخذ بجماع وعى الفرد يكون الاتجاه إلى الماضى واللجوء إلى التاريخ أمرا طبيعيا. من هنا كان اهتمام ابن خلدون بالتاريخ وهو اهتمام لم يكن من أجل توثيق مسائل دينية ولا من أجل إرضاء خليفة أو أمير أوطلبا للتسلية أو لمجرد العلم والمعرفة ، بل من أجل استنطاق حوادث الماضى واستفتاء مجرياتها والاستعانة بذلك فى فهم الحاضر الذى تشكل تجربته الشخصية جزء منه لا يتجزأ.

وعندما اتجه ابن خلدون نحو التاريخ كان يريد البحث بتعمق فى الواقع الذى يتألف منه وجدانه وخبراته السياسية والاجتماعيه وقد لاحظ ذلك طه حسين وأكده مرات عديدة منها قوله "وقد لاحظ ابن خلدون عن كثب ذلك المجتمع الذى بدا لعينيه بذكاء خارق وعناية فائقة فلم يلبث أن رأى ظواهر معينة تعتور المجتمع بلا انقطاع إذ إن هذه الظواهر التى تتفاعل تفاعلا مطردا هى نفس حياة المجتمع وإذ دهش لأهميتها ولاح له أنها ليست ثمرة لتقلبات المصادفة البسيطة فقد تطرق إلى التساؤل هل هنالك سلسلة خفية -ولكن مستمرة لا يمكن وصفها- تربط الماضى بالحاضر والمستقبل؟ وقد أيقن بصحة الفكرة من قراءة تاريخ العالم إذ رأى فى الحوادث التى يعرضها له ذلك التاريخ نفس الخواص التى استرعت نظرة فيما شاهد من الحوادث فانتهى به ذلك إلى اقتناع ثابت حتى أن رأيه فى الاجتماع البشرى لم يكن مذهبا فلسفيا بل كان شيئا يشبه العقيدة الدينية فهو لا يكاد يستعرض أو يشير إليه إلا بإيمان"(٥٢).

و مقدمته ابن خلدون باحتوائها على هذا الكم الهائل من الموضوعات تتطلب الفهم الشمولى أما دراستها بكيفية تجزيئية وبمعزل عن سياقها العام ، يحمل خطر تبسيطها ، وإفقادها رؤية الظلال المتباينة لها تلك التى لا يمكن تبينها إلا عن طريق نظرة تكاملية فاحصة.

ولقد كان من نتيجة هذا الأسلوب التجزيئى أن تعددت التفسيرات حول هذه المقدمة كل منها حاول ربطه بفرع أو بآخر من فروع العلوم الاجتماعية ، حيث إن هناك من ذهب إلى أن هذا الفكر يمثل فلسفة للتاريخ أوعلم اجتماع ، أوعلم اقتصاد ، أو علم سياسة إلى غير ذلك من العلوم.

---

(٥٢) نفسه ص٣٠ ، ٣١.

وإن هذه التفسيرات التى تعتمد على استئصال موضوعاتها فى النص دون أية رؤية تكاملية ، وبدون أى محاولة لتبرير هذا الاستئصال ، كان من نتيجتها تشويه كلية الفكر التى تحمله المقدمة.

إن وحدة النص بطابعه التكاملى أصبح ليواصل العلماء فى الاجتماع أو فى التاريخ أو فى السياسة جهودهم مسلحين بهذه الوحدة.

ولقد كان طه حسين صريحا فيما أورده فى مذكراته فى تلك الفترة من مطالع حياته العلمية عندما قال: "كان صاحبنا موزعا بين مذهبين من مذاهب الكتابة فى ذلك الوقت . أحدهما مذهب الاعتدال والقصد ، ذلك الذى كان الأستاذ لطفى السيد يدعوه إليه ويزينه فى قلبه ، والآخر مذهب الغلو والإسراف ذلك الذى كان الشيخ عبد العزيز جاويش يغريه به ويحرضه عليه تحريضا وكان الفتى يستجيب للمذهبين جميعا ، فإذا اقتصد فى النقد نشر فى القصيدة ، وإذا غلا نشر فى صحف الحزب الوطنى"(٥٣).

ولقد تمعن طه حسين فى المقدمة ، واستطاع بملكاته الأدبية وموسوعيته الفكرية أن يشخصها ويفند أحداثها ذات الأبعاد الإنسانية فكانت كتابته عنها بمنزلة العين الفاحصة والقلب الجسور.

---

(٥٣) طه حسين مذكرات طه حسين ص١٩.

الفصل الثالث

التفسير الإسلامى لأزمة الثقافة المصرية

١- مستقبل الثقافة فى مصر

٢- التعليم وسيلة لبناء القومية الإسلامية و الوطنية

١ - مستقبل الثقافة فى مصر

يبين طه حسين فى مقدمة كتابه "مستقبل الثقافة فى مصر" سبب تأليفه هذا الكتاب حيث ندبته الجامعة لتمثيلها فى مؤتمر التعليم العالى الذى عقد فى باريس فى صيف عام ١٩٣٧ وقد شهد عدة مؤتمرات دارت جميعها حول الأهداف العامة للثقافة والتربية "وكانت كل هذه المؤتمرات على اختلافها تدرس الثقافة من بعض أنحائها "وقد سمعت فيها آراء وشهدت فيها أشياء وأثار ماسمعت وما شهدت فى نفسى خواطر وعواطف وآمالا لم أر بدا من تسجيلها، فمنيت نفسى بأن أنتهز هذه الخواطروالعواطف لأنجز ما وعدت به الشباب الجامعيين فيما بينى وبين نفسى" . (١)

وقبل أن يطرح طه حسين تصوراته ومقترحاته لمستقبل التعليم والثقافة فى مصر بعد أن تم توقيع معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا واتفاق مونترو مما أتاح لمصر الاستقلال ، يقرر طه حسين بأنه ليس على يقين بأن كل ما يطرحه فى هذا الكتاب سيحظى برضا الناس فيقول" ومن يدرى لعل هذا الكتاب كله أو بعضه سيقع موقعا حسنا من بعض الذين إليهم أمور التعليم ولعلهم أن يأخذوا ببعض ما فيه من رأى ومن يدرى لعل هذا الكتاب كله أو بعضه أن يقع موقعا سيئا من بعض الناس ولعلهم أن ينقدوه وأن يثيروا حوله هذا الخيال الخصب الذى يجلى وجه الحق فى كثير من الأحيان" (٢)

ومنذ صدور دستور سنة ١٩٢٣ م الذى خصص مادة مستقلة للتعليم العام ، آمن أدباء مصر ومفكروها بأن التربية والاستقلال السياسى والديمقراطية أمور متشابكة لايمكن فصل أحدها عن الآخر وحين وقعت معاهدة ١٩٣٦ م أثار ترقب الاستقلال الذى أقرته المعاهدة قضية الهوية أو محاولة تحديد الشخصية المصرية.

وفى بداية البحث عن الظواهر الإسلامية فى هذا الكتاب الذى شغل الدنيا وقتها وما زال يشغل بال المحدثين ممن يشغلهم هذا الموضوع الحيوى ، نرى طه حسين يناقش قضية كتب حولها الكثيرون من أصحاب القلم ، وهى علاقة الإسلام بالحضارة ، تلك الحضارة التى تقوم على الثقافة والعلم اللذين يعدان الضمان الوحيد للحرية والاستقلال.

وكان إحساسه بالمجتمع المصرى عظيما لأنه نشأ وترعرع فىأعماقه ، فهو

(١) طه حسين ، المجموعة الكاملة لمؤلفات د.طه حسين ، المجلد التاسع ، علم التربية ص٩ .

(٢) نفسه ص١١ .

يعرف نقائصه وعيوبه وأوجه إصلاحه ويقول عن قيمة الثقافة " لولا أن مصر قصرت طائعة أو كارهة فى ذات الثقافة والعلم لما فقدت حريتها ، ولما أضاعت استقلالها ولما احتاجت إلى هذا الجهاد العنيف الشريف لتسترد الحرية وتستعيد الاستقلال" (٣)

لهذا كان إصدار هذا الكتاب ليكون منهجا يرسم المثل الأعلى للإصلاح الثقافى ويعتبر هذا الكتاب التطبيق العلمى لفكر طه حسين ، ونتيجة لما عاناه هو شخصيا فى التعليم فإنه يضع البرنامج الأمثل الذى يتناسب مع نهضة ثقافية لأمة ناهضة وفى هذا البرنامج يعتنى بالمعلم كما يعتنى بالطالب فالمعلم أولا يجب أن يكون محط العناية والرعاية ويجب أن يعد إعدادا سليما يمنح الثقة ، وأن تتوافر له الحياة الكريمة حتى يستطيع أن ينهض بأعباء مهمته السامية والشعب الذى يريد أن ينشئ جيلا صالحا ، خليقا أن يفكر فى المعلمين الذين ينشئون هذا الجيل وفى تكريم العقلية المصرية يصورها بأنها عقلية أصلية صاحبة حضارة قديمة باهرة ، وتظهر النزعة الوطنية عنده حين يبرز الصلات بين العقلية المصرية وحضارتها وبين العقليات المختلفة وحضارتها مؤكدا أن الصلة التى كانت بين العقل المصرى والعقل اليونانى فى العصور القديمة كان شئ يشرف به اليونان وكان اليونان فى عصورهم الراقية يرون أنهم تلاميذ المصريين فى الحضارة ولعل التأثير المصرى فى فنون العمارة والنحت والتصوير خير شاهد على ذلك.

وأشاد بدور مصر فى حماية العقل الإنسانى مرتين ، حمته حين آوت فلسفة اليونان وحضارتهم أكثر من عشرة قرون ، وحمته حين آوت الحضارة الإسلامية ورعتها حتى هذا العصر الحديث.

وفى سبيل تكريمه للعقلية المصرية وإثبات أنها لاتقل عن غيرها من العقليات ، وصل مابينها وبين العقلية الأوربية برباط قوى ، وناقش فكرة الشرقية وأتى بالأدلة ليحطم نظرية انتمائهم للشرق "ومن المحقق أن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ، ووحدة اللغة ، لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية ، ولا قواما لتكوين الدول ، فالمسلمون أنفسهم منذ عهد بعيد عدلوا عن اتخاذ الوحدة الدينية واللغوية أساسا للملك وقواما للدولة ، وليس المهم أن يكون هذا حسنا أو قبيحا ، وإنما

---

(٣) نفسه ص٩ .

المهم أن يكون حقيقة واقعة ، وما أظن أحدا يجادل فى أن المسلمين قد أقاموا سياستهم على المنافع العملية ، وعدلوا عن إقامتها على الوحدة الدينية واللغوية والجنسية أيضا ، قبل أن ينقضى القرن الثانى للهجرة ، حين كانت الدولة الأموية فى الأندلس تخاصم الدولة العباسية فى العراق " (٤)

ويستعرض طه حسين تفكك الدولة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى وظهور القوميات فى نهاية العصر العباسى الثانى ليصل إلى نتيجة قوامها أن المسلمين قد فطنوا منذ عهد بعيد إلى أصل من أصول الحياة الحديثة وهو: أن السياسة شئ ، والدين شئ آخر ، وأن نظام الحكم وتكوين الدول إنما يقومان على المنافع العملية قبل أن يقوما على أى شئ آخر" (٥)

فطه حسين يريد أن يقرر أن عقلية مصر يونانية وأن الإسلام لم يغير تلك العقلية "وجاء الإسلام وانتشر فى أقطار الأرض ، وتلقته مصر لقاء حسنا ، وأسرعت إليه إسراعا شديدا ، فاتخذته لها دينا ، واتخذت لغته العربية لها لغة ، فهل أخرجها ذلك عن عقليتها الأولى ، وهل جعلها ذلك أمة شرقية بالمعنى الذى يفهم من هذه الكلمة الآن ، كلا" (٦)

يتضح من كل ذلك الدعوة إلى حمل مصر على الحضارة الغربية وطبعها بها ، وقطع كل ما يربطها بقديمها وإسلامها ثم الدعوة إلى إقامة شئون الحكم على أساس مدنى.

أما عن اختلاف العقلية المصرية عن غيرها من العقليات الأوربية فإن ذلك يرجع إلى اختلاف الدين والعقيدة واللغة والأخلاق والعادات والتقاليد ، ومنذ أن دخل الإسلام مصر أصبحت مرتبطة به فى كل قضاياها الفكرية والثقافية كما أن وحدة اللغة هى من القوى الفعالة فى تكوين الدول وتوجيه السياسات وكذلك وحدة الدين" (٧)

ويحاول طه حسين أن يبلور فكرته فى أن نظام الحكم والقضاء فى مصر قد سار على المنهج الأوربى ، دون أن يتأثر بالإسلام ، والذين أرادوا أن يحكموا مصر حكما مقيدا بالعدل دون أن يشركوا الشعب معهم فى الحكم كانوا يتخذون لحكمهم قيودا أوربية لاشرقية ، فهم قد أنشأوا المحاكم الأهلية ، وشرعوا القوانين المدنية ، واستقوا

---

(٤) نفسه ص٢٥ ، ٢٦ . (٥) نفسه ٢٧ . (٦) نفسه ص٣١ .

(٧) أنور الجندى ، محاكمة فكر طه حسين ، دار الاعتصام ص٣٤٥ .

ذلك من النظم الأوربية لا من النظم الإسلامية ، وهم قد وضعوا النظم الإدارية والمالية والاقتصادية ، وذهبوا فى ذلك مذهب الأوربيين ، بل نقلوا ذلك نقلا عن الأوربيين ، ولم يستمدوه مما كان مألوفا عند ملوك المسلمين وخلفائهم فى القرون الوسطى" [٨].

ولعل تركيز المؤلف على إثارة فكرة نظام الحكم فى الإسلام وفق المذاهب الأوربية والنظم غير الإسلامية أى بإبعاد الدين عن نظام الدولة فى شئونها الداخلية والخارجية ، لعل ذلك يتوافق مع فكرة الشيخ على عبد الرزاق فى كتابه "الإسلام وأصول الحكم" التى أثارت العديد من القضايا.

ويخشى طه حسين تطبيق النظم الإسلامية ويصفها "بالنظم العتيقة" [٩] حتى لايقع العقاب من الدول الأوربية التى تم عقد المعاهدات معها ، بالالتزام بمنهجها فى الحكم والإدارة والتشريع .

وطه حسين يبغى الإصلاح والتقدم لمصر ، بعد أن تحملت الكثير من الدخلاء والمستعمرين ولكن هل الإسلام بقيمه يمنع أويحول دون هذا الركب المأمول ؟ ثم يقول طه حسين: "ونحن حين نشرع القوانين وننشئ المدارس وننشر العلم وننظم الاقتصاد ونستعير النظم الديمقراطية من أوربا إنما نسعى إلى شئ واحد هو تحقيق المساواة التى هى حق طبيعى لأبناء الوطن الواحد جميعا" [١٠].

ويدعو طه حسين إلى تهيئة الأبناء للدفاع عن أرض مصر ، من خلال وضع المناهج التعليمية التى تنمى غريزة الولاء عند هؤلاء الأبناء ، مع ضرورة الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية الحديثة ثم يتطرق طه حسين إلى مسايرة الإسلام للحضارة فى العصور المختلفة وكأن طه حسين بهذا الموضوع يمهد به لكل ما يطرحه من مقترحات وتصورات لعلاقة مستقبل الثقافة والتعليم فى مصر البلد الإسلامى بكل المتغيرات الحضارية فى العالم الغربى ، خاصة وأنه قد تعلم فى الغرب وأتقن لغته وكان مسايرا لكل ما هو جديد فى ميدان الفكر والمعرفة "فإذا دعونا إلى الاتصال بالحياة الأوربية ومجاراة الأوربيين فى سيرتهم التى انتهت بهم إلى الرقى والتفوق ، فنحن لاندعو إلى آثامهم وسيئاتهم ، وإنما ندعو إلى خير ما عندهم وأنفع ما فى سيرتهم" [١١]

---

(٨) طه حسين ، مستقبل الثقافة فى مصر ص٤٢ . (٩) نفسه ص٤٦ . (١٠،١١) نفسه ص٥٢،٦٣

والمؤلف يعلم أن الحياة الأوربية ليست إثما كلها ، وإنما فيها خير كثير ، ويدعو إلى أن نستلهم عناصر الخير ومايتوافق وقيمنا الإسلامية.

وطه حسين ليس ضد الدين كقيم ومبادئ ، ولكنه كان يعبر عن ضيقه وحنقه على أولئك الذين يمثلون الدين فى الظاهر وقلوبهم بعيدة عن تعاليم الدين ومبادئه ، يتجلى ذلك عندما يقول "ولكن العقل الأوربى المستقيم قد انتهى إلى أن الخصومة العنيفة الآثمة لم تكن بين الدين والحضارة فى حقيقة الأمر وإنما كانت بين الذين يمثلون الدين والحضارة ، وكانت بين الأهواء والشهوات لابين الدين الذى يغذو القلوب والشعور والحضارة التى تنتجها العقول" (١٢)

ويستطرد طه حسين فى إبراز موقفه من رجال الدين ، ليبين أن رجال الدين المسيحى لهم نظمهم وتقاليدهم وقوانينهم والسلطان القوى الذى يتمتعون به ، والذى سبب لهم ولغيرهم المتاعب أما الإسلام فإنه "لايعرف الأكليروس ولا يميز طبقة رجال الدين من سائر الطبقات ، والإسلام قد ارتفع عن أن يجعل واسطة بين العبد وربه" (١٣)

وطه حسين بهذه الرؤية يعد مفكرا إسلاميا واقعيا ، يتعامل مع الحياة بمنظور العقل والدين ،ولعله يرد بذلك على هؤلاء الذين يشفقون على حياتنا الدينية من الاتصال بأوربا على هذا النحو القوى الصريح ، فهم يرون ويسمعون أن الحياة الأوربية مليئة بالكثير من الآثام والموبقات التى لايبيحها ديننا الحنيف ، وفى سبيل إقناعهم يؤكد أن الخير المطلق فى هذه الأرض مستحيل ، ثم يبرهن على أن الالتقاء بين ثقافة البلاد الإسلامية وبين ثقافة وعلوم الغرب كان ضرورة سار عليها المسلمون ، فلم يوصدوا أبوابهم أمام مظاهر حضارة الفرس واليونان "فلم يتحرج العرب المسلمون من أن يأخذوا بأسباب الحضارة الفارسية واليونانية كما أخذ بها الفرس والروم الذين لم يكونوا مسلمين فى ذلك الوقت ، لم يتحرجوا من ذلك ولم يرفضوه ، وليس من شك فى أنهم جنوا من ذلك بعض الشر ، فساءت الأخلاق والسير فى بعض البيئات ، وفسدت العقائد ودخائل النفوس فى بعضها الآخر ، ولكن شيئا من ذلك لم يرد المسلمين عن الأخذ بأسباب الحضارة الفارسية واليونانية ، لأنهم جنوا من ذلك ثمرات حلوة لاتزال الإنسانية تستمتع بها إلى الآن فهم قد صاغوا من هاتين الحضارتين ومن تراثهم القديم هذه الحضارة الإسلامية الرائعة" (١٤) .

---

(١٢) نفسه ص٦٤ . (١٣) نفسه ص٦٥ . (١٤) نفسه ص٦٥ .

ومن هذا المنطلق يلح فى الدعوة إلى ضرورة الأخذ بأسباب الحضارة الغربية المتطورة مع الانتقاء بقدر المستطاع لما يتمشى والقيم الأصيلة لديننا.

ثم يثير قضية أخرى وهى الالتزام بالمحافظة على شخصيتنا القومية وماضينا المضئ ، ومعرفة تاريخنا واستشعار العزة والكرامة أمام الأوربيين ، ويقول "وقد أغارت أمم قوية على مصر وبسطت سلطانها عليها قرونا متصلة وأزمانا طوالا ، فلم تستطع أن تهضمها ولا أن تفنى شخصيتها" (١٥)

وبعد استعراض طه حسين للملامح الخاصة لشخصية مصر الثقافية مؤكدا على تميز هذه الشخصية التى أينعت حضارة عريقة تتلمذ عليها الغرب ، اتجه إلى إبراز دور مصر فى الحضارة الإنسانية ، وربط بين مصر والدول المجاورة لها وأقام بينها هذه العلاقات المعتمدة على اللغة والدين والجوار الجغرافى وأعطى لمصر دور السبق والريادة فى الثقافة وفى تعليمها للشعوب المتحضرة اليوم.

ثم يشير إلى الجانب التعليمى الذى يؤسس الثقافة والفكر ،ويعرض لهذه العلاقات المصرية الثقافية فى إطار أكثر اتساعا بحيث شمل علاقة الدين الإسلامى والدين المسيحى ثم جاء بدليل قدمه فى محاضرة العالم البلجيكى "بيرين" القائل بأن قطع الصلات والعلاقات بين الدين الإسلامى والدين المسيحى قطع الصلات بين أوربا والشرق أدى إلى وجود حالات من البؤس والفقر "وانتهى ذلك إلى الضعف الاقتصادى ، ولما استؤنفت الصلات بين الشرق والغرب نشطت أوربا من عقالها وخرجت من الفقر إلى الغنى ومن الجهل إلى المعرفة ومن الظلمة إلى النور"(١٦).

وينطلق من ذلك ليشير إلى دور الأزهر فى تحديث الثقافة الدينية وتطويرها وإلى مكانة التعليم الحضارى وارتباطه بالتطور ، ويهتم بالعلاقة بين التعليم والثقافة والتطور ، ويدعو إلى استلهام المذاهب التعليمية فى الغرب تلك التى هى مأخوذة فى الأصل من مصر "بل الحق الذى لاشك فيه ، أنهم قد أخذوا منا هذه المذاهب كما نأخذ نحن عنهم اليوم ، وساروا سيرتنا كما نسير نحن سيرتهم اليوم" (١٧).

ويبرز بعد ذلك أهمية التعليم كأساس واقعى للثقافة ويربط بين ذلك والحضارة ، وبين التعليم وبناء الشباب الواعى المدافع عن وطنه الفاهم لحقوقه وواجباته ، ولقد ركز على هذا الدور الثقافى بمفهومه العلمى أما الثقافة فهى تشمل

---

(١٥) نفسه ص٧٢ . (١٦) نفسه ص٣٤ . (١٧) نفسه ص٤٧ .

طرائق الشعب فى الحياة والتفكير والتعامل فى الحياة ، وأفاد بأننا يمكن أن نحقق ذلك إذا تم تهيئة الشباب للجهاد الاقتصادى وتم إنشاء المدارس والمعاهد للثقافة وللناحية العسكرية بقصد حماية حقوقنا وعزتنا.

ومن خلال ايمان طه حسين فإنه يدعو إلى إقامة التعليم القائم على الصدق والتطور ، ولبس على الجهل والخداع كما كان يحدث فى كتاب القرية آنذاك ، التعليم الذى يأخذ بأحدث الأساليب والنظم حتى يعطى أفضل النتائج ، ومن أراد الغاية المثمرة الهادفة لجأ إلى الوسيلة العلمية الصحيحة التى تقوم على رسم السياسة التعليمية المتكاملة ، التى تقع على عاتق الدولة ، ثم يحدد مسئولية الدولة فى مجالين ، أحدهما رعاية شئون التعليم العام باعتبار القاعدة الثقافية الأساسية العريضة الهامة ، وثانيهما إسناد أمور المناهج إلى الدولة وحدها ، لأنه -أى المنهج - هو الذى يحدد القدر الثقافى للطالب فى المرحلة التعليمية ، وعلى ضوء المنهج وجديته تتحدد ثقافة الأمة وحضارتها ، وقد ركز طه حسين على ضرورة إعداد التخطيط السليم للمناهج التعليمية حتى تتحقق الثقافة القومية لتتسع وتشمل الثقافة الإنسانية العامة.

ويعمد طه حسين إلى إبراز الجوانب والدلالات الإحصائية من خلال حصر أنواع التعليم فى مصر والذى يتكون من التعليم الرسمى الذى تنسقه الدولة ، والتعليم الأجنبى الذى قام بمصر مستقلا بامتيازات خاصة للدول الأخرى ، والتعليم العام الحر الذى يزعم المحافظة على المنهج والتعليم الدينى الذى تشرف عليه الدولة أو الذى لاتشرف عليه ثم المرحلة بين التعليم الدينى الخالص والمدنى الخالص "دار العلوم"

واستعراضه لأنواع التعليم تحديد علمى للجوانب الثقافية للعمل على النهوض بها ، واهتم بالتعليم العام وأفاد بأنه "يجب أن يكون مباحا للناس جميعا إذا استطاعوا أن يؤدوا أجره ، فإن عجزوا عن ذلك مكنوا من تعليم أبنائهم بشرط أن يكونوا أهلا للانتفاع به ، وأنا أرفض أشد الرفض وأعنفه أن يقصر هذا التعليم على طبقة من الناس دون طبقة ، أو أن يباح للناس جميعا فى القانون ثم تخلق المصاعب العملية أمام الفقراء والمعدمين لتضطرهم إلى الاكتفاء بالتعليم الأولى ، وتفرض عليهم الجهل و قد كانوا يستطيعون أن يتعلموا"(١٨).

وأكد طه حسين على أنه لاقيمة للديمقراطية إذا لم تكفل الحياة والحرية

---

(١٨) نفسه ص١٤١ .

والمساواة ونادى بضرورة الاهتمام بتحقيق العدالة الاجتماعية ، ومحاربة الفقر ، وطالب بأن تولى الدولة اهتمامها بالفقراء وتحسين أوضاعهم الاجتماعية وعلل ذلك بأنه "إذا احتاج الوطن أن يذود عنه أبناؤه غارة العدو ، فلن يختص الأغنياء بشرف هذا الدفاع ولعل حظ الفقراء من هذا الشرف أن يكون أعظم من حظ الأغنياء ، ولعل الأغنياء أن يشتروا بالمال سلامة أبنائهم وإعفاءهم من الجندية ، فأيهما ينبغى أن يكون آثر إلى الدولة: من يبذل فى سبيل الدفاع عن الوطن دراهم ودنانير أم من يزهق فى سبيل هذا الدفاع نفسه ، ويريق دمه ، ويعرض أهله وأبناءه للبؤس والضنك وسوء الحال؟" [١٩].

وقف طه حسين إلى جوار الفقراء الكادحين مدافعا عن بؤسهم وشقائهم دون أن ينتمى إلى فكر سياسى محدد "إنما أنا رجل شعبى النشأة والتربية ، شعبى الشعور والغاية أيضا " [٢٠].

ويدعو إلى الاعتدال فى الإنفاق والمظاهر ، مبينا مدى خطورته فى العملية التعليمية حيث يباعد بين البيئة المدرسية والبيئة المنزلية مباعدة خطرة على الأخلاق والنظام جميعا" [٢١] وخير وسيلة لذلك هو بناء المدارس المتواضعة الملائمة لحياة المصريين فى مدن مصر وقراها ، حتى يشعر الطالب بالاستقرار النفسى والذهنى.

وقد اهتم بالتفسير الاجتماعى للأحداث التاريخية حيث تناول بالدراسة والتحليل الدقيق مبدأ الشورى كأمثل نظام فى اختيار الحاكم ، وتجلى ذلك فى دراساته للتاريخ الإسلامى فى الفتنة الكبرى.

وكان مفهوم الديمقراطية لديه أكثر وضوحا ، حيث ربط ذلك بالوعى الفكرى للمواطن فالديمقراطية لاتتفق مع الجهل إلا أن تقوم على الكذب والخداع ، والحياة النيابية لاتتفق مع الجهل إلا أن تكون عبثا وتضليلا" [٢٢].

ولعل حياة القرية التى عانى الكثير من همومها وفقرها ، قد دفعته إلى الإلمام بالدور الهام للديمقراطية فى أن تمنح أفراد الشعب وسائل الكسب التى تمكنهم من التعليم الذى يمكن الفرد من أن يعرف نفسه ، وبيئته الطبيعية والوطنية والإنسانية ،

---

(١٩) نفسه ص١١٠ .

(٢٠) نجاح عمر ، طه حسين زز أيام ومعارك ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ص٨٩.

(٢١) طه حسين ، مستقبل الثقافة فى مصر ص١١٨ .

وأن يتزيد من هذه المعرفة ، وأن يلائم بين حاجته وطاقته وما يحيط به من البيئات والظروف" (٢٣).

وبالنسبة للتعليم الديني نجد طه حسين يخير الدولة في اتخاذ ما تراه مناسبا "فإن رأت إقامة التعليم على الفكرة المدنية الخالصة تركت أمر الدين إلى الأسرة ولم تقم في سبيل تعليمه المصاعب والعقبات ، وإن رأت إقامته على الفكرة المدنية الدينية قسمت للتعليم الديني مكانه من هذا البرنامج " (٢٤).

وكما يربط بين تمتع الدولة بالاستقلال السياسي والتعليم ، فإنه يؤكد على الصلة بين التعليم والأوضاع الاجتماعية "حين يدعو إلى إلغاء الفروق بين الطبقات في "دعاء الكروان" وإلى ديمقراطية التعليم ونشره بين طبقات الشعب في "أحلام شهرزاد" ومن هنا ؛ نجد أن العلم والمعرفة ينتصران على الجهل والأمية في أعماله القصصية والروائية ، التي تعكس رغبته الصادقة في أن تتغلب مصر على عوامل الجهل والتخلف ، وأن تتقدم في ركب العلم والحضارة مما يدعو إلى القول بأن أعماله القصصية تكتسب قيمة اجتماعية كبيرة.

لقد كان دوره ينشد التنوير وبناء نهضة فكرية تساهم في ازدهار الحياة الاجتماعية العامة ، وتتواءم مع التقدم الحضاري العالمي.

"ويجب أن يستقر في نفوسنا أن الغنى واليسار ليسا مزية أساسية في طبيعة الأغنياء والموسرين تمنحهم من الحقوق ما يحظر على غيرهم من الناس ، وأن الفقر والإعدام ليس عيبا أساسيا في طبيعة الفقراء والمعدمين ، يحرمهم من الحقوق ما يباح لغيرهم من الناس ، وإنما الفقر والغنى عرضان من أعراض الدنيا ، لاينبغي أن يكون لهما أثر في تحقيق العدل والمساواة بين الناس" (٢٥).

ومن هنا كانت مناشدته في جعل التعليم كالماء والهواء ، لكل إنسان يبغي التطور والحياة.

---

(٢٢) نفسه ص١٤٦ . (٢٣) نفسه ص١٠٣ .

(٢٤) نفسه ص١٠٨ . (٢٥) نفسه ص١٤٢ .

٢- التعليم وسيلة لبناء القومية الإسلامية والوطنية :

أشار المؤلف إلى محاربة الجهل والاضطرابات الخطيرة فى حياتنا نتيجة تخبط برامج التعليم ومناهجه حيث "رسم الإنجليز له طريقة محدودة ضيقة ، فأفسدوه وأفسدوا نتائجه وآثاره أشد الإفساد" [٢٦].

علاوة على دور التعليم الأجنبى الذى استظل بالامتيازات الأجنبية الذى يعمل على نشر ثقافة بلاده ، وكان يمتاز بخصال أقل ما توصف به أنها مصدر فساد للتفكير ، ومصدر فساد للخلق ومصدر فساد للسيرة العامة والخاصة " [٢٧].

ويرى المؤلف أن على الدولة وضع البرامج التعليمية الكفيلة بتنشئة الطفل المصرى على حسب الاستقلال والتضحية بالنفس.

مع العمل على مراقبة المدارس الأجنبية مراقبة دقيقة تكفل محافظتها على مقدار من التعليم يلائم حقوقه الوطنية المصرية وواجباتها ، "ومن الحق علينا أن نثبت بالملاحظة والتفتيش أن المدارس الأجنبية لاتنحرف بالتلاميذ عن دين آبائهم ولا تتخذهم موضوعا للدعوة والتبشير " [٢٨].

وحول اهمية الدين فى بناء الشخصية الإنسانية بين "أن الدين مقوم من مقومات الشخصية الوطنية ، وأنا مؤمن بهذا فيما بينى وبين نفسى أشد الإيمان ، وقد كانت مصر ملجأ للتعليم الإسلامى حين انحسر ظله عن كثير من الأقطار الإسلامية وكانت مصر معقلا للإسلام حين عجز عن حمايته كثير من بلاد المسلمين ، فهذا مجد تليد لمصر لاينبغى أن تفرط فيه أو تقصر فى ذاته ، بل ينبغى أن تحوطه وتنميه ، وأن تصبح كما كانت فى العهود القديمة موطن الهدى ، ومشرق النور للبلاد الإسلامية كافة ، هذا شئ لا أشك فيه ، ولا أحب أن يظن بى الشك فيه" [٢٩].

وحول مناهج التعليم الأزهرى وبرامجه وقوانينه يريد المؤلف "أن يعاد النظر فى قوانين الأزهر ، فنحن نعلم متى شرعت أو كيف شرعت ، ونحن نعرف ما خضعت له من الظروف ، وأيسر ما يقال فى ذلك أن هذه القوانين والنظم لم تشرع فى عهد الديمقراطية الصحيحة ، وأعوذ بالله أن أريد الانتقاص من حقوق الأزهر ،

---

(٢٦) نفسه ص٨٢ . (٢٧) نفسه ص٨٤ .

(٢٨) نفسه ص٩٠ . (٢٩) نفسه ص٩٤ .

وإنما أريد أن نلائم بين هذه الحقـوق وبين النظـام الديمقراطـي الصحيـح ،وألا يكـون الأزهر دولـة فـي داخـل الدولـة ،وسلطانا خاصـا يستطيع أن يطـاول السلطان العـام ويناوئه ، كما هي الحال الآن إذا بقيت هيئة كبار العلماء ، وإذا اتيح للأزهر بالفعل مـا أتاحت له قوانينه من تخريج المعلمين في مدارس الدولة على اختلافها" (٣٠).

ويرى ضرورة إشراف الدولة على التعليم الأزهري حيث "إن الأزهر بحكم تاريخه وتقاليده وواجباته الدينية بيئة محافظة تمثل العهد والتفكير القديم أكثر مما تمثـل العهد الحديث والتفكير الحديث"

ويرى المؤلف ضرورة الاهتمام بالمعلمين وخاصة من يتولون منهم التدريس للمرحلـة الأوليـة نظـرا لأهميتهـا وخطورتهـا وطـالب بـان نكـون جيـلا مـن المعلميـن الأوليين يعرفون أكثر من القراءة والكتابة والحساب ويقدرون على أن يعلمـوا الصبيـة أشياء أخرى إلى القراءة والكتابة والحساب"(٣١).

والمعلم الأولي يلعب دورا هاما في حياتنا الاجتماعية ولكنـه لايحتـل المركـز الملائم لذلك الدور لأن الدولة تقتر عليه في الرزق ، وينعكس أثـر ذلـك علـى مظهـره ومكانتـه الاجتماعيـة ونظـرة المجتمـع لـه ، "ومـن أغـرب التنـاقض أن نـزدري المعلـم الأولي ، أو ننظر إليه نظرة عطف وإشفاق خيرمنهـا الازدراء ، ثـم نطلـب إليـه ونلـح عليه في أن يشيع في نفوس أبنائنا العزة والكرامة ، ليكون مثالا لهما أمام التلاميذ" (٣٢).

وهنا تتجلى ثقافة طه حسين وحنكته في معاملة الواقع ، متأثرا بمـا حـدث لـه في القرية ، عندما كان سيدنا والعريـف فـي صـورة مجسـمة لمعانـاة الفقـر والحرمـان وانعكاسا لشظف العيش ، وأثر ذلك في الحياة العامة.

والمعلم يشعر بالرضا إذا غيرت الدولة رأيها فيه وأصلحت من شأنه ، وظفر بحظ معقول من الكرامة والاحترام بين مواطنيه.

وتعرض المؤلف لمشكلة البطالة وبين خطورتها على الفرد والمجتمع ، وأفاد بأن هذه المشكلة خطر على الأخلاق ، وهي خطر على النظام الاجتماعي نفسه ، لأنهـا تدفع الشباب الذين لايجدون عملا يكسبون منه القوت إلى كثير من الآثـام والموبقـات ، ولأنها تذيع السخط في نفوس الشباب وتدفعهم إلى بغض النظام الاجتماعي والضيق به ثم إلى إنكاره والخروج عليه" (٣٣).

---

(٣٠) نفسه ص٩٥ . (٣١، ٣٢) نفسه ص١١٤ ، ١١٦ . (٣٣) نفسه ص١٤٩ .

ولعل طرح مثل هذه القضايا يعبر عن مدى إحساس المؤلف بالظروف الاجتماعية ، ومعايشته للكادحين من أبناء الشعب الذين اختلط بهم وعاش معهم ، ولم يكتف بمجرد عرض القضية ولكنه ساهم بوضع الحلول المقترحة "وإنما يعالج بإصلاح النظام الاجتماعى نفسه ، وجعله قادرا على أن يتيح لأبناء الوطن جميعا أن يعيشوا على أرض الوطن ، وأن يعيشوا من كدهم وجدهم وعملهم ، لا أن يعيش بعضهم على حساب بعض ، ولا أن يتكلف بعضهم الجد والكد وألوان العناء لينعم بعضهم الآخر بالبطالة والكسل والفراغ" (٣٤).

وقد بين طه حسين آثار البطالة ونتائجها الوخيمة فى الاقتصاد والأخلاق والقيم الإنسانية لذلك لن تعالج أزمة البطالة بإكراه الشعب على الجهل بل بفتح أبواب التعليم أمام الجميع حتى يتسنى معرفة مواضع الظلم ويتعرف الشعب على من يظلمه وكيف يواجهه ، وبالتخطيط السليم يمكن تجاوز مشكلة البطالة وتخطيها ، حتى تتاح فرص العمل أمام الشباب

ويتعرض طه حسين للتعليم فى الأزهر مبرزا قضية هامة ، وهى مدى الالتقاء بين التعليم المدنى والتعليم الأزهرى ، وهو يرى أن هذا الالتقاء صعب للغاية ، ومظاهر الخلاف واضحة ، فإذا ما عرضنا أمرا من الأمور ، نجد أن الأزهرى يتصوره على نحو ، ونجد الشاب المدنى يتصوره على نحو آخر ، فالاثنان لايتفقان فى التفكير والتقدير ، أو في الحكم والرأى أو فى السيرة والعمل ، ويوضح المؤلف أن تعدد المحن التى توالت على المصريين من الأجنبى قد جعلتهم يشتركون فى طلب التخلص من هذه المحن والآلام ، ثم كانت النهضة الوطنية أقوى من أسباب الاختلاف ، فقربت بين المصريين ، ووحدت غايتهم ولاءمت بين آمالهم وأعمالهم.

وبهذا يطرح طه حسين هذه المشكلة التى ظهرت فى الثقافة المصرية والتعليم المصرى والتى تتمثل فى هذا الانشقاق حول المعاملة مع مقتضيات صور الحضارة الغربية ، وأن الأزهر ذلك الصرح العظيم الذى يسهم بلا شك فى التشكيل الثقافى فى مصر والعالم العربى ، لم يعد يوافق على التعامل مع الحضارة الغربية.

ويفطن طه حسين إلى قضية هامة وهى المحافظة على طبيعة الدين الإسلامى وأسسه ومبادئه حين يتاح الاتصال بالغرب ، فلا يرضى أن يصاب ركن فيه

---

(٣٤) نفسه ص١٥٠ .

بخلل ، أو أن يتحول الأبناء عن آبائهم ، ويتضح حرصه هذا حينما يعرض قضية التعليم الديني في المدارس الأجنبية فنراه يقول "ومن الأوليات أن من حقنا ، ومن الحق علينا أن نتثبت بالملاحظة والتفتيش أن المدارس الأجنبية لاتنحرف بالتلاميذ عن دين آبائهم ، ولا تتخذهم موضوعا للدعوة والتبشير ، هذه مسألة مفروغ منها ، تضمنها القوانين ، ويجب أن يضمنها العمل أيضا وما نظن أن المدارس الأجنبية تظهر نفورا من ذلك أو امتناعا عليه" (٣٥).

ويعرض طه حسين لسؤال هام يتصل بعلاقة تدريس الدين في المدارس المصرية وآراء الناس في هذا الشأن فنراه يقول "إذا كان التعليم الديني جزءاً من مناهج التعليم المصري العام ، فهل يصح ألا يكون هذا التعليم جزءا أساسيا من مناهج التعليم في المدارس الأجنبية التي تقوم في مصر وتنشر تعليمها بين المصريين؟ ذلك أننا إذا علمنا الدين في المدارس المصرية ، وجعلناه ركنا من أركان مناهج التعليم ، فنحن من غير شك نعتمد على أن الدين مقوم خطير من مقومات الوطنية المصرية" (٣٦).

ويستعرض طه حسين آراء المصريين المتعددة حيال تعليم الدين بالمدارس ، فالبعض منهم يريد أن يكون التعليم مدنيا خالصا وألا يكون الدين جزءا من أجزاء المنهج المقومة له ، على أن يترك للأسر النهوض بالتعليم الديني ، ومنهم من يراه واجبا كتعليم اللغة والتاريخ القومي لأنه جزء مؤسس للشخصية الوطنية فلا ينبغي إهماله ولا التقصير في ذاته ، ولعل هذا هو منهج المصريين ومذهبهم في ذلك ، ولهذا طالب بمراقبة المدارس الأجنبية حتى يتوافق التعليم الديني في المدارس الحكومية والأجنبية على السواء.

ويظل طه حسين ينبه على الاعتداد بالناحية الدينية في مناهج التعليم ، ثم بالإعداد الديني لمعلم اللغة العربية ، والتوفيق بين ذلك وبين العلوم المدنية ، ومراعاة: توفير كل مايستلزم نشر التعليم من إمكانات ، "ولابد من حماية المدارس والمعاهد من هذا الازدحام الشنيع الذي يفسد التعليم إفسادا ، ولابد من أن تدبر الدولة مايحتاج إليه ذلك من المال ، كما تدبر مايحتاج إليه الدفاع الوطني من المال" (٣٧).

ولعل قدرة طه حسين على التحليل الدقيق لكل ما يتعلق بالتعليم وما يواجهه

---

(٣٥) نفسه ص٩٠ .   (٣٦) نفسه ص٩٠ .   (٣٧) نفسه ص١٦٤ .

من مشاكل يدل على قدرته ووعيه بأحوال المجتمع المصرى وهمومه ، فهو يشعربكل ما تعانيه الأسرة نتيجة الامتحانات والشعور بالرهبة تجاهها ولذلك فهو يرى إلغاء امتحانات النقل وتيسير امتحانات الإجازات العامة ومنح المعلم ما هو أهل له من الثقة ، ومنح التلميذ ماهو فى حاجة إليه من الراحة والفراغ كل ذلك سيعين على حل مشكلة أخرى نشكو منها ونضيق بها ولا نعرف كيف نجد لها حلا ، وهى مشكلة الإعراض عن القراءة الحرة السمحة التى لاتتقيد بمنهاج الدرس وبرنامجه ولا تقتصر على الكتب المقررة والمذكرات التى يمليها المعلمون" (٣٨).

ويثنى طه حسين على جهود الأزهر ومساهمته فى دفع عجلة التطور "فأما الأزهر فقد كون جماعة من المفكرين والكتاب تكوينا أزهريا خالصا ، ثم أتيح لهذه الجماعة أن تتصل بالحياة العامة ، وأن تتثقف بالثقافة المدنية ، فنبغت نبوغا ظاهرا ، وتركت فى حياة مصر آثارا باقية" (٣٩).

ويشير إلى ضرورة الاهتمام بمعلم اللغة العربية ليفهم الصلة بين هذه المادة وأصولها ، علاوة على إداركه للصلات الكثيرة بين الأدب العربى قديمه وجديده ، والعمل على تطوير فكره وثقافته لمواكبة التطور العالمى فى دراسة الآداب.

وفى حديثه عن مشكلات التعليم العالى ودور كلية الآداب فى ذلك نراه يدعو كلية الآداب أن تعتنى بالدراسات الإسلامية ويقول "وليس من شك فى أن طبيعة الحياة المصرية تقتضى أن تعنى كلية الآداب عناية خاصة بالدراسات الإسلامية على نحو علمى صحيح ، لأن كلية الآداب متصلة بالحياة العلمية الأوربية وهى تعرف جهود المستشرقين فى الدراسات الإسلامية ومن الحق عليها أن تأخذ بنصيبها من هذه الدراسات لتلائم بين جهود مصر التى ترى لنفسها زعامة البلاد الإسلامية وبين جهود الأمم الأوربية الأخرى ، ولعلها تستطيع أن تبذل من الجهد ما يعجز الأجانب عن بذله وأن توفق إلى نتائج لا يستطيع الأجانب أن يوفقوا إليها ولعلها تستطيع أن ترد كثيرا من الأمر إلى نصابه وأن تصلح كثيرا من خطأ الأجانب في ذات الإسلام ، ولعلها تستطيع أن تتبين وتبين للناس ما كان للحضارة الإسلامية من صلة بالحضارة الأوربية الحديثة ومن تأثير فيها ، ولعلها تستطيع آخر الأمر أن تحمى من الآثار الإسلامية فى العلوم والآداب ما لا يزال فى حاجة إلى الحياة" (٤٠).

---

(٣٩) نفسه ص٣٥٢ . (٤٠) نفسه ص٤٣٠ .

وعلى هذا يتضح مدى اهتمام طه حسين بالتربية الدينية ، حيث يبين فى جانب آخر مدى إسهام الدراسات الإسلامية فى بيان حضارة الإسلام علومه ورجالاته لتظل الصورة واضحة جلية أمام غير المسلمين ، وهذا هو عين حديثه عن التعليم الدينى فى الأزهر ، فهو يشيد بدور الأزهر فى تكوين الثقافة سواء فى مصر أو فى العالم الإسلامى ، ويرى أن الأزهر يحظى باهتمام مميز لدى الشعب المصرى وغيره لاعتبارات كثيرة منها أن الأزهر أكثر معاهد التعليم فى مصر وفى الشرق الإسلامى حظا من الطلاب ، وهو إذا شديد الصلة بطبقات الشعب على اختلافها وتباينها ، ومنها أن الأزهر مظهر من مظاهر المجد المصرى القديم حمل لواء المعرفة فى مصر وفى الشرق الإسلامى قرونا متصلة ، كما أنه مصدر الحياة الروحية للمسلمين لهذا يجب أن تكون الثقافة التى تصدر عنه وتتغلغل فى طبقات الشعب كلها ثقافة راقية ممتازة ملائمة لحياة الشعب وحاجاته لا مناقضة لهذه الحاجات وتلك الحياة" (٤١).

وطه حسين يريد أن يجارى الأزهر هذا التطور ليكون اتصاله بالأجيال الناشئة أقوى وأفضل ، علاوة على أن الأزهر مشرق النور الدينى للبلاد الإسلامية كلها واخص ما يمتاز به الإسلام أنه دين الحرية والعلم والمعرفة ، وأنه دين التطور والطموح إلى المثل العليا فى الحياة الروحية والمادية جميعا ، ويجب أن يكون رجاله الناشرون له الذائدون عنه الداعون إليه ملائمين كل الملاءمة لطبيعته هذه السمحة التى تشجع التطور ولا تمانعه وتؤيد الطموح ولا تأباه ، وسبيل ذلك ألا تكون محافظة الأزهر على القديم مانعة له من الأخذ بأسباب الحديث" (٤٢).

وينتقل طه حسين مبينا ما يجب أن يكون عليه الأزهر فى رسالته الدينية والعلمية والثقافية قائلا "ليس من الخير أن يكون الأزهر حربا على الحياة الحديثة ، فإن هذه الحرب لاتجدى ولا تفيد ، وإنما الخير والواجب أن يكون الأزهر ملطفا للحياة الحديثة مخففا لأثقالها ، ملائما بينها وبين ماينهى الله عنه من الشر والمنكر" (٤٣).

وبهذا يكون طه حسين قد أقر تصورا أخذ يلح عليه فى كثير من جوانب كتابه "مستقبل الثقافة فى مصر" وهو هذا التزاوج بين الدين الإسلامى وبين متغيرات العصر ، من صور للحضارات القادمة من الغرب ، وهو يوضح كيف يكون هذا الالتقاء دون أن يكون هناك مضار على الدين الإسلامى والمسلمين.

---

(٤١) نفسه ص٤٣٧ . (٤٢) نفسه ص٤٣٩ . (٤٣) نفسه ص٤٣٨ .

ويبرز طه حسين دور مصر الثقافى بالنسبة للعالم العربى باعتبارها جزءاً هاما فى هذا العالم فموقعها الجغرافى له أثره الكبير فى التوجيه الثقافى والفكرى ، هذا الموقع يفرض عليها الزعامة الثقافية للعالم العربى والاتصال بالدول الأخرى من أجل التعاون الفكرى "ولو قد يسرت مصر للأقطار العربية قراءة آثارها المطبوعة لما بلغت من خدمة الثقافة إلا أيسرها وأهونها على أن ذلك يعود عليها بالمنفعة المادية والمعنوية جميعا" (٤٤).

ويشير إلى فتح أبواب العلم أمام الطلاب الوافدين من الشرق ،وتيسير إيفاد بعض المعلمين لهذه الأقطار ، كما اقترح إنشاء مدارس مصرية مساهمة من مصر فى نشر الوعى الثقافى ، "سننشئها على أنها معاهد للتعاون الثقافى بيننا وبين أهل هذه البلاد ، لا يستأثر المصريون وحدهم بالعمل فيها ، بل يستعينون بمن يقدرون على معونتهم من الوطنيين" ولا تفرض فيها الجغرافيا المصرية والتاريخ المصرى دون الجغرافيا الوطنية والتاريخ الوطنى ، وإنما تكون معاهد ينشأ فيها الوطنيون لأوطانهم لا لمصر ، وحسب مصر أنها تعين على ذلك وتشارك فيه ، وتؤدى ما عليها من الحق لجيرانها وشركائها فى اللغة والدين والاقتصاد أوحسبها أن تظفر منهم بالحب والمودة والإخاء" (٤٥).

---

(٤٤) نفسه ص٤٨٢ .   (٤٥) نفسه ص٤٨٥ .

الباب الثالث

الأتجاه الأسلامى فى دراسات طه حسين الأدبية

الفصل الأول : مشكلة الشعر الجاهلى

الفصل الثانى : شعراء العصور الأسلامية

الفصل الثالث : الحوار الأدبى

الفصـــــل الأول

مشكلة الشـــعر الجاهــــلى

١ - تمهيد

٢ - البناء الفنى

٣ - منهج طه حسين فى الشعر الجاهلى

٤ - النتائج المستخلصة من دراسة كتاب " فى الشعر الجاهلى"

مشكلة الشعر الجاهلى سنة ١٩٢٦

١- تمهيد

بعد مراجعة دقيقة لطبيعة الشعر الجاهلى فى لغته وألفاظه ومعانيه رأى طه حسين أنها تمثل حياة المسلمين أكثر مما تمثل حياة الجاهليين ، ومن خلال هذه الرؤية قدم نظريته التى تضمنت انتحال ما يسمى بالشعر الجاهلى.

ووجد طه حسين أن القرآن الكريم قد صور هذه الحياة الجاهلية بكل ما انتابها من صراعات وحروب وجدال ، وعرض القضايا المتصلة بالدين والمتعلقة بالبحث والمعجزات في الوقت الذى وقف فيه هذا الشعر المسمى بالجاهلى عند الفخر بالأنساب والمدح والهجاء والغزل .

والتيار الإسلامى عند طه حسين نلمسه في استشهاده بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التى يسردها عندما يبرهن على انتحال الشعر فى العصر الجاهلى ، ثم تناوله لقضية لغة القرآن الكريم والقراءات القرآنية .

كما نلمس إخلاص طه حسين لدينه وقرآنه عندما نجده يتصدى لأحد المستشرقين ، عندما تورط فىبحث حول شعر أمية بن ابى الصلت مدعيا بأن هذا الشعر جاهلى ، لانه يختلف عن ما جاء فى القرآن الكريم ولا يطابقه المطابقة التامة ، ويدحض عميد الأدب العربى رأى المستشرق "كليمان هوار" عندما ادعى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد استعان بهذا الشعر فى نظم القرآن وأعلن أن مثل هذه الآراء التى تتجاوز الحقائق إنما هى آراء جامدة تنم عن فكر خاطىء ونظرة غير واقعية لسيرة النبى ووحى القرآن.

وقد أثبت طه حسين أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يستعن بأشعار من هنا أو هناك إنما تلقى الوحى من الله ، وأن القرآن ببلاغته وفصاحته يعجز عن مضاهاته الشعراء ، فهو كتاب معجز من عند الله .

إن التيار الإسلامى فى الشعر الجاهلى يؤكد شمولية الوعى الفكرى عند طه حسين وإخلاصه لدينه.

٢- البناء الفنى.

اتخذ طه حسين موضوع الشعر الجاهلى مادة لمحاضراته التى أخذ يلقيها على طلبته بالسنة الأولى والثانية بكلية الآداب بالجامعة المصرية ، عندما أسندت إليه دراسة تاريخ الأدب العربى وقد قام بجمع هذه المحاضرات وأصدركتابه ((فى الشعر الجاهلى)) خلال شهر مارس سنة ١٩٢٦ ، مقتنعا بنتائجه ومنهجه ليؤكد إن هذا الشعر المنسوب إلى الجاهلية لايمثل الحياة الجاهلية ولايمثل اللغة العربية السائدة فى ذلك الوقت ولعل هذا الاقتناع القوى هو الذى حمله فيما يقول " على تقييد هذا البحث ونشره فى هذه الفصول غير حافل بسخط الساخط ولا مكترث بازورار المزور، وأنا مطمئن إلى أن هذا البحث وإن أسخط قوما شق على آخرين فسيرضى هذه الطائفة القليلة من المستنيرين الذين هم فى حقيقة الأمر عدة المستقبل وقوام النهضة الحديثة وذخر الأدب الجديد" (١)

ويعد هذا الكتاب حلقة من حلقات البحث حول هذا التراث وقيمته الأدبية سبقه فيها العديد من الكتاب والأدباء من العرب والمستشرقين

وقدم هذا العمل بعد أن وزع مادته العلمية على ثلاثة كتب ، بدأ الكتاب الأول بتمهيد طرح خلاله القضية التى شرع فى علاجها ، وأوضح أنه يشعر بتأدية واجبه نحو العلم ، ولهذا فهو لايبالى بما سوف يتعرض له فى سبيل ذلك من الأذى .

وقضية الشعر الجاهلى التى أولاها جهده ، تكمن فى " أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية فى شئ وإنما هى منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام ، فهى تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين" (٢).

وطه حسين مطمئن إلى هذه الرؤية واثق فى أن دور الرواة وانتحالهم وتكلف القصاص واختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين وراء هذه الظاهرة ، ولهذا لايمكن أن يتم التصور الصحيح للشعر الجاهلى إلا بالاعتماد على "القرآن من ناحية والتاريخ والأساطير من ناحية أخرى(٣) "

كما ينبغى التعرف على طبيعة الحياة السياسية الداخلية للأمة العربية بعد ظهور

---

(١) طه حسين فى الشعر الجاهلى ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ط أولى ص١ .

(٢) نفسه ص٧ . (٣) نفسه ص٨ .

الإسلام ووقوف حركة الفتح ، وحال أولئك الذين غلبوا على أمرهم بعد الفتح في بلاد الفرس والشام والجزيرة والعراق ومصر ، وكيفية نشأة العلوم الدينية واللغوية ومعرفة دور اليهود وماأحدثته المسيحية من تأثير فى حياة العرب العقلية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية لأن كل هذه الأمور ساهمت فى ظهور قضية الانتحال التى أضيفت إلى الجاهليين ولم يكتف طه حسين بعرض هذه المباحث ولكن تجاوزها ليصل إلى البحث الفنى واللغوى للشعر الجاهلى .

وحول منهج البحث يعلن طه حسين أنه سوف يستخدم هذا المنهج الفلسفى الذى استحدثه "ديكارت" فى سبيل البحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث ويتطلب ذلك المنهج من المباحث أن يتجرد من كل شئ يحول دون الوصول إلى الحقيقة المرجوة لهذا نادى طه حسين بضرورة أن ننسى "قوميتنا وكل مشخصاتها وأن ننسي ديننا وكل مايتصل به وأن ننسى ما يضاد هذه القومية ، يجب ألا نتقيد بشئ ولا أن نذعن لشئ إلا مناهج البحث العلمى الصحيح" .[٤]

وأوضح طه حسين أن أنصار القديم ساخطون على هذاالمنهج لأنهم لم يفرقوا بين عقولهم وقلوبهم عندما تناولوا القضايا العلمية ، حيث تغلبت العاطفة وسيطر التعصب ، لهذا يطالب طه حسين الباحثين والقراء بالأخذ بمنهج ديكارت "ولنجتهد فى ألا نتأثر كما تأثروا "وفى ألانفسد العلم كما أفسدوه لنجتهد فى أن ندرس الأدب العربى غير حافلين بنصرالإسلام أو النعى عليه" [٥]

ويرى طه حسين أن الحياة الجاهلية يجب أن تلتمس فى القرآن لا فى الشعر الجاهلى ، باعتبار أن القرآن نص ثابت لاسبيل إلى الشك فيه ، يصور طبيعة الحياة الجاهلية بشتى صورها الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية أصدق تصوير .

ولقد استوعبه العرب وأعجبوا به ووقفوا على أسراره ودقائقه عندما تليت عليهم آياته ، ولم يكن القرآن جديدا كله على العرب " إنما كان القرآن جديدا فى أسلوبه جديدا فيما يدعو إليه جديدا فيما شرع للناس من دين وقانون ، ولكنه كان كتابا عربيا لغته اللغة العربية الأدبية "[٦]

وجد طه حسين أن القرآن يذكر وثنية قريش التى أخرجت الرسول من مكة واضطرته للهجرة مع أصحابه إلى المدينة ، يبرز دور اليهود وجدلهم العقلى وقتالهم

---

(٤) نفسه ص١٢ .　(٥) نفسه ص١٤ .　(٦) نفسه ص١٧ .

صد النبى ، " ولكن القرآن لا يمثل الحياة الدينية وحدها ، وإنما يمثل شيئا آخر غيرها لانجده فى هذا الشعر الجاهلى ، يمثل حياة عقلية قوية ، يمثل قدرة الجدال والخصام أنفق القرآن فى جهادها حظا عظيما" . [٧]

ولقد تشعبت القضايا العقلية المتصلة بالدين ، والمتعلقة بالبعث والخلق والمعجزات ، صورها القرآن لمجتمع متطور يتميز معظم أهله بالذكاء والعلم والفطنة ، فى الوقت الذى يبرزه الشعر الجاهلى كمجتمع يعيش حياة جافة يكاد تخلو من الشعور الدينى ، وكأنها فى عزلة عن العالم الخارجى .

يستعرض المؤلف بعض الشواهد القرآنية على طبيعة الحياة الاجتماعية حيث طبقة المستنيرين الذين يمتازون بالثروة والجاه والذكاء والعلم ، وطبقة العامة الذين لايكاد يكون لهم من هذا كله حظ" [٨] .

ومن الشواهد القرآنية يوضح حالة المستضعفين الذين كفروا طاعة لسادتهم وزعمائهم والذين سيقولون يوم يسألون "ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا[٩]"

كما يخبرنا عن جفوة الأعراب وإمعانهم فى الكفر والنفاق وقلة حظهم من العاطفة الرقيقة التى تحمل على الإيمان والتدين " الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله"[١٠]

كما يحدثنا القرآن عن حركة الاتصال المستمرة بين العرب وغيرهم مثل الروم والفرس ومانتج عنها من الانقسام إلى حزبين مختلفين يؤيد كل منهما حزبا معينا ، وإلمامهم بالسياسات الخارجية والتبادل الاقتصادى ووسائله .

ويذكر طه حسين أن " سيرة النبى تحدثنا أن العرب تجاوزوا بوغاز باب المندب إلى بلاد الحبشة ، ألم يهاجر المهاجرون الأولون إلى هذه البلاد ، وهذه السيرة نفسها تحدثنا بأنهم تجاوزوا الحيرة إلى بلاد الفرس ، وأنهم تجاوزوا الشام وفلسطين إلى مصر " [١١]

ويحاول المؤلف أن يبرهن على أن القرآن الكريم قد صوّر الحياة الجاهلية فى شتى أحوالها الاجتماعية ، حيث حارب الظلم والكبرياء ، وأخذ بيد المستضعفين

---

(٧) نفسه ص١٩ . (٨) نفسه ص٢٠ . (٩) سورة الأحزاب : ٦٧ .
(١٠) سورة التوبة : ٩٧ . (١١) طه حسين ، فى الشعر الجاهلى ص٢٢ .

الأذلاء ، وبين أن الأمة العربية أمة متحضرة ، واهتم القرآن بمعالجة مساوئ الحياة الاقتصادية والاجتماعية الداخلية حيث حرم الربا وحث على الصدقة وفرض الزكاة ونظّم التعامل بين الدائن والمدين ، مراعاة لحالات العسر واليسر " ولم يشرع الله هذه النظم إذا لم يكن يريد أن يزيل فسادا ويقر إصلاحا ، وينظم الصلات بين الناس على أحسن وجه ممكن" (١٢).

وعندما يتحدث طه حسين عن تمثيل القرآن للحياة الدينية عند العرب ، يذكر أن القرآن يرد على الوثنيين واليهود والنصارى والصابئة والمجوس ، ثم يقول " وهو لايرد على يهود فلسطين ولا على نصارى الروم ومجوس الفرس وصابئة الجزيرة وحدهم ، وإنما يرد على فرق من العرب كانت تمثلهم فى البلاد العربية نفسها ، ولولا ذلك لما كانت له قيمة ولا خطر ولما حفل به أحد من أولئك الذين عارضوه وأيدوه وضحوا فى سبيل تأييده بالأموال والحياة " (١٣)

وقيمة القرآن تكمن فى جوهره ، فهو كتاب هداية من عند الله ، حظى باهتمام الأمم العربية وغير العربية ، ولا علاقة بين رده على بعض الفرق وما يتضمنه من قيم ومبادىء تعلى من قيمة الفرد والمجتمع ولعل طه حسين يقصد أن اهتمام القرآن بمجادلة هذه الفرق أثار اهتمامها .

ويذكر طه حسين حديث القرآن " عن جفوة الأعراب وغلظتهم وإمعانهم فى الكفر والنفاق وقلة حظهم من العاطفة الرقيقة التى تحمل على الإيمان والتدين ثم يستشهد بالآية الكريمة " الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألايعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله"(١٤)

والآية المذكورة لا تشمل كل الأعراب وإنما تخص جماعة منهم والدليل على ذلك من القرآن نفسه ومن السورة التى وردت فيها ، حيث يقول تعالى " ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم ، سيدخلهم الله فى رحمته ، إن الله غفور رحيم" (١٥)

وقد تعرض محمد لطفى جمعة لما أثاره طه حسين عن عجز الشعر الجاهلى عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين ، حيث أورد طائفة من الأشعار أذكر منها قول ضرار بن الخطاب الفهرى" (١٦) : وفرت ثقيف إلى لاتها منقلب الخائب الخاسر .

(١٢،١٣)نفسه ص٨٧،١٧ . (١٤،١٥) سورة التوبة ٩٧،٩٩ . (١٦) محمد لطفى جمعة ،الشهاب الراصد ص٨٥.

وقول عبد العزى وديعة المرنى :

إنى حلفت يمين صدق برة　　　بمناة عند محل آل الخزرج .

ويذكر جورجى زيدان أن الجاهليين " لابد أنهم نظموا الأشعار وخاطبوا بها هبل واللات والعزى وغيرها واستعطفوها وصلوا إليها وتخشعوا لها ، ولكن منظوماتهم فى هذا الموضوع ضاعت فى ثنايا الأجيال لعدم تدوينها ، ولاشتغالهم عنها بالحماسة والفخر بسبب الحروب التى قامت بينهم قبل الإسلام ، فلما جاء الإسلام أغضى الرواة عنها ، لأنها وثنية والإسلام يمحو ما كان قبله" (١٧)

ويرى د. عبد الحميد المسلوت أن الشعر الجاهلى اهتم بالناحية العقلية ، واستشهد ببعض الأبيات من شعر طرفة بن العبد فيها ما ينم عن سعة العقل وأصالة التفكير "وهذا هو الشعر الجاهلى أمامنا يشهد لقائليه بالذكاء وقوة البادرة ومتانة البادرة "(١٨) حيث يقول :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى	عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة	وما تنقص الأيام والدهر ينفد
ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا	ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ومن الأدلة التى ساقها طه حسين على انتحال الشعر الجاهلى ، تلك اللغة التى صيغ بها هذا الشعر ، إذا لا يمثل اللغة الجاهلية لأنه يجعل لغتى عدنان وقحطان لغة واحدة وهما فى الحقيقة لغتان ، ولهذا يعتقد أن كل ما روى من شعر لعرب الجنوب منتحل فى الإسلام ، كما أن هذا الشعر لا يمثل اللهجات العدنانية المختلفة التى كانت سائدة فى ذلك العصر ، ويذكر أن هذا الخلاف بين العرب العاربة والعرب المستعربة واضح فيما اكتشف من نقوش ، ومع ذلك فقد تمت صياغة القرآن بلغة واحدة هى لغة القرآن الكريم .

وقد طرح طه حسين سؤالا حول ماهية اللغة الجاهلية وطبيعتها فى العصر الجاهلى " ولنجتهد فى تعريف اللغة الجاهلية هذه ما هى"(١٩) ولكن لم يورد لنا هذا

---

(١٧) جورجى زيدان ، تاريخ أداب اللغة العربية جـ١ ص٥٦ .

(١٨) د.عبد الحميد المسلوت ، نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى . دار القلم القاهرة ص١٢٢ .

(١٩) طه حسين فى الشعر الجاهلى ص٢٤ .

التصور للغة الجاهلية حتى يمكن عقد موازنة بينها وبين اللغة التى تم بها هذا الشعر الجاهلى المنتحل .

ثم يستطرد الحديث حول تعلم أبناء إسماعيل العربية من عرب الجنوب ويتساءل " فكيف بعد ما بين اللغة التى كان يصطنعها العرب العاربة واللغة التى كان يصطنعها العرب المستعربة حتىاستطاع أبوعمرو بن العلاء أن يقول إنهما لغتان متمايزتان ، واستطاع العلماء المحدثون أن يثبتوا هذا التمايز بالأدلة التى لا تقبل شكا ولا جدالا ، والأمر لايقف عند هذا الحد ، فواضح جدا لكل من له إلمام بالبحث التاريخى عامة ويدرس الأساطير والأقاصيص خاصة أن هذه النظرية متكلفة مصطنعة فى عصور متأخرة دعت إليها حاجة دينية أو اقتصادية أو سياسية(٢٠) "

ثم انساق المؤلف من الحديث فى اللغة إلى الحديث فى إبراهيم وإسماعيل وبناء الكعبة " للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ، لكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى ، فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها ونحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى".(٢١)

وما كان كتاب طه حسين " فى الشعر الجاهلى " ليثير هذه الضجة الكبرى ، لو لم يستغل هذه خصومه جملا وفقرات جاءت استطرادا فى صلب هذا البحث مثل هذه الجملة التى تتعلق بإبراهيم وإسماعيل ، وتسببت فى إثارة الرأى العام ضد طه حسين ثورة تجاوزت المنهج والموضوع إلى عقيدته وأخلاقه وشخصيته.

ويذكر طه حسين أن نشأة هذه القصة ترجع إلى حالة المسالمة بين اليهود المغيرين على شمال البلاد العربية وبين العرب الذين كانوا يقيمون فى هذه البلاد ، بعد أن نشبت بينهم حروب عنيفة ، فهذه القصة تجعل العرب واليهود أبناء أعمام ، فهم جميعا ساميون ، ينسبون إلى سام بن نوح.

" ولكن الشيءالذى لا شك فيه هو أن ظهور الإسلام وما كان من الخصومة العنيفة

---

(٢٠) نفسه ص٢٦ .　　　　(٢١) نفسه ص٢٦ .

بينه وبين وثنية العرب من غير أهل الكتاب ، قد اقتضى أن تثبت الصلة الوثيقة المتينه بين الدين الجديد وبين الديانتين القديمتين : ديانة النصارى واليهود".[٢٢]

ويرى طه حسين أن هذه القصة التى أثارها تعد صلة مادية ملموسة بين العرب وأهل الكتاب ، " فما الذى يمنع أن تستغل هذه القصة قصة القرابة المادية بين العرب العدنانية واليهود؟" [٢٣] .

ويوضح طه حسين أن قريشا حاولت أن توجد وحدة سياسية وثنية مستقله فى البلاد العربية تجعلها قادرة على مقاومة تدخل الروم والفرس والحبشة ودياناتهم فى البلاد العربية ، وهى لذلك تبحث عن أصل تاريخى قديم يتصل بالأصول التاريخية الماجدة التى تذكرها الأساطير " فليس ما يمنع قريشا من أن تقبل هذه الأسطورة التى تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم".[٢٤]

ويخلص من ذلك إلى أن التاريخ الأدبى واللغوى يستطيع " ألايحفل بها عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى ، وإذن فنستطيع أن نقول إن الصلة بين اللغة العربية الفصحى التى كانت تتكلمها العدنانية واللغة التى كانت تتكلمها القحطانية فى اليمن إنما هى كالصلة بين اللغة العربية وأى لغة أخرى من اللغات السياسية المعروفة ".[٢٥]

والمتأمل يجد أن لغة العرب قد توحدت قبل الإسلام ، ولولا هذا لما استطاع العرب أن يفهموا القرآن الكريم وأن يعارضوه ويؤيدوه ويضحوا فى سبيله " إنما كان القرآن جديدا فى أسلوبه، جديدا فيما يدعو إليه جديدا فيما شرع للناس من دين وقانون ، ولكنه كان كتابا عربيا ، لغته هى اللغة العربية الأدبية التى كان يصطنعها الناس فى العصر الجاهلى". [٢٦]

وربما كان الغلو فى النظرية التى أثارها طه حسين قد دفعته لاعتبار قصة إبراهيم وإسماعيل أسطورة خاصة وأن طه حسين يعلن أكثر من مرة ثقته فى النص القرآنى حيث يقول عن دراسته للحياة الجاهلية " أدرسها فى نص لاسبيل إلى الشك فى صحته ، أدرسها فى القرآن، فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلى ، ونص القرآن ثابت لاسبيل إلى الشك فيه ".[٢٧]

---

(٢٢) نفسه ص٢٧ . (٢٣) نفسه ص٢٧ . (٢٤) نفسه ص٢٨، ٢٩ .
(٢٥) نفسه ص٢٩ . (٢٦) نفسه ص١٧ . (٢٧) نفسه ص١٦ .

وحول الشعر الجاهلى واللهجات ، يناقش طه حسين مسألة فنية خالصة تتعلق بتنقل الشعر فى قبائل الإسلام ، " فالرواة مجمعون على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ولا متفقة اللهجة قبل أن يظهر الإسلام فيقارب بين اللغات المختلفة ويزيل كثيرا من تباين اللهجات ".[٢٨]

فالشعر العدنانى لا تبدو فيه اختلاف اللهجات ،" وكان من المعقول أن تختلف لغة العرب العدنانية وتتباين لهجاتهم قبل ظهور الإسلام ، ولاسيما إذا صحت النظرية التى أشرنا إليها آنفا وهى نظرية العزلة العربية ، وثبت أن العرب كانوا متقاطعين متنابذين ، وأنه لم يكن بينهم من أسباب المواصلات المادية والمعنوية ما يمكن من توحيد اللهجات ".[٢٩]

فنظرية طه حسين هنا تشير إلى العزلة ونتائجها بالنسبة لتباين اللهجات وتعددها فالعرب متقطعون لا اتصال بينهم ، بينما نجد نفس النظرية فى الفصل قبل السابق تتناقض مع هذه الرؤية ، حيث يقول طه حسين " لم يكن العرب إذن كما يظن أصحاب هذا الشعر الجاهلى معتزلين".[٣٠] ويستشهد بالقرآن الكريم والسنة النبوية على أنهم أمة متصلة بالأمم الأخرى" متأثرة بها مؤثرة فيها ". [٣١]

والذى شد انتباه طه حسين أن القصائد السبع التى يتخذها أنصار القديم نموذجا للشعر الجاهلى الصحيح يمكن أن تقرأها " دون أن تشعر فيها بشئ يشبه أن يكون اختلافا فى اللهجة أو تباعدا فى اللغة أو تباينا فى مذهب الكلام".[٣٢]

ويرى طه حسين هذه المطولات أو المعلقات من الشعر الذى انتحل على الجاهليين بعد الإسلام ، ثم يشير إلى أن القرآن الذى تلى بلغة واحدة ولهجة واحدة هى لغة قريش ولهجتها ، لم يكن يتناوله القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته وتعددت اللهجات فيه وتباينت تباينا كثيرا، جدّ القراء والعلماء المتأخرون فى ضبطه وتحقيقه ، وأقاموا له علما أو علوما خاصة".[٣٣]

ثم يعرض لتعدد القراءات القرآنية بقوله : "إنما نشير إلى ضرورة اختلاف آخر فى القراءات يقبله العقل ، ويسيغه النقل ، وتقتضيه ضرورة أختلاف اللهجات بين قبائل العرب التى لم تستطع أن تغير حناجرها وألسنتها وشفاهها لتقرأ القرآن كما كان

---

(٢٨) نفسه ص٣٢ . (٢٩) نفسه ص٣٢ . (٣٠) نفسه ص٤٢ .
(٣١) نفسه ص٣٢ . (٣٢) نفسه ص٣٣ . (٣٣) نفسه ص٣٤ .

يتلوه النبى وعشيرته من قريش ، فقرأته كما كانت تتكلم ، فأمالت حيث لم تكن تميل قريش ، ومدت حيث لم تكن تمد وقصرت حيث لم تكن تقصر ، وسكنت حيث لم تكن تسكن ، وأدغمت أو أخفت ونقلت حيث لم تكن تدغم ولاتخفى ولاتنقل ، فهذا النوع من اختلاف اللهجات له أثره الطبيعى اللازم فى الشعر في أوزانه وتقاطيعه وبحوره وقوافيه بوجه عام".[٣٤]

ومسألة القراءات بحثها العلماء وقرروها على وجه خالص من كل شائبة ، أما اجتماع العرب على لغة واحدة وهى لغة قريش قبل أن يظل الإسلام هذه البقاع ، فقد كان نتيجة الحج والتبادل التجارى والأسواق الأدبية مثل عكاظ ومجنة وذى المجاز ، لهذا فإن صدور الشعر العربى بلغة واحدة ، رغم اختلاف القبائل وتعدد اللهجات أمر غير مستغرب ، ويوشك طه حسين أن يقر بذلك " فالمسالة إذن هى أن تعلم : أسادت لغة قريش ولهجتها فى البلاد العربية ، وأخضعت العرب لسلطانها فى الشعر والنثر قبل الإسلام أم بعده ؟ أما نحن فنتوسط ونقول : إنها سادت قبيل الإسلام حين عظم شأن قريش ، وحين أخذت مكة تستحيل إلى وحدة سياسية مستقلة".[٣٥]

ثم يطرح قضية استشهاد العلماء بالشعر الجاهلى حيث أوضح أن العلماء قد اتخذوا هذا الشعر الجاهلى مادة الاستشهاد على ألفاظ القرآن والحديث ونحوهما ومذاهبهما الكلامية".[٣٦]

وعلماء التفسير والحديث " يعلمون بحق أن ما يستشهد به فى هذين العلمين ليس بالكثير الذى لوثبت اصطناعه صحت دعوى أن هذا الشعر الذى ينسب إلى الجاهليين ليس منهم فى شىء ، فهذا تفسير الكشاف الذى يعد من أكثر التفاسير حملا للشواهد اللغوية إنما يحتوى نحو ألف بيت ، وفى هذه الشواهد كثير من أشعار المخضرمين كحسان ولبيد والنابغة الجعدى والإسلاميين كرؤبة والفرزدق وجرير والعجاج وذى الرمة وأبى تمام وأبى الطيب والمعرى وغيرهم" .[٣٧]

ثم يتحدث طه حسين عن ابن عباس رضى الله عنه وقضيته مع نافع بن الأزرق " وأنت تعلم أن إثبات هذا الحفظ الكثير لعبد الله بن عباس لم يخل من فائدة سياسية ، لأن ابن عباس روى أشياء كثيرة أو رويت عنه أشياء كثيرة تنفع الشيعة ،

(٣٤) نفسه ص٣٤ . (٣٥) نفسه ص٣٨ .
(٣٦) نفسه ص٣٨ . (٣٧) د.السيد تقى الدين ، طه حسين آثاره وأفكاره ص٣٣ .

لأن ابن عباس أجاب نافع بن الأزرق حين قال له ما رأيت أحفظ منك يا ابن عباس ، بقوله : ما رأيت أحفظ من على ، أنت تعلم أن هناك حديثا ترويه الشيعة يجعل النبى مدينة العلم ويجعل عليا بابها ".(٣٨)

ولعل طه حسين ينكر أن يبلغ ابن عباس فى حفظ الشعر هذا المبلغ ، ثم إثبات أن ألفاظ القرآن كلها مطابقة للفصيح من اللغة العربية ، أو ربما اتخذ ذلك للأغراض التعليمية ، التى شاعت فى القرنين الثالث والرابع الهجريين .

ويستعرض طه حسين أسباب انتحال الشعر ويرجعها إلى خمسة أسباب هى : " السياسة ـ الدين ـ القصص ـ الشعبية ـ الرواة".

وأوضح أن الانتحال عند العرب ليس بدعا قدانفردوا به دون غيرهم من الأمم ، إنما هو ظاهرة شاعت عندهم كما شاعت عند غيرهم من اليونان والرومان فلن تكون الأمة العربية أول أمة انتحل فيها الشعر انتحالا وحمل على قدمائها كذبا وزورا وإنما انتحل الشعر في الأمة اليونانية والرومانية من قبل وحمل على القدماء من شعرائهما ، وانخدع به الناس وآمنوا له ، ونشأت عن هذا الانخداع والإيمان سنة أدبية توارثها الناس مطمئنين إليها ، حتى كان العصر الحديث ، وحتى استطاع النقاد من أصحاب التاريخ والأدب واللغة والفلسفة أن يردوا الأشياء إلى أصولها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ".(٣٩)

ثم يشرع طه حسين فى توضيح أثر السياسة فى الانتحال ، فيذكر أن جهاد النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم فى مكة مستضعفون كان جهادا جدليا خالصا " وكان النبى يكاد يقوم به وحده بإزاء الكثرة المطلقة من قومه ، يجادلهم بالقرآن ويقارعهم بهذه الآيات المحكمات ، فيبلغ منهم ويفحمهم ويضطرهم إلى الإعياء ".(٤٠)

وقد تحول هذا الجهاد إلى جهاد سياسى بعد هجرة الرسول إلى المدينة ساهم فيه الشعر بجانب السيف ، فكثر الهجاء وأخذ كل فريق يدافع عن أحسابه وأنسابه ويشيد بذكر قومه .

ثم ينقل طه حسين رأى ابن سلام " وقد نظرت قريش فإذا حظها من الشعر قليل فى الجاهلية ، فاستكثرت منه فى الإسلام ، وليس من شك عندى أنها استكثرت

---

(٣٨) طه حسين فى الشعر الجاهلى ص٤٠ . (٣٩) نفسه ص٤٤ . (٤٠) نفسه ص٤٨ .

ـ ج خاص من الشعر الذى يهجى الأنصار".[41]

ويخلص من ذلك إلى أن شدة العصبية كان لها تأثير كبير فى الحياة السياسية ، وقد كانت من أهم الأسباب التى حملت العرب على انتحال الشعر وإضافته للجاهليين ".[42]

ويرى طه حسين أن انتحال الشعر قد تأثر بالدين والظروف المحيطة بهذه الحياة الدينية " فكان هذا الانتحال فى بعض أطواره يقصد به إلى إثبات صحة النبوة وصدق النبى ، وكان هذا النوع موجها إلى عامة الناس وأنت تستطيع أن تحمل على هذا كل ما يروى من هذا الشعر الذى قيل فى الجاهلية ممهدا لبعثة النبى وكل ما يتصل به من هذه الأخبار والأساطير التى تروى لتقنع العامة بأن علماء العرب وكهانهم وأحبار اليهود ورهبان النصارى كانوا ينتظرون بعثة نبى عربى يخرج من قريش أو من مكة".[43]

ويبرهن المؤلف على صحة قوله بأن فى سيرة ابن هشام وغيرها من كتب التاريخ والسير أشعار منتحلة توحى بقرب بعثة النبى وتمهد له .

ثم يذكر نوع آخر من الشعر المنتحل على لسان الجن " فلم يكد القصاص والرواة يقرعون هذه السور وما يشبهها من الآيات التى فيها حديث عن الجن حتى ذهبوا فى تأويلها كل مذهب واستغلوها استغلالا لاحد له ، وأنطقوا الجن بضروب من الشعر وفنون من السجع ، ووضعوا على النبى نفسه أحاديث لم يكن بد منها لتأويل القرآن على النحو الذى يريدونه ويقصدون إليه"[44]

ويشير المؤلف إلى أن السياسة نفسها قد اتخذت الجن أداة من أدواتها وأنطقتها بالشعر فى العصر الإسلامى .

ثم ذكر المؤلف أن القصاص والمنتحلين اعتمدوا على القرآن فيما رووا وانتحلوا من الأخبار والأشعار والأحاديث التى تضاف إلى الأحبار والرهبان " فالقرآن يحدثنا بأن اليهود والنصارى يجدون النبى عندهم فى التوراة والإنجيل ، وإذن فيجب أن تخترع القصص والأساطير وما يتصل بها من الشعر ليثبت أن المخلصين من الأحبار والرهبان كانوا يتوقعون بعثة النبى ويدعون الناس إلى الإيمان به حتى قبل أن

---

(٤١) نفسه ص٥٤ . (٤٢) نفسه ص٦٧ . (٤٣) نفسه ص٦٩ . (٤٤) نفسه ص٧٠ ، ٧١ .

يظل الناس زمانه".[٤٥]

ويثير طه حسين نوعا آخر من تأثير الدين فى انتحال الشعر وإضافته إلى الجاهليين ، وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبى من ناحية أسرته ونسبه فى قريش " فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبى يجب أن يكونَ صفوة بنى هاشم ، وأن يكون بنو هاشم صفوة بنى عبد مناف ، وأن يكون بنو عبد مناف صفوة بنى قصى ، وأن تكون قصى صفوة قريش ، وقريش صفوة مضر ، ومضر صفوة عدنان ، وعدنان صفوة العرب والعرب صفوة الإنسانية كلها".[٤٦]

وإن ما ذكره المؤلف هو حديث روى فى صحيح الإمام مسلم ، يدل على أن ما جرى على يده ولسانه من حكمة وإصلاح لم يأت بمثله إنسان تقدمه أو إنسان جاء بعده ، وطه حسين لا يقصد أن ينكر حديثا ، ولكن التزامه بالمنهج العلمى انتهى إلى مثل هذه النتائج ولعل ما قاله رئيس النيابة فى هذا الشأن يعبر عن رؤية واعية حيث قال " لايوجد فى بحثه ما يدعوه لإيراد العبارة علىهذا النحو ".[٤٧]

ثم تحدث طه حسين بأن القصاص يضيفون إلى أسرة النبى عليه الصلاة والسلام ما يرفع شأنهم ويثبت تفوقهم على قومهم وعلى العرب ، وأن هذا القصص يستتبع الشعرِ وأن التنافس كان يشتد بين بنى أمية وبني هاشم ، وأن الخصومة بين قصاص هذين الحزبين كانت تشتد ، وأن الروايات والأخبار والأشعار كانت تكثر ، وذكر أن الأمر لا يقتصر على بني أمية وبني هاشم بل تشاركهم فيه الأمة الأرستقراطية القرشية كلها " وإذن فالبطون القرشية على اختلافها تنتحل الأخبار والأشعار وتغرى القصاص وغير القصاص بانتحالها ، ولا أصل لهذا إلا أن قريشا رهط النبي من ناحية ، وأن الملك قد استقر فيها من ناحية أخرى ، فانظر إلى تعاون العواطف الدينية والسياسية على انتحال الشعر أيام بني أمية وبني العباس".[٤٨]

ويضيف طه حسين نوعا آخر من تأثير الدين فى انتحال الشعر ، وهو الذى يلجأ إليه القصاص لتفسير ما يجدونه مكتوبا فى القرآن من أخبار الأمم البائدة كعاد وثمود وغيرهم ويشير المؤلف إلى أن "نصوص القرآن وألفاظه نستشهد بها على صحة ما يسمونه الشعر الجاهلى بدل أن نستشهد بهذا الشعر على نصوص القرآن"[٤٩].

(٤٥) نفسه ص٧٢ .　　　(٤٦) طه حسين ، فى الشعر الجاهلى .

(٤٧) مجلةالهلال يوليو ١٩٧٠ ، قرار النيابة حول كتابه فى الشعر الجاهلى .

(٤٨) طه حسين ، فى الشعر الجاهلى ص٧٤ .　　　(٤٩) نفسه ص٧٧ .

وقد حدثت خصومات بين العلماء وأصحاب التاويل من الموالى حول نصوص القرآن الكريم وتفسيرها وقد دفعهم حرصهم على الانتصار فى خصوماتهم إلى أن يستشهدوا بما قالته العرب قبل نزول القرآن " وهم مجمعون على أن هؤلاء الجاهليين الذين قالوا فى كل شيء كانوا جهلة غلاظا فظاظا ".(٥٠)

ثم يعرض طه حسين لنوع آخر من الانتحال نشأ عندما استؤنف الجدال بين المسلمين وأصحاب الملل الأخرى ولاسيما اليهود والنصارى ، إذ أراد المسلمون" أن يثبتوا أن للإسلام أولوية فى بلاد العرب كانت قبل أن يبعث النبي ، وأن خلاصة الدين الإسلامى وصفوته هى خلاصةالدين الحق الذى أوحاه الله إلى الأنبياء من قبل ".(٥١)

ثم استطرد المؤلف " وشاعت فى العرب أثناء ظهور الإسلام وبعده فكرة أن الإسلام يجدد دين إبراهيم ، ومن هنا أخذوا يعتقدون أن دين إبرهيم هذا قد كان دين العرب فى عصر من العصور، ثم أعرضت عنه لما أضلها به المضلون ، وانصرفت إلى عبادة الأوثان ".(٥٢)

وليس الأمر مجرد فكرة شاعت بين العرب ، لأن القرآن الكريم أرشد المسلمين إلى أن نبى الله إبراهيم كان مسلما ، نجد ذلك فى قوله تعالى "ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما ".(٥٣)

والقرآن يصرح بأن إبرهيم بني البيت الحرام ، وأن العرب النازلين حول مكة من ذريته ، وأن لهذا الرسول شريعة ، وأن شريعته وشريعة الإسلام تتحدان فى التوحيد الخالص ، وفى بعض الأحكام والآداب وقد نطقت الآيات بان دين الإسلام هو ملة إبراهيم ، قال تعالى " وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم "، وإذا ذكر إبرهيم فلأنه أقدم الرسل ، ولأن نبوته يعترف بها اليهود والنصارى والوثنيون من العرب ، وفكرة الأديان واحدة ، والأهداف التى ترمى إليها واحدة وكل دين تجديد لما سبقه .

وقد تعرض طه حسين لمسألة دقيقة ، تجلى خلالها دوره المؤثر ، حيث استعرض رأى المستشرق " كليمان هوار " الذى نشر بالمجلة الآسيوية ١٨٠٤م وناقشه مناقشة جادة ، فهوار يزعم أن شعر أمية بن أبى الصلت شعر جاهلى حقيقة ،

---

(٥٠) نفسه ص٧٨ .
(٥١) نفسه ص٨٠ .
(٥٢) نفسه ص٨١ .
(٥٣) سورة آل عمران ٦٧ .

وهو لهذا مصدر من مصادر القرآن ، والمؤلف يخالفه ذلك الرأى .

وقد توصل هذا المستشرق بعد أن قارن بين شعر أمية بن أبى الصلت وبين آيات من القرآن إلى نتيجتين ، إحداهما أنه وجد فروقا بين ما جاء فى هذا الشعر وما جاء فى القرآن من تفصيل بعض القصص ولو كان منتحلا لكانت المطابقة تامة بينه وبين القرآن " وإذا كان هذا الشعر صحيحا ، فيجب فى رأى الأستاذ " هوار " أن يكون النبي قد استعان به قليلا أو كثيرا فى نظم القرآن".(٥٤)

أما النتيجة الأخرى التى توصل إليها "هوار" "أن صحة هذا الشعر واستعانة النبى به فى نظم القرآن قد حملتا المسلمين على محاربة شعر أمية بن أبى الصلت ومحوه ليستأثر القرآن بالجدّة ، ليصح أن النبي قد انفرد بتلقى الوحى من السماء ".(٥٥)

ورغم إعجاب طه حسين بهذا المستشرق إلا أنه تعجب من تورطه فى مواقف لا صلة بينها وبين العلم ، ويقول " والغريب من أمر المستشرقين فى هذا الموضوع وأمثاله أنهم يشكون فى صحة السيرة نفسها ، ويتجاوز بعضهم الشك إلى الجحود ، فلا يرون فى السيرة مصدرا تاريخيا صحيحا ، وإنما هى عندهم كما ينبغى أن تكون عند العلماء جميعا : طائفة من الأخبار والأحاديث تحتاج إلى التحقيق والبحث العلمى الدقيق لتمتاز صحيحها من منتحلها ، هم يقفون هذا الموقف العلمى من السيرة ويغلون فى هذا الموقف ، ولكنهم يقفون من أمية بن أبى الصلت وشعره موقف المستيقن المطمئن ، مع أن أخبار أمية ليست أدنى إلى الصدق ولا أبلغ فى الصحة من أخبار السيرة".(٥٦)

ويتساءل طه حسين عن سر هذا التعصب الذى لم يبرأ منه هذا المستشرق وغيره ذلك التعصب الذى يرمون به الباحثين من أصحاب الديانات خاصة وأن أمية قد هجا أصحاب النبى وأيد مخالفيه ، ويضيف طه حسين " وليس يمكن أن يكون من الحق فى شىء أن النبى نهى عن رواية شعر أمية لينفرد بالعلم والوحى وأخبار الغيب ، فما كان شعر أمية بن أبى الصلت إلا شعرا كغيره من الشعر لايستطيع أن ينهض للقرآن ، وما كان علم أمية بن أبى الصلت بأمور الدين إلاكعلم أحبار اليهود ورهبان النصارى ، وقد ثبت النبى لأولئك وهؤلاء واستطاع أن يغلبهم على عقول العرب بالحجة مرّة وبالسيف مرّة أخرى ، فأمر النبى مع أمية بن الصلت كأمره مع هؤلاء

---

(٥٤) طه حسين ، فى الشعر الجاهلى .　　(٥٥) نفسه ص٨٢ .　　(٥٦) نفسه ص٨٣

الشعراء الكثيرين الذين هجوه وناهضوه وألبوا عليه".[٥٧]

ويستنكر طه حسين موقف هذا المستشرق من القرآن ، ويشير إلى أن كثيرا من القصص القرآنى عرف عند اليهود والنصارى ثم يقول " ونحن نعتقد أن هذا الشعر الذى يضاف إلى أمية بن أبى الصلت وإلى غيره من المتحنفين الذين عاصروا النبى أو جاءوا قبله إنما انتحل انتحالا ليثبتوا - كما قدمنا- أن للإسلام قدمه وسابقه فى البلاد العربية".[٥٧]

ثم يشير إلى انتشار اليهودية والنصرانية فى بلاد العرب" وأكبر الظن أن الإسلام لو لم يظهر لانتهى الأمر بالعرب إلى اعتناق إحدى هاتين الديانتين ، ولكن الأمة العربية كان لها مزاجها الخاص الذى لم يستقم لهذين الدينين والذى استتبع دينا جديدا أقل ما يوصف به أنه ملائم ملاءمة تامة لطبيعة الأمة العربية ".[٥٩]

وقد حملت العصبية العربية والعواطف الدينية العرب على أن ينتحلوا الشعر ويضيفوه إلى عشائرهم فى الجاهلية من اليهود والنصارى ولهذا يرى طه حسين أنه " يجب أن نحتاط فى قبول الشعر الذى يظهر فيه تأثير ما للأهواء الدينية " [٦٠]

ويقرر طه حسين بأن الأدب العربى لم يدرس فى العصور الإسلامية إلا من حيث هو وسيلة إلى تفسير القرآن وتأويله واستنباط الأحكام منه ومن الحديث ، واستعراض تاريخ العرب وما يتصل بالنبوات والسير والمغازى "وما أسرع ما فطن الخلفاء والأمراء لقيمة هذه الأداة الجديدة من الوجهة السياسية والدينية ، فاصطنعوها وسيطروا عليها واستغلوها استغلالا شديدا ، وأصبح القصص أداة سياسية كالشعر".[٦١]

و هكذا ارتبط القصاصون بالأحزاب السياسية واهتموا بالأساطير والمعجزات وغرائب الأمور ، وتزيين هذه القصص بالأشعار المنتحلة ، مما يتطلب الحذر عند تناولها .

ويذكر طه حسين دور الشعوبية فى انتحال الشعر خاصة ما فيه من إلحاق العيب بالعرب والانتقاص من قدرهم ، وقد تولد هذا الحقد لديهم نتيجة لإساءة المعاملة من بعض جفاة الأعراب وغلظة بعض الولاة أو من اعتقاد جماعة من الموالى أنهم

---

(٥٧) نفسه ص٨٤ . (٥٨) نفسه ص٨٦ . (٥٩) نفسه ص٨٨ .
(٦٠) نفسه ص٨٩ . (٦١) نفسه ص٩٢ .

أزكى من العرب أصلا وأعرق منهم حضارة ومدنية ، ولهذا يرى طه حسين أن لهم أثرا قويا فى انتحال الشعر والأخبار وإضافتها للجاهليين ، ولم يقف الأمر عند ذلك بل نجد أن خصومهم ومناظريهم اضطروا إلى الانتحال والإسراف فيه .

وساهمت الخصومات بين الأحزاب العربية فى أن يتدخل الموالى " فى السياسة العربية وأن يهجوا أشراف قريش وقرابة النبى [٦٢] "

ولقد استطاع هؤلاء الموالى من أن ينفسوا عن أنفسهم ويشفوا ما فى صدورهم من غل وحقد كانوا يضمرونه للعرب ويكفى أن يحاول الشاعر من الموالى الافتخار على العرب ليفكر فى أن يثبت أن العرب أنفسهم كانوا قبل أن يتيح لهم الإسلام هذا التغلب يعترفون بفضل الفرس وتقدمهم ويقولون فى ذلك الشعر يتقربون به إليهم ويبتغون به المثوبة عندهم ، ولاسيما إذا كانت الحوادث التاريخية والأساطير تعين على ذلك وتدنى منه".[٦٣]

وعن دور الرواة فى انتحال الشعر يوضح طه حسين أن مجون الرواة وإسرافهم فى اللهو والعبث وانصرافهم عن أصول الدين وقواعد الأخلاق إلى مايأباه الدين وتتكره الأخلاق كان من أهم المؤثرات التى عبثت بالأدب العربي .

ويذكر المؤلف حمادا الراوية زعيم أهل الكوفة فى الرواية والحفظ ، وخلف الأحمر زعيم أهل البصرة فى الرواية والحفظ " وفى الحق أن حمادا كان يسرف فى الرواية والتكثر منها وأخباره فى ذلك لايكاد يصدقها أحد وأما خلف فكلام الناس فى كذبه كثير ".[٦٤]

ومن الرواة من كان يقبل على الانتحال رغبة فى الكسب ولهذا فإنه إذا فسدت مروءة هؤلاء الرواة وأحاطت بهم مثل هذه الظروف ، كان من الحق علينا ألا نقبل مطمئنين ما ينقلون إلينا من شعر القدماء".[٦٥]

وبهذا أوضح طه حسين الأسباب التى دفعته للشك والاحتياط أمام هذا الشعر الجاهلى فى العصور الإسلامية الأولى " كل شىء فى حياة المسلمين فى القرون الثلاثة الأولى كان يدعو إلى انتحال الشعر وتلفيقه سواء فى ذلك الحياة الصالحة حياة الأتقياء والبررة ، والحياة السيئة حياة الفساق وأصحاب المجون " [٦٦]

---

(٦٢) نفسه ص١٠٧ . (٦٣) نفسه ص١١٠ . (٦٤) نفسه ص١٢١ .
(٦٥) نفسه ص١٢٢ . (٦٦) نفسه ص١٢٤ .

ولقد قسم المؤلف الكتاب الثالث من الشعر الجاهلى إلى خمسة فصول تناول في الفصل الأول منها تلك القضايا والنظريات التى أكدها أكثر من مرة وهى أن الحياة الجاهلية لا ينبغى أن تلتمس فى هذا الشعر ، ولكن " القرآن وحده هو النص العربى القديم الذى يستطيع المؤرخ أن يطمئن إلى صحته ويعتبره مشخصا للعصر الذى تلى فيه ، فأما شعر هؤلاء الشعراء وخطب هؤلاء الخطباء وسجع هؤلاء الساجعين فلا سبيل إلى الثقة بها ولا إلى الاطمئنان إليها".(٦٧)

والجدير بالذكر أن طه حسين لم يتهم كل الأدب العربى بالانتحال " فلكل أدب قسمه الصحيح وقسمه المتكلف ، ولكل أمة تاريخها الصحيح وتاريخها المنتحل".(٦٨)

وأفاد طه حسين أن العديد من القصص والأساطير فى العصر الجاهلى أو فى العصر الإسلامى كانت نتيجة الخيال المبدع .

وفى الفصول الباقية تناول بعض الشعراء الذين آثرهم بالبحث واختصهم بالدراسة والتحليل وكان منهم "امرؤ القيس " و " عبيد " و " علقمة " و "عمرو بن قميئة" و "عمرو بن كلثوم" و "الحارث بن حلزة" وغيرهم من الشعراء.

٣-منهج طه حسين في الشعر الجاهلى

يعد طه حسين من أبرز الأدباء الذين قاموا بدور مشهود فى الحياة الثقافية والفكرية والأدبية ، فقد ولد فى عصر يموج بالاضطرابات ويمتلىء بالغضب بعد وقوع مصر تحت وطأة الاحتلال الإنجليزى ، وتميزبقوة الإرادة وشدة المراس فى التغلب على ما يحول دون بلوغ هدفه ، وقد فجرت الأزمات التى مرّ بها طاقته الإبداعية ، وشحذت همته لمزيد من النتاج الفكري والأدبي .

و لم يقتصر على الإفادة من نبع الثقافة العربية الإسلامية وحدها ، بل حرص على التزود بالثقافة الغربية ، جاعلا مهمته الأساسية ربط الإنسان العربى بأدبه وأعلامه ، وإيجاد صلة بينه وبين الأدب الغربى ومناهجه واتجاهاته ، وتم له ذلك بأسلوب علمى ، يؤمن بضرورة الاهتمام بالأدب العربى القديم بوصفه قوام الثقافة العربية ومكون الشخصية المستقلة للأمة العربية.

---

(٦٧) نفسه ص١٢٦ .　　(٦٨) نفسه ص١٢٧ .

و تراثنا الشعرى بكل ما يحمله من كنوز يعد نبعا فياضا للعديد من الدراسات والبحوث و" كانت دراسة طه حسين لتاريخ الأدب العربى حدثا خطيرا ، فقد حوله من طور عقيم مجدب إلى طور خصيب مثمر" (٦٩)

وجاءت هذه الدراسة ثمرة جهود متواصلة بذلها طه حسين قبل بعثته إلى فرنسا وبعدها ، حيث أتيح له الموازنة بين طريقة الشيخ سيد المرصفى فى تدريس الأدب العربى ، وطريقة "نالينو" ، ووجد أن الفرق بين هذين المذهبين فى البحث عظيم ، فهو الفرق بين الإيمان الذى يبعث على الاطمئنان والرضا ، والشك الذى يبعث على القلق والاضطراب وينتهى فى كثير من الأحيان إلى الإنكار والجحود".(٧٠)

ومنذ ذلك الحين تبلورت فكرة الجمع بين الطريقتين العربية والأوربية ، لتوضيح معالم الصلة الوطيدة بين الأدب ومظاهر الحياة المتعددة ، وتدريب الطلاب على كيفية تناول النص الشعرى بالنقد والتحليل بغية تكوين ملكة التذوق الأدبى لديهم والتعبير عما يجول فى وجدانهم تعبيرا أدبيا مستقيما.

واستطاع طه حسين أن يطبق هذه الطريقة الجديدة فى دراسته قبل البعثة التى قدمها إلى الجامعة المصرية حول أبى العلاء المعرى ، أو مقالاته التى أخذ ينشرها فى جريدة السياسة عن عصر أبى نواس الذى دعاه عصر الشك والزندقة والمجون ، وواجه حملات شرسة من النقاد باعتبار هذا العصر من أزهى عصور الحضارة الإسلامية ، معلنا عن طريقته الجديدة التى توحى بأن يتجرد المؤرخ الأدبى لحقبة من حقب الشعر عن كل ميل وعن كل عاطفة ، وأن يكون رائده دائما تحرير الحقيقة العلمية بمنتهى الإخلاص ومنتهى الصدق".(٧١)

ولهذا قرر طه حسين فى بداية كتابه " الشعر الجاهلى " أنه سيصطنع المنهج الفلسفى الذى استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء فى أول هذا العصر الحديث ، وأوضح أن السمة الأساسية لهذا المنهج "أن يتجرد الباحث من كل شىء كان يعلمه

---

(٦٩) مجلة فكر ، طه حسين ، مائة عام من النهوض العربى (فى الذكرى المئوية لمولده) أوليات الأدب العربى للدكتور شوقى ضيف ص١٠٥ .

(٧٠) طه حسين ، فى الشعر الجاهلى مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ الطبعة الأولى ص٢ .

(٧١) مجلة فكر ، طه حسين ، مائة عام من النهوض العربى (فى الذكرى المئوية لمولده) أوليات الأدب العربى للدكتور شوقى ضيف ص١٠٧ .

من قبل ، وأن يستقبل بحثه خالى الذهن مما قيل فيه خلوا تاما ".[٧٢]
وقد تابع المؤلف هذا الرأى كثير من تلامذته الذين شغفوا بهذا المنهج وتأثروا به وأصبح فى نظرهم " المنهج الذى صبغ طريقة تفكيرنا نحن أيضا زمنا طويلا تأثرا به ".[٧٣]

وتطبيق القاعدة الأولى من المنهج الديكارتى تقتضى أن يتجرد الباحث من كل شيء يؤثر على رؤيته وأحكامه وفى سبيل ذلك " يجب أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها ، وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به وأن ننسى ما يضادّ هذه القومية، وما يضادّ هذا الدين ، يجب ألا نتقيد بشيء إلا مناهج البحث العلمى الصحيح ، ذلك أنا إذا لم ننس قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فسنضطر إلى المحاباة وإرضاء العواطف ، وسنغل عقولنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين".[٧٤]

وتأثير ديكارت على هذه الثورة الأدبية عند طه حسين يكمن فى تحديد اتجاهه وبلورته وتعميقه ، والإيحاء بالدور الفعال الذى ينبغى أن يقوم به على مسرح الأدب العربى .

"و لاأظن أن أهمية الكتاب تجيء من القضايا التى أثارها ، ولكننى أعتقد أن الكتاب اكتسب قيمته العالية بسبب المنهج العلمى الدقيق الذى تناول من خلاله طه حسين أبحاثه وقضاياه " [٧٥]

ولقد اختط طه حسين فى دراسة الأدب العربى منهجا يتألف من عنصرين أحدهما قديم يتضح فى دراسة النقاد العرب للشعراء القدماء ويستعرض أحكامهم الفنية على أشعارهم ، وكثير من هذه الأحكام فى كتب النقد والأدب وبخاصة كتاب الأغانى الذى اعتمد عليه المؤلف فى دراسته عن الشعراء.

أما العنصر الآخر حديث وهو منهج النقد الطبيعى الذى يعد كل من سانت بيف وهيبوليت تين من رواده فى فرنسا ، والأديب فى هذا المنهج ثمرة البيئة التى عايشها ، ويستلزم هذا المنهج دراسة كل ما يتعلق بالعمل الأدبى والأديب، ويقسّم "تين"

---

(٧٢) طه حسين ، فى الشعر العربى ص١١ .

(٧٣) إبراهيم الأبيارى وآخرون : طه حسين كما يعرفه كتاب عصره ص٣٨ مقال د.سهير القلماوى .

(٧٤) طه حسين ، فى الشعر الجاهلى ص١٢ .

(٧٥) د.عبد العزيز الدسوقى ، تطور النقد العربى الحديث فى مصر الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٤٤٥ .

ثلاثة عوامل تخضع لها عملية الخلق الأدبى وهى الجنس والبيئة والعصر ، ويعنى بالجنس تقسيم البشرية إلى أجناس لها خصائص فسيولوجية مختلفة ، والبيئة التى يقصدها هى البيئة السياسية والاجتماعية والطبيعية ، والعصر اصطلاح يعنى التطور الذى يتحقق فى الماضى أى تلك القوة التى توجه الآدب والمجتمعات .

" وكان طه حسين أول من وضع هذا المنهج فى صورته المركبة من آراء سانت بيف وهيبوليت تين والنقد العربى القديم موضع التطبيق الصارم على الأدب القديم خاصة والحديث عامة ، ولا تتسع المناسبة هنا لمتابعة هذه التطبيقات المتنوعة فى كتبه المختلفة وسنكتفى ببيان أثرها فى دراسة أحدثت ضجة واسعة حول طه حسين لا يزال صداها يتردد فى كتابات الدراسين المحدثين إلى اليوم ، هى دراسته عن الشعر الجاهلى".(٧٦)

وكان نتيجة التطبيق الصارم للمنهج العلمى أن فقد الشعر الجاهلى قداسته اللغوية والفنية التى ظل القدامى والمحدثون يثيرونها منذ ظهور الإسلام ، إذ رأى المفسرون واللغويون أنهم فى حاجة إلى نص لغوى برىء من العجمة التى أخذت تتسرب إلى لغة الإسلاميين خاصة بعد الفتوحات الإسلامية واختلاط العرب بغيرهم من الشعوب الأجنبية ، بغية تفسير القرآن وتقعيد القواعد ، وصيانة اللغة من الضياع.

وهذه القداسة الغريبة التى نشأت للشعر الجاهلى عند النقاد والأدباء العرب المسلمين جاءت نتيجة الرؤية المميزة للشعر الجاهلى كنص عربى أصيل بالرغم من كونه نتاج بيئة وثنية يرفضها الإسلام .

وقد خلص طه حسين بعد هذه الدراسات إلى مقياس أدبى ، يقف بتاريخ الأدب ودراساته بين العلم والفن ، بحيث لا يغرق مؤرخ الأدب فى العلم إغراقا من شأنه أن يفنى شخصيات الشعراء والكتاب فى شخصيته ، بل يتخذ طريقا وسطا يتفق فيه علوم اللغة والصرف والنحو والبيان والتاريخ ومناهج البحث الأدبى فى استكشاف الظواهر وحقائق النصوص الأدبية .

وقد سلك طه حسين لاستخلاص المنهج المركب طريقين : " الأولى ، إثبات زيف هذه الخصائص الشائعة عن طبيعة الشعر الجاهلى لغة ومعنى وصورا شعرية ، بوصفها خصائص فنية تميز وحدها الشعر الجاهلى من غيره من شعر العصور

---

(٧٦) د.إبراهيم عبد الرحمن ، بحوث مهرجان طه حسين الحادى عشر ، كلية آداب المنيا ١٩٨٥، ص١٦،١٧ .

الأخرى فرفض غرابة اللفظ وبداوة المعنى ، مقررا أن الشعر الذى يستعد للنظر فى صحته هو هذا الذى يناسب لغة القرآن وما صح من الحديث ، والطريقة الثانية دراسة شعر طائفة بعينها من شعراء الجاهلية دراسة تحليلية غايتها استخلاص الخصائص الفنية المشتركة لأشعارهم بوصفهم شعراء قد ارتبط بعضهم ببعض ارتباطا اجتماعيا وبيئيا واضحا".[٧٧]

واعتمد طه حسين فى إثبات هذه الصلة الاجتماعية والفنية لهذه الطائفة التى انتقاها على ما صح لديه من أخبار الرواة " يلخص طه حسين منهجه فى أنه لا يعتمد على اللفظ وحده ولا يعتمد على المعنى وحده ، ولا يعتمد على اللفظ والمعنى ليس غير ، وإنما يعتمد على اللفظ والمعنى وعلى أشياء آخرى فنية وتاريخية ".[٧٨]

ويواصل طه حسين جهوده لا ستخلاص شعر هذه المجموعة من الشعراء ، أو المدرسة كما يسميها بحيث يشملهم طابع فنى بعينه ، ينسجم مع كل هذه الأشعار حتى يثبت المشابهة الفنية من ناحية ، ثم ليستخلص منها ذلك المقياس المركب لتوثيق شعر هذه الفترة والتمييز بين الشعر الصحيح والشعر المنحول وقد قدّم نموذجا على سبيل المثال أسماه " مدرسة زهير".

ولقد تأثر الكثير من النقاد بمنهج طه حسين خاصة أولئك الذين أقبلوا على الثقافة الغربية، مع الحرص على توثيق الصلة بين المناهج العربية التقليدية ومناهج الغرب الحديثة.

" ولقد كان لهذه المجادلة الخصبة من التأصيل الفنى فائدة وخطورة فى آن واحد ، فقد أسهمت فى رصد اتجاهات التطور الشعرى وتقويمه وإرشاد الشعراء إلى الصيغة الفنية المثلى فيه ، ولكنها ألحت فى الوقت نفسه ، علىتضخيم الدور الذى لعبه الشعر والنقد الغربيان فى تطوير الشعر العربى الحديث ونقله من صيغته التقليدية الجامدة إلى صيغة حديثة لم يرق إلى مثلها فى تاريخه الفنى الطويل من قبل ".[٧٩]

ولم تذهب جهود طه حسين سدى ، حيث " كان سببا فى نشأة اتجاهات نقدية

---

(٧٧) د.إبراهيم عبد الرحمن محمد،الشعر الجاهلى،قضاياه الفنية والموضوعية،مكتبة الشباب، ص١٤١.

(٧٨) نفسه ص١٤٢ .

(٧٩) مجلد فصول ،المجلد الرابع ، العدد الثانى يناير وفبراير ومارس ١٩٨٤ ، من أصول الشعر العربى القديم الأغراض والموسيقى ، دراسة نصية للدكتور / إبراهيم عبد الرحمن محمد ص٢٤ .

أخرى متنوعة ، تجمع فى صيغتها الجديدة بين الثقافة العربية القديمة ، والأوربية الحديثة علـى طريقة طه حسين ، تميز من بينها اتجاهان غلبا على غيرهما من الاتجاهات الأخرى : هما اتجاه النقد النفسى واتجاه النقد الفنى".[٨٠]

وكان أبرز من تأثر بالاتجاه النفسى عباس العقاد حيث قدم من خلال " مجموعة العبقريات وطائفة من الدراسات الأدبية لعدد من أعلام الشعراء القدامى من أمثال : ابن أبى ربيعة وبشار بن برد وأبى نواس ، ولكنه على خلاف طه حسين قد عمد إلى تنمية العنصر النفسى الذى يصوره منهج سانت بيف خاصة ، قاصدا كما فعل طه حسين أن يبنى سيرا ذاتية لهؤلاء الشعراء ".[٨١]

بينما تبنى الاتجاه الفنى طائفة كبيرة من النقاد على رأسهم الناقدان الكبيران : د. محمد مندور ، د. عبد القادر القط

٤-النتائج المستخلصة من دراسة كتاب " فى الشعر الجاهلى "

بعد أن قدمت عرضا تحليليا لما تضمنه كتاب فى الشعر الجاهلى ولطبيعة المنهج الذى آثره طه حسين فى معالجة قضية الشعر الجاهلى ، يجدر أن أستخلص بعض النتائج التى تتعلق بمنهج الشك " الديكارتى " أو بجوهر القضايا التى عالجها المؤلف .

أولا: فيما يتعلق بالمنهج :

ينكر بعض الكتاب العلاقة بين الشك فى صحة الشعر الجاهلى والشك الديكارتى ، أو يقللون من شأنها إذ يرى هؤلاء أن طه حسين لم يكن فى حاجة إلى هذا المنهج الديكارتى ، فجوهر حركته الفكرية هو التحديد العقلى ، وليس الشك الديكارتى إلا وجها من أوجه هذا الجهد العقلى ، ولكنه ليس جوهره، حقا إنه شك منهجى استطاع به الدكتور طه حسين أن يزيل كثيرا من الأوهام فى تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى ، كاشفا حقيقة الأدب الجاهلى الذى يغلب عليه الانتحال ، واضعا معيارا موضوعيا لتحديد معالم الأدب الجاهلى الحقيقى ولقد استطاع الدكتور

---

(٨٠) بحوث مهرجان طه حسين ١١ سنة ١٩٨٥ آداب المنيا ، نقاد طه حسين بين التقليد والسماع د. إبراهيم عبد الرحمن ص٢٠ .

(٨١) نفسه ص٢٠ .

طه حسين أن يكتشف فى الأدب الجاهلى ظواهره الأدبية ، وأن يحدد معالم مذاهب فنية فى دراساته الأخرى".[82]

و إن منجهية الشك الديكارتى لا تتوقف عند تجرد الباحث وحياده فحسب ، بل إنها ترجع إلى ما فيه من نظام وتسلسل ، بحيث ينتهى إلى مرحلة اليقين ، وأن لا يدخل الباحث فى أحكامه إلا ما يتمثل لعقله فى وضوح تام وتميز كامل ، " معنى هذا أن طه حسين قد ركز على الجانب السلبى من القاعدة ،على طرح الأفكار والأحكام السابقة ، وأغفل تلك الحالة الإيجابية التى يؤمن ديكارت بضرورة الانتهاء إليها وهى حالة من المعرفة الحقة واليقين ، تتضح فيها الأفكار وتتميز ، وتتكشف فيها لبداهة العقل حقائق الأشياء ومعنى هذا أيضا أن طه حسين إذ يقدم هذه الصياغة الجزئية السلبية للقاعدة الديكارتية ، ويكتفى من المنهج الديكارتى بجانب الشك المحض ، إنما يؤكد خروجه على ديكارت وبعده عنه ، ذلك أن المفكر لا يكون ديكارتيا لأنه يشك او لأنه يطرح آراء القدماء أو الأفكار الموروثة ، وإنما يصبح ديكارتيا عندما يستعيض عن هذه الآراء والافكار بأسس أصلب وأرسخ لمعرفة الأشياء على حقيقتها" .[83]

ومبالغة طه حسين فى تقدير الأسباب التى تدعو إلى الشك فى صحة الشعر الجاهلى ، ولم يحاول أن يبحث عن أى استثناء قد يخرج عن هذا التعميم ، وقد أثار العديد من التساؤلات دون أن يضع الإجابة عليها ، بل إن استغراقه فى الشك قد أدى به إلى التعميم فى إطلاق الأحكام ، ولهذا نجد ان رؤيته اتسمت بالمبالغة ، من ذلك رؤيته للشعر الجاهلى بأنه لايمثل ما كان للعرب قبل الإسلام من حياة دينية وعقلية واقتصادية وسياسية ، ولم يخطر بفكره أن الشعر قد لا يعكس الواقع كما تعكسه المرآة.

" ولو أن طه حسين قد طعن فى بعض الشواهد فى ميدان الشعر الجاهلى ليرجح أخرى كأن يطعن فى نزاهة بعض الرواة ليضع ثقته فى البعض الآخر ، ولو أنه عنى بالأسباب الإيجابية التى تدعو إلى إثبات صحة الشعر الجاهلى فى معظم أو

---

(82) إبراهيم الابيارى وآخرون ، طه حسين كما يعرفه كتاب عصره ص128 مقال/محمود أمين العالم

(83) مجلة فصول ، المجلد الثالث ، العدد الرابع سبتمبر 1983 ، طه حسين وديكارت ، عبد الرشيد الصادق محمودى ص106 .

فى جزء يعتد به بقدر ما عنى بالأسباب السلبية التى تدعو إلى الحذر والتشكك ، ولو أنه قد اهتم بدراسة هذا الشعر ومميزاته بقدر ما شغل بموضوع صحته أو انتحاله ، لكان أقرب إلى ديكارت ، ولجاز وصف شكه بالمنهجية على سبيل التجاوز والتشبيه ، أما وقد استسلم للشك وانتهى إلى نتيجة سلبية إلى حد بعيد ، فإن منهجه لايمكن أن ينسب الى ديكارت بأى معنى من المعانى".[٨٤]

و يرى جابر عصفور فى كتابه " المرايا المتجاورة " أنه لم يكن طه حسين ، فى نظريته عن الانتحال ، يتابع جهود المستشرقين فيما يتصل بتوثيق الشعر الجاهلى ، على نحو ما هو مستقر فى بعض الأذهان ، بقدر ما كان يتابع مبادىء الروح العلمى وتقاليده فى تجلياتها ، عبر مستويات البحث التاريخى للتراث اليونانى".[٨٥]

وقد أكد طه حسين على هذا المفهوم قبل عامين من صدور كتابه " فى الشعر الجاهلى" عندما قال " أفهم الأدب العربى وأحكم على ظواهره كما ينبغى أن يفهمه ويحكم على ظواهره رجل يعيش فى القرن العشرين ، ويرى كيف يفهم الأوربيون أدب اليونان والرومان ". [٨٦]

و يرى د. عفت الشرقاوى فى كتابه " دروس ونصوص فى قضايا الأدب الجاهلى ". "علينا أن نلزم الحذر حين نستنبط صفة البيئة من الشعر الجاهلى ، فلا نرده ردا مطلقا كما فعله باحثون حين رأوه لا يمثل الحياة العربية حق التمثيل ، ولا نعتمد عليه اعتمادا مطلقا فى تصوير هذه الحياة كما فعل آخرون ، وإنما نلاحظ فى كل حال أن للنص الشعرى الرفيع مستويات مختلفة من التعبير والدلالة ، بعضها مباشر وبعضها غير مباشر ، وكثير منها رمزى ، وإن بدت صورته صريحة عند أول نظر " [٨٧] .

واستسلام طه حسين للشك دفعه إلى أن يبدأ تفكيره فى أغلب الأحيان بفرض هو محض تخيل مبنى على الحدس والظن ، ولكنه لا يلبث ان ينسى أنه لم يثبت هذا الفرض ، فيضعه موضع القضية المفروغ من صحتها والمسلم بها ،

---

(٨٤) نفسه ص١٠٦ . (٨٥)د.جابر عصفور ،المرايا المتجاورة،الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٢٣٥

(٨٦) طه حسين ، حديث الأربعاء جـ١ ص١٨٦ .

(٨٧) د.عفت الشرقاوى ، دروس ونصوص فى قضايا الأدب الجاهلى ١٩٧٩ ، دار النهضة العربية بيروت ، ص٧ .

ويمضى فى الاستنتاج ، ومن أمثلة ذلك أنه يفترض أن ما روى عن ابن عباس من حفظ الشعر القديم والاستشهاد به فى معرض تفسير القرآن إنما اخترع اختراعا لإثبات أن ألفاظ القرآن كلها مطابقة للفصيح من لغة العرب ، أو أنه اخترع لإثبات أن عبد الله بن عباس كان من أحفظ الناس لكلام العرب الجاهليين ، وفجأة نجده يستنتج من هذا الفرض الذى هو محض تخيل وادعاء أن إثبات قوة الذاكرة يخدم أهداف الشيعة السياسية ، لأن ابن عباس كان يشهد أن عليا أقوى منه ذاكرة ، وغير ذلك كثير ، مما يتعارض مع ما كتبه طه حسين فى أبريل سنة ١٩٢٣ أثناء وجوده فى باريس "أليس من الخير ألانغلو فى الشك ولا نغلو فى اليقين ؟ أليس من الخير أن نكتفى بالترجيح ؟ ثم أليس من الخير ألا نحمل نصوص القرآن وغير القرآن من الكتب الدينية أوزار الشك وأوزار اليقين ، وهذه النتائج الكثيرة المختلفة المضطربة المتناقضة التى تنشأ عن أمزجتنا المختلفة المضطربة المتناقضة والتى تنشأ عما ناكل وما نشرب و ما نرى وما نسمع وما نحس ؟ أليس من الخير أن نجعل القرآن الكريم وغيره من الكتب الدينية فى حصن مقدس منيع" [٨٨].

و من خلال استعراض فكر طه حسين يتضح أن الدين عنده يقوم على الأحاسيس الشاعرة بينما العلم يقوم على العقل المفكر ، الدين يخضع للتأويل بجهود رجاله ، "و الخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لا سبيل إلى اتقائها ولا إلى التخلص منها ، هى أساسية لأن العلم والدين لا يتصلان بملكة واحدة من ملكات الإنسان ، وإنما يتصل أحدهما بالشعور ويتصل الآخر بالعقل ، ويتأثر أحدهما بالخيال ويستأثر بالعواطف ولا يتأثر الآخر بالخيال إلابمقدار ولا يعنى بالعاطفة إلا من حيث هى موضوع لدرسه وتحليله".[٨٩]

و لعل ذلك أتاح له أن يتخلص من المسائل المحرجة التى تعرض لها ، عندما نادى بأن ننسى ديننا وشخصيتنا القومية فى سبيل تطبيق المنهج العقلى.

و جاء رد الأستاذ / وكيل النيابة مقنعا حين قال " أما الاختصاص الذى أجراه الدكتور بجعله العلم من اختصاص القوة العاقلة والدين من اختصاص القوة الشاعرة فلسنا ندركه ، والذى نفهمه أن العقل هو الأساس فى العلم وفى الدين معا وإذا ما وجدنا العلم والدين يتنازعان فسبب ذلك أنه ليس لدينا القدر الكافى من كل

---

(٨٨) طه حسين ، من بعيد ص٥١ .

(٨٩) نفسه ص٢٢٧ .

منهما ، إننا نقرر هذا بناء على ما نعرفه من أنفسنا ، أما الدكتور فقد تكون لديه القدرة على ما يقول وليس ذلك على الله بعسير"(٩٠)

يتضح من ذلك أن شكه فى الشعر الجاهلى بلا حدود ، وهذا لا يتمشى مع العقل ، ولو وضع لشكه حدودا لاستطاع أن يصل إلى حقيقة هذا الشعر الجاهلى ، ولذلك تغيرت عنده هذه الرؤية وفى الحقيقة لقد ظهرت مرحلة اليقين عند د. طه حسين فى الكتابات التى تلت كتابه " فى الأدب الجاهلى " إذ نشر فى جريدة السياسة العديد من الكتابات والدراسات عن الشعر الجاهلى والتى جمعها لتشكل الجزء الثالث من حديث الأربعاء ، وفى هذه المقالات يتخلى طه حسين تماما أو يكاد عن تحفظه العلمى الذى رأيناه يحمله على الشك فى صحة ما يروى من نصوص الشعر الجاهلى ، إذ يشرع فى شرحه وتفسير معانيه ويكشف عن قيمته الفنية ، وكأنه لم يكن له فى هذا كله رأى آخر يذهب فيه إلى الشك فى روايته وإنكار الوجود التاريخى لشعرائه .

و يحدث نفس الأمر عندما اشترك طه حسين بعد تأليف كتابه "فى الشعر الجاهلى " بعامين فى تأليف كتاب " المجمل " فإذا هو يتابع إخوانه فى تقرير خلاف ما رآه قبل هذا بعامين ، ولا يزال مصرا عليه فى كتابه الذى رآه فيه ، فيرى معهم أن الأمة العربية أمة مجددة لامحافظة ، وأن الشعر العربى ضعف أمره شيئا عند ظهور الإسلام وانصراف المسلمين عن القول إلى العمل فى نشر الدين وفتح البلاد ، ثم ظهر قويا فى عصر بنى أمية ، مخالفا مخالفة شديدة للشعر الذى يعرف عن الجاهليين قبل الإسلام وإبان ظهوره وأيام الخلفاء الراشدين".(٩١)

ولا شك أن هذا مخالف كل المخالفة لرأى طه حسين فى الأدب الأموى الذى سبق أن قرره فى الأدب الجاهلى .

---

(٩٠) مجلة الهلال يوليو ١٩٧٠ ، قرار النيابة حول كتاب الشعر الجاهلى .

(٩١) عبد المتعال الصعيدى ، مع زعيم الأدب العربى فى القرن العشرين ، مكتبة الجندى ص٩٩ .

ثانيا : جوهر قضية الكتاب

تكمن القضية في أن الشعر الجاهلي في رأى طه حسين لا يمثل الحياة الجاهلية بشتى صورها ، وأنه انتحل على هؤلاء الشعراء الجاهليين ، ولم يكن طه حسين أول من عالج هذه القضية ، فقد سبقه الكثير من النقاد العرب والأجانب ، من أمثال محمد بن سلام الجمحي ت ٢٣٢هـ وأبي الفرج الأصفهاني ، والسيوطي ، وبعض المستشرقين المهتمين بالثقافة العربية ، مثل نولدكه ١٨٦٤م ، وآلورد ، ومرجليوث الذى يعد أكبر من أثاروا هذه القضية في كتاباته ، إذ كتب فيها مقالا مفصلا نشره في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية بعدد يوليو ١٩٢٥م جعل عنوانه "أصول الشعر الجاهلي"

ولقد كان اقتناع طه حسين بقيمة بحثه نتيجة دراسة متأنية لكتاب ابن سلام " طبقات الشعراء " الذى عالج فيه مشكلة الانتحال وردها إلى عاملين أحدهما القبائل التي حاولت أن تزيد مناقبها وأمجادها القديمة ، والآخر الرواة الذين انتحلوا الكثير من الأشعار على الجاهليين .

وكان طبيعيا أن يهتم طه حسين بمتابعة الكتابات التي تناولت هذه القضية ، ولكنه لم يكد ينشر كتابه " في الشعر الجاهلي " حتى أثار عاصفة من الغضب في الأوساط الدينية والسياسية والرأى العام ، لتعرضه لبعض مسائل تمس الدين دون ما ينبغي إذائها من الاحتياط ، فصودر الكتاب ".[٩٢]

و تجاوزت ثورة النقاد والكتاب موضوع الكتاب ومنهجه إلى فكر طه حسين وأخلاقه وعقيدته " وبين كر و فر ، وهجوم وصد أشبه بالملاحم ، يثور الرأى العام في مصر حتى في البرلمان".[٩٣]

وسيطر الحزن على طه حسين ، لأنه لم يقصد أى عداء مع الدين وعلمائه ، فقضية الانتحال تناولها قبله الكثيرون ، ولكن هدفه النهوض بالأدب ليحدث في نفس قارئه لذة وشغفا متواصلا ، بالعرض المبدع والتحليل الواعي لصوره وأساليبه ، واستطاع بما تميز به من صبر وجلد أن يوجه هذه الحملات الشرسة " وأنا أقدر النتائج الخطرة لهذه النظرية ، ولكن مع ذلك لا أتردد في إتيانها وإذاعتها ، ولا

---

(٩٢) مجلة فكر ، أوليات الأدب العربي د.شوقي ضيف ص١٠٩ .

(٩٣) كمال الملاخ ، د.طه حسين قاهر الظلام ، دار الكتاب الجديد ط الثانية ص١٨ .

أضعف عن أن أعلن إليك وإلى غيرك أن ما تقرؤه على أنه شعر امرىء القيس أو ابن كلثوم أو عنترة ، ليس من هؤلاء فى شيء ، وإنما هو انتحال الرواة أو اختلاف الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصاص أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين". [٩٤]

ولم تقتصر الحملات القاسية والشتائم والتهديدات على شخص طه حسين ولكنها امتدت إلى أسرته و نالت من زوجه التى قالت " إن الهزات التى سببها كتاب " فى الشعر الجاهلى " قد أساءت وضعنا من جديد ، فالضجة التى اقترنت بهذا الكتاب ، وثورة الجهل والتعصب التى أعقبت صدوره نعرفها جميعا ، أما مالا نعرفه فهوما كانته هذه المحنة فى نظر زوجى الذى كانت رزانته الثابتة تمنعه من الشكوى ، لكن ما حدث أرهقه ، ولم يكن يفهم هذه الأحكام البليدة ، وهذا التحيز الأخرق ، وهذا الحقد الحاسد ، وهذا الرياء ، وتلك البراعة التى نجحوا بها فى تحريض أناس طيبين ضد إنسان شريف ، وفى جره إلى المحكمة بعد أن صادروا كتابه ، والحملات القاسية فى الصحافة والشتائم والتهديد بالموت الذى كان وراء إقامة حراسة على مدخل بيتنا أمام باب الحديقة خلال عدة أشهر ، كل هذه الأحداث كانت تذهله وتستثير ضميره العلمى وتؤلمه كثيرا " [٩٥]

وأعاد المؤلف إصدار كتابه فى العام التالى بعنوان " فى الأدب الجاهلى " بعد إجراء بعض التعديلات وحذف بعض الفقرات التى كانت بمثابة تحد فى ميدان البحث العلمى ، حول التراث الذى أحيط بهالة من القداسة تشكل حجابا يحول دون الرؤية الواضحة لذلك الأدب .

وبرغم المصائب التى تحملها طه حسين إلا أنه شعر بالارتياح لأنه فجر فى الحياة الفكرية حيوية كبيرة ودفع الكثير من الكتاب والمفكرين إلى حوار متواصل ، وافتتح فى دراسة تاريخ الأدب العربى عصرا جديدا ، ابتعدت فيه الدراسة عن السطحية التى كانت تكتفى بترجمات موجزة للشعراء والخطباء والكتاب .

وهكذا " كان طه حسين موقظا للهمم التى كانت فى سبات عميق ومحببا للأدب ، ومكتشفا لأراض بكر لثقافة بلاده ، ولطرق أنسب ما تكون لإنعاشها ، حتى

---

(٩٤) طه حسين ، فى الشعر الجاهلى ص٧ .

(٩٥) سوزان طه حسين ، معك ، دار المعارف ط الثانية ص٧٨ .

ولو كانت هذه الطرق أكثر أهمية وتشابها فى ظواهرها ، ليست جديدة مبتكرة أو نتيجة جهد فكرى عميق " [٩٦]

وموضوع الكتاب " فى الشعر الجاهلى " والقضايا التى شرع فى معالجتها لم تكن لتثير مثل هذه الضجة ، لولا بعض الجمل التى جاءت استطرادا فى البحث .

وظهرت عدة كتب تناولت ما كتبه طه حسين فى كتابه منها "تحت راية القرآن" للأديب مصطفى صادق الرافعى "النقد التحليلى لكتاب الشعر الجاهلى" للكاتب محمد أحمد الغمراوى "الشهاب الراصد" للكاتب محمد لطفى جمعة ، "نقض كتاب فى الشعر الجاهلى" للشيخ محمد الخضر حسين ، "مع زعيم الأدب العربى فى القرن العشرين" للشيخ عبد المتعال الصعيدى، "الشعر الجاهلى والرد عليه" للكاتب محمد حسين ، "نقض مطاعن فى القرآن" للشيخ محمد عرفة وغير ذلك من الكتب ، وكان من بين الردود ما كتبه د. محمد محمد حسين " وواضح من كلام طه حسين الذى قدمنا أمثلة من جرأته على الدين ، وخطره على الناشئين واستخفافه بما قرره القرآن من صلة إبرهيم عليه السلام بالعرب وبنائه الكعبة ، مما لا يرتفع عنده إلى أكبرمن مرتبة الأساطير التى خلفها اليونان والرومان " [٩٧]

وتفاوتت الردود ، حيث ظهر بعضها فى اتجاهين متباينين " اتجاه تقليدى يستمد مناهجه ويؤسس أحكامه على أفكار نقدية مختلفة ، تؤمن بقداسة تراث العربية القديم من الشعر واللغة ، إيمانا يحول دون تحليله وتقويمه فى ذاته أولا وتفسيره الجديد فى ضوء النظريات اللغوية والنقدية الحديثة والثانى اتجاه انطباعى لا حظ لأصحابه من معرفة القديم والجديد معرفة وثيقة ولكنهم يؤسسون أحكامهم دون الرجوع إلى الأصول لاستمداد هذه الأحكام منها قانعين بترديد الشعارات والأحكام التى أثمرها الاتجاه الأول فى إسراف وتجن واضحين ".[٩٨]

والمتأمل للعديد من الدراسات النقدية حول فكر طه حسين يجد أن الفكرة التى راجت حوله تركزت فى عقول الكثيرين منذ إصدار كتابه " فى الشعر الجاهلى

---

(٩٦) إبراهيم الأبيارى وآخرون ، طه حسين كما يعرفه كتاب عصره، مقال بعنوان " طه حسين الناقد" فرنشيسكو جابريللى ص١٧٧ .

(٩٧) د. محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، مؤسسة الرسالة ، ص٢٩٩ .

(٩٨) د.إبراهيم عبد الرحمن محمد ، فى بحثه " نقاد طه حسين بين التقليد والسماع " بحوث مهرجان طه حسين ا الحادى عشر ص١٥

"وتكاد هذه الفكرة الخاطئة أن ترسخ في عقول المثقفين وغيرهم ، فطه حسين في نظرهم عميل غربى ضد الإسلام ، وربما نجد من يرمى طه حسين بالكفر وينعته بكلمات يندى لها الجبين ، لا كرها لطه حسين نفسه كعميد للأدب العربى بل حقدا على مصر ودورها الريادى فى العالم " وكان لابد أن تورطهم هذه الأفكار المسبقة في مواقف متناقضة وظالمة لا لطه حسين وحده ، وإنما لمصر ودورها الحضارى وتراثها الثقافى "[99] .

ولعل ما نشرته جريدة القبس الكويتية فى ٢/ ٤ / ١٩٨٠م يبرهن عن رأى أهل السماع وأهل التقليد ، حيث يقول كاتب المقال [100]: "وبودنا أن نطوف بشيء من أدب طه حسين ، لا أراكم الله شرا ، ذلك الأدب الذى يبعث الغثيان والقرف ، إن تمنياتنا فى هذه المقال أن نحطم أسطورة ونصحح خطأ شائعا ، أصبح كالعادة لا يسهل التخلص منه ، وبصراحة نريد أن نثبت أن طه حسين ليس عميد الأدب العربى بل هو ليس أديبا ، أما كونه غير أديب فإن الدارس له يلاحظ أنه قد درس الآداب الغربية بينما فاتته الفصاحة العربية ، وأسلوبه ضعيف ركيك ، وخياله سقيم وفكره عقيم " .

ومن الدراسات الموضوعية حول نظرية طه حسين عن الشعر الجاهلى ، ما كتبه الاستاذ / فتحى رضوان الذى تتبع حياة طه حسين وثقافته الغربية التى تعمق فيها حيث قرر " أن طه حسين بعقله ونفسه وذوقه وحسه أصبح كالفرنسيين ،لا تفريطا منه فى حق وطنه ولا إنكارا لتبعاته القومية ، وإنما لأنه لم يكن له خيار فى ذلك ، فقد كان عليه أن يحصل علم الفرنسيين وأدبهم وثقافتهم وتاريخهم ، وأن يتقن أساليبهم فى الدراسة ، وأن يحيط أكمل إحاطة بمناهجهم فى البحث" [101].

وقد ساهمت هذه الدراسات من جانب العديد من النقاد والكتاب فى وضع الأساس السليم لتحليل الدراسات الأدبية الحديثة ، لبداية مرحلة جديدة فى دراسة الأدب العربى وتطبيق المناهج الجديدة التى تأثر بها طه حسين فى الغرب " هذه الموجة

---

(٩٩) نفسه ص١٥ . (١٠٠) نفسه ص١٧ .

(١٠١) مجلة الثقافة ، من دراسة لفتحى رضوان ، العدد الثالث ، ديسمبر ١٩٧٣ ص١٠ .

الضخمة من الكتب التى صدرت فى دراسة الكتاب والتعليق عليه ونقده ، كانت اعترافا بأهمية الكتاب وأثره ومدى ما أثاره من قضايا أدبية وتاريخية " (١٠٢) .

ولقد اتضح أن أغلب التهم التى رمى بها طه حسين أنه استقى آراءه من دراسة المستشرق الإنجليزى مرجليوث عن أصول الشعر الغربى القديم ، وساهمت بشكل أو بآخر ما انتهت إليه دراستهما من المشابهة فى استخلاص النتائج فى تأكيد هذا الاتهام ، وبالتالى فى تجريح أمانة طه حسين العلمية ، والباحث المنصف لا ينساق وراء هذه القضية دون أن يلم ببعض الأمور ، حتى لا يصدر أحكام عشوائية ، تصطدم بالواقع وتؤدى إلى نتائج عقيمة ، ومن الملاحظات التى يجب التعرض لها :

- أن مرجليوث قال إن " فكرة الكتاب مشابهة لتلك الفكرة التى أدرت حولها بحثى عن أصول الشعر الجاهلى ، والذى نشر فى هذه المجلة فى نفس الوقت تقريبا الذى ظهرت فيه طبعة الكتاب الأولى ، وقد توصل كل منا مستقلا عن الآخر إلى نفس النتائج ، ولقد استطاع الأستاذ القاهرى بمهارة فائقة ، أن يرصد الدوافع التى أدت إلى تزييف الأشعار فى العصور الإسلامية ، ونسبتها إلى شعراء الجاهلية " (١٠٣).

- نشر مرجليوث بحثه عن أصول الشعر الجاهلى فى يوليه ١٩٢٥ بينما أصدر طه حسين كتابه "فى الشعر الجاهلى" فى مارس ١٩٢٦ ، وكان هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من المحاضرات ناقشها مع طلابه بكلية الآداب جامعة القاهرة حتى تيقن من صحتها ومن ثم جمعها ونشرها ، وقد استغرق ذلك بعض الوقت ، وهذه الفترة الزمنية تثبت عدم ارتباطها ببحث المستشرق مرجليوث .

- قضية الانتحال قضية قديمة ، تناولها العديد من اللغويين ، وقد أتيح لكل من طه حسين ومرجليوث دراسة كل ما يتعلق بهذه القضية من الكتابات السابقة ، ومن ثم التعرف على جوهر القضية المعروضة ولهذا ليس لأحدهما فضل ابتداعها ، لأنهما تابعا سيرة القدماء ولكن وفق طرق جديدة ، ولعل هذا التشابه فيما توصلا إليه

---

(١٠٢) د. محمد عبد المنعم خفاجى وآخرون ، طه حسين وقضية الشعر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ ص٨٤ .

(١٠٣) د.إبراهيم عبد الرحمن محمد ، فى بحثه " نقاد طه حسين بين التقليد والسماع " بحوث مهرجان طه حسين الحادى عشر بكلية الآداب جامعة المنيا ١٩٨٥م ص٢٠. -وانظر النص الكامل للمقالة التى كتبها مرجليوث فى براءة الأدب العربى ص ٢٢،٢٣ .

كان نتيجة أنهما قد " صدرا عن منهج بعينه فى دراسة الشعر الجاهلى دراسة توثيقية وتقويمية ، هو منهج النقد العلمى الذى أشرنا إليه فيما مضى ، وهو منهج كان سائدا ومسيطرا فى أوائل القرن العشرين وهو منهج كما رأينا يفرض على الناقد أن يرى فى الأديب وما ينشئه من شعر ونثر مرآة تنعكس عليها ظروف حياته وبيئته ، وقد أخلص طه حسين كما أخلص مرجليوث فى تطبيق هذا المنهج على الشعر الجاهلى ، ومن هنا تشابهت آراؤهما وإن لم تتطابق تماما ". (١٠٤)

والجدير بالذكر أن آراء طه حسين ومرجليوث وغيرهم تأسست على آراء القدامى من علماء اللغة ورواة الأخبار والأشعار " وإن مصطلحات نقدية حاشدة قد استقرت أصولها ، وترسخت جذورها فى ذلك السفر الجليل ، وهى الآن بعد أن دار بها الزمان ، وتداولتها الأيام ، فتعدلت لذلك أشكالها أو اختلفت مدلولاتها ، أو تطورت مفهوماتها ، ما تزال ـ أول الأمر وآخره ـ مدينة لابن سلام بأنه واضع جذورها ، وصاحب أصولها "(١٠٥)

من هذا كله يتضح أن مجرد المشابهة بين ما توصل إليه طه حسين ومرجليوث لا يصح أن يكون تبريرا لكل هذه الأحكام الظالمة ، والتى تسيء لمكانة طه حسين العلمية ، وتربط بين نظريته وأفكار مرجليوث الذى اعترف نفسه أنه لم يتوصل فى بحثه إلى كل ما توصل إليه طه حسين .

وطه حسين يتمتع بشخصية مستقلة فى كتابة أبحاثه العلمية ، ولقد تغير موقفه إزاء الشك الذى اتخذه كمنهج ليصبح داعية للشعر الجاهلى يشرحه ويفسر معانيه ويكشف عن قيمه الجمالية ، ويستعرض حياة شعرائه ولعل هذا يبرهن على أن هدفه تطوير مناهج البحث فى الشعر العربى " ومن الغريب أن الذين عارضوا نظرية طه حسين ورفضوا أحكامه على رواية الشعر الجاهلى ، هم أنفسهم الذين استجابوا لدعوته إلى تحقيق النصوص القديمة وتصحيحها ، وإعدادها للدراسة الفنية ، وهم الذين نهضوا

---

(١٠٤) د. إبراهيم عبد الرحمن محمد، فى بحثه " نقاد طه حسين بين التقليد والسماع" بحوث مهرجان طه حسين الحادى عشر بكلية الأداب جامعة المنيا ١٩٨٥ ص١٩ .

(١٠٥) مجلة فصول ، المجلد السادس ، العدد الثانى يناير ، فبراير ، مارس ١٩٨٦ ، بواكير المصطلحات النقدية ، قراءة فى كتاب" طبقات الشعراء" لابن سلام الجمحى للدكتور رجاء عيد ص١٠٧.

بعلم تحقيق التراث حتى أثمر ثمرات طيبة فى جميع النصوص القديمة ونشرها فى صورة علمية موثقة ". (١٠٦)

ولقد تعرض طه حسين للكثير من الحملات الظالمة فى حياته وبعد مماته ، حيث اندفع الكثيرون بقصد مهاجمته " والطعن فى دينه وعلمه ، ورد آرائه بالحق حينا وبالباطل فى كثير من الأحيان ، ولعل فى ذلك كله ما يفسر هذه الضوضاء العالية التى أحاطت بنشر كتاب يهاجم فيه مؤلفه التراث الشعرى لبيئة وثنية وقفت فى وجه الإسلام زمنا ، ودعا الإسلام نفسه إلى إهمالها والقضاء على معارفها الوثنية ".(١٠٧)

ولقد كانت أغلب التهم التى وجهت إلى طه حسين نتيجة للمنهج العلمى الذى طبقه فى أدبنا العربى " وما كان الرجل بملحد وإنما اتجه إلى فكر حر جديد ينسجم مع دراساته وقراءاته " (١٠٨)

إن إقفال عيون البعض عن الأعمال العظيمة التى قدمها طه حسين للإسلام والمسلمين فى العصر الحديث لا يضر إلا المسلمين أنفسهم حيث " كان طه حسين ثورة على القديم وحرر الأدب من الضعف الذى لحق به فى السنوات التى عاصرها ، فاتهموه بالإلحاد ".(١٠٩)

والمتأمل يجد أن طه حسين قد نجح فى أن يتخذ من نظريته "مجالا يحاول أن يبرز فيه مؤكدا أنه كعربى لا يمكن أن يكون دون مرجليوث الأجنبى فى الاستنباط وإذا كان هناك من يخالف نظرية طه حسين ، من أن " هذا الكتاب قائم على أن الشعر الجاهلى وثيق الصلة بحياة العرب ما جل منها وما صغر ". (١١٠)

فإن هناك من يؤكد أن الشعر الجاهلى قبيل الإسلام بما تميز به من الفصاحة وجمال الأسلوب كان ضرورة لفهم القرآن والقدرة على استيعابه " ومما لاشك فيه أنه لو لم يصلنا الشعر الجاهلى ، لكان من واجبنا أن نتساءل عنه بعد قراءة القرآن ، لأن

---

(١٠٦) دكتور إبراهيم عبد الرحمن محمد ، الشعر الجاهلى ، قضاياه الفنيه والموضوعية ، مكتبة الشباب ص١٤٥. (١٠٧) نفسه ص ١٤٦.

(١٠٨) د. مصطفى عمر ، القصة وتطورها فى الأدب العربى ص١٢٨ . (١٠٩) نفسه ص ١٢٨ .

(١١٠) د. أحمد الحوفى ، الحياة العربية فى الشعر الجاهلى ص٣ .

هذا الكتاب لا يمكن أن يأتى بفصاحته وبلاغته وإعجازه ، دون أن تسبقه ثقافة متطورة تسود المجتمع ".[111]

وبعد هذا العرض لنظرية طه حسين حول الشعر الجاهلى ، فقد لمسنا من خلالها أنه لم يتورط فى شيء يمس عقيدته ، فهو مسلم يحترم دينه ، وأن ما ذكره حول الشعر الجاهلى واللغة والذى تسبب فى اتهامه من قبل البعض بالخروج عن الدين ، لا يعدو أن يكون سحابة صيف لأديب خدم العروبة والإسلام ويكفى ما ذكره وكيل النيابة فى تقريره حول كتاب " فى الشعر الجاهلى " ، " إن للمؤلف فضلا لا ينكر فى سلكه طريقا جديدا للبحث حذا فيه حذو العلماء من الغربيين، وحيث إنه مما تقدم يتضح أن غرض المؤلف لم يكن مجرد الطعن والتعدى على الدين "[112]

---

(١١١) د. مصطفى الشورى ، مدخل إلى دراسة الشعر الجاهلى ١٩٨٤ ص٤٢.

(١١٢) مجلة فصول ، المجلد التاسع العددان ١، ٢ طه حسين والعقاد ص٢٤، ٢٥ قرار وكيل النيابة فى كتاب الشعر الجاهلى .

الفصل الثانى

شعراء العصور الإسلامية

١- تمهيد

٢- أبو الطيب المتنبى

٣- أبو العلاء المعرى وآثاره الأدبية

٤- حافظ إبراهيم

٥- أحمد شوقى

١-تمهيد

قبل أن يشرع طه حسين فى تناول هؤلاء الشعراء الإسلاميين نجده يلقى الأضواء حول العصر الإسلامى الأدبى ، مبينا الخلاف بين التاريخ السياسى وبين التاريخ الأدبى ، ويقرر " أن التاريخ السياسى يجعل بداية العهد الإسلامى مع بداية ظهور الإسلام ، ويفتح صفحاته بظهور الدعوة الإسلامية ، ولكن التاريخ الأدبى لا يتقيد بالتاريخ السياسى ، ولا يرتبط به ابتداء كما لا يرتبط بها انتهاء ، فليس العصر الإسلامى أدبيا هو عصر ظهور الإسلام "(١)

يتضح من ذلك أن الشعراء الإسلاميين هم الذين تأثروا بالقيم الإسلامية فى عقيدتهم وسلوكهم وأنماط تفكيرهم ، ومعايشتهم للبيئة الإسلامية وإن تعبير " شعراء إسلاميون " يجب أن نفهم منه شيئا واحدا هو هؤلاء الشعراء الذين ولدوا ونشأوا فى بيئة إسلامية ، على ما يكون من تفاوت أحيانا فى عمق استجابة هذه البيئة للإسلام" (٢)

ويربط طه حسين بين شخصية الشاعر وشعره ، وتكوينه الثقافى وبيئته ومختلف المؤثرات التى أثرت فى بنائه ، ومدى وفائه لمجتمعه فى أدبه ، من حيث التزامه به ، "فالشاعر أو الكاتب لا يستمد أدبه من شخصه وحده ، وإنما يستمد أكثر فنه وأكثر شخصيته من أشياء أخرى ليس له حيلة فيها ، وليس لطبيعته ومزاجه وفرديته فيها كل ما نظن من التأثير" (٣) .

ويستعرض طه حسين بعض الشعراء الإسلاميين ، من هؤلاء حسان بن ثابت الذى عاش فى الجاهلية شاعرا معروفا ، وكان فنه الأدبى مكتملا تام التكوين ، وأضافت معايشته للرسول عليه الصلاة والسلام الكثير من القيم التى التزم بها فى نتاجه الشعرى بصفة عامة .

ومن الشعراء الذين كانت استجابتهم للإسلام متواضعة الشاعر الحطيئة إذ "لم يكن إسلامه كما كان إسلام غيره من الشعراء الذين عاشروا النبى ودافعوا عنه ، وإنما كان إسلاما ضعيفا ، ولعله أسلم خوفا وطمعا أكثر من أى شىء آخر فقد ارتد مع ارتداد بعض العرب ، ولما عاد المرتدون عاد معهم ، وظل يعيش الجاهلية القديمة

---

(١) طه حسين ، من تاريخ الأدب العربى ، العصر الجاهلى والعصر الإسلامى ، المجلد الأول دار العلم للملايين بيروت ط٤ ص ٤٦٤. (٢) نفسه ص ٤٧٦ .

(٣) طه حسين ، حديث الأربعاء ج١ ص١٣٠ .

، وظل أدبه جاهليا فى منازعه وأسلوبه وموضوعاته".[٤]

أما الشاعر لبيد الذى أدرك الإسلام وهو كبير السن ، فقد قدمه طه حسين مبينا إمكاناته المتعددة التى اكتملت ، واتجاهه الفنى الذى تحدد ، ثم اشتغاله بقضايا القرآن وإيثاره بالبحث والدراسة ، وقد قال للمغيرة بن شعبة والى الكوفة عندما استنشده : " قد أبدلنى الله بالشعر خيرا منه ، يعنىالقرآن المعجز".[٥]

وأشار طه حسين إلى ضرورة توخى الدقة وعدم التعميم عند التعريف بالشعراء الإسلاميين ، "فليس كل أولئك الذين ولدوا فى العصر الإسلامى بعد بعثة النبى كانوا شعراء إسلاميين ، إن منهم الذين حالت بعض ظروف نشأتهم أو تربيتهم بينهم وبين أن ينطبعوا انطباعا كاملا بالإسلام". [٦]

وقد استدل على هذا بالأخطل والفرزدق وجرير ، فالأخطل ولد فى العصر الإسلامى ولكن هذا لا يكفى ليجعل منه شاعرا إسلاميا لأنه ولد فى بيئة نصرانية ونشأ فيها .

وبالنسبة للفرزدق فإنه يمثل وجها آخر للتفكير ، فهو شاعر إسلامى ولد فى الإسلام فى عهد عمر أو عثمان ولم يتصل بالجاهلية ، ونشأفى بيئة إسلامية محافظة كان لها كبير الأثر فى شعره ، اتضح فى ألفاظه ومعانيه وأساليبه وأخيلته إذ طبعت كلها بطابع المحافظة على هذه القيم البدوية ورعايتها .

والشاعر الإسلامى جرير يمثل وجها ثالثا لهذه الفكرة ، فهو شاعر مسلم حقا فى نشأته وبيئته واتجاهه فى رأى طه حسين ، فقد كانت ولادته بعد ظهور الإسلام وانتشاره ببيئات مختلفة كلها إسلامى فهو لذلك " شاعر إسلامى بأدق معانى العبارة ".[٧]

ويرى طه حسين " أن الحياة فى أمة من الأمم لا تنقلب إنقلابا فى مدة قصيرة من الضد إلى الضد ، تكون سوداء بالأمس ثم تصبح بيضاء اليوم ، مهما يكن من عنف الانقلاب أو الثورة ، وإن تحول الأمم من لون فى الحياة إلى لون آخر لا يكون بالوثبة وإنما يكون بالتطور ، ولو كانت الوثبة ممكنة فى كل حال لأصبح الشعراء الذين أدركهم الإسلام شعراء إسلاميين ".[٨]

ورؤية طه حسين صحيحة ، إذ لا يتم التغيير فى حياة الناس بصفة عامة ،

(٥،٤) طه حسين، من تاريخ الأدب العربى ج١ ص٤٦٥ . (٧،٦) نفسه ص ٤٦٦ . (٨) نفسه ص ٤٦٧

الشعراء بصفة خاصة طفرة ، وإنما يتطلب بعض الوقت ليواكب التطور والتغيير في مجريات الحياة ، وعند حدوث التغيير فإنه لا يكون بدرجة واحدة عند كل الناس إذ يتفاوت في مدى استجابتهم للمؤثرات الجديدة ، تبعا لمدى قبول واستعداد كل منهم ، وقد رأينا سرعة التغيير عند صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ تم التغيير في مدة وجيزة ، ولعل هذا يدل على إمكانية التغيير وفق الانفعال الصادق بالمؤثرات الجديدة والاستجابة لها ، ولو كان أحد هؤلاء الصحابة الكبار شاعرا ، لشهد التاريخ الأدبي نموذجا لشاعر جاهلي تحول إلى شاعر إسلامي يتمثل الإسلام والتغير الفكرى والنفسي الذى أحدثه الإسلام فى النفس والحياة .

ولو أن هؤلاء الشعراء الإسلاميين تمثلوا قيم الإسلام وتفهموها كما تمثلها هؤلاء الصفوة من صحابة رسول الله ، لظهر هذا التأثر واضحا جليا ومبكرا في شعرهم .

ويربط المؤلف بين البيئة كمؤثر اجتماعي وسياسي ، وفنون الشعر وألفاظه ومعانيه ، فشعراء الحجاز يكثرون من فن الغزل ويقلّون من المدح والهجاء ، استجابة للبيئة المرحة المبتهجة في الوقت الذى يقصر فيه بعض الشعراء في نجد وبادية العراق شعرهم على المدح والهجاء والفخر على مثل ما كان الحال قبل الإسلام ، ويخلص من ذلك إلى أن الشعر الإسلامي قد اختلف في معانيه وألفاظه باختلاف الأقاليم .

ولم تكن البيئة هي المؤثر الوحيد، حيث خضع الشعر الإسلامي لمؤثرات أخرى تتصل بالأحزاب السياسية و المذاهب المتعددة.

و طه حسين يعرض تأثير هذه البيئات على الشعر الإسلامي من خلال عنصرين " أحدهما العنصر الجغرافي ، والآخر العنصر التاريخي الذى يتمثل بالنسب ".(٩)

ويخلص طه حسين من استعراض العنصر الجغرافي إلى ازدهار هذا الشعر في بيئة الحجاز والعراق ، بينما ضعف هذا الشعر في بيئات الشام وشمال إفريقيا وبلاد شرق آسيا ، أما عنصر النسب فإنه يربط بين ازدهار الشعر الإسلامي في هذه البيئات وانتماء شعرائها إلى النسب العدناني ، " وأن الممازجة بين هذين العنصرين هي التى

---

(٩) نفسه ص ٤٦٩ .

فضت بتوزيع الشعرفى العصر الإسلامى ".[١٠]

وبالنسبة لتوزيع فنون الشعر المختلفة أوضح أن البيئات الإسلامية ساهمت فى وجود " هذا الشعر الغزلى فى الحجاز والشعر السياسى فى العراق ، وأنها حملت إلى الشام هذا الشعر الرسمى أو التقليدى الذى كان يقال فى المديح وفيما يسوق إليه المديح أحيانا من فخر وحماس وسياسة " [١١]

ولعل كثرة انتشار فن الغزل جاء نتيجة غلبة الترف على النفوس ، وكثرة مجالس الأنس ، وامتلاء العراق بالجوارى ، وطغيان المجون بانتشار الانحلال ، " ولكنى أجد أنه يحسن بنا قبل ذلك أن ننظر فى غزل العصر الإسلامى بوجه عام ، فلا نرده إلى هذه الوجوه المختلفة التى جاءت من اختلاف البيئات وتنوعها ، وإنما نرده إلى الأصل الدى انبثق عنه ونلون به وهو الإسلام". [١٢]

ويبين طه حسين أن موقف البيئات الإسلامية لم يكن واحدا تجاه الحكم الأموى ، وكان الشعر يساير كل هذه الظروف ، ومع ظهور المعارضة برز العديد من الشعراء للتعبير عنها والدعوة لها " وهكذا ترون أن بيئة العراق قد أثرت فى فن الشعر الذى كان يقال فى العراق ، وشقت أمامه الطريق إلى موضوعات جديدة هى هذه المعارضة السياسية وأعانت على إمعان الشعراء فى خوض المعارك السياسية على اختلاف أشكالها وفى ازدهار الشعر السياسى الذى مثل بعضه الكميت بن زيد مدافعا عن آل البيت ، ومثل بعضه الخوارج مثل قطرى بن الفجاءة وعمران بن حطان والطرماح مدافعين عن اتجاههم ومثل طرفا منه عبيد الله بن قيس الرقيات فى دفاعه عن الزبيريين ولن أنسى الشعراء الذين كانوا يدافعون عن الأمويين من مثل الأخطل وجرير " . [١٣]

وقد استطاع طه حسين أن يحدد سمات الفن الأدبى وصفاته المميزة فى العصر الأموى ، وتمكن من إظهار الأسباب الأدبية والخلقية والسياسية التى دعت إلى ظهوره أو ذبوله ثم فنائه خلال العصر العباسى ، وهذا أنفع للأدب العربى .

ويثير المؤلف قضية تدور حول أهمية القراءة فى كتب الأدب ، ويوضح أن اختلاف العصور شديد الأثر فى العقول وفى حاجتها وفى استعدادها للفهم والدرس " فقد كان القدماء يجدون فى أخبار أبى الفرج وفى أخبار الطبرى ما يكفيهم ويسد

---

(١٠) نفسه ص ٤٧٣. (١١) نفسه ص ٤٧٥،٤٧٦. (١٢) نفسه ص ٤٧٧. (١٣) نفسه ص ٤٧٥

حاجتهم إلى الحفظ والرواية وكان ما كتب أبو الفرج والطبرى وغيرهما من الأدباء والمؤرخين ملائما كل الملائمة لعقول هؤلاء الناس الذين كانوا لا يبغون من الأدب مثلما نبغى نحن الآن ".(١٤)

ويريد من الشباب والشيوخ فى مصر فهم الكتب الأدبية على الوجه الذى يلائم طريقتنا ومنهجنا فى الدرس والتحليل لتعم الفائدة ، ثم يقول " إن كتابى الأغانى وتاريخ الطبرى وأمثالهما ليست كتب أدب وتاريخ، وإنما هى مصادر للأدب والتاريخ، ومن هنا نستطيع أن نقول إن اللغة العربية تخلو إلى اليوم من كتب الأدب والتاريخ إلى أن يتيح لها الله كتبا فى هذين الفنين تلائم عقولنا الحديثة ، وتحقق أطماعنا الحديثة ، وترضى حاجاتنا العلمية والفنية ".(١٥)

لهذا كان طه حسين يرى أن الأدباء والرواة لم يفهموا عصر بنى أمية على وجهه ، وإنما تورطوا بالقياس إليه فى ألوان من الخطأ مصدرها فى أكثر الأحيان أنهم لم يحكموا العقل والنقد ، إنما اكتفوا بالذوق وعدالة الرواة ، ولهذا يرى أن الأصل فى الكتابة كالأصل فى الشعر ، تخير اللفظ الفصيح الرصين الجزل للمعنى الصحيح والملاءمة بين اللفظ واللفظ ، والمعنى والمعنى ، مع الحرص على الإعراب والإيثار للألفاظ الصحيحة التى تقرها اللغة ".(١٦)

ويشير طه حسين إلى أن اهتمامه بفن الغزل لم يكن للبحث عن هؤلاء العشاق " فلست أبحث عن هؤلاء العشاق فهم لايعنوننى ، وإنما أبحث عن واضع هذه القصة ، وقيمته ومقدرته فى الشعر والنثر ، أبحث عن هذا الفن الأدبى الذى لم يكن للعرب به عهد قبل الإسلام والحضارة الإسلامية ، والذى ظهر بعد الإسلام وحين أخذت الحضارة الإسلامية تزهر وتبسط سلطانها على العقول ".(١٧)

ويتخذ طه حسين فى عرضه منهجا يقوم على البحث والنقد والتحقيق والتحليل " ولا نكاد نفرق فى ذلك بين الأدب والعلم ، ونحن محقون ، لأننالانبغي من الأدب والتاريخ رواية الأعاجيب والعظات ، ولا إرضاء الذوق والميل الفنى ، وإنما نتخذ الأدب والتاريخ مرآة للأمم ، وسبيلا إلى فهم حياتنا العقلية والشعرية ، وإلى فهم ما خضعت له من ألوان النظم المختلفة ".(١٨)

(١٤،١٥) نفسه ص ٤٩٤. (١٦) طه حسين ، ألوان ص١٦.

(١٧) طه حسين، تاريخ الأدب العربى المجلد الأول ص ٤٩٢. (١٨) نفسه ص ٤٩٤.

وحول ظهور فن الغزل فى منطقة الحجاز يذكر طه حسين أسباب ذلك " فقد كان أبناء المهاجرين والأنصار فى مكة والمدينة مثرين ، كانت أيديهم ممتلئة بما ورثوا من هذا الفيء الذى أفاءه الله على آبائهم أيام الفتح ، ثم كانوا يحتفظون بمكانتهم ، ويمثلون الأرستقراطية العربية ، ثم كان الخلفاء يصانعونهم وإن كانوا يعاملونهم معاملة قاسية ".(١٩)

وبجانب فن الغزل ، ظهر فى بادية الحجاز الزهد وشيئا يشبه التصوف ، ويعلل طه حسين ذلك بأن أهل بادية الحجاز " كانوا فقراء فلم يتح لهم اللهو ، وقد حيل بينهم وبين حياتهم الجاهلية ، وقد تأثروا بالإسلام ، وبالقرآن خاصة ، فنشأ فى نفوسهم شيء من التقوى ليس بالحضرى الخالص ، وليس بالبدوى الخالص ولكن فيه سذاجة بدوية ، وفيه رقة إسلامية ، وانصرف هؤلاء الناس عن حروبهم وأسباب لهوهم الجاهلى ، كما انصرفوا عن الحياة العملية فىالإسلام إلى أنفسهم ، فانكبوا عليها واستخلصوا منها نغمة لا تخلو من حزن ولكنها نغمة زهد وتصوف ".(٢٠)

ويوضح طه حسين أن أهل البادية ظلوا يلقون من الضيق ويقاسون من الشظف مثلما كانوا يلقون ويقاسون فى العصر الجاهلى ، حيث إنهم لا يكادون يستمتعون بشيء من هذه الثروة الضخمة التى أفاءها الإسلام على المسلمين " وربما كان من الحق أن نلاحظ أن هؤلاء الناس من أهل البادية كانوا قد احتملوا أعباء فى الإسلام لم يكونوا يحملونها فى الجاهلية أريد أعباء الصدقة والزكاة ، فقد كانوا قبل الإسلام أحرارا لا يؤدون إتاوة ولا يخضعون لنظام إلا ما اصطنعوا لأنفسهم من نظمهم الخاصة فيما بينهم ، أما بعد الإسلام فقد ضربت عليهم الضرائب وأخذوا بالصدقات فى سائمتهم ، ولعل ما كانوا يظفرون به بعد الكد من ثمرات الأرض لم يكن بمأمن من العشر ، وإذن فقد ضيقت الحياة الجديدة عليهم بعض التضييق ".(٢١)

ويضيف المؤلف أن إقرار الإسلام للسلام بين القبائل البدوية قد حال بينها وبين ما كانت تتخذه مجدا وشرفا ومكسبا من الغزو وضروب الإغارة " ثم لا تنس أن الإسلام قد أدخل النظام فى الحياة العربية ، فقيد حرية الفرد والجماعة بهذه القيود المعروفة ، وإذن فقد كانت الحياة المادية عند أهل البادية بعد الإسلام شرا مما كانت عليه قبل الإسلام ، ولهذا لم تدم الحياة الإسلامية المنظمة فى البادية طويلا ".(٢٢)

---

(١٩) نفسه ص ٤٩٨. (٢٠) نفسه ص ٤٩٨،٤٩٩ (٢١،٢٢) نفسه ص ٥٢٦،٥٢٧ .

ولعل طه حسين قد بالغ فى حديثه حول التأثير المادى عند أهل البادية بعد دخولهم الإسلام ، فلم يكن الإسلام دين جباية ضرائب بل دين دعوة للهداية والتعاون والازدهار ، ولم يكن النظام الإسلامى بما يكفله من السلام والحرية قيدا على الحرية الفردية ، ولهذا نجد المؤلف يشيد بأثر الإسلام عند هؤلاء البدو من الناحية العقلية " وحسبك أن تقارن حياة بدوية متأثرة بهذه الطائفة من الآراء التى يتأثر بها الجاهليون ، بحياة بدوية أخرى متأثرة بالقرآن وما فيه من دين وخلق وأدب وحكمة ونظام ، لتشعر بالفرق بين نفسية البدوى المسلم فى أول عهد الناس بالإسلام ، ونفسية البدوى الجاهلى ، كان الفرق عظيما وكان التوازن مختلا بين الحياة العقلية والحياة المادية ".(٢٣)

ويبرز طه حسين أثر القرآن والحياة الإسلامية على الشعراء الإسلاميين حيث ظهر الغزل العذرى العفيف ، وأصبح للغزل معنى آخر ، وهو " أن غزل هؤلاء الشعراء الإسلاميين أرقى بكثير من غزل الجاهليين من حيث إن غزل الجاهليين كان ماديا خالصا فى حين كان فى غزل الإسلاميين شىء غير المادة ".(٢٤)

ويرى طه حسين أن حياة الشعراء الإسلاميين خليقة بالدرس والعناية ، فهم زهرة الأرستقراطية الإسلامية وذلك " لأنه كان قد قدر أن أبناء الذين أسسوا الدولة الإسلامية الأولى يجب أن يكون لهم أثر عظيم فى حياة المسلمين ، فلو أن الخلفاء من بنى أمية أشركوهم فى حديث الأمر كما اشترك آباؤهم فى قديمه لتغيرت من غير شك وجهة الحياة السياسية الإسلامية ، ولقامت دولة بنى أمية على الشورى لا على الاستبداد ، ولحيل بين المسلمين وبين الثورات التى مزقت دولهم تمزيقا ".(٢٥)

ويشير طه حسين لثورة وجهاد هؤلاء الشباب الحجازى ، حيث يذكر ثورة ابن الزبير ، وخروج الحسين بن على كمظهر لهذا الجهاد " ورأينا أبناء أبى بكر وعمر وعثمان وزهرة الشباب الهاشمى مضطرين إلى أن يحيوا فى ضياعهم ، فأما أكثرهم فانصرف إلى اللهو والمجون ، وأما أقلهم فانصرف إلى الدين والتقى ووقف فريق بين بين ، يحتفظ بمكانته الدينية ، ويأخذ مع ذلك بحظه من متاع الحياة ".(٢٦) ولعل ذلك كله كان سببا فى إثراء الحياة الأدبية والحضارية بالغزل والغناء البعيد عن الفحش " بل إنك ترى الفقهاء والمحدثين وأصحاب الزهد والنسك يستعذبون هذا الظرف الحجازي ويستحبونه ولا يتحرجون من الاستماع له بل من الاشتراك فيه ما

---

(٢٣) نفسه ص ٥٢٧. (٢٤) نفسه ص ٥٣١،٥٣٠. (٢٥) نفسه ص ٥٤٤. (٢٦) نفسه ص ٥٤٥ .

ظل حجازيا ".[٢٧]

ويوضح طه حسين أن الحياة السياسية فى العصر الأموى هى التى اضطرت أهل الحجاز إلى الابتعاد عن العمل وأوقعت فى قلوبهم اليأس ولكنها أغنت قوما منهم فلهوا وأفقرت قوما آخرين فزهدوا وطمحوا إلى المثل الأعلى.

ويؤثر طه حسين درس الغزلين الحاضرين عن غيرهم من البادية ، باعتبار أنهم يمثلون الحضارة الإسلامية كما أن لهم شخصياتهم البارزة وآثارهم القوية .

ويؤكد طه حسين على أن البيئات الإسلامية المختلفة ساعدت على وجود فنون مختلفة من الشعر منها الشعر الغزلى فى الحجاز والشعر السياسى فى العراق والشعر التقليدى المتضمن للفخر والحماسة والسياسة فى بلاد الشام .

ويشير إلى أن فن الغزل فى مكة كان أدنى إلىالعفة حيث كانت بيئة مكة تحتفظ بسلطانها القديم فى الحياة الاجتماعية والتقاليد العربية ، بينما ظهر الغزل فى المدينة أدنى إلى الإسراف والمجون ولعل ذلك يرجع إلى كثرة الاضطرابات وضعف سلطان المحافظة على التقاليد ، علاوة على كثرة الموالى الذين كان منهم طائفة من المغنين وأصحاب المجون ، كما وجد فى البادية شعر شعبى يصور أمال وآلام وطموحات أهل البادية وهو شعر الشعراء العذريين " فهناك فنون نشأت فى الإسلام ولم يكن شأنها فى الجاهلية خطيرا والغزل واحد منها ".[٢٨]

وإذا كان الغزل قبل الإسلام تمهيدا يقدمه الشاعر قبل الشروع فى تناوله للأغراض الأخرى ، فإنه فى العصر الإسلامى قد أصبحت للغزل قصائد كاملة كفن خاص. والغزل يقسمه طه حسين إلى غزل العذريين وغزل المحققين والقسمان بيئتهما الحجاز "أما الشام والعراق ، وهما الإقليمان اللذان كانا مجتمع الحياة السياسية الأموية ، إذ كانت الشام مستقر الخلافة وكان العراق مستقر المعارضة ، أقول : أما الشام والعراق فلا نجد فيهما إلا نوعين من الشعر : أحدهما الشعر العادى من مدح وهجاء ووصف ، والثانى الشعر السياسى الذى كانت تتناضل فيه الأحزاب ".[٢٩]

ويرى طه حسين أن عمر بن أبى ربيعة أصدق مثال للعصر الأموى والبيئة الحجازية كما أن أبا نواس يمثل الحياة البغدادية فى العصر العباسى فلست أعرف شاعرا إسلاميا استطاع أن يمثل العصر الذى كان يعيش فيه ، والبيئة التى كان يحيا

---

(٢٧) نفسه ص ٥٤٦. (٢٨) نفسه ص ٤٧٧. (٢٩) نفسه ص ٤٩٦.

فيها ، كهذين الرجلين اللذين نستطيع أن نتخذهما مرجعا فى درس الجماعة التى كانت تحيط بهما ".[٣٠]

ويقرر المؤلف أن انقطاع عمر بن أبى ربيعة عن أمور السياسة خير للمؤرخ* الذى يريد أن يدرس الحياة الأدبية والاجتماعية فى الحجاز لأنه أتاح لنفسه التصور الرائع للحياة الحجازية فى العصر الأموى وكان صادق اللهجة فى غزله ، كما أنه ابتعد عن الغزل الهجائى الذى اتخذه ابن قيس الرقيات وسيلة من وسائل الخصومة السياسية ، لا يريد به إلا أن يغيظ خصومه السياسيين بذكر نسائهم والتحبب إليهن.

ويتجه طه حسين لتوضيح أثر البيئة الإسلامية فى حياة الأخطل شاعر بني أمية ، إذ لم يكن مدحه لهم نتيجة خصومات شعرية ساذجة كما كان ذلك سائدا فى العصر الجاهلى بل كانت " وراء المديح عند الأخطل خصومة سياسية لها خطرها فى حياة المسلمين جميعا ".[٣١]

ولقد تغيرت الحياة العربية فى القرن الأول تغيرا عظيما فى الناحية الاجتماعية والفكرية وغيرها وكان للعنصر الدينى كبير الأثر فى هذا التغيير .

٢- أبو الطيب المتنبى : ٣٠٣ - ٣٥٤ هـ

أقبل طه حسين محللا لحياة المتنبى مهتما بدراسة شخصيته وبيئته وشعره ، وفق منهج النقد الطبيعى والتأثرى ، حيث اتجه لدراسة شخصية المتنبى من خلال ظروف البيئة والعصر والوسط الاجتماعى بكل ما يحتويه من تيارات ثقافية وفكرية " وكان طه حسين حريصا على استخراج هذه البراهين من بيئة الحياة الإسلامية فى آخر القرن الثالث وأول القرن الرابع فى أشكالها المختلفة : السياسية والاجتماعية والثقافية وهى تلك الفترة المضطربة التى شهدت مولد المتنبي ووفاته ، كما كان حريصا على أن يربط ربطا وثيقا بين هذه البيئة وبين ظروف المتنبي النفسية ". [٣٢]

وأشار طه حسين إلى أن نشأة المتنبي كانت ثمرة للاضطراب السياسى والفساد الاقتصادى والاجتماعى ، وكان عقله نتاجا للازدهار الحضارى الذى تميزت

---

(٣٠) نفسه ص ٥٩٤ . (٣١) نفسه ص ٦١٩ .

(٣٢) د. عبده بدوى وآخرون ، طه حسين وقضية الشعر مقال د.ابراهيم عبد الرحمن محمد ص١٠٥ .

به البيئة الإسلامية خاصة فى العراق " وكان العراق بالضبط أخصب مركز لهذه الحضارة الناضجة الراشدة المثمرة ، فيه التقت أكثر الأجناس استعدادا للحضارة ، وأحسنها بلاء فيها ، وأعظمها حظا من الإنتاج قديما وحديثا ". (٣٣)

ويوضح طه حسين إلى أن اختلاط العديد من الجنسيات ورقى* العقل والثقافة والعلم قد ساهم فى قيام العديد من الثورات التى كانت تبتغى إجراء التغيير فى الحياة الاقتصادية وتحقيق العدل والمساواة بين الأفراد والجماعات وتحرير الشخصية الإنسانية من القيود والأغلال .

ويتابع المؤلف حياة المتنبى فى الكوفة ثم ارتحاله إلى البادية حيث نما جسمه وعقله وفصح لسانه " وتعلم أصول القرامطة وعرف مذاهبهم النظرية والعملية معا "(٣٤)

وقد أقبل المتنبي على بغداد حانقا على النظام الاجتماعى والسياسى وخرج منها إلى الشام وهو أكثر سخطا على النظام الاجتماعى وتوزيع الثروة بين الناس مما دفعه إلى التمرد على السلطان والنظام ، ويرى طه حسين أنه سافر بقرمطيته إلى الشام ليدعو إليها هناك ، ولهذا تميز شعر المتنبي فى هذه المرحلة بشيئين " أحدهما آراء قرمطية تظهر فى هذا الشعر من حين إلى حين ، لأنها هى آراء الشاعر ، وهى قوام حياته وتفكيره ونشاطه الخفى ، فلا يستطيع الشاعر أن يمحوها من آثاره الأدبية محوا ، والآخر تحفظ واحتياط ، وإيثار للعافية يدفع الشاعر إلى أن يخفى آراءه ما استطاع إذا خاف أو شك ".(٣٥)

ويتابع المؤلف رحلة المتنبى إلى الشام حيث الاضطرابات على الحدود مع الروم والصراع بين العباسيين والإخشديين علاوة على شدة البخل الذى كان يلقاه كلما مدح أميرا أو شريفا ساهم كل ذلك فى احتدام غضبه وثورته مما دفعه إلى هذه الأبيات قائلا فى وصف الحسان الكوفيات :

يترشفن من فمى رشفات ... هن فيه أحلى من التوحيد

فقد ذكر حلاوة التوحيد فى لهجة الساخر المستهزىء ، ثم يمضى فيقول :

ما مقامى بأرض نخلة إلا ... كمقام المسيح بين اليهود

فهو يشبه نفسه بالمسيح ، ويشبه المسلمين باليهود ، وتجاوز أكثر عندما قال:

---

(٣٣) طه حسين، تاريخ الأدب العربى ج٣ص٣٤ (٣٤) نفسه ص ٤٧ . (٣٥) نفسه ص ٦٠ .

أى محل أرتقـــــــى	أى عظيم أتقـــــــى
وكل ما قد خلق اللـــ	ــه وما لـم يخلـــق
محتقر فــى همتـــى	كشعــرة فى مفرقـــى

وقد وقف طه حسين مع المتنبى وقفات طويلة في مرحلة من مراحل حياته ، يوضح من خلالها ظروف البيئة وما طرأ على نفسيته من تحول ، من ضعة النسـب ، وفقر أسرته واعتناقه المذهب القرمطى الذى نشأفى البادية على أيامه .

ولعل أفضل مرحلـة فـى حياة المتنبـى تلـك التـى مـدح فيهـا سيف الدولـة الحمدانى الذى ناضل عن الإسلام وحمى ثغور المسلمين من قبل الروم " ومن هنـا نجد فى وصف المتنبى لحروب سيف الدولة عند الثغور فتوة عربيـة اجتماعيـة ، إن صح هذا الوصف ، ونرى هذه الفتوة العربية الاجتماعية تشيع فى وصف المتنبى حيـة قوية مضطربة شديدة الاضطراب ، كأنهـا الكهربـاء لاتكـاد تتصـل بهـذا الشـعر حتـى ينتقل إليك ما صوّر فيه المتنبى من حياة هؤلاء المجاهدين، وما كان يملؤها من نشـاط فيه الأمل والابتهاج ، وفيه الاكتئاب والابتئـاس ، وفيـه الثقـة بـالنفس والإيمـان بـالحق والارتفاع عن صغائر الأمور دائما "[٣٦]

ويرد طه حسين على بلاشير فى عدم تذوقه جمال شعر المتنبـي فـى وصـف المعارك ضد الروم بقوله " فجنسـية الأسـتاذ واختـلاف مزاجـه وطبعـه ، وأذكـر دينـه أيضا ، كل هذا يجعل تأثره بهذا النحو من شعر المتنبي قليلا ضئيلا وربما جعله تـأثرا عكسيا ، وربما دفع الأستاذ إلى الغض من هذا الشعر و الازدراء لـه ، أمـا نحـن فـإن هذا الشعر يثير فى نفوسنا عواطف أخرى ، ويستتبع فيها حركات لا تنتظر من نفس الأستاذ بلاشير وأمثاله من العلماء الأوربيين ".[٣٧]

ويرى طه حسين أن إعجاب المتنبي بموقف سيف الدولة وثباته لحماية الدولة الإسلامية أمام الامبراطورية الرومانية كان موقفـا عظيمـا ولا يمكـن أن يوصـف بأنـه مسرف متكثر يتجاوز الحق ويفسد التاريخ .

ولم يقتصر وصف المتنبى على معارك سيف الدولة مـع الـروم بـل معاركـه الداخلية التى امتلأت بالخسة والغـدر والخيانـة " والذيـن يدرسـون تـاريخ هـذا العصـر درسا مفصلا دقيقا يعلمون أن أثرة الملوك والأمراء وتنافسهم فى السيادة والقوة ، قد

---

(٣٦) نفسه ص ١٦٨ .   (٣٧) نفسه ص ١٦٩ .

تجاوزوا فى ذلك الوقت كل حد معقول حتى تغلبا أو كادا يتغلبان على الشعور الإسلامى الخالص ، فضلا عن اجتماع الرأى على مذهب بعينه من المذاهب الإسلامية ، فقد كان من هؤلاء الملوك من لا يكره أن يعين الروم على خصمه سرا أو جهرا برغم أنه كخصمه مسلم ، وأن الروم عدو له ولهذا الخصم ، وكان من هؤلاء الملوك من لا يكره أن يعين القرامطة على خصمه سرا أو جهرا برغم أنه متفق مع خصمه فى بغض النظام القرمطى والفساد القرمطى فى السياسة والدين جميعا ".[٣٨]

ولعل إخلاص المتنبى لسيف الدولة كان دافعا لتحوله عن مذهبه القرمطى وبغضه إياه والوقوف ضده ومحاربته والإشادة بدور سيف الدولة فى مواجهته ، وهكذا أحس المتنبى بقوة إيمانه نفسه وصدق عزيمته التى صقلها الجهاد المتصل ضد الروم وغيرهم وقد كانت هذه الشخصية القوية وتلك الكبرياء سببا فى تركه سيف الدولة وهروبه إلى كافور الإخشيدى فى مصر بعد رحلة استمرت تسع سنوات ، تكاملت خلالها حاجة البطل المسلم إلى شاعر عظيم يمجد انتصارته ويثير حماسته ، ويرى طه حسين أن بيئة سيف الدولة كانت " سببا فى هذه النقلة الفنية التى حققها شعره ، بفضل ثقافتها اللغوية والفلسفية والدينية ، فقد كانت هذه البيئة نفسها بما زرعه فيها من الغيرة والحسد ، سببا فى فساد صلته بأميره ورحيله عنه آخر الأمر إلى عدوه "كافور الإخشيدى" فى مصر ".[٣٩]

ويوضح طه حسين الأسباب التى دفعت المتنبى إلى التوجه من حلب إلى الفسطاط وإيثاره مصر على العراق وطنه منها ذلك العداء بينه وبين العباسيين علاوة على الهموم التى عاناها خلال نشأته والشقاء الذى تحمله ، وفى سنة ثلاثمائة وست وأربعين انتهى المتنبى إلى مصر كشاعر لكافور ، وبمجرد وصوله شعر بالأسى والحزن على مفارقته لسيف الدولة الذى شاركه الحروب ولذة النصر ومرارة الهزيمة ، شعر بالضيق والبطالة والخمود فحياة مصر هادئة وادعة ألف أهلها الحضارة والنظام فانعدمت لذلك الاضطرابات ، لقد ضاعت كل طموحاته فى أن يصبح واليا فى ولاية من الولايات وذلك بسبب غروره وكبريائه وفقدانه عنصرا أساسيا من عناصر

---

(٣٨) نفسه ص ٢٠٦ .

(٣٩) د.عبده بدوى وآخرون، طه حسين وقضية الشعر ، مقال د. إبراهيم عبد الرحمن محمد ص١١٧.

الإجادة الفنية وهو الإعجاب الذى هو أساس الشعر و الباعث له والدافع إليه والمتنبى لم يكن معجبا بكافور ولا محبا له ، ولهذا كان مدحه لكافور نفاقا وكذبا ، فقد ترك قلبه وعواطفه فى حلب وقد كان لهذا الأسف الذى يملأ نفسه ، آثاره الخطيرة على شعره فى مدح كافور ، إذ تملكته عاطفة الندم على ترك سيف الدولة وسيطرت عليه عاطفة الخوف من لقاء" كافور" ، حيث أقبل ضعيفا ذليلا هان على نفسه فهانت نفسه على أميره وعلى الناس " وقد رمز الشاعر عن كافور بالموت وراح يتهم نفسه بالشذوذ والمرض حين توهم خلاصه فى الموت أو قل حين جعل من لقاء كافور غاية وخلاصا ، وهو يعتذر لنفسه بأنه فعل ما فعل مضطرا ، حين أعياه أن يجد صديقا يصفيه وده ، بل عدوا يخدعه ويداريه فى عداوته ، ولعل أروع ما فى هذا الغزل ، وهذه الأبيات التى تفضح عواطف المتنبى الحقيقية"[٤٠] ومن هذه الأبيات :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا   وحسب المنايا أن يكن أمانيا

لقد تملك المتنبى اليأس ، فعزم على الرحيل بعد أن قال فى هجائه عددا من القصائد منها قوله :

ما كنت أحسبنى أحيا إلى زمن   يسىء بى فيه كلب وهو محمود

ورغم المرارة الشديدة التى عاشها المتنبى فى مصر ، إلا أن طه حسين يرى أنه مدين لمصر بكثير من حكمته ، حيث " أتيح له السكون والهدوء ، ولم يعرض له أحد بكيد ولاحسد ، ولم يضيق عليه فى حياته المادية ، وإنما وضع على نار هادئة من الوعد والإخلاف فنضجت نفسه نضجا بطيئا ، ولكنه نضج صحيح وتعلم كيف يطيل التفكير فى الحوادث والخطوب دون أن تشغله الثورة عن التعمق والاستقصاء ، وانتهى إلى الاستهزاء بالحوادث والخطوب ، وبالذين يسلطون عليه هذه الحوادث ويغرون به هذه الخطوب ، فنبغ فى الهجاء ، واستطاع أن يرقى به من السخف والإقذاع إلى حيث يجعله أمثالا سائرة وحكمة تنفع الناس " [٤١] .

وقد خرج المتنبى إلى الكوفة حيث عاش بها وقتا كئيبا ، ليغادرها إلى بغداد التى لم يجد فيها الطمأنينة والراحة ، فعاد مرة أخرى إلى الكوفة ولم يستقر بها فاتجه مع ابن العميد إلى شيراز ومدح عضد الدولة بالعديد من القصائد ، ويفسر طه حسين ذلك " وما أستبعد أن يكون الشاعر قد وثق بالفوز آخر الأمر ، واطمأن إلى أنه بعد

---

(٤٠) نفسه ص ١١٨ .   (٤١) طه حسين تاريخ الأدب العربى ص ٣١٨ .

اتصاله بعضد الدولة قد أصبح شاعر الدولة الإسلامية غير مدافـع لا شـاعر أمـير فـى شمال الشام أو فى مصـر ، بـل شـاعر السلطان الأعظـم ، ومـا اسـتبعد أنـه قـد تمثـل المستقبل المشرق ، فإذا هو يرى نفسه وقد ظفر من عضد الدولة بالمـال الـذى لايكـاد يبلغه الإحصاء ، والتأييد الذى لاحد له ".[٤٢]

وأثناء عودة المتنبى من شيراز فـى طريقـه إلـى العـراق خـرج عليـه فـاتك الأسدى فى نفر من الأعراب فقتله ، وقتل ابنه وغلمانه وأخذ ما كان معهم مـن متـاع وكتب ومال .

منهج طه حسين فى تناول شخصية المتنبى

اتخذ طه حسين فى دراسـة حياة الشـخصية مـن مولدهـا إلـى مماتهـا منهجـا مركبا من عنصرين ، الأول : منهج النقد الطبيعى والثانى : المنهج التـأثرى ، ومنهـج النقد الطبيعى يرصد الشخصية وعلاقاتها مع الأخريـن ، وقـد اسـتطاع طـه حسـين أن يقدم المتنبى كصورة إنسانية كما عرفها وعاش سيرتها ، لا تاريخا سرديا مفصلا عنـه ، يتضح ذلك مع ما ذكره " وأنه لمن الغرور أن يقرأ أحدنا شعر الشاعر أو نثره حتـى إذا امتلأت نفسه بما قرأ أو بالعواطف والخواطر التى يثيرها فيها ما قرأ ، فـأملى هـذا أو سجله ظن أنه صور الشاعر كما كان ، أو درسه كما ينبغى أن يدرس ، على حيـن أنه لم يصور إلا نفسه ، ولم يعرض على الناس إلا مـا اضطـرب فيهـا مـن الخـواطـر والآراء ". [٤٣]

وقد عرض المؤلف لحياة المتنبى فى خمسة فصول ، واتخذ من شعره أساسا لوصـف هذه الفترة التاريخية وما ساد خلالها من أحداث شـهدتها البيئـة الإسـلامية فـى آخـر القـرن الثـالث وبدايـة القـرن الرابـع الهجـرى فـى أشكالها المتعـددة ، السياسـية والاجتماعيـة والثقافيـة ، ومـا كـان يسـود الحيـاة مـن مظـالم وصـراعـات ومذاهـب وانقسـامات وجعـل طـه حسـين مـن هـذا تمهيدا لظهـور شـخصية المتنبـى" وإذا كـان أصحاب التشكيل الحر فى السيرة قد اضطروا فى أغلب الأحيان كما اضطر المؤرخون إلى أن يعرضـوا للبيئـة فـى فصـول مسـتقلة باعتبارهـا عـاملا حاسـما مـن عوامل التأثير فى البطـل فـإن أصحـاب هـذا التشـكيل العضـوى حيـن اتخـذوا الإطـار

---

(٤٢) نفسه ص ٣٤٥ .   (٤٣) نفسه ص ٣٥٥ .

الروائى لسيرهم ، كان من الضرورى أن يتجنبوا التمزق فى البناء ، ولذلك عرضوا للبيئة من خلال تصوير البطل ومن خلال الأحداث نفسها"[٤٤]

وبالنسبة لعنصر المكان فقد جرت الأحداث فى أماكن مختلفة من الكوفة وبغداد والشام ومصر وشيراز.

كما حفلت هذه السيرة بشخصيات متعددة من الأمراء والثوار والعبيد ممن كان لهم دور فى حياة المتنبى وأحداث عصره وكانت الشخصية الرئيسة هى شخصية المتنبى التى استطاع المؤلف أن يصورها فى المرحلة الأولى فى صورة تعسة ، صبى معقد النفس يعانى من ضعة نسبه وفقر أسرته ، ثم وهو فى العراق فى مرحلة الشباب ثائر ينشر العدل الاجتماعى والمساواة فى توزيع الثروات ولكن يلقى به فى السجن ثم يصوره فى مرحلة اكتمال الرجولة عربى يجاهد بشعره وسيفه مع أميره المفضل سيف الدولة الحمدانى وهو آخر الأمر فى ظل كافور ذليل ضائع ينتهى أمره بالفشل والهروب ثم الموت .

وقد استطاع طه حسين أن ينجح فى تصويره لشخصية المتنبى فى جوانبها الحياتية المتعددة والصراع الذى واجهته " وإن وجهة نظر الكاتب لها قيمتها فى منح السيرة بعدا فكريا وقيمة تزيد خصوبتها وتكشف كل زواياها ، وتمنحها قوة الإقناع والتأثير "[٤٥]

وليست صورة المتنبى الإنسان كما كانت فى واقعها التاريخى ، لأنها تتعدد تبعا لاختلاف الذوق الفنى للقراء ، والذين يقرأون شعره أو يتابعون حياته خلال العمل الروائى " الذى لايقصد به صاحبه مجرد تسجيل الأحداث التاريخية ، بقدر ما يقصد إلى استغلالها فى كتابة عمل روائى تكون الأحداث التاريخية فيه رموزا إلى قضايا ومواقف معاصرة يريد معالجتها ، ومثل هذا المنهج الروائى الذى يستمد مادته القصصية من التاريخ الإسلامى ليس غريبا على طه حسين "[٤٦]

ونظرا لما بين التاريخ والفن من وشائج الاتحاد وعناصر الاختلاف فى الوقت ذاته ، فقد شغل النقاد بالبحث حول مفهوم الرواية التاريخية تحدد به طبيعتها

---

(٤٤) د. ماهر حسن فهمى، السيرة تاريخ وفن ، مكتبة النهضة المصرية ط أولى ١٩٧٠ ١٥٤،١٥٥

(٤٥) ليون إدل، فن السيرة الأدبية ، ترجمة صدقى خطاب ، مؤسسة الحلبى ص٩ .

(٤٦) د. عبده بدوى وآخرون، طه حسين وقضية الشعر، مقال د. إبراهيم عبد الرحمن محمد ص١٢٢.

ومهمتها حتى لا تختلط بالتاريخ المجرد ، وإن كانت تستلهمه و تستعين به ، وحتى لا يتحول الأديب إلى مؤرخ يجعل كل همه استقراء الأحداث التاريخية بحثاً عن حقيقة يريد إيصالها للناس .

ومن الحقائق المقررة التى لا مجال للخلاف حولها من نقاد الأدب ودارسيه على السواء أن العمل الروائى التاريخى غير التاريخ وأن المؤلف غير الأديب ، فإذا كان المؤرخ يقتصر مجال عمله على رصد الحقائق التاريخية وتسجيلها ولا يستطيع مهما تسلح بوسائل الثقافة والاستعداد العلمى أن يكشف عن ظواهر التميز التى تتصل بالأحداث أو بالشخصيات فإن الأديب يستحضر الشخصية أو الحدث فى وجدانه ، و ينفعل به ويستمطر من التصورات الخيالية ما يهيىء الجو لإعادة تشكيل ذلك الماضى من خلال رؤية خاصة يعبر عنها بالكلمة الصادقة ، فيكون تعبيره مليئاً بالحياة الدافعة والحركة السخية ، وتبرز الأحداث أو الشخصيات حية وكأنها تعيش واقعها فى ساعته ، وتؤثر فى مجريات التاريخ وتوجهه بكل ما أوتيت من عظمة وعبقرية ، ومن هنا يمتد تأثيرها إلى القارىء المعاصر ، ويختلف هذا التأثير قوة وضعفاً تبعاً للجودة الفنية ومدى قدرة الأديب على الإقناع ، وهكذا فإن الرواية التاريخية " لا تعنى بتقديم التاريخ للقارىء بالدرجة الأولى ، وإنما تكمن قيمتها الفنية فى مدى براعة الكاتب فى استغلال الحدث التاريخى واعتماده إطاراً ينطلق منه لمعالجة قضية حية من قضايا مجتمعه الراهن "(٤٧)

وإذا كان طه حسين قد انتقى هذه الشخصية الشاعرة من القرن الرابع الهجرى ، فإننا نجده قد اتخذ من الأحداث والمواقف التى واجهتها " رموزاً على أحداث معاصرة كانت تشغل البيئة العربية فى النصف الأول من القرن العشرين ، ونستطيع القول ، إذا أردنا تقديم هذه الشخصية وتحديد دورها ، بان المتنبى كان رمزاً فى صورته الأولى على هذا الفساد الاجتماعى والسياسى والاقتصادى فى بيئة القرن الرابع ، كما كان فى صورته الثانية رمزاً على هذا التوتر الدائب بين الحكام والرعية ، كما تمثل حياته فى ظل سيف الدولة هذا الجهاد العربى العنيف الذى كان يعيشه العرب منذ تألبت عليهم القوى الأجنبية ، وهو فى ظل كافور رمز على هذا الفشل الذى انتهى بالمسلمين إلى الخنوع والذلة وفقدان الثقة إبان هذه الفترة المظلمة من

---

(٤٧) د. شفيع السيد ، اتجاهات الرواية المصرية ،دار المعارف ١٩٧٨ ص٢٤ وما بعدها .

تاريخهم السياسى "[٤٨].

وهذا العمل الروائى ملىء بالعديد من الرموز التى تسهم فى ارتباط العمل الروائى التاريخى بالواقع المعاصر ، إذ يعقد طه حسين نوعا من المقارنة والتنظير بين واقعه مع بداية القرن العشرين بمشاكله ومعاناته وقضاياه وبين ماسبق حدوثه فى القرن الرابع الهجرى بطريقة فنية ، لذلك كان من ألزم واجبات الأديب الذى يتصل بالتاريخ أن " ينظر إليه بعيون معاصرة لاتنسلخ عن عصرها وعن اهتمامات الإنسان بكل ما يدور حوله من أحداث وما يطرحه الواقع من تحديات " .[٤٩]

ولعل هذا العمل الروائى حافل بالعديد من الرموز السياسية والاجتماعية والنفسية التى تبدو من خلال شخصيات الملوك والأمراء والعبيد ولعل الشخصية التى تمثل روح الأمة العربية فى جهادها وصمودها هى شخصية " سيف الدولة " التى حافظت على القيم والأصالة العربية وبذلت الجهود المتتالية فى الذود عن حياض العروبة والإسلام .

وأسلوب الأديب الفنى يمنح العمل الروائى حيوية ويبرز دور الشخصية فى الحياة وما تميزت به من سمات أخلاقية تبدو من خلال اتصالها وتعاملها مع الآخرين من الشخصيات الثانوية التى تسهم فى إلقاء المزيد من الأضواء على الشخصية الرئيسة .

وقد ساهم الحس الروائى الذى يميز كتابات طه حسين الأدبية آثاره على منهجه فى تفسير النصوص الشعرية واستخلاص النتائج والبحث فيها عن شخصية المتنبى وطبيعة عصره وبيئته .

وقد توصل طه حسين إلى أن ضعة نسب المتنبى ربما دفعته إلى عدم الفخر بأبيه أو رثائه حين مات ولكنه استطاع أن يفخر بقيم الشجاعة والجهاد ومكارم الأخلاق كتعويض نفسى عن الفخر بالنسب.

كما كانت إجادة المتنبى لفن المدح خاصة لسيف الدولة الحمدانى " وتغنيه بهذه القيم الخلقية والنفسية ، رموزا على ما كانت تفتقر إليه البيئة من الشجاعة والكرم

---

(٤٨) د. عبده بدوى وآخرون، مقال د. إبراهيم عبد الرحمن محمد ص١٢٤ .

(٤٩) د. أحمد الهوارى ، ود.قاسم عبده قاسم ، الرواية التاريخية فى الأدب العربى الحديث ، دار المعارف ص١٠.

والمروءة والوفاء ، وأن يخلق عالما مثاليا يتطلع إليه ويرى فيه خلاصه وخلاص بيئته "(٥٠)

وقد وقف طه حسين أمام بعض الأبيات التى تشير إلى اعتناق المتنبى لمذهبه القرمطى والخروج على جادة الدين أحيانا مثل .

إلى أى حين أنت فى زى محرم	وحتى متى فى شقوة وإلى كم ؟
و إلا تمت تحت السيوف مكرما	تمت و تقاس الذل غير مكرم
نثب واثقا بالله وثبة ماجد	يرى الموت فى الهيجا جنى النحل فى الفم

ولكنه بعد أن مارس الجهاد بالكلمة والسيف ، تخلى عن هذا المذهب ، بل وشارك فى محاربته ، " ولاتدل أشعار المتنبى التى بين أيدينا على أن خروجه ، فى بعض الأحيان ، عن الجادة الدينية كان وليد سلوك فلسفى بعينه ، أو بعبارة أخرى أنه يعكس فلسفة إلحادية متميزة ، فإن مقياس الشعر بهذا المقياس الدينى من شأنه أن يضطرنا إلى رفض كثير من الأشعار الجيدة التى ورطت المبالغة أصحابها فى هذا المعنى أو ذاك "(٥١).

وهكذا استطاع طه حسين بذوقه الفنى أن يحسن اختيار النصوص الشعرية وأن يبدع فى تحليلها وبهذا أضفى للشعر قيمة فنية .

---

(٥٠) د. عبده بدوى وآخرون، مقال د. إبراهيم عبد الرحمن محمد ص١٢٧ .

(٥١) نفسه ص ١٣١

٣- أبو العلاء المعرى وآثاره الأدبية ٣٦٣ هـ - ٤٤٩ هـ

أقبل طه حسين على شخصية أبى العلاء المعرى محللا ومستقصيا لها ، متمعنا فى نتائجها المادية أو المعنوية وقد ابتدأ به أطروحته العلمية التى قدمها للجامعة المصرية ولم يتوقف هدفه عند هذا الحد " ليس الغرض فى هذا الكتاب أن نصف حياة أبى العلاء وحده ، وإنما نريد أن ندرس حياة النفس الإسلامية فى عصره "(٥٢).

وينتمى أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان إلى قبيلة قضاعة القحطانية ولد بمعرة النعمان فى أسرة لها فى المجد العلمى شأن عظيم ، وكان جده سليمان بن داود قد ولى قضاء المعرة وحمص وعرف بالفضل وكرم النفس فلما مات تولى أبو بكر محمد بن سليمان عم أبى العلاء القضاء ، فلما مات ولى القضاء بعده أخوه عبد الله بن سليمان والد أبى العلاء وكان أبوه وأخواه شعراء ، أصهر عبد الله بن سليمان إلى أسرة بحلب تعرف بآل سبيكة وهى تتميز بكثرة الرحالة وجوب الآفاق ، وكرم النفس والسخاء بالمال والحرص على صلة الرحم وحب العلم والنبوغ فيه .

وفى سن الرابعة أصيب بالجدرى الذى أضناه حتى ذهب ببصره ، وكانت هذه كارثة ظلت تلازمه مع استمرارية حياته " على أن ذهاب بصر أبى العلاء قد قوّى فى نفسه خلق الحياء".(٥٣)

وقد تلقى العلم على يد أبيه ، وكان لديه استعداد للعلم موروث ، فأقبل على علوم النحو واللغة والأدب وارتحل إلى حلب ليسمع اللغة والآداب من العلماء الذين شهدوا ابن خالويه وأخذوا عنه وكانت حلب فى عهد سيف الدولة إحدى الحواضر الكبرى للمسلمين يقصدها الكثير من العلماء والأدباء ودرس الفلسفة وعلوم الأوائل أثناء سفره إلى طرابلس الشام ، وفى اللاذقية درس النصرانية واليهودية .

وفى سن الرابعة عشرة من عمره فقد أباه ، الذى كان يمثل العقل الذى كان يعتصم به، ويرثى والده بأبيات منها :

أبى حكمت فيه الليالى ولم تزل رماح المنايا قادرات على الطعن

مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى وسهد المنى والجيب والذيل والردن

وبعد وفاة والده عانى الكثير من شظف العيش ، ولكنه تحمل فى صمت ، وأبت عليه عزة نفسه أن يرتزق بشعره ، وآثر الفقر وضيق ذات اليد على الثروة يراق فى سبيلها

---

(٥٢) طه حسين ، تاريخ الأدب العربى ج٣ ص٣٧٥ . (٥٣) نفسه ص ٤٦٨ .

ماء الوجه وقد منعه خلقه من أن يتكسب بشعره ولأنه يكره الكذب ، علاوة على أنه يرى أن مايفيده من التكسب فى الشعر إنما هو كمال حرام ، ويدافع طه حسين عن أبى العلاء خاصة عندما ظن مرجليوث أن أبا العلاء تكسب بشعره فى طوره الأول " أما نحن فأبو العلاء عندنا أصدق من مرجليوث "(٥٤) .

وبعد أن جاوز العشرين سافر إلى بغداد ليجالس العلماء والفقهاء ، وكان ببغداد مكتبتان عامتان إحداهما قديمة أسسها الرشيد وهى بيت الحكمة ، والأخرى حديثة أنشأها سابور بن أردشير ٣٨١ هـ ، علاوة على المجامع العلمية .

ومكث فى بغداد سنة ونصف ثم رحل عنها قاصدا معرة النعمان ، مع اعتقاده ، أنه لم يفد منها دنيا ولادينا ، فقال :

رحلت فلا دنيا ولا دين نلته   وما أوبتى إلا السفاهة والخرق

وأثناء عودته سمع بوفاة والدته ، فكان لهذا الخبر فى نفسه سورة عنيفة مليئة بالآلام والأحزان وقال :

لا بارك الله فى الدنيا إذا انقطعت   أسباب دنياك من أسباب دنيانا

ولقد أدت كل هذه الآلام والأحزان والهموم إلى اعتزاله الناس ولزوم بيته ، وهكذا قضى طوره الثانى .

أما طوره الثالث فإنه امتداد لطوره الثانى ، فى مواصلة العزلة وارتدائه خشن الثياب وتناوله غليظ الطعام وإيثاره العزوبة والعقم ، ورغم ذلك فقد التف حوله الطلاب يقصدون بيته يدرسون عليه اللغة وآدابها ، وكانت لأبى العلاء ملكة الشعر والكتابة وتكلف البديع ، وظل عطاؤه فياضا حتى توفى سنة تسع وأربعين وأربعمائة للهجرة.

---

(٥٤) نفسه ص ٤٧٩ .

منهج طه حسين فى تناوله لأبى العلاء المعرى :

قبل أن يشرع طه حسين فى عرض هذه الشخصية التاريخية ، قدم عرضا تحليليا عن طبيعة العصر فى أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجرى فى شتى النواحى الاجتماعية والفكرية والعلمية على اعتبار أن هذه العوامل كأن لها التأثير القوى فى حياة أبى العلاء " والخطأ كل الخطأ أن ننظر إلى الإنسان نظرنا إلى الشيء المستقل عما قبله وما بعده : ذلك الذى لا يتصل بشيء مما حوله ، ولا يتأثر بشيء سبقه أو أحاط به ، ذلك خطأ ، لأن الكائن المستقل هذا الاستقلال لاعهد له بهذا العالم "(٥٥)

ولهذا كانت نظرة طه حسين لأبى العلاء أنه ثمرة من ثمرات عصره ، قد عمل فى إنضاجها الزمان والمكان والحال السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، خاصة وأن حياته كانت صراعات متنوعة " فقد هاجى اليهود والنصارى ، وناظر البوذيين والمجوس ، واعترض على المسلمين وجادل الفلاسفة والمتكلمين ، وذم الصوفية ، ونعى على الباطنية ، وقدح فى الأمراء والملوك ، وشنع على الفقهاء وأصحاب النسك ، ولم يعف التجار والصناع من العذل واللوم ولم يخل الأعراب وأهل البادية من التفنيد والتثريب " .(٥٦)

وكان طه حسين يؤمن بحرية التاريخ فى أحداثه ومواقفه ، فلابد من أن يتفهم بوعى كامل طبيعة العصر بخيره وشره بإيجابياته وسلبياته لكى تتاح له معرفة أبى العلاء المعرى ، " وإنما كل أثر مادى أو معنوى ، ظاهرة اجتماعية أو كونية ، ينبغى أن ترد إلى أصولها وتعاد إلى مصادرها ، وأن تستقى من ينابيعها وتستخرج من مناجمها "(٥٧)

ولقد تأثر طه حسن فى دراسته الأدبية النقدية بأستاذه نلينو خاصة فى الجبر التاريخى حيث كان اهتمام طه حسين به هو نفسه " الذى كان عند أستاذه نلينو ، وأن اهتمام طه حسين بفكرة التاريخ تعد من مؤسسات تفكيره وكتابته النقدية ". (٥٨)

ويرى طه حسين أن تحديد العصور الأدبية وتقيدها بالشهر والعام كما يصنع المؤرخون والسياسيون فى توقيت الحوادث أمر يشوبه الخطأ أو المبالغة " ذلك لأن

---

(٥٥) نفسه ص ٣٧٦ . (٥٦) نفسه ص ٣٧٦ . (٥٧) نفسه ص ٣٧٩ .

(٥٨) د. يوسف بكار ، أوراق نقدية جديدة عن طه حشين ١٩٩٠، دار المنهل إربد- الأردن ص٣٤.

الظاهرة الأدبية العامة ، تمتاز فى نفسها ، بأنها أشد ما تكون استعصاء على من يريد التدقيق فى حصرها وتحديد وقتها ، لأنها لا تظهر إلا بعد مقدمات عدة يتوافق بعضها على مغالبة بعض ، ومن هذه التوافق والتغالب تنتج الظاهرة الأدبية ممثلة تلك المقدمات التى اشتركت فى إظهارها "(٥٩)

فإذا كان المؤرخ السياسى يعتبر سنة ١٣٢ هـ بداية قيام الدولة العباسية ، فليس يصح للمؤرخ الأدبى أن يجعل من نفس السنة مبدأ حياة جديدة للآداب .

نتج عن ذلك أن العصر الثانى للآداب العباسية أطلق عليه عصر الانحطاط ظلما ، ولو أنصف هؤلاء لاعتبروا جزءا غير قليل من هذا العصر عصر الرقى والنهضة وإن الخطأ يكمن عندما " تجحد المؤثرات الاجتماعية والاقتصادية فى الآداب ، وبحيث لا تكون الآداب خاضعة إلا للسياسة ، كأن الأدب ظل من ظلال الخلفاء ، يتأثر بكل ما تأثروا به ، ويذعن لكل ما أذعنوا له ، وينالـه ما ينالهم من الحياة والموت"(٦٠) .

ويرى طه حسين أن العصر العباسى الأدبى إنما هو ابتداء القرن الثانى الهجرى ، بينما يبدأ العصر العباسى الثانى مع منتصف القرن الثالث عندما تمت عمليات النقل والترجمة وظهرت ثمار العلم على اختلافه ، " والدليل العلمى : فهو ما نراه من الآثار العلمية والأدبية التى تمثل لنا العصر الثانى من عصور العباسيين ، وضاء متلألئا ، قد نضج فيه العقل الإسلامى ، فظهرت آثاره متقنة تامة التكوين "(٦١)

أما العصر العباسى الثالث الذى نستطيع أن نسميه عصر الانحطاط فهو الذى يبدأبعد منتصف القرن الخامس للهجرة .

ويؤكد طه حسين على أن الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى كانت راقية مزدهرة بينما كانت الحياة السياسية يشوبها الانحطاط والفساد ، ولعل أبشع موقف اتسم بالخزى والعار هو موقف حفيد سيف الدولة الحمدانى " أبو الفضائل " الذى استعان بالروم على غزو المسلمين ، وأسرع ملك الروم " بكتائبه ومقانبه إلى بلاد أسلمها أهلها ، ودعاه إليها من كانوا يذودونه عنها ، وما كاد يسمع الجيش المصرى بمقدم الملك فى جحفله اللجب ، حتى أجفل إلى دمشق ، ومر الملك بحلب ،

---

(٥٩) طه حسين ، تاريخ الأدب العربى ج٣ ص٣٩٨ .   (٦٠) نفسه ص ٣٩٧.
(٦١) نفسه ص ٤٠١.

فتلقاه أبو الفضائل ومولاه ، شاكرين له صنيعه ، ومضى الملك إلى بلاد الشام ، فهدم وحرق ، ونهب واستبى وانصرف موفورا ، لم يصبه كلم ولم يلحقه أذى وبهذه الحادثة انتهى الفصل الأول من القصة المحزنة ، التى يمثلها الطمع السياسى والاختلاف الدينى ، والرغبة فى الملك والسلطان "(٦٢) .

كما أن الحروب الأهلية والفتن الداخلية تؤدى إلى ضعف وضياع الأمة العربية الإسلامية أمام أعدائها ، ، والأشد مرارة أن المسلمين برغم هذه المصائب التى تحل عليهم لا يحفلون بالعظة أو النتائج الوخيمة ، فليست لهم دولة جامعة ، أو رادع من دين أو ضمير يردعهم ، " فأنت ترى أن هذا الاضطراب السياسى قد كان ينتج للمسلمين ألوانا من الضعف ، ويلد لهم أشخاصا خونة ، قد أفسد قلوبهم الطمع والحرص والحرمان "(٦٣)

وهكذا كانت الحياة السياسية فى عهد أبى العلاء ، حياة قد ملئت بضروب العناء ، نهضت فيها نفوس راغبة فى الملك ، فعبثت بأمم وبددت القيم فى سبيل الأطماع الزائلة والأهواء المريضة .

وإذا كانت الحياة الاقتصادية تتطور مع وجود الأمن والسلم والعدل ، وقد حرمت الأمة الإسلامية فى عصر أبى العلاء من هذه الخصال الثلاث ، فلا شك أن هذه الحياة تدهورت وازدادت سوءا .

أما بالنسبة للحياة الدينية فقد صورها طه حسين من خلال التزام الإنسان المسلم بقيمه ومبادىء الدين الإسلامى ، فوجد أن النفس الإنسانية فى ذلك الوقت أصبحت قلقه ساخطة ، أفسد طبيعتها حب المال " فلم تعرف من الدين إلا اسمه ومراسمه الظاهرة ، ولم تتخذه إلا لونا يميز شخصيتها ، و وسيلة تمكنها من اكتساب الحياة ، وسيلة تبيح لها أن ترث وتورث ، وأن تبيع وتشترى ، وأن تتزوج وتطلق ، تبيح لها ذلك وتضع لها قواعده و أصوله ، تحكم على الأبدان من غير أن تصل إلى القلوب "(٦٤)

واستطاع طه حسين أن يصور الآثار التى ترتبت على بعد الإنسان عن دينه وقيمه خاصة عندما يستعين بالعدو اللدود لدينه ضد المسلمين ، علاوة على الانقسام لمذاهب متعددة ، وانشغال المسلمين بأمور فرعية والاختلاف فى الرأى والاقتتال فيما

---

(٦٢) نفسه ص ٤٠٩. (٦٣) نفسه ص ٤١٨. (٦٤) نفسه ص ٤٢٥.

بينهم ، وكثر الكلام والجدال مما "أوقع الفتنة المنكرة والثورات العنيفة بين أهل بغداد أنفسهم فى القرن الرابع وما بعده ، ولسنا فى حاجة إلى الدلالة على أفاعيل الحنابلة أيام الراضى ، ولا على فتن السنة والشيعة ، تلك التى هدمت بغداد غير مرة ، وألقت بها منتصف القرن السابع فى أيدى التتار ". (٦٥)

أما من الناحية الاجتماعية فقد فسدت أغلب الأسر ، خاصة عندما انتشر الرق وتعددت الزوجات ، كل ذلك أدى إلى أن يلحق الحياة الاجتماعية الكثير من الوهن والانحلال ، ويرد طه حسين على الذين يتهمونه بالغلو والإساءة للقديم فيقول : " لسنا بالغلاة ولا المغرقين ، لأن البحث المؤسس على طرائق المنطق لا يحتمل إغراقا ولا غلوا ، ولسنا بالنظريين ولا الخائلين ، لأنا إنما نستمد أحكامنا من نصوص التاريخ" . (٦٦)

وبين المؤلف مدى تبرم أبى العلاء من المذاهب والفلسفات وخاصة التصوف ، الذى صاحبه فنون عديدة من الإباحة ومخالفة الدين واختراع أشكال متعددة للعبادة توصلهم إلى الله ، وكثرت منهم الحماقات والأباطيل وشاعت عنهم الزندقة وقولهم فى الدين مالا يقوله مسلم ، مما دفع أبو العلاء إلى ازدرائهم والرد عليهم ، باستثناء البررة منهم .

ولقد ازدهرت العلوم العقلية والعلوم المختلفة ، حيث كان الحكام يجمعون حولهم العلماء والأئمة ينشئون لهم المدارس ، وازدهر علم التاريخ والجغرافيا الذى عرفه العرب منذ قيام الدولة الأموية .

ونتيجة لذلك فقد تأثر أبو العلاء بكل ما فى الحياة ، فاندفع فى طريقه يذم الحياة السياسية فيقول فى اللزوميات : (٦٧)

ملّ المقام فكم أعاشر أمة	أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية ، واستجازوا كيدها	فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

فيقول فى ذم الحياة الدينية :

رويدك قد غررت وأنت حر	بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحا	ويشربها على عمد مساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى	فمن جهتين لا جهة أساء

(٦٥) نفسه ص ٤٢٨. (٦٦) نفسه ص ٤٣٠، ٤٣١ . (٦٧) نفسه ص ٥٨٣ .

ويذم أهل عصره عامة فيقول :

وجوهكم كلف وأفواهكم عدا ... وأكبادكم سود وأعينكم زرق

ثم يعتزل الناس ويأمر باعتزالهم ، فيقول :

فانفرد ما استطعت فالقائلُ الصا ... دق يضحى ثقلا على الجلساء

" فأنت ترى أن فلسفة أبى العلاء ، لم تكن إلا نتيجة ما أطاف به من أحوال عصره ، ومن الواضح أن هذه الأحوال لم تزد على أن زهدته فى الحياة ، وحملته على التفكير والدرس ، وأن هذا الدرس ، وذلك التفكير ، هما اللذان انتجا له كثيرا من آرائه الخاصة فى الفلسفة على اختلاف فنونها " .[٦٨]

و من الأبيات التى قالها إثباتا لقدرة الله سبحانه وتعالى: [٦٩]

انفرد اللـه بسلطانه ... فما له فى كل حال كفاء

ما خفيت قدرته عنكم ... وهل لها عن ذى رشاد خفاء

ويرى د . طه حسين أن كثرة الاختلافات والحروب والغارات التى سادت بين أهل الديانات منذ القدم هى التى بغضت أبا العلاء فى الديانات " وقد كان من حقه ألا يبغضها ، فليست هى التى أثارت الحروب ، وإنما أثارتها الأهواء والشهوات "[٧٠]

فالعقائد فى نفسها طاهرة حتى إذا مازجت النفوس الفاسدة وخالطت القلوب المريضة ، لم تنتج نتائجها الطبيعية ، وليس هذا عيبها ، وإنما هو عيب الناس الذين انتحلوها فلم يحسنوا رعايتها أو الحرص عليها .

ولعل حب طه حسين لهذه الشخصية ناجم عن المعاناة المشتركة من آفة العمى ، والذكاء النادر اليقظ التى تميز به أبو العلاء ، علاوة على احتقاره الشهرة والمنافع والثروات " كما أن المؤمن حقا لا يحفل إلا بحكم ربه الذى لا يمكن الاستخفاء منه ، والاحتيال عليه بالتلفيق أو المفاجأة أو التصنع أو أى مظهر مهما يكن ، كذلك أقام ثابتا مستقرا لا يخضع إلا للفكرة المطلقة التى كونها لنفسه فى فنه ، لم يكن يريد شيئا إلا ما كان يجد أصعب المشقة وأثقل الجهد فى استخلاصه من نفسه"[٧٠]

وكان طه حسين يتحرى الصواب عندما يتناول أبا العلاء فى العديد من نتاجه الفكرى مؤمنا أن الباحثين " ليس عليهم بأس أن يخطئوا فيضطرهم الخطأ إلى الظلم ، لأن كل إنسان يخطىء ويصيب ، ولأن الوصول إلى الصواب قلما يتأتى

---

(٦٨) نفسه ص ٥٨٣ . (٦٩) نفسه ص ٦٠٣ . (٧٠) نفسه ص ٦١٨ .

إلابعد التورط فى الخطأ "[٧٢]

ويردد دائما قول أبى العلاء :

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى   إنى أخاف عليكم أن تلتقوا

ولقد كان إعجاب طه حسين وحبه نتيجة للسمات التى برزت عند أبى العلاء من الرفق والرحمة ومن الحنان والإشفاق ومن البر والعطف بالناس وبالحيوان ، كما أنه لم يظلم أحدا ، وإنما ظلم نفسه ، ولم يكتف بالسجن الذى فرضته الطبيعة عليه فرضا حين أفقدته ناظره وإنما فرض على نفسه سجنين آخرين ، فيقول : [٧٣]

أرانى فى الثلاثة من سجونى   فلا تسأل عن الخبر النبيث

لفقدى ناظرى ولزوم بيتى   وكون النفس فى الجسم الخبيث

وهكذا عاش أبو العلاء مضطربا ، يؤمن مرة فيرجو أو يخاف ، وينكر مرة فيدركه اليأس و الجزع ، و كانت تسيطر عليه عاطفتان ، كان لهما أعظم الأثر فى حياته ، عاطفة الحياء من جهة ، وعاطفة سوء الظن من جهة أخرى ، تولدت عنده عاطفة الحياء لأن ذكاء قلبه وإباء نفسه واعتداده بشخصيته ، كل ذلك دفعه إلى الملاءمة بين حياته وقوانين الطبيعة وأوضاع المجتمع ، إنما عاطفة سوء الظن لأن المحيطين به يجهلهم ويخشاهم وأجاد طه حسين عرض رؤيته الخاصة لأبى العلاء من خلال الموازنة التى عقدها بين أبى العلاء وبين شاعرين من شعراء المسلمين ، كلاهما شارك فى التفوق والنبوغ والامتياز ، وأحدهما شاركه فى هذه الآفة الطارئة التى نغصت عليه الحياة : وهما بشار والمتنبى .

فقد كان بشار كأبى العلاء ذكى القلب ، دقيق الحس ، فصيح اللسان ، فيلسوف عميق الفلسفة علاوة على أن كليهما ضرير مكفوف ، متشائم سيء الظن بالناس والطبيعة أما وجه الاختلاف يكمن فى أن سيرة أبى العلاء طهارة ونقاء وبراءة من الإثم والتواضع والزهد بينما سيرة بشار هى العهارة والدنس والتهالك على الإثم مع التيه والغرور وإذا كان أبو العلاء يعذب نفسه وجسمه ويصرف نفسه عن أيسر اللذات ، فسيرة بشار تنعيم لنفسه وجسمه وإرسال الشهوة على سجيتها .

وإذا كان كل منهما متشائما ، ولكن تشاؤم أحدهما انتهى به إلى العهارة والفجور والإباحة ، وتشاؤم أحدهما الآخر انتهى به إلى الطهارة والبر والنسك

---

(٧٢) نفسه ص ٦٤٨،٦٤٩ .   (٧٣) نفسه ص ٦٥٣ .

والتحرج ، ولعل طه حسين يريد أن يؤكد أن تأثير البيئة له بالغ الأثر فى سلوكيات الإنسان ، فالبيئة عند بشار بيئة زندقة ومجون وعاش أبو العلاء فى بيئة تحفظ واحتشام وورع ، وبشار انحدر من أسرة فارسية خضعت للرق بينما انحدر أبو العلاء من أسرة عربية لم تعرف إلا العزة والحرية وظروف العصر عند بشار ثورة لم تتناول السياسة وحدها بل تناولت الأخلاق والدين ، وعاش أبو العلاء فى عصر مهما تفسد فيه الحياة فقد كان فيه استقرار للعرف الخلقى والاجتماعى نشأ بشار إنسى الولادة والغريزة لا سلطان له على غرائزه ولا يعرف التستر بمباح ، لا يتحرج أن يظهر سوأته للناس ومعاقرته الخمر وحب المال والتهالك على المدح ولا يتحرج من أن يتمدح بآفته جهرا.

بينما كان أبو العلاء إنسى الولادة وحشى الغريزة يتميز بالحياء وسيطرة عقله على أحاسيسه ومشاعره ويتحرج من ذكر عاهته فلا يذكرها إلاكارها ولم يتهالك على المال يحب الناس ويحترمهم .

وأبو الطيب نشأ وعاش فى عصر قريب من عصر أبى العلاء ، فكان ذكى القلب نافذ البصيرة معتدا بنفسه ولكنه لم يشاركه فى هذه الآفة التى اضطرته إلى العجز وأخذته بالوحدة وفرضت عليه الاعتزال ، وكان أبو العلاء تلميذا للمتنبى إلا أن المتنبى كان عبدا لشهواته المادية من الثروة والغنى والاستعلاء ، ذاق مرارة البؤس واحتمال ذل السؤال ، وباع شعره فى سوق الكساد ، حيث " مدح من كان يحتقرهم أشد الاحتقار ، وتملق من كان يزدريهم أقبح الازدراء ، ودفع إلى المخاطرة والمغامرة ، وانتهى إلى السجن وتعرض للموت ، وباع نفسه وحريته وكرامته للملوك والأمراء ، وتبدل رأيا برأى ومذهبا بمذهب ، وذل للفرس بعد أن كان لهم عدوا وبهم مغريا وعليهم محرّضا ، ومازال يتقلب فى هذا الفساد السياسى والخلقى حتى تلقاه الموت فى بعض الصحراء فأراحه وأراح منه "(٧٤)

ولعل هذه الموازنة قد أوضحت مكانة أبى العلاء عند طه حسين ، تلك المكانة التى تميزت بالصدق مع النفس وابتعدت عن كل الصغائر وأرادت إيثار العافية والالتزام بالقصد والاعتدال وطمحت إلى أسمى ما فى الوجود وهو التوحد لأن الله واحد حيث

---

(٧٤) نفسه ص ٦٧٤ .

يقول أبو العلاء :

توحد فإن الله ربك واحد   ولا ترغبن فى عشرة الرؤساء

وقد تلاحظ أن تناول طه حسين لأبى العلاء يقوم على التفسير والتحليل وتبرير الأفعال ، أى بمعنى أنه يتعاطف معه وهو يعبر عن ذلك صراحة بقوله عن كتابه " تجديد ذكرى أبى العلاء" "هذا الكتاب يمثل حياتى العقلية فى الخامسة والعشرين"(٧٥)

بينما نلمس عدم تعاطفه مع المتنبى ، فلم يكن المتنبى عنده إلاشاعرا فقد كل مقومات الإنسانية ، فلا كرامة له ولا حرية ، ولا مبدأ ، بل هو إنسان متملق يهين نفسه من أجل المال والثروة .

ولم تغب عن ذهن طه حسين صورة أبى العلاء بوصفها نموذجا ، وأخذ يصور شخصية المتنبى تبعا لذلك ، ولهذا ظهرت الهوة الأخلاقية واضحة بينهما ، فأبو العلاء مثال الرقي والكبرياء والمتنبى مثال السقوط والخنوع ، ويفسر هذا قول طه حسين : "وليس المتنبى مع هذا من أحب الشعراء إلى وآثرهم عندى ، ولعله بعيد كل البعد عن أن يبلغ من نفسى منزلة الحب والإيثار ، ولقد أتى علىّ حين من الدهر لم يكن يخطر أنى سأعنى بالمتنبى أو أطيل صحبته ، أو أديم التفكير فيه "(٧٦)

ويخلص طه حسين من كل هذه الموازنات إلى قوله " أنا أعجب ببشار وأكبر فنه ولكنى لا أحبه ولا أراه يثير فى نفسى إلا صدورا عنه وضيقا به ، وأنا أقدر فن المتنبى وأعجب ببعض آثاره إعجابا لا حد له ، وأعجب ببعضها الآخر إعجابا متواضعا ، وأمقت سائرها مقتا شديدا ، ولا تثير حياة المتنبى فى نفسى إشفاقا عليه ولا رثاء له ، وإنما هو مغامر طلب ما لم يخلق له ، وتعرض لما كان يحسن أن يعرض عنه ، فانتهى إلى ما ينتهى إليه أمثاله المغامرون ، أما أبو العلاء فإن له فى نفسى شأنا آخر لا يغيظنى ولا يحفظنى ، لأن حياته كلها برئت مما يحفظ أو يغيظ "(٧٧)

وهكذا يتضح منهج طه حسين فى رسم الشخصية الإسلامية ، حيث إنه يقوم على :

١- وصف الشخصية غالبا من الخارج إلى الداخل ، أى بالبدء بالصورة الحسية

---

(٧٥) نفسه ص ٣٧٢ .   (٧٦) نفسه ص ١٦ .   (٧٧) نفسه ص ٦٧٦ .

خلوصا إلى الصورة الداخلية .

٢ـ الحرص الشديد على التحرك البطيء ، ليتمكن من النفاذ إلى جزئيات الصور ، ولذلك حشدت أعماله الروائية وسيره وترجماته بالكثير من الأحداث والأقوال والروايات .

٣ ـ ظهور الصراع والعمل على خلق التفاعل وتطوير الأحداث من خلال العرض الفنى ، الذى يتسم بالتنوع من الطريقة المباشرة التى يصور فيها الشخصية من الخارج أى يقصها بضمير الغائب إلى طريقة السرد الذاتى ، التى يكون لسانه المتكلم هو صاحب السرد فيها .

ولقد ارتبط المنهج عند طه حسين بأدوات بحثية جديدة تجعله قادرا على التحليل واكتشاف النتائج " وإذا الباحث عن تاريخ الآداب ليس عليه أن يتقن علوم اللغة وآدابها فحسب ، بل لابد له أن يلم إلماما بعلوم الفلسفة والدين ، ولابد له من أن يدرس التاريخ وتقويم البلدان درسا مفصلا وإذا الباحث عن تاريخ الآداب لابد له من أن يدرس علم النفس للأفراد والجماعات إذا أراد أن يتقن الفهم لما ترك الكاتب أو الشاعر من الآثار ، وإذا اللغة العربية وحدها لا تكفى لمن أراد أن يكون أديبا ومؤرخا للآداب حقا ، إذا لابد له من درس الآداب الحديثة فى أوروبا "(٧٨)

وتجلى أثر هذا المنهج الجديد عند طه حسين فى نفسه وعقله " فقد غيرت رأيى فى الأدب ومذهبى فى النقد التغيير كله ، فلم يبق من هذه الآثار الحسان التى تركها الأستاذ المرصفى فى تلك النفس الناشئة إلا دقة النقد اللفظى ، والحرص على إيثار الكلام إذا امتاز بمتانة اللفظ ورصانة الأسلوب "(٧٩)

واستطاع منهج طه حسين أن يحقق الخطة التى رسمها لدراسة أبى العلاء من خلال محاور أساسية أهمها استعراض الحياة العامة المتمثلة فى طبيعة العصر السياسية والاقتصادية والعقلية ، والحياة الخاصة التى تتمثل فى أسرته وحياته وقبيلته وتنقلاته ورحلاته إلى أنطاكية وطرابلس وحلب وبغداد والأزمات التى صادفته خاصة بعد موت أبيه ثم أمه واتهامه بالزندقة وسلوكياته وأخلاقه عبر الأطوار الثلاثة التى حددها طه حسين لأبى العلاء .

---

(٧٨) نفسه ص ٣٦٧ .　　(٧٩) نفسه ص ٣٦٧ .

ويتضح من خلال عرض فساد الحياة السياسية وتدهور الحياة الاقتصادية ومع ذلك يصف الحياة العقلية والعلمية بالازهار " إنا نعتقد اعتقادا منطقيا تؤيده حقائق التاريخ ، أن المسلمين لم يشهدوا عصرا زهت فيه حياتهم العقلية وأزهرت ، وآتت أطيب الثمر كهذا العصر الذى نبحث عنه ونقول فيه "(٨٠)

ولقد كان من المنطقى أن تكون الحياة العقلية مرتبطة بما ساد الحياة السياسية والاقتصادية من فساد وتقهقر ، لأن من مسلمات المنهج عنده " أن ليس فى هذا العالم شىء إلا وهو نتيجة من جهة ، وعلة من جهة أخرى ، نتيجة لعلة سبقته ، ومقدمة لأثر يتلوه ولولا ذلك لما اتصلت أجزاء العالم ، ولما كان بين قديمها وحديثها سبب "(٨١)

كما أن الاختلاف لم يكن قاصرا على الناحية العقلية والعلمية فحسب ، بل نراه يمتد إلى الناحية الأدبية التى ازدهرت وتطورت ، فإذا كانت الحياة السياسية والاقتصادية للمسلمين قد ضعفت فإنها قد تأثرت بحال الخلفاء وأوضاعهم ، تقوى بقوتهم وتضعف بضعفهم ، أما الحياة العقلية فقد ازدهرت مع الحياة الأدبية لأن " الأسباب التى أضعفت السياسة قد عملت فى تقوية العقل ، وأن منافسة الأمراء والمتغلبين لم تعتمد على السيف وحده ، بل اعتمدت معه على العقل ، واللسان "(٨٢)

كما أن هناك العديد من المؤثرات الاجتماعية والاقتصادية تؤثر فى مسيرة الآداب ولم تكن منافسة الحكام مقصورة على الاستبداد بالملك والهيمنة على الممالك فحسب ، " بل كانت تنزع إلى ملك يكفل لصاحبه السلطان والقوة ، ويكفل له بعد الصيت وحسن الشهرة ، فكان عمل الآداب والعلوم فى ذلك كله ، قيما عظيم الخطر فلم يتنافس المسيطرون فى الملك وحده ، بل تنافسوا فى العلم والأدب أيضا ، والأدلة على ذلك موفورة لا تحتاج إلى الاستظهار بها الآن ، بل يكفى أن ينظر الباحث فى تاريخ من شاء ، من ملوك القرن الرابع ووزرائه وكيف كانت تتألف حاشيته ، وكم كان عدد العلماء والأدباء فى قصره ليعرف صحة ما نقول "(٨٣)

والخطة المهنجية التى اتبعها طه حسين انبثقت من مبادىء آمن بها وهى قضية الجبر فى التاريخ ، بمعنى " أن الحياة الاجتماعية إنما تأخذ أشكالها المختلفة ، وتنزل منازلها المتباينة بتأثير العلل والأسباب ، التى لا يملكها الإنسان ، ولا يستطيع

---

(٨٠) نفسه ص ٣٤١ . (٨١) نفسه ص ٣٧٦ . (٨٢) نفسه ص٣٤١،٣٤٢. (٨٣) نفسه ص ٣٩٧.

لها دفعا ولا اكتسابا "[٨٤] فكل ظاهرة لها العديد من الأسباب التى ساهمت فى بروزها واستخلاص نتائجها .

ولقد قاد طه حسين منهجه إلى جعل النص وثيقة نفسية أو تاريخية أو اجتماعية دالة على بيئتها أو صاحبها ،نجم عن ذلك أنه كان يرد النص إلى فترات حياة أبى العلاء ، ففترة الشباب تتميز بالتكلف الذى يحول دون تمثيل العواطف .

٤ ـ حافظ إبرهيم :

كتب طه حسين عدة مقالات أدبية فى الفترة ما بين ١٩٢٢ ـ ١٩٣٢ م وتناول فيها بشكل رئيسى نقد قصائد معينه لحافظ وشوقى ، أضاف إليها مقالات كتبها عن النثر والأدب الفرنسى ، فلما استأثرت رحمة الله بحافظ وشوقى ، أضاف إليها فصلين ليكونا جزء من كتاب بغية إنصاف الشاعرين اللذين كان يخاصمهما . أحد الفصلين يتحدث عن المراثى عند حافظ إبراهيم شاعر النيل ، والثانى موازنة بين حافظ وشوقى من حيث شخصية كل منهما وشاعريته وثقافته .

ويتضمن كتاب حافظ وشوقى أربعة عشر فصلا ، وسوف نتناول منها كل ما يتعلق بالشاعرين.

ولقد كان طه حسين يهدف من تقديم هذا العمل سنة ١٩٣٣ إلى " إثارة الميل القومى إلى درس الأدب والعناية به وتقوية الذوق الفنى وتوجيهه الوجه الجديد الذى يلائم حياتنا وآمالنا ومثلنا العليا فى هذا العصر الذى نعيش فيه "[٨٥]

كما أنه يحمل بعض القيم الإنسانية ، المتمثلة فى الوفاء لشاعرين وطنيين قدما الكثير من أجل الوطن والإسلام .

وربما كان تحرج الكثيرين من رثاء حافظ وخشيتهم من حكم صدقى ودافعا لجرأة طه حسين أن تنطلق ، خاصة وأنه عانى مثل حافظ إبراهيم من ويلات معارضة الوزارة الصدقية والقصر والاحتلال ، بل ومن المصادفة أن يشارك حافظ إبراهيم فى تكريم طه حسين حين أقصته وزارة صدقى عن الجامعة ، وأنشد فى حفل

---

(٨٤) نفسه ص ٣٧٨ .

(٨٥) طه حسين ، حافظ وشوقى ، منشورات الخانجى وحمدان ، القاهرة ، بيروت ص هـ بالمقدمة .

أقامه الطلاب الجامعيون لعميد الأدب العربى يومئذ:

قد أجدبت دار الحجى والنهى بعدك من آرائك النافعة

وأخصبت أرجاء مصر بمن صير مصرا كلها جامعة

و لعلى حقد صدقى تجاه حافظ جاء نتيجة القصائد التى أنشدها من ظلم صدقى والاحتلال الانجليزى حيث يقول :[٨٦]

قد مر عام ياسعاد وعام وابن الكنانة فى حماه يضام

صبوا البلاء على العباد فنصفهم يجبى البلاد، ونصفهم حكام

و يتجه إلى الانجليز قائلا :

لم يبق فينا من يمنى نفسه بودادكم .. فودادكم أحلام

أمن السياسة والمروءة أننا نشقى بكم فى أرضنا ، ونضام ؟

إنا جميعنا للجهاد صفوفنا سنموت أو نحيا ونحن كرام

وقد كان لحافظ مكانة سامية فى نفس طه حسين يتجلى ذلك أثناء نقده لترجمة حافظ لكتاب " البؤساء " إذ يقول " فإن لحافظ فى نفسى مكانته العالية فى نفس كل مصرى قرأ شعره الجزل ونثره المتين ، وله فى نفسى مكانة خاصة هى مكانة الصديق الذى أحبه وأجله وأطمئن إلى خلقه ، وأرتاح إلى حديثه العذب "[٨٧]

وبرغم إعجاب طه حسين باللغة الفصيحة التى يستخدمها حافظ إلا أنه أخذ عليه الإسراف فى اللفظ الغريب والإعراض التام عن بعض النصوص ، ولعل ذلك جاء نتيجة مطابقته بين الأصل الفرنسى لفكتور هوجو والترجمة التى قام بها شاعر النيل .

ثم يشرع طه حسين فى نقد قصيدة حافظ التى وجهها للملك فؤاد بقصر الزعفران وذكر فيها الدستور ، وكان طه حسين مترددا فى قيامه بهذا النقد لوجود صلات مودة بينه وبين حافظ ، ولكنه وجد أخيرا " أن هؤلاء الكتاب يستفيدون من النقد أكثر مما يخسرون ، يعرفون رأى الناس فيما يكتبون ويقولون ، وليست هذه المعرفة قليلة الفائدة ، يعرفون رأى الناس ويعرفون رأى الاخصائيين ، فيقفون على

---

(٨٦) د. عبده بدوى وآخرون، طه حسين وقضية الشعر مقال عامر محمد بحيرى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ ص١٤ .

(٨٧) طه حسين ، حافظ وشوقى ص٨٣ .

مواضع القوة والضعف فى فصولهم وقصائدهم فينفعهم هذا ويزيدهم قوة إلى قوة".[٨٨]

ثم يستعرض بعض الأبيات من قصيدة حافظ التى أشاد فيها بدور الملك فؤاد فى رفع شأن الأزهر الشريف خاصة عندما قال : [٨٩]

قضت به الصلاة فكاد يزهى   بزائره على ركن الحطيم

و يرى أن هذا البيت ألفاظه عادية مبتذلة ليس فيها شيء من جمال .

ويختار بيتا آخر يصف فيه النهضة المصرية :

أفقنا بعد نوم فوق نوم   على نوم كأصحاب الرقيم

ثم يذكر بيتا آخر قاله حافظ بعد صدور الدستور يصور فيه اغتباط مصر :

فيا مصر اسجدى لله شكرا   وتيهى واقعدى طربا وقومى

ويشيد طه حسين بما يتميز به حافظ من نفس رضية وصفاء طبع ، يقابل الخير بالخير والإحسان بالإحسان ، وحس مرهف " ولا أعرف بين شعراء هذه الأيام شاعرا جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه ولحياة شعبه كحافظ رحمه الله"[٩٠]

ويختار طه حسين فن الرثاء الذى أجاده حافظ ، الذى كان يرثى لأنه يشعر بالحزن الصادق ، ويرى أن فن الرثاء قد تطور عند حافظ إذ كان يقلد القدماء تقليدا قد يذهب بشخصيته ، ويأخذ نموذجا من رثائه لأحد الأباظيين انصب اهتمامه على اللفظ دون المعنى ، وقد استلهم المعنى من أبى العلاء فى قوله :

غير مجد فى ملتى واعتقادى   نوح باك ولا ترنم شادى

قال حافظ[٩١]

أيهذا الثرى إلام التمادى   بعد هذا أأنت غرثان صادى؟

أنت تروى من مدمع كل يوم   وتغذى من هذه الأجساد

قد جعلت الأنام زادك فى الدهر   وقد آذن الورى بالنفاد

فالتمس بعده المجرة وردا   وتزود من النجوم بزاد

وعندما رثى الأستاذ الإمام محمد عبده ، وفيه نلمس مدى ما وصل إليه من تطور[٩٢]:

---

(٨٨) نفسه ص ١٠٢ .   (٨٩) نفسه ص ١٠٦ .

(٩٠) طه حسين ، تاريخ الأدب العربى ج٣ ص١٤١ .

(٩١) نفسه ص١٤٤.   (٩٢) نفسه ص ١٤٦ .

سلام على الإسلام بعد محمد   سلام على أيامه النضرات

على الدين والدنيا، على العلم والحجى   على البر والتقوى ، على الحسنات

لقد كنت أخشى عادى الموت قبله   فأصبحت أخشى أن تطول حياتى

فوا لهفى والقبر بينى وبينه   على نظرة من تلكم النظرات

ورثى حافظ أستاذه محمود سامى البارودى فقال[٩٣]:

ردوا على بيانى بعد محمود   إنى عييت وأعى الشعر مجهودى

ما للبلاغة غضبى لا تطاوعنى   وما لحبل القوافى غير ممدود ؟

ولعل براعة حافظ فى تصوير آلام الشعب أكسبت شعره السياسى ورثاءه لأصحاب السياسة لونا من الخطابة يمنحه قوة غريبة تسيطر حقا على نفوس الشعب ، ورثاؤه لمصطفى كامل خير شاهد على ذلك[٩٤]

إنى أرى فؤادى ليس يكذبنى   روحا يحف به الإكبار والعظم

أرى جلالا ، أرى نورا ، أرى ملكا   أرى محيا يحيينا ويبتسم

الله أكبر ، هذا الوجه أعرفه   هذا فتى النيل هذا المفرد العلم

لقد استحضر حافظ شخصية الزعيم الوطنى مصطفى كامل يحف به الجلال والعظمة .

ويرثى قاسم أمن بأبيات تحس من خلالها بمدى اللوعة والأسى": [٩٥]

قد كنت أشقانا بنا وكذا   يشقى الأبى بصحبة الوكل

لهفى عليك قضيت مرتجلا   لم تشك ، لم تستوص لم تنل

وإننى أرى أن استعراض طه حسين لفن الرثاء عند حافظ دليل محبته ، لأنه شرع فى تناول فن أجاده حافظ ، وإن كان قد أخذ عليه بعض المآخذ عندما كان مقلدا للقدماء أو أن رثاءه لم يبلغ تأثيره القلوب ، فربما يرجع ذلك إلى مدى تأثر حافظ ولوعته تجاه من فقد ، فعلى درجة إحساسه باخلاصه لوطنه ودينه يقدم حافظ مايتناسب وهذه الدرجة .

ولعل إجادته لفن الرثاء دفعت الناقد طه حسين إلى أن يقول " إنما رثاؤه يصلح مصدرا من مصادر التاريخ السياسى والاجتماعى فى هذا العصر "[٩٦]

وربما ظلم طه حسين حافظا عندما بين رأيه أنه " ناظم " بينما شوقى "

---

(٩٣) طه سين ، حافظ وشوقى ص١٥٠. (٩٤) نفسه ص ١٥١،١٥٠. (٩٥) نفسه ص ١٥٣.(٩٦) نفسه ص ١٥٨،١٥٧ .

شاعر " عندما ألقى حافظ قصيدة أمام الملك فؤاد فى قصر الزعفران وذكر فيها الدستور وأهميته بالنسبة للشعب وذلك من خلال مدحه للملك لافتتاحه مدرسة ثانوية تحمل اسمه ، وأجرى مقارنة بين قصيدة حافظ وقصيدة شوقى التى تناولت حدثا تاريخيا وثقافيا كان له بالغ الأثر وهو اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون وما يتعلق بذلك من حديث حول الحضارة المصرية ، وذكر شوقى خلالها الدستور . . قال شوقى(٩٧)

زمان الفرد يا فرعون ولى	ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض	على حكم الرعية نازلينا
هو المصباح فأت به وأخرج	من الكهف السواد الغافلينا

بينما أنشد حافظ :

أيأذن لى المليك البر أنى	أهنىء مصر بالأمر الكريم
فيا مصر اسجدى لله شكرا	وتيهى ، واقعدى طربا ، وقومى
فقد تم البناء وعن قريب	تزف لك البشائر من نسيم

ولعل تورط حافظ فى مدح الملك فؤاد (التركى) جعله ينتقى الألفاظ السهلة الدارجة ليفهمها ، ويقدر على تذوقها .

والناقد طه حسين يشيد بقول بشار بن برد فى الحرب ووصفه الرائع" (٩٨) :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا	وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ثم يتحدث بشار إلى جارية صغيرة تقوم على شئون بيته فيقول لها ملاطفا :

ربابة ربة البيت	تصب الخل فى الزيت
لها عشر دجاجات	وديك حسن الصوت

فالموقف هو الذى يدفع الشاعر لاختيار الكلمات والألفاظ التى تتوافق وفهم استيعاب المتلقى وتساير ثقافته وفكره .

ولعل الاتجاه الإسلامى يبدو عند شاعر النيل من خلال نشره للقيم والمبادىء الإسلامية الفاضلة والإشادة بدور الأزهر والاهتمام بلغة القرآن الكريم ومناشدته الجهاد الإسلامى ضد المستعمر ومطالبته باسم الشعب باصدار الدستور الذى يكفل الحياة الإنسانية ، ثم قيمة الإخلاص والوفاء والصدق مع النفس تجاه الزعماء المخلصين والعلماء والمصلحين .

(٩٧) نفسه ص ٩٨.

(٩٨) د. عبده بدوى وآخرون، طه حسين وقضية الشعر مقال عامر محمد بحيرى ص١٧٠

٥ ـ أحمد شوقى :

أما بالنسبة لشوقى الذى عاصر الأحداث الجسام التى مرت بالعالم الإسلامي فإننا نجده يؤيد الخلافة الإسلامية ويقف فاضحا مؤامرات الاستعمار الغربى ضدها وقد عاش أحمد شوقى فى الفترة من ١٨٦٨ ـ ١٩٣٢ م ، وكان للأحداث المريرة التى شاهدها الأثر العظيم فى حياته وشعره ، شهد الاحتلال الإنجليزى لمصر ، وعاصر الثورة العرابية والحركة الوطنية بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد ، ونفى إلى أسبانيا بعد قيام الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ من قبل الاستعمار الإنجليزى ، بعد خلع الخديوى عباس ، وأيد ثورة ١٩١٩ وأشاد بالمجاهدين .

كما عاصر شوقى الأحداث الخطيرة التى مرت بالعالم الإسلامى ، فقد كانت تركيا تمثل دولة الخلافة العثمانية فى ذلك الحين ، تنحدر من عليائها وتفقد العديد من أجزائها ، إذ تخلت عن الجزائر لفرنسا ١٨٣٠ م ثم تركت لها تونس ١٨٨١ م ، واحتلت انجلترا مصر والسودان ١٨٨٢ م ، واحتلت ايطاليا ليبيا ١٩١٢ م ، وكانت الدول الإسلامية المستقلة كالأفغان وإيران لا تسلم من مخططات الاستعمار .

ولقد اقترن هذا الضعف السياسى فى الشعوب الإسلامية بالجهل والتخلف الاجتماعى والاقتصادى ، والانشغال بالأمور الدنيوية الرخيصة ، والخضوع للأوهام ومجافاة روح الإسلام ، ولهذا هب دعاة الإصلاح بدعوتهم للجهاد والاتحاد ، " ولم يكن الإسلام ثورة دينية فحسب ، وإنما كان ثورة سياسية واجتماعية واقتصادية أيضا . وكان ـ مع هذا كله ـ ثورة غيرت من معالم الصورة القديمة التى استقرت فى المجتمعات الأدبية الجاهلية ، فشقت هذه الثورة الأدبية طريقها مؤذنة بظهور الأدب الإسلامى لأول مرة فى تاريخ الشعر العربى "(٩٩)

ويقدم طه حسين فى الفصل الثالث تعريفا حول " المثل الأعلى للشعر " بأنه ذلك " الكلام الموسيقى الذى يحقق الجمال الخالد فى شكل يلائم ذوق العصر الذى قيل فيه ، ويتصل بنفوس الناس الذين ينشد بينهم"(١٠٠).

ومن خلال هذا المفهوم لا يعجبه تصوير انتصار مصطفى كمال فى الحرب ضد

---

(٩٩) د. سعاد عبد الوهاب ، إسلاميات أحمد شوقى ، مكتبة مدبولى ص٤ .

(١٠٠) طه حسين ، حافظوشوقى ، منشورات الخانجى ص ٣١ .

اليونان فى آسيا الصغرى والتى يبدؤها بقوله :

الله أكبر كم فى الفتح من عجب　　　يا خالد الترك جدد خالد العرب

وطه حسين يتعجب من تشبيه مصطفى كمال بالبطل الإسلامى خالد بن الوليد ، بمعنى أن طه حسين كان يود من شوقى أن يشبه مصطفى كمال بأحد القادة النابهين فى الحرب العالمية الأولى ، كما يأخذ على شوقى أنه اكتفى بذكر الخيل والسيف والرمح والدرع ولم يذكر المدفع أو الطائرة كما أخذ طه حسين على شوقى قوله :

قذفتهم بالرياح الهوج مسرجة　　　يحملن أسد الشرى فى البيض واليلب

فهو يعجب من الرياح المسرجة وإن كان المراد بها الخيل ، كما يعجب من أسد الشرى على هذه الخيل وإن كان المراد بها فرسان الأتراك ، وانتهى رأيه حول شوقى بأنه " شاعر يقلد القدماء فلا ينبغى أن ينظر إليه إلا بأعين القدماء ، ولاينبغى أن يقاس إلا بمقاييسهم وكان هذا النوع من الإنصاف فى نفسه قضاء على القصيدة ، فهو حكم بأنها لا تثبت أمام النقد الحديث ومقاييسه "(١٠١)

وإذا كان شوقى قد اتخذ قصيدة أبى تمام نموذجا حين أراد أن ينظم قصيدة فى انتصار الترك ، وأخذ يشبه يوم عمورية بيوم بدر لأن المعتصم خليفة الله وابن عم النبى وهو يجاهد للدين وألصق هذا التشبيه بمصطفى كمال " ولم يكن مصطفى كمال خليفة ، بل كان خارج على الخليفة ، ولم يكن يجاهد للدين بل كان يجاهد للوطن ولم يكن يجاهد بالسيف والرمح وإنما كان هذا أقل أدوات الحرب خطرا ، وأساء شوقى اختلاس هذا التشبيه "(١٠٢)

والملاحظ فى قصائد شوقى التى قالها فى الخلافة أن الروح الإسلامى هو الرابطة التى تربطها ، واستطاع أن يطور فى الدلالة اللفظية والمعانى ، وإن كان يستمدها من بعض التصويرات القديمة ، وليس هذا عيبا ، وأرى أن طه حسين قد اشتد عليه فى النقد ، وتحولت صفات السلطان عند شوقى من كرم وشجاعة وبطولة إلى ملامح تستند إلى الحس الإسلامى ، وهذه محاولة لتحقيق الوظيفة الدينية المطلوبة من الخليفة ، وهذا التيار الإسلامى الذى تأثر به شوقى جعله يفرض على ممدوحيه من الخلفاء ، فكانت هذه القيم أقوى وأهم من حيث الدلالة من خلال التقوى ونشر

---

(١٠١) طه حسين ، حافظ وشوقى ص٤٠ .　　　(١٠٢) نفسه ص ٤٣.

العدالة وانتصار الدين بالحق ، وتنفيذ تعاليم الدين وحماية الرعية.

وتبدو الوقائع الحربية فى قصائد الخلافة واضحة عند شوقى ، إذ يتخذ منها مجالا لإبراز مكانة الخلفاء على نحو جديد أساسه البطولة والنجاح فى القيادة الحربية ، وما تنتهى إليه الصورة من استحضارٌ مواقع بعينها من التاريخ كموقعة بدر إذ انتصر المسلمون وهم قلة فيها ، وما كان لها من أثر عميق فى نفوس الناس ، ثم ذكر رجالات الإسلام مثل خالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبى ، وماله من صوت بعيد فى الحروب الإسلامية .

وقد أتاح هذا الموقف لشوقى تصوير المعارك وأدواتها القتالية وأساطيل العدو ، أثناء تهنئته للفاتح بهذا النصر ، إذ إن الفتح لفظ دينى أطلقه المسلمون على غزوهم للبلاد ، فقد كانوا يعمرون مايفتحون ولايستعمرون ، وأهل البلاد إذا أسلموا أصبحوا منهم وإذا لم يسلموا لهم حقوق مقرة ومقدسة ، وأصبح شوقى شاهد العصر على دوافع الخلافة لهذه الحروب ونتائجها .

ولقد تغير موقف شوقى تجاه مصطفى كمال عندما حاد عن جادة الإسلام والعروبة فيقصى الخليفة ، ويلغى الخلافة ، ويتحول بالأتراك من الكتابة بالحروف العربية إلى الكتابة بالحروف اللاتينية ، يقول شوقى راثيا خلافة الإسلام(١٠٣):

عادت أغانى العرس رجع نواح ... ونعيت . . بين معالم الأفراح

الهند والهة ، و مصر حزينة ... تبكى عليك بمدمع سحاح

والشام تسأل والعراق وفارس ... أمحا من الأرض الخلافة ماح ؟

بكت الصلاة ، وتلك فتنة عابث ... بالشرع ، عربيد القضاء ، وقاح

أفتى خزعبلة ، وقال ضلالة ... وأتى يكفر فى البلاد براح

ولعل ذلك يبرز حقيقة موقف شوقى ، فقد مدح مصطفى كمال عندما حارب باسم الخلافة والمسلمين أعداء الإسلام ، وعندما ارتد وألقى الخلافة لم يتردد شوقى فى هجائه وفضح دوره ، وتبرأ منه .

كما يكمن الاتجاه الإسلامى عند شوقى فى محاربة الأمية والجهل وإشادته بدور العلم فى إعلاء قيم الإسلام ومبادئه يقول شوقى(١٠٤):

---

(١٠٣) د. عبده بدوى وآخرون، طه حسين ،وقضية الشعر مقال عامر محمد بحيرى ص١٦١ .

(١٠٤) نفسه ص ١٧٦ .

لمـــا رأيـــت ســـواد قـــو	مـــى فـــى دجـــى ليـــل بهيـــم
يســـقون مـــن أميـــة	هـــى غصـــة الوطـــن الكظيـــم
ســـراتهم فـــى مقعـَــد *	مـــن مطلـــب الدنيـــا مقيـــم
يســـعون للجـــاه العظيـــم	وليـــس للحـــق الهضيـــم
وبصـــرت بالدســـتور يـــز	هـــق وهـــو فـــى عمـــر الفطيـــم
لـــم ينـــج مـــن كيـــد العـــدو	لـــه ومـــن عبـــث الحميـــم
أيقنـــت أن الجهـــل علـــة	كـــل مجتمـــع ســـقيم

وبعد هذا العرض للاتجاه الإسلامى من خلال الشاعرين حافظ وشوقى ، فإنه يمكن لى استخلاص الأفكار الإسلامية التى تضمنتها قصائدهم :

١ ـ الدعوة إلى القوة وإعداد العدة للدفاع عن الحق وحماية الحرمات والتحريض على الجهاد واستنهاض الهمم والإشادة بالأبطال ودعم الخلافة الإسلامية فى حروبها .

٢ ـ الدعوة إلى الوحدة والتماسك والاتحاد ، وقد نبعت هذه من ينبوع الإسلام الذى دعا المسلمين إلى الوحدة والتماسك وحذرهم من الفرقة ونهاهم عن التنازع ، وقد ظهر أثر هذه الدعوة أثناء الحروب العثمانية فى اليونان والبلقان .

٣ ـ إبراز مزايا الإسلام والإشادة بقيمه ومبادئه وتمجيد حضارته وتعظيم علمائه والكشف عن محاسنه وذلك ليردوا إلى الإنسان ثقته بنفسه وقدرته على النهوض ومواجهة التحديات المريرة .

٤ ـ الدعوة إلى التحلى بمكارم الأخلاق ومحاربة الفساد والانحلال ، فالإسلام دين يحض على الصدق والأمانة والوفاء والرحمة بالضعفاء .

الفصل الثالث

الحــوار الأدبى

١- طه حسين والنقاد

٢- مع الأزهر وعلمائه

٣- مع العقاد

٤- مع عبد الرحمن شكرى

٥- مع مصطفى صادق الرافعى

١ ـ طه حسين والنقاد :

كان طه حسين في الفكر الأدبي حركة لا تهدأ ، و بركانا لا يكاد يخمد حتى يثور من جديد ، وظلت كتاباته ومؤلفاته مثار الدراسات الأدبية ، ولم يعرف تاريخ الأدب العربي هزة تشبه الثورة ، وحركة أقرب إلى التجديد ، كهذه الهزة التي فجرتها مباحثه وآراؤه ، ويرى الأستاذ الدكتور "إبراهيم عبد الرحمن " أن نقاده يتجهون اتجاهين متباينين في تفسير آرائه وتقويمها ، الأول : اتجاه تقليدي يستمد مناهجه ويؤسس أحكامه على أفكار نقدية متخلفة تؤمن بقداسة تراث العربية القديم من الشعر واللغة ، إيمانا يحول دون تحليله وتقويمه في ذاته أولا ، و تفسيره تفسيرا جديدا في ضوء النظريات اللغوية والنقدية الحديثة ، والثاني : اتجاه انطباعي لا حظ لأصحابه من معرفة القديم والجديد معرفة وثيقة ولكنهم يؤسسون أحكامهم على السماع دون الرجوع إلى الأصول لاستمداد هذه الأحكام منها ، قانعين بترديد الشعارات والأحكام التي أثمرها الاتجاه الأول في إسراف وتجن واضحين"[١]

و قد رسخت في أذهان الكثيرين من النقاد فكرة مسبقة عن اتجاه طه حسين منذ أن قدّم كتابه في الشعر الجاهلي ١٩٢٦ م ، حيث غزت عقول القراء وشحنت نفوسهم ضده ، يظهر هذا من خلال الكتب المؤلفة أو المقالات الصحفية أو الأحاديث الإذاعية التي أساءت إلى صورة طه حسين وأدبه وفكره .

وتعد إسهامات طه حسين في حياتنا الأدبية والفكرية الإسلامية ، تطورا إبداعيا ، حيث استطاع بما له من جهارة الصوت ، أن يشعل نار الخصومة بينه وبين النقاد والمثقفين ، واقتحامه في شجاعة خارقة ما كان يظن أنه من المقدسات ، كما نجد أن عددا من مؤلفاته قد تميز بالعمق والأصالة والابتكار .

و إلى جانب هذا النشاط الملموس في مجال الدراسات الأدبية ، كانت ترجمته للكثير من الأعمال الأدبية الغربية التي كانت تشكل خطا موازيا لدراسة الأدب العربي
القديم والعمل على تطوير الحياة الأدبية وإنعاشها .

---

(١) أ.د إبراهيم عبد الرحمن – نقاد طه حسين بين التقليد والسماع – بحوث مهرجان طه حسين الحادي عشر – كلية الآداب جامعة المنيا ١٩٨٥ ص١٥ .

و هكذا نجد أن أدب طه حسين قد ملأ الأسماع والعقول والقلوب ، وكان من العوامل الفعالة فى وحدة الفكر العربى والسبيل إلى وحدة الإرادة والعمل ، كما كان بلا شك ظاهرة فكرية تاريخية ، برزت آثارها وعظمت تأثيراتها وشكلت مع ظواهر أخرى حقبة جديدة فى تاريخ الفكر العربى ، إذ كان نموذجا فذا للتحدى وإرادة التطور وقوة التأثير .

و بالرغم من كثرة المضامين التى احتوتها أعماله الأدبية الإسلامية ، وهذا الكم الغزير الذى قدمه للمكتبة الإسلامية من دراسات انصب اهتمامها على تصوير الأحداث فى تلك الفترة التى تمتد من ظهور الإسلام حتى نهاية عصر الخلفاء الراشدين ، فقد بقى فى أذهان الكثيرين بصورة الأديب الذى أصدر كتاب " فى الشعر الجاهلى " ١٩٢٦ م ، وكأن فكره عند هؤلاء قد تجمد منذ ذلك التاريخ ، كما أن التحول الفكرى أمر طبيعى فى حياة الكتاب والأدباء ، ونادرا ما تسير حياة مفكر من المفكرين فى طريق واحد ثابت من البداية إلى النهاية ، وقلما يلتزم فكره خطا ثابتا لا يتعداه ، بل إننا نجد كثيرا من الكتاب أو المفكرين قد تحول فكره من مذهب إلى آخر يختلف اختلافا جذريا عن مذهبه الأول ، وقد يأتى ذلك نتيجة لتأثيرات البيئة الاجتماعية والثقافية وطبيعة الحياة السياسية ، واتجاهات الكاتب واهتماماته ، وما يحدث لديه من تغير بسبب تقدم السن وازدياد المعرفة واتساع الأفق الثقافى .

لهذا فإن الأمانة العلمية تقتضى الإنصاف ، وتستوجب إظهار حقيقة تطوره الفكرى من خلال دراسة متأنية تساير أعماله الإبداعية منذ ١٩٢٦ إلى مراحل متأخرة من حياته ، ولهذا يجب دراسة طبيعة عصر طه حسين ، ورغبته فى ذلك الوقت المتمثلة فى طلب الشهرة من موقع "خالف تعرف " وتأثره بمنهج ديكارت وتطبيقه الصارم لهذا المنهج على القرآن الكريم ، محتذيا بذلك حذو الغربيين فى نقدهم للتوراة كمظهر من مظاهر تطبيق العلم على المصادر الدينية ، أو إعجابه المفرط ببعضهم ، خاصة المستشرق " كازانوفا " عرفته أستاذا فى الكيوليج دى فرانس، ولم أكد أسمع له حتى أعجبت به إعجابا لم أعرف له حدا ، كان يفسر القرآن وكنت حديث العهد بباريس ، كنت شديد الإعجاب بطائفة من المستشرقين ، ولكنى لم أكن أقدر أن هؤلاء المستشرقين يستطيعون أن يعرضوا فى إصابة وتوفيق لألفاظ القرآن الكريم ومعانيه ، و الكشف عن أسراره وأغراضه ، فلم أكد أجلس إلى كازانوفا حتى تغير رأيى أو قل حتى ذهب رأيى كله ، وما هى إلا دروس سمعتها منه حتى استيقنت أن الرجل كان

أقدر على فهم القرآن وأمهر في تفسيره من هؤلاء الذين يحتكرون علم القرآن ، ويرون أنهم خزنته وسدنته وأصحاب الحق في تأويله".(٢)

ولقد تطور فكر طه حسين بحكم الخبرة والتجارب ومعايشة الواقع ، وبرغم ذلك نجد أن الكثير من العيون قد أغمضت قصدا أو سهوا عن رؤية التطور في فكره الإسلامي وكأن فكره لم يتطور منذ ذلك التاريخ ، وكأن اتجاهاته ومواقفه لم تخضع لقانون التغيير ولهذا لم يعط حقه في حياته أو بعد مماته ، خاصة بعد أن استفاد من خطئه ، وقرر التخلي عن نظرية الإيمان المطلق بالفعل وأدواته ، يبدو ذلك في كتابه " على هامش السيرة " وغيره من الأعمال الأدبية .

و تذكر د. زاهيه راغب الدجاني في مقال لها بجريدة القبس الكويتية تحت عنوان " لأنه من المدافعين عن الإسلام ، من الظلم تصنيف طه حسين بناء على شكه الأول" وتوضح خلاله أثر زيارة طه حسين الأماكن المقدسة بمكة والمدينة وقوله " لقد سبق أن عشت بفكري وقلبي بهذه الأماكن المقدسة زهاء عشرين عاما ، منذ بدأت أكتب " على هامش السيرة " حتى الآن ولما زرت مكة والمدينة أحسست أني أعيش بفكري وقلبي وجسدي جميعا ، عشت بعقلي الباطن وعقلي الواعي ، وكانت الذكريات تختلط بواقعي ، فتبدو حقائق حينا ورموزا حينا آخر ، وكان الشعور بها يغمرني ويملأ جوانب نفسي "(٣)

و مما يؤكد استقامة فكر طه حسين جهوده المتواصلة في الدفاع عن الإسلام ضد نشاط بعض المنصرين في الثلاثينيات في مصر ، ساعيا إلى تثبيت دعائم الإسلام في وجه التحديات التنصيرية ، حيث حمل على المبشرين حملات عنيفة ، واستنكر استمراءها حسن وفادة مصر لها واستغلالها حاجة بعض الطبقات الفقيرة وحملها على اعتناق الدين المسيحي ، وإغواء الفتيات بالرهبنة على غير رغبة والديهن ، وانتقد موقف الحكومة

المصرية وعلماء الدين بالتقصير في هذا الشأن ، مما دفعهم لإصدار نداء جاء فيه " وقد ثبت أن هذه المدارس أي مدارس المبشرين تنتهز فرصة ضعف أولادكم وتشككهم في دينهم ، وتحط من قدر نبيهم وتكون النتيجة إما أن يعيشوا بلا دين أو يستبدلون

(٢) السياسة اليومية ٢٧ / ٣ / ١٩٢٦ م . (٣) جريدة القبس الكويتية العدد ٦٣٧٨ في ٩ / ٢/١٩٩٠ م

دينا غير الإسلام بدين الإسلام ".[4]

و تتوالى أعماله فى خدمة الإسلام ، حيث أصدر عدة كتب يدافع فيها عن الإسلام كدين ولغة وحضارة وثقافة وتاريخ من جهة أخرى ويعطى تفسيرا عصريا للعديد من القضايا الإسلامية ، فى مواجهة كتب المستشرقين أو بعض العلماء الغربيين التى كانت تهدف إلى زعزعة الإيمان فى نفوس المسلمين ونفى صحة الوحى الإلهى لآيات القرآن لهذا فقد وجه اهتمامه نحو إثبات صدق الوحى من خلال التركيز على الطريقة الدقيقة التى تم بها جمع القرآن الكريم ثم إبراز الإعجاز القرآنى من حيث الأسلوب والمعنى .

و قد وفق طه حسين فى اتخاذ الأسلوب المتميز القائم على حسن العرض والإقناع والهدوء والمنطقية ، إذ اتسمت كتاباته الإسلامية بالتوجه إلى الموضوع فى صورة مباشرة ، لا من خلال الجدل المثار حول هذا الموضوع سلبا أو إيجابا ، لأنه يحرص على التوجه إلى العقل دون استثارة العواطف الجانبية التى قد تؤثر فى مجرى الحوار أو الجدل ، ويحاول من خلال إبراز الحقيقة الكامنة فى البحث أن يتوصل إلى إقناع القارىء بصدقه فى القول ، تاركا له أن يختار لنفسه الاقتناع بمضمون القول .

كما يتجلى صدقه فى الدفاع عن اللغة العربية الفصحى على أساس أنها لغة القرآن الكريم ، حيث عمل على محاربة العامية بكل أشكالها وألوانها .

و عندما انضم للحزب الوطنى ارتكز اهتمامه على الالتزام بخط الفكر الدينى والتمسك بالعقيدة والقيم الاجتماعية ، فنجده يدعو الصائم للمحافظة على صيامه ويدعو المرأة المسلمة بالتزام دينها فى سلوكياتها وعاداتها اليومية كما يطالب بتطبيق شرع الله فى شتى أمور الحياة .

و المتتبع لحركات النقد الأدبى ومعاركه فى تاريخ الفكر المصرى المعاصر يجد لطه حسين صوتا مدويا فيها فهو المفكر الأديب الذى عاش حياته فى معاناة مستمرة مع نفسه ومجتمعه بقضاياه المتعددة .

---

(٤) السياسة ٢١ / ٩ / ١٩٣٣ م .

و إذا كانت عملية الإبداع الفنى عند الأديب ترتبط ارتباطا وثيقا ببعض القدرات والميول الفطرية التى تنشأ مصاحبة له فى بيئته، وتظل عنصرا واضحا فى تكوينه الفكرى تمده وتوجهه وتتفاعل معه، فإننا نلمس ذلك فى رؤيتنا للصراع المحتدم فى نفس طه حسين خلال مراحل حياته ونشأته وسماته المميزة من اعتزاز بالنفس وعناد وشدة الحساسية بالقيود التى فرضتها عليه عاهته ثم وعيه بمعاناة الإنسان فى مجتمعه .

و كان طبيعيا أن تتعرض أعمال طه حسين للنقد ، وأن تحتدم حولها المعارك الفكرية ، واستعراض هذه المعارك يضىء الطريق إلى اتساع الوعى والفهم بأبعاد القضايا المطروحة ، ويثرى الحياة الثقافية والمعارك الأدبية " صراع وجدل ، وسخرية وهجاء ، تبادل للاتهامات والآراء ، وأعظم ما تدل عليه خصوبة الحياة الأدبية ، وفى وسط هذا الجو الذى كان لايخلو من طرافة وتسلية وصراع تبحث الشخصية الأدبية عن نفسها لمحاولة وضع الأساس للفكر العربى المعاصر"(٥) .

(٥) عامر العقاد ، معارك العقاد الأدبية ، منشورات المكتبة المصرية ، بيروت ص٦ .

٢ ـ مع الأزهر وعلمائه :

و لقد بدأت معارك طه حسين بنقده للكتاب وسيدنا وعريف الكتاب ، حيث أطلق لسانه وأخذ يظهر عيوبهما ، وفى الأزهر ثارت فى نفسه خواطر لاذعة لم ينسها قط، فقد انتظر أن يفرغ الممتحنون وإذا بأحدهم يدعوه بهذه الجملة التى وقعت من أذنه ومن قلبه أسوأ وقع " أقبل يا أعمى" ولهذا ضاقت نفسه بالأزهر وأساتذته ، وظهرت ثورته ضد الجمود والاتجاه السلفى المحافظ الذى يثقل الأزهر بالقديم ، ويورث بين طلابه التعصب للرأى دون دراسة ، لذلك نادى بتجديد الأزهر ليتمشى مع التطور الحضارى ويتواءم مع الثقافة وحاجة الشعب إلى الحياة المتطورة وأن الإسلام بقيمه ومثله هو دين العقل والطموح ، وأكد على ضرورة تنقية الدين مما خالطه من خرافات ، وكتب عن الخصومة بين العلم والدين على أساس أن " العلم شىء والدين شىء آخر ، الدين ملك للفرد والعلم ملك للإنسانية ، والدين صلة روحية بين العبد وربه ، والعلم صلة بين الإنسان والحياة "[٦].

ولهذا كانت أغلب كتاباته الإسلامية تنشد وفاقا إنسانيا بين المفاهيم الدينية الصحيحة والتطور الحضاري خاصة في بلاد الغرب ، وصرح أن المقصود من تطوير الأزهر هو " مجاراته للتطور ، بحيث يلائم حاضره ومستقبله وماضيه المجيد"[٧].

وفى تأكيد آخر على أن " حاجة النفس يابنى إلى الإيمان كحاجة الجسم إلى الطعام والشراب تألم إن فقدت الإيمان ، وتستريح إن ظفرت به"[٨].

وطه حسين الذى التحق بالأزهر ١٩٠٢ كان يحدوه الأمل أن يحقق رغبة أبيه " إنى لأرجو أن أعيش حتى أرى أخوك قاضيا وأراك صاحب عمود فى الأزهر" [٩] وظل حتى ١٩٠٨ ، ولكنه لم يحقق الأمل مما جعله حانقا على الأزهر ، ولعل من أسباب ذلك الضيق جمود أساليب التعليم وسخط طه حسين على المناهضين لحركة الإمام محمد عبده باعتبارها رمزا للتجديد فى البيئة المصرية العامة ، وهو السخط

(٦) طه حسين ، من بعيد ص٢٣٣. (٧) طه حسين ، مستقبل الثقافة فى مصر ص٤٣٦.

(٨) طه حسين ،على هامش السيرة ج٢ ص٥٣.

(٩) د. عبد العزيز شرف ، طه حسين ورواد المجتمع التقليدى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٢٥.

الذى اتخذ مظاهر الجدل المحرج للشيوخ التقليديين ، والتنقل الكثير من حلقة إلى حلقة ، وكثرة اصطدامه بالشيوخ وطردهم إياه .

و الحقيقة التى ينبغى تداركها أن مواقف طه حسين من مشايخ الأزهر ، لم تكن خروج على الفكر الدينى كفكر ، أو على الإسلام كإسلام ، بل كانت حملاته على فئة من الشيوخ ممن لا يلتزمون بالقيم التى حض الإسلام عليها ، ولهذا نجد أن له العديد من الصداقات وأواصر المحبة بينه وبين بعض الشيوخ ، وهناك العداوة بينه وبين البعض الآخر بسبب الجمود وسوء المعاملة .

و لعل معرفته بالشيخ عبد العزيز جاويش ساهمت فى إشعال لهيب العنف فى مهاجمته هؤلاء المشايخ فى غير تحفظ أو احتياط .

و دفعه الواقع المظلم لمجتمعنا فى كثير من قطاعاته أن يشن حملات متتالية على بعض الصور التى تمثل أهل الكذب والنفاق و الذين يتسترون بالدين والذين يؤثرون حياة التخلف والجهل والتعصب الأعمى دون تبصرة لقيمة الإسلام ومناهجه فى تطوير الحياة .

كما كان لإيمانه بدور الأديب فى المجتمع ، واعتبار الأدب والثقافة رسالة مقدسة يحق لصاحبها أن يصان شرفه ويعبر بحرية عن آرائه ، هذا الإيمان دفعه إلى مواجهة معارك وحملات شرسة عنيدة مع الكثير من الأدباء والنقاد .

٣ ـ مع العقاد :

اتسمت معارك طه حسين مع العقاد بالصبغة العلمية والمنهجية ، وسادها فى كثير منها جو الأخوة والمودة ، إذ جمعتهما الصداقة الأدبية ، ورغم تباين وجهات النظر في بعض القضايا فإن الخصومة بينهما لم تصل إلى درجة العداوة ، ولعل فى كلمات طه حسين فى رثاء العقاد ما يعبر عن مفهوم هذه الصداقة " ما أشد ما كان بينك وبينى من خصام فى السياسة أحيانا وفى الأدب أحيانا أخرى ، وما أحلى ما كان بينك وبينى على ذلك من مودة وإخاء ووفاء ، أنت أيها الأخ الكريم والصديق الحميم والزميل العزيز ، ملأت الدنيا حقا وشغلت الناس حقا وستشغلهم بعد وفاتك أكثر مما

شغلتـــهم فى حياتك[١٠] .

ولقد كانت هناك مواقف رجولية للعقاد تجاه طـه حسـين ، إذ وقـف تحـت قبـة البرلمان فى مجلس الشيوخ وسط بلبلـة عاصفـة لا تعـرف مغبتهـا ، وقـف يدافـع عـن حرية الرأى ، وحرية البحث العلمى وعن حرية الإنسان ، إزاء أزمة الشـعر الجـاهلى ، مرتفعا على ما بينهما من خصومات ومـودات ولهـذا جـاء فـى تصريـح عقـب وفـاة العقاد " إن الذى لا أنساه ولن أنساه ولايمكن أن أنساه عن العقاد ، هو موقفه فى أزمـة كتاب الشعر الجاهلى عندما ثار مجلس النواب على أكـثر مـن مـرة فـى أيـام الوفديـين مرة كان رئيس اللجنة ويصا واصف ، كلهم كانوا ثائرين ، لكن العقاد النـائب الوفـدى حينئذ قام ودافع عنى دفاعا حسنا ، وكان وفديا صميما ، وأيـام محاولـة إخراجـى مـن الجامعة قام العقاد يقول لهم ، على مهلكم فأنتم إذا أخرجتم فلانا من الجامعة فلن تجدوا من يستحق أن يجلس مكانه"[١١].

وكان طه حسين حريصا على نفسه من دخول معارك أدبية مع العقاد لا تحمـد عقباها ، يتضح ذلك عندما طلبت مجلة الاثنين من كلا الأديبين أن يكتب خلاصـة رأيه فى صاحبه " فلاذ طه حسين بالصمت ولم يلب دعوة المجلة فى أن يكتـب إليهـا برأيـه فى العقاد"[١٢] .

لقد كان كل منهمـا يتجنـب الاصطـدام بـالآخر ، ويحسـب لـه كفاءتـه ومقدرتـه وطاقته التى من الصعـب قهرهـا " ويقـرر مؤرخـو الأدب ودارسوه بـأن المعـارك لـم تحتدم بينهما إلا حول اللاتينية والسكسونية".[١٣]

و يتعرض العقاد لنقد أسلوب طه حسين " فهو يفكر ليملى ، ويملى ليزاوج بين فواصل كما يزاوج بين الفترات الموسيقية ، وليست هذه هى النقيصة الوحيدة فـى هـذا الأسلوب ، فهناك النقيصة الظاهرة بين الجزم والتشـكيك ، وإن أحصيـت ألفـاظ الشـك فى كلامه من أمثال : وقد أزعم ، ولعله يكون، ولعله لا يكون ، وربما ضحكت وربما

---

(١٠) جريدة الجمهورية فى ١٩٦٤/٣/١٣ مقال "وداع للدكتور طه حسين "

(١١) صحيفة الأهرام العدد ٢٨٢٢ الصادر فى ١٦ /٣ /١٩٦٤ بعنوان " أول حديث لطه حسين عن العقاد "

(١٢) عامر العقاد ، معارك العقاد الأدبية ص٨٣.

(١٣) سامح كريم ، معارك طه حسين الأدبية والفكرية ، دار العلم بيروت ص٣١٧.

بكيت، وربما ضحكت وبكيت في وقت واحد ، فقد تحسبه من الشك لا يستقر على شيء ، ولكن حين تقرأه ترى له عبارت من التوكيد واليقين قلما تراها في عبارات الشاكين المترددين ، ونقيصة ثالثة حين يكتب المقالات ، إنه يقتصد في العنوان ، حتى لا يجاوز كلمة واحدة ، وأنه يسهب في المقال حتى يفيض بالأنهار ".(١٤)

وعندما كتب العقاد في عام ١٩٣٩ مقالا عن الترجمة وعلاقتها بتعارف الشعوب ، موضحا أن الترجمة تكثر بعد الحروب بين الأمم المتحاربة لعناية كل أمة منها باستطلاع أحوال الأمم الأخرى ، واستقصاء ما عندها من بواعث النصر والهزيمة ، نرى د. طه حسين يذهب في رده على العقاد قائلا " إن العلة الحقيقية الأولى لكل ترجمة ونقل إنما هي الطبيعة الإنسانية التي تجعل الإنسان حيوانا اجتماعيا كما يقول " أرسطاليس " في السياسة وحيوانا مفكرا كما يقول " أرسطاليس " في المنطق ، فطبيعته الاجتماعية تضطره إلى أن يتصل بغيره من الأفراد والجماعات ويشاركهم فيما يفكرون ويشعرون ويتحدثون ، وطبيعة المفكر تضطره إلى أن يبحث ويستقصي ويتعرف حقائق الأشياء"(١٥)

و لعل اختلاف المنهج بين الأديبين كان سببا في هذه المعركة ، فالعقاد ينظر بمنظار الفيلسوف ، بينما ينظر طه حسين نظرة المؤرخ أو المحقق الذي يتقيد بمناهج البحث العلمي .

ثم تنشب معركة أخرى بينهما عقب تأليف العقاد كتابه " رجعة أبي العلاء " إذ انبرى طه حسين ناقدا له وجود بعض الأخطاء النحوية ، وعندما أصدر العقاد كتابه عن "أبي نواس نقده" د. طه حسين على صفحات جريدة الجمهورية ، آخذا في المقال على العقاد أنه أسرف في استخدام علم النفس خلال دراسته ، ويرد العقاد عليه مفندا هذا المقال بمزيد من التهكم والسخرية ، حيث وجه في بدايته مشورة إلى الدكتور طه حسين بأن يقرأ كتب التحليل النفساني ، وأن يعيد قراءتها ويتساءل "أتراه يقول إن البواعث النفسية شيء لا علاقة له بدراسة الأدب والأدباء ؟ إذا قال ذلك فمن يتابعه على هذا الرأي ، ومن يعمل به فيكتب ما يستحق أن يقرأ في هذا الزمن ، أتراه

---

(١٤) عامر العقاد ، معارك العقاد الأدبية ص٨٢.   (١٥) نفسه ص٧٣.

يقول إن الأطباء هم المختصون بالنقد الأدبى دون غيرهم ، لأنهم هم المختصون بالدراسات النفسية ، إذا قال ذلك فأين المثل الواحد الذى يدعم به هذا الرأى؟ "[١٦]

ثم نشبت معركة أخرى بينهما حول كتاب طه حسين " فى الشعر الجاهلى " ، حيث تناول العقاد قضية شك طه حسين فى الشعر الجاهلى فى كتابه " مطلع النور " موضحا استحالة هذا الرأى ،"أما المستحيل أو شبه المستحيل فهو تزوير أدب كامل ينسب إلى الجاهلية ويصطبغ فى جملته التى تشمله على تباين القائلين والشعراء ، فإذا جمعنا الشعر المنسوب إلى الجاهلية كله فى ديوان واحد ، فمن المستحيل أو شبه المستحيل أن نجمع ديوانا يماثله من كلام العباسيين أو كلام الأمويين المتأخرين"[١٧]

و لقد تركت لناكل هذه المعارك الفائدة العظيمة فى ميدان الأدب ، بما قدم العملاقان من أدلة خلال احتدام هذه المعارك بينهما.

٤- مع عبد الرحمن شكرى :

دارت أول معركة أدبية بين طه حسين وعبد الرحمن شكرى ، عندما هاجم رأيا لطه حسين فى الشعر الحديث ، حيث كتب مقالا بعنوان " لحن الشعراء ومستقبل الشعر العربى " قال فيه :

" لا أرى رأيه فى قوله إن سليقة الشعر قد فسدت ، وإن أسلوب شعراء هذا العصر فاسد إذا قيس بأسلوب شعراء الدولة العباسية ، وربما يظن القراء أن الشعراء يقيسون الشعر على التفاعيل فى وقت صنعه ، هذا ما يظنه كثير ممن لا يعالجون الشعر ، وأظن أن هذا ما يظنه الأديب طه أفندى حسين ، وما يعنى بقوله إن سليقة

---

(١٦) جريدة أخبار اليوم فى ٢٧ فبراير ١٩٥٢ م.

(١٧) عباس محمود العقاد نفسه ص مطلع النور ص٧٣ ، ٧٤.

الشعر فسدت "[18]

وقد وجه إليه طه حسين قصيدة هجاء جاء فيها :

قل لشكري فقد غلا وتمادى | بعض ما أنت فيه يشفى الفؤادا
بعض هذا فأنت فى الشعر | والنثر أديب لا يعجز النقادا
لو تفهمت قولنا لم يكلفـ | ـك هوى نقدنا الضنى والسهادا
عد إليه تجد شفاءك فيه | إنما نمقت الحديث المعادا
و اقتصد فى الغلو إن لدينا | إن تساءل بنا نصالا حدادا
خل عنك القريض لست بأمضى | فيه سهما ولا بأورى زنادا
إن تكثر مكثرا فرب مقل | حاول القول مرة فأجادا
كن إذا شئت آمنا مطمئنا | لم نحاول لما تقول انتقادا

(١٨) إبراهيم الإبيارى وآخرون ، طه حسين كما يعرفه كتاب عصره ، دار الهلال مقال أنور الجندى " صفحات مجهولة من حياة طه حسين ١٩٠٨ - ١٩١٦ " ص٤٤،٤٥

٥ ـ مع مصطفى صادق الرافعي

أدى اختلاف الرأى عند طه حسين والرافعى إلى نشوب معارك بينهما ، وبمجرد ظهور كتاب " فى الشعر الجاهلى " زادت حدة الخصومة ، فكان الرافعى أكثر النقاد هجوما على طه حسين ، إذ حمل عليه فى مقالات زادت على العشرين ، ضمنها بعد ذلك كتابه " تحت راية القرآن" ، والكتاب يمثل إحدى مدارس النقد فى زمانه وما اتصف به من عنف فى الفكر والتعبير والسخرية والتهكم عند الجانبين المتخاصمين .

وقد تتبع الرافعى " آراء طه حسين فى الشعر الجاهلى رأيا رأيا فيما لا يتفق مع الإسلام ، أو يتنافى مع عقيدة القرآن أو يخالف الرسول أو يتعسف مع وقائع التاريخ"[١٩]

وعلى الرغم من استمرار المعارك فترة طويلة بينهما ، إلا أن هذا لم يفقد الاثنين احترامهما المتبادل لأعمالهما .

وكان من نتائج هذه المعارك أن أخرج طه حسين روائع كتبه الإسلامية مثل " على هامش السيرة " ، "الوعد الحق" ، "الشيخان" ، وغيرها .

وبعد هذه المعارك يقول الرافعى عن طه حسين "أما طه حسين فليس بالضعيف الذى نتوهمه ، وهو فى أشياء كثيرة حقيق بالإعجاب "[٢٠].

---

(١٩) د . مصطفى الشكعة ، مصطفى صادق الرافعى ، مكتبة المتنبى القاهرة ص١٠٤، ١٠٥

(٢٠) سامح كريم ، معارك طه حسين الأدبية والفكرية ص٣٠٠

الخاتمة

بعد دراسة أعمال طه حسين الإبداعية وكتاباته التاريخية والأدبية ، وإسهاماته المتنوعة فى حياتنا الأدبية والفكرية والإسلامية ، بغية إبراز العناصر الإسلامية لأديب ملأ الأسماع والعقول والقلوب ، واختلفت حوله الأراء ما بين الإعجاب المفرط ، أو شدة الخصومة له ، وجدت الاتجاه الإسلامى غالبا فى أغلب هذه الأعمال ، والأمانة العلمية تقتضى إنصاف هذا الأديب ، الذى انهالت عليه الاتهامات خلال حياته وبعد وفاته بالحق حينا وبالباطل أحيانا كثيرة ..

والدراسة التى قدمتها تتضمن ثلاثة أبواب يحتوى كل باب على ثلاثة فصول ، يسبق الباب الأول مقدمة وتمهيد ويعقب الباب الثالث خاتمة وثبت بالمصادر والمراجع .

وقد بينت فى المقدمة سبب اختيارى لهذا البحث وهو إظهار هذا الاتجاه الإسلامى وتحليل عناصره فى كل ما قدمه عميد الأدب العربى من أعمال ، وفى التمهيد استعرضت نشأته الدينية بالقرية حيث الالتزام بالقيم الإسلامية والصدق فى القول والصراحة فى إبداء الرأى ، علاوة على الاهتمام بتحفيظ القرآن الكريم ودور كتاب القرية وعلماء الدين بها ، ثم دراسته الأزهرية التى ساهمت فى تنمية الثقافة الإسلامية لديه والتحاقه بالجامعة وإلمامه بالمنهج الحديث ، واختياره بعد حوله على الدكتوراه فى بعثة علمية إلى فرنسا ، وتبين أمامى سمات هذا العالم وصبره ومثابرته وطموحه رغم العاهة ومؤثراتها ، ثم استعرضت أعماله والأنشطة التى شارك فيها .

واستخلصت من الباب الأول العناصر الإسلامية فى قصص طه حسين التى أبرزها من خلال الشخصيات المتعددة ، حيث وضع الحلول التى تحل مشاكل القرية المصرية من فقر وجهل ومرض وعادات وتقاليد ومعتقدات خاطئة ينسبها البعض منهم إلى الدين وعلمائه ظلما .

فمن خلال قصصه لمست الدعوة إلى الالتزام بالعدالة ومحاربة الجهل والخرافات واتضح لى أن هذا الأديب جمع فى أدبه بين القدرة على الإمتاع الأدبى والفنى والالتزام الاجتماعى والسياسى بقضايا المجتمع الذى عاش فيه ، وتجلت براعته فى نشر القيم الإسلامية بطريقة تلقائية تعرى كل أسباب الظلم والانحراف ، وتحث فى الوقت نفسه على مواجهتها والعمل على مقاومتها ، وجاء العرض بأسلوب رائع ينم عن قدرة إبداعية كانت نتاجا لمؤثرات فكرية وثقافية عربية وأجنبية أعانته على تصوير هموم الإنسان فى البيئة المصرية ، ومكنته من وضع العلاج ورسم طرق الإصلاح بدرجة تضعه على قدم المساواة مع الرواد المصلحين.

وعندما تناول السيرة النبوية الشريفة ، نجد أنه سطر على هامشها أدبا خصبا ينبع من التاريخ فى قالب أدبى ، فجاء كتابه " على هامش السيرة " صفحات مشرقة تحفز الأجيال الناشئة على العناية بأدبنا وتراثنا .

كما حرص طه حسين على تقديم النماذج الإسلامية من خلال عرضه لصحابة رسول الله فى أعماله ومنها " الوعد الحق " ، " مرآة الإسلام " لتكون مثلا يحتذيه الشباب ، إيمانا منه بدور الفكر الإسلامى وقدرته على حل معضلات الحياة وهمومها ، معبرا عن فضائل الإسلام وتاريخ أبطاله .

وأكد على أن إعجاز القرآن الكريم ساهم فى خلق الأمة العربية خلقا جديدا ، وجعل منها أمة واحدة تتعاون على الخير و البر ونشر السلام .

وفى الباب الثانى أبرز طه حسين فى دراسته عن عصر الخلفاء الراشدين السمات الفاضلة والالتزام بقيم الإسلام عند الخلفاء الراشدين والجهاد المتواصل لنصرة الإسلام والقضاء على الفتن والصراعات فى عصور الإسلام الأولى ، فكان ما كتبه فى كتاب " الشيخان " يمثل سجلا عاطرا لدور القائد المسلم وقيمه .

واتجه طه حسين للأحداث المريرة التى شهدها التاريخ الإسلامى ، فعبر عن رؤيته فى كتابه " الفتنة الكبرى " وفيه تتجلى قدرة طه حسين على التحليل الواعى لأسباب الفتنة وحالة الضعف التى سادت وانتشرت فى عهد الخليفتين "

عثمان " و" على " رضى الله عنهما ، حيث أبرز الخصومات التى شهدتها الساحة الإسلامية فى بلاد العرب بعد انبلاج نور الإسلام ، فقدم منهجا حيا نابضا بالحركة والحيوية ، وكان يهدف إلى تبصير الشباب بالآثار السيئة التى تخلفها العداوة وروح الانتقام ، وقد كشف ذلك عن الرؤية الصادقة والمعالجة الصحيحة تجاه مواكب التغريب الوافدة وتناقضات العصر وصراعاته ، معلنا أن الحل يكمن فى مثل الإسلام ومنهجه الرشيد وهديه المبين .

وتناول طه حسين فى دراسته لنيل الدكتوراه من جامعة مونبلييه بفرنسا آراء ابن خلدون فى الظواهر الاجتماعية لحياة البدو والحضر ، وقدم الفلسفة الإسلامية بطريقة صحيحة لعالم عربى سياسى وافر الحكمة والبراعة والذكاء .

وحول التفسير الإسلامى لأزمة الثقافة المصرية رسم طه حسين المثل الأعلى للإصلاح الثقافى ، من خلال تطوير المناهج التعليمية بالتعليم العام والدينى وإعداد المعلم ، والعمل على نشر العلم والمعرفة وفتح الأبواب أمام العلوم الأجنبية التى تتلاءم وقيمنا الإسلامية وتحافظ على شخصيتنا المصرية وأصالتنا العربية الإسلامية .

وفى الباب الثالث يبدو الاتجاه الإسلامى واضحا فى دراساته الأدبية ، خاصة فى كتابه " فى الشعر الجاهلى " الذى أصدره فى عام ١٩٢٦ وثارت بسببه حملات ظالمة صبر عليها فى حياته واستمرت بعد وفاته ، حيث رسخت فى أذهان الكثيرين فكرة خاطئة مسبقة عن اتجاه طه حسين الإسلامى، أساءت إلى صورته وأدبه وفكره ،و بعد دراسة هذا العمل الأدبى وتحليل قضاياه المختلفة فى لغة القرآن الكريم والقراءات القرآنية وغيرها لمست إخلاص طه حسين لدينه خاصة عندما تصدى للاتهامات التى وجهها المستشرق " كليمان هوار" وادعى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد استعان بشعر أميه بن أبى الصلت ، وأن المسلمين أمروا بمحو هذا الشعر ليستأثر القرآن بالجدة ، ووقف طه حسين يدافع عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن القرآن واتهم هذا المستشرق بأنه تورط فى قضايا لم

يفهمها وتجاوز الشك إلى الجحود والتعصب ، وأكد على إعجاز لغة القرآن الذى أوحى به الله إلى رسوله وأنكر أن يكون الرسول قد أمر بمحو شعر أميه لهذا السبب ، وإنما لأن الشعر وغيره كان مليئا بهجاء الرسول ومناهضته والتأليب عليه.

والمتأمل يجد أن طه حسين افتتح بهذا العمل فى دراسته لتاريخ الأدب عصرا جديدا ودفع الكثير من الكتاب والنقاد والمفكرين إلى حوار متواصل ، واستخلص المناهج العلمية الحديثة فى تناول الأدب العربى .

وقد اتضح لى براءة طه حسين من الأخذ على مرجليوث وتأكد لى استقلالية فكره .

وفى دراسته عن الشعراء الإسلاميين ربط طه حسين بين شخصية الشاعر وشعره وتكوينه الثقافى ، والتأثيرات الحزبية والسياسية والمذهبية التى أثرت فى مضامين الشعر الإسلامى عند المتنبى وأبى العلاء المعرى وحافظ وشوقى .

وقد اختتم الباب الثالث بالحوار الأدبى الذى شارك فيه طه حسين ، فقد كان حركة لا تهدأ ، وظلت كتاباته وأعماله مثار الدراسات الأدبية ، لتعلقها بقضايا مجتمعة ، تثرى الحياة الثقافية والأدبية

والحقيقة التى أكدت عليها أن مواقف طه حسين من مشايخ الأزهر لم تكن خروجا عن الفكر الدينى ، لأن حملاته كانت على فئة من الشيوخ ممن لا يلتزمون بالقيم التى حض الإسلام عليها علاوة على جمودهم وسوء معاملتهم له .

وقد واجهتنى العديد من الصعوبات خلال إعداد هذا البحث تم تذليلها بتوجيهات أستاذى الدكتور إبراهيم عبد الرحمن محمد .

وإنى أؤكد على أن الاتجاه الإسلامى عند طه حسين متأصل فى شخصيته وفى كل أعماله ، ولعلى قد ساهمت بإلقاء بعض الأضواء لكشف هذا الاتجاه وإبراز عناصره .

المصادر

١- ذكرى أبو العلاء ، مطبعة المعاهد بجوار قسم الجمالية بمصر .

٢- فلسفة أبن خلدون الاجتماعية ، المجموعة الكاملة لمؤلفات الكتور طه حسين المجلد الثامن (علم الاجتماع)، دار الكتب اللبنانى بيروت .

٣-قادة الفكر ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٤٦.

٤-حديث الأربعاء ، دار المعارف بمصر .

٥- فى الشعر الجاهلى ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة .

٦- فى الأدب الجاهلى ، دار المعارف بمصر .

٧- الأيام ، دار المعارف١٩٧٢.

٨- فى الصيف ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر.

٩- حافظ وشوقى ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، القاهرة١٩٨٢.

١٠- على هامش السيرة ، دار المعارف .

١١- دعاء الكروان ، دارالمعارف.

١٢- من بعيد ، المطبعة الرحمانية بمصر .

١٣- أديب ، دار المعارف بمصر .

١٤- ألوان ، دار المعارف .

١٥- مع أبى العلاء فى سجنه ، دار المعارف .

١٦- من حديث الشعر والنثر ، دار المعارف .

١٧- القصر المسحور ، دار المعارف .

١٨- مع المتنبى ، من تاريخ الأدب العربى ، دار العلم للملايين بيروت .

١٩- الحب الضائع ، دار المعارف .

٢٠- مستقبل الثقافة فى مصر ، المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين المجلد الثامن (علم التربية) ، دار الكتاب اللبنانى بيروت.

٢١- لحظات ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر.

٢٢- صوت باريس ، دار المعارف .

٢٣ - أحلام شهرزاد ، إقرأ ، دارالمعارف.

٢٤ - شجرة البؤس ، دار المعارف .

٢٥ - جنة الشوك ، دار المعارف .

٢٦ - فصول فى الأدب والنقد، دار المعارف.

٢٧ - صوت أبى العلاء ، إقرأ دار العارف.

٢٨ - ما وراء النهر ، دار المعارف.

٢٩ - الفتنة الكبرى ، دار المعارف .

٣٠ - المعذبون فى الأرض ، إقرأ ، دارالمعارف .

٣١ - مرآة الضمير الحديث ، دار العلم للملايين ، بيروت.

٣٢ - الوعد الحق ، إقرأ ، دار المعارف ، العدد ٨٦.

٣٣ - جنة الحيوان ، دارالملايين ، بيروت .

٣٤ - بين بين ، دار العلم للملايين ، بيروت.

٣٥ - خصام ونقد ، دارالعلم للملايين ، بيروت.

٣٦ - نقد وإصلاح - دارالعلم للملايين ، بيروت.

٣٧ - مرآة الإسلام ، دارالمعارف بمصر .

٣٨ - من لغوالصيف ، الكتاب الفضى ، العدد٢٧.

٣٩ - من أدب التمثيل الغربى ، دار العلم للملايين ، بيروت.

٤٠ - الشيخان ، دار المعارف.

٤١ - مذكرات طه حسين ، دار الأدب ، بيروت.

٤٢ - قصص تمثيليه لجماعة من أشهر الكتاب الفرنسيين ، المطبعة التجاريه بعابدين .

٤٣ - إسلاميات طه حسين ، دارالقلم لبنان١٩٨٢.

المراجع

القرآن الكريم

١- إبراهيم الإبيارى وآخرون ، طه حسين كما يعرفه كتاب عصره ، دار الهلال فبراير ١٩٦٦.

٢- د. إبراهيم عبد الرحمن محمد ، الشعر الجاهلى ، قضاياه الفنية والموضوعية ، مكتبة الشباب.

٣- د. أحمد الحوفى ، الحياة العربية فى الشعر الجاهلى.

٤- د. أحمد عبد الرازق أبو العلا ، طه حسين والبحث عن العدل الاجتماعى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٥- د. أحمد الهوارى ، د. قاسم عبده قاسم ، الرواية التاريخية فى الأدب العربى الحديث ، دار المعارف.

٦- د. أحمد هيكل ، تطور الأدب الحديث فى مصر ، دار المعارف.

٧- د. إسماعيل أحمد أدهم ، أدباء معاصرون ، دار المعارف ١٩٨٥.

٨- أنور الجندى ، محاكمة فكر طه حسين ، دار الاعتصام.

٩- ثروت أباظة ، شعاع من طه حسين ، روز اليوسف فبراير ١٩٧٤ .

١٠- د. جابر عصفور ، المرايا المتجاورة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١١- جاستون بوتول ، ابن خلدون ، فلسفته الاجتماعية ، مكتبة عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٥٥.

١٢- جورجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، الجزء الأول.

١٣- د. حسين فوزى النجار ، لطفى السيد والشخصية المصرية ، القاهرة ١٩٦٣.

١٤- د. حمدى السكوت ، د. مارسدن جونز ، أعلام الأدب المعاصر فى مصر ، طه حسين الجزء الأول ، قسم النشر بالجامعة الأمريكية ، بالقاهرة.

١٥- د. رشيدة مهران ، طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الأسكندرية ١٩٧٩ .

١٦- سامح كريم ، إسلاميات طه حسين ، دار القلم ، بيروت ط ١٩٨٢.

١٧- سامح كريم ، طه حسين حياته وأعماله ، ملحق مجلة الإذاعة والتليفزيون العدد ٢٠٦٩ لسنة ١٩٧٤.

١٨- سامح كريم ، معارك طه حسين الأدبية والفكرية ، دار القلم ، بيروت .

١٩- سامى الكيالى ، مع طه حسين ، دار المعارف ، اقرأ العدد ٣٧٥ .

٢٠- د. سعاد عبد الوهاب عبد الكريم ، إسلاميات أحمد شوقى ط أولى ١٩٨٧مكتبة مدبولى.

٢١- د. سهير القلماوى ، ذكرى طه حسين ، دار المعارف .

٢٢- سوزان طه حسين ، معك ، دار المعارف .

٢٣- د. السيد تقى الدين ، طه حسين آثاره وأفكاره ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة بالقاهرة .

٢٤- د. سيد حامد النساج ، بانوراما الرواية المصرية الحديثة ، دار المعارف ط أولى ١٩٨٠.

٢٥- سيد قطب ، كتب وشخصيات ، دار الشروق ط ثانية ١٩٨١ .

٢٦- د. شفيع السيد ، اتجاهات الرواية المصرية ، دار المعارف ١٩٧٨.

٢٧- د. شكرى عياد ، تجارب فى الأدب والنقد ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٦٧.

٢٨- د. شوقى ضيف ، فى النقد الأدبى ، دار المعارف ١٩٦٦.

٢٩- د. شوقى ضيف ، مع العقاد ، اقرأ ، دار المعارف.

٣٠- د. صفوت يوسف زيد ، التيار الإسلامى فى قصص عبد الحميد جوده السحار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥.

٣١- صلاح عيسى ، الكارثة التى تهددنا ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٨٧.

٣٢- د. عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ" قيم جديدة للأدب العربى القديم والمعاصر ، دار المعارف ١٩٥٠.

٣٣- د. عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ" ، تراثنا بين ماض وحاضر ، دار المعارف ١٩٧٠.

٣٤- عامر العقاد ، معارك العقاد الأدبية ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت.

٣٥- عباس محمود العقاد ، العبقريات الإسلامية .

٣٦- عباس محمود العقاد ، ساعات بين الكتب ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة.

٣٧- عباس محمود العقاد ، مطلع النور.

٣٨- عباس محمود العقاد ، عبقرية الصديق.

٣٩- عبد الحميد جوده السحار ، محمد رسول الله والذين معه ، ط ٢ ، مكتبة مصر بالقاهرة ١٩٦٩.

٤٠- د. عبد الحميد المسلوت ، نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى ، دار القلم ، القاهرة .

٤١- عبد الحكيم بلبع ، ماهية الأدب ومسئولية الأديب فى العصر الحديث ، مجلة الثقافة القاهرية ١٩٧٤.

٤٢- عبد الرحمن بدوى ، إلى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين .

٤٣- عبد الرحمن الشرقاوى ، محمد رسول الحرية ، دار الشعب ١٩٦٢.

٤٤- د. عبد العزيز الدسوقى ، تطور النقد العربى الحديث فى مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٤٥- عبد العزيز شرف ، طه حسين وزوال المجتمع التقليدى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧.

٤٦- عبد العليم القبانى ، طه حسين فى الضحى من شبابه ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٤٧- عبد المتعال الصعيد ، مع زعيم الأدب العربى فى القرن العشرين ، مكتبة الجندى.

٤٨- د. عبد المحسن طه بدر ، تطور الروأية العربية الحديثة ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣.

٤٩- د. عبد المنعم تليمة ، النقد العربى ، مداخل تاريخية حول اتجاهاته الأساسية ، الجهاز المركزى للكتب الجامعية ١٩٧٧.

٥٠- د. عبده بدوى وآخرون ، طه حسين وقضية الشعر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٥١- د. عفت الشرقاوى ، فى فلسفة الحضارة الإسلامية ، دار النهضة العربية بيروت ط٣ ١٩٨١ .

٥٢- د. عفت الشرقاوى ، دروس ونصوص فى قضايا الأدب الجاهلى ، دار النهضة العربية ١٩٧٩.

٥٣- د. على الراعى ، دراسات فى الرواية المصرية ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر.

٥٤- فؤاد دوارة ، عشرة أدباء يتحدثون ، كتاب الهلال ١٩٦٥.
٥٥- كمال الملاخ ، د. طه حسين قاهر الظلام ، دار الكتاب الجديد.
٥٦- ليون إدل ، فن السيرة الأدبية ، مؤسسة الحلبى .
٥٧- د. ماهر حسن فهمى ، السيرة تاريخ وفن ، مكتبة النهضة المصرية ط أولى ١٩٧٠.
٥٨- د. محمد حسن عبد الله ، فنون الأدب ، أصول ، نصوص ، قراءات ، دار الكتب الثقافية ، الكويت ط ٢ ١٩٧٨.
٥٩- د. محمد حسين هيكل ، اضواء على الأدب العربى المعاصر ، دار المعارف.
٦٠- د. محمد الدسوقى ، أيام مع طه حسين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ط أولى ١٩٧٨ .
٦١- محمد سيد كيلانى ، طه حسين الشاعر الكاتب ، دار القومية العربية للطباعة ط أولى ١٩٦٣.
٦٢- محمد طه الحاجرى ، المرحلة الأزهرية فى حياة طه حسين ، مجلة الثقافة القاهرية أغسطس ١٩٧٥.
٦٣- د. محمد عاطف غيث ، تحرير ومراجعة قاموس علم الاجتماع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٦٤- محمد لطفى جمعة ، الشهاب الراصد.
٦٥- د. محمد غنيمى هلال ، النقد الأدبى الحديث ، دار نهضة مصر .
٦٦- د. محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، مؤسسة الرسالة .
٦٧- د. محمود إسماعيل ، قضايا فى التاريخ الإسلامى ، منهج وتطبيق ، مكتبة مدبولى بالقاهرة .
٦٨- محمود تيمور , النبى الإنسان ومقالات أخرى ، المطبعة النموذجية .
٦٩- د. محمود الحسينى المرسى ، الاتجاهات الواقعية فى القصة المصرية القصيرة حتى عام ١٩٨٠ دار المعارف ١٩٨٤.
٧٠- د. محمود شريف ، أثر التطور الاجتماعى فى الرواية المصرية ١٩١٢ - ١٩٥٣، دار الثقافة للطباعة والنشر.
٧١- د. مصطفى عبد الشافى الشورى ، مدخل إلى دراسة الشعر الجاهلى ١٩٨٤.

٧٢- د. مصطفى عمر ، القصة وتطورها فى الأدب العربى .
٧٣- د. مصطفى محمد الشكعة ، مصطفى صادق الرافعى ، مكتبة المتنبى ، القاهرة
٧٤- نجاح عمر ، طه حسين ، أيام ومعارك ، المكتبة العصرية ، بيروت .
٧٥- نسيم مجلى ، قضايا الإبداع والنقد ، المكتبة الثقافية العدد ٤١٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦.
٧٦- د. يوسف بكار ، أوراق نقدية جديدة عن طه حسين ١٩٩٠، دار المناهل ، إربد ، الأردن.
٧٧- د. يوسف حسن نوفل ، القصة والرواية بين جيل طه حسين وجيل نجيب محفوظ ، دار النهضة العربية ١٩٧٧.
٧٨- د. يوسف نور عوض ، الرؤية الحضارية والنقدية فى أدب طه حسين ، دار القلم ، بيروت .

الدوريات

- مجلة الهلال
- مجلة فكر
- مجلة الثقافة الجماهرية
- مجلة الأزهر
- مجلة فصول
- مجلة الفيصل السعودية
- جريدة الجمهورية
- جريدة الأهالى
- جريدة السياسة اليومية
- جريده الأهرام
- جريدة أخبار اليوم
- جريدة الوطن ، السياسة الكويتية .
- بحوث مهرجان طه حسين "بأداب المنيا".

المحتـــوى

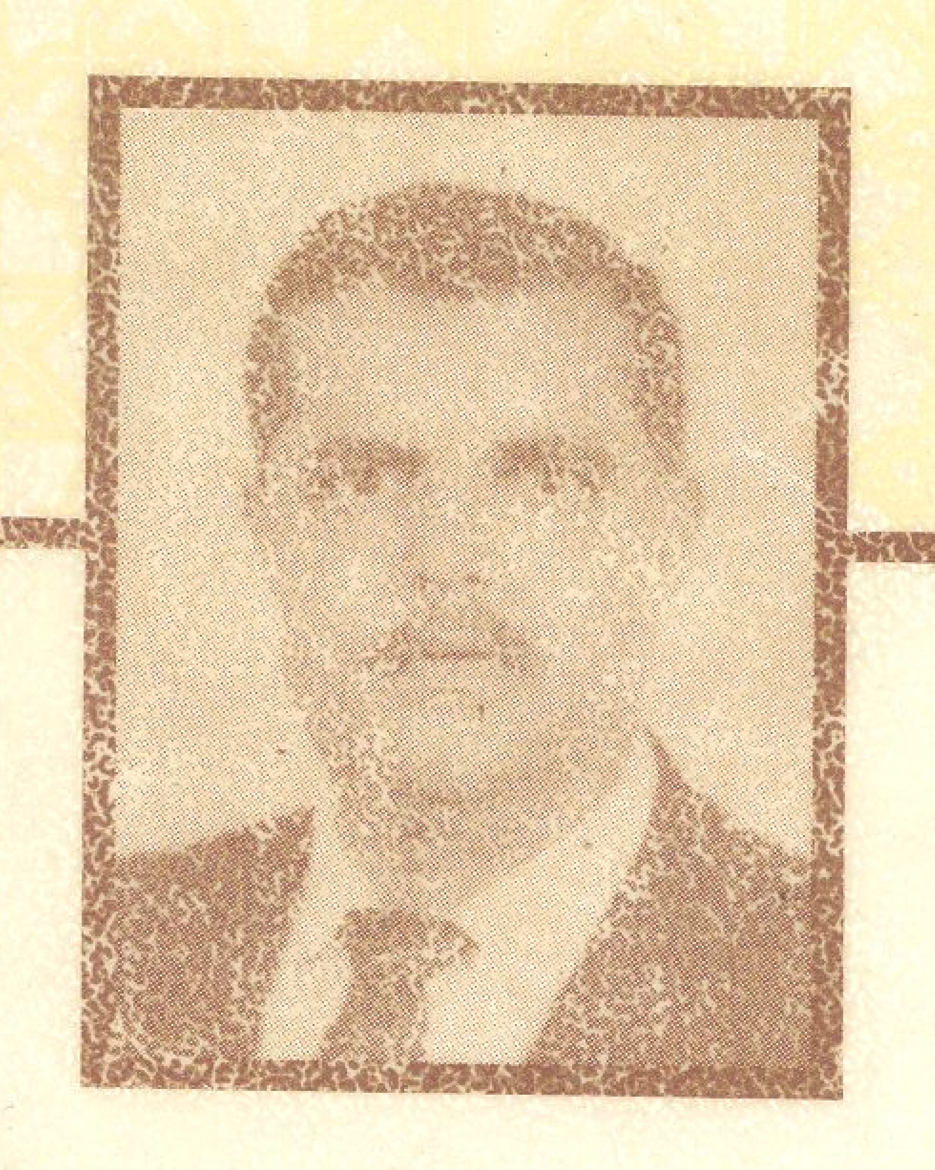
تصويب الخطأ

الصفحة	السطر	الخطـــــــأ	الصـــواب
٧	١٥	يدرك أن	أن يدرك
١٧	١٢	حدث	حدت
١٩	١٢	أشباهم	أشباههم
٣٧	٨	عى	على
٣٩	٩	ترهق	تزهق
٥١	٣	الخاصة	الخاطئة
٥٤	٢	هذة	هذه
٥٤	٨	يعابو	يعابوا
٦٠	١	التصرفت	التصرفات
٦٠	٢٤	القصر	القصد
١٢٦	٢٣	إتكون	تكون
١٤٨	٢٧	ماى	ماضى
١٧٩	٢١	فى مشهد	عماله فى الأمصار
١٨٩	١٩	فيها يعرف	فيها همومه فلم يعرف
١٨٩	٢٣	هؤلاء ولعل	هؤلاء المستشرقين
١٨٩	٢٤	خاصة عندما	خاطئة
١٩١	١٩	طه حسين نفسه	طه حسين يلزم نفسه
١٩٢	٣	ادعائه	ادعاء
١٩٢	٤	متميزة	متحيزة
١٩٦	١٢	رغم	بالرغم
٢٠٠	١١	جزاء	جزءا
٢٠١	١٥	يكن	يكد
٢٣٠	٨	شق	وشق
٢٣٣	٢٦	منقلب	بمنقلب
٢٥٦	١٧	إذائها	إزاءها
٢٥٦	٢٤	يوجه	يواجه
٢٨٦	٢	كمال	مال

رقم الإيداع ٧٦٩٠/٩٥
الترقيم الدولى I.S.B.N
977 - 00 - 9197 - 9

الدكتور / رمضان محمد رمضان الجارية

* نشأ فى قرية محلة مرحوم ، مركز طنطا ، غربية عام ١٩٤٦م .
* حصـل على الدكتـوراه مـن كليـة الآداب جامعـة عـين شمـس بمرتبة الشرف .
* يعمل مدرساً للغة العربية وآدابها بدولة الكويت .
* له العديد من الأبحاث فى الفكر الإسلامى والأدب العربى .
* له العديد من المقالات فى الصحافة المصرية والكويتية .



هذا الكتاب :

يعد محاولة منهجية تكشف حقيقة الإتجاه الإسلامى عند عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين الذى اختلفت حوله الآراء فى حياته وبعد وفاته ، ما بين الإعجاب المفرط به وشدة الخصومة له ، وكلا الموقفين يتعارض مع المنهج العلمى الذى يجب أن يحكم رؤيتنا لتراثنا وواقعنا ومستقبلنا .

وقد شملت الدراسة كل ما قدمه الدكتور طه حسين فى مجال الأدب العربى والتاريخ الإسلامى والسيرة النبوية الشريفة .

الثمن ١٠ جنيهات